

مَسَاحِدُ

الْأَظْفَرُ سَامِيَّةٌ

مِنْ رَحَابِ رَهَاءِ الْبَيْتِ

الْأَظْفَرُ سَامِيَّةٌ

دُرُوسٌ بِقَائِلَتِهَا

تَأَلَّفَ

بِأَمْرِ شَرْفِ الْقَلْبِ



النظام التربوي
في الإسلام

مَسَاجِدُ

الْأَنْظِلْ لَنَا سَلَامِيَّةً

مِنْ رَحَابِ رَهْكِ الْبَيْتِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

النِّظَامُ الرَّقْمِيُّ

تَحْقِيقُ مَقَارِنِهَا

تَأْلِيفُ

بِإِقْدَارِ شَرْفِ الْقُرْشِيِّ

النظام التربوي في الإسلام

تأليف
بإشراف الميرزا محمد علي

الناشر: مهر أمير المؤمنين عليه السلام
المطبعة: ستارة
الطبعة الثانية: ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

مقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

ردمك: ٧ - ٢٤ - ٩٩٠٤ - ٩٦٤

ISBN : 964 - 600 - 9904 - 24 - 7

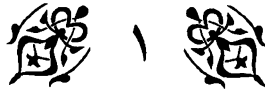


الأهداف

إلى العاملين في حقول التربية والتعليم
إلى الذين يعنون بسلوك الإنسان وتطوير وعيه
إلى كل من يعمل على نشر التربية الإسلامية
أرفع لهم جميعاً ما قدّمه الإسلام من الطاقات التربوية
الهادفة إلى ازدهار الشخصية، وبلورة الفكر، وغرس
النزعات الخيرة في دخائر النفوس وإبعادها عن
عوامل الشذوذ والانحراف، وأتسامها بالتوازن
والإيمان بالله الذي تبثني عليه قوى الخير والسلام في
الأرض .

المؤلف

فَيْز



إنَّ النهضة الفكرية في جميع مراحل التاريخ إنما هي نتيجة حتمية لتطوّر التربية وازدهارها ونموّها ، وتفاعلها مع الحياة الفردية والاجتماعية ، فالشعوب التي تتوفّر لها عناصر التربية الحية لا بدّ أن تبلغ أهدافها في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وأمّا الشعوب التي لم تنعم بذلك فلا بدّ أن تتخلّف عن موكب الحضارة ومسايرة الأمم المتطوّرة .

إنَّ الإنسان بصورة جازمة لا يمكنه أن يبلغ أي مبلغ من النضوج العلمي أو التقدّم الاجتماعي من دون أن تتوفّر له التربية الواعية الهادفة إلى تكوينه ، وتنمية وعيه ، وبناء شخصيته .. فإنّ التربية لم تعد بجميع ما لها من المخططات والشؤون لوناً من ألوان الترف ، أو ظاهرة من الظواهر الكمالية التي يمكن الاستغناء عنها ، وإنّما هي ضرورة من ضروريات الحياة ، وشأن أصيل من شؤون الإنسان ، فلها دخل ذاتي في حياته الخاصة والعامة ، فهي تعدّه للمجتمع بما له وما فيه من قواعد ونظم ، وقيم وتقاليد ، كما تمكّنه أن يكتيف نفسه مع أفراد مجتمعه في إطار هذه القواعد ، ومن ثمّ فقد ذهب بعض المربين إلى أنّ التربية هي المرآة التي تنعكس عليها فلسفة المجتمع وتطلّعاته وأهدافه .

إِنَّ الحضارة الإنسانية لم تكن ميراثاً يأخذه الخلف عن السلف من دون جهد أو عناء ، وإنما هي ميراث اجتماعي جاهد الجنس البشري في اكتسابه وحافظ عليه آلاف السنين ، ولم ينتقل من جيل إلى جيل إلا بالتربية ، فهي التي نقلت الثروات الفكرية ، والقيم الكريمة ، والعادات الطيبة من الآباء إلى أبنائهم .

يقول بعض المربين :

« إِنَّ السبب الذي من أجله يحتاج إلى التربية هو أَنَّ الأطفال لا يولدون بشراً ، بل يصيرون بشراً بفضل التربية ... » ^(١) .

إِنَّ العمليات التربوية هي التي تضع الخطط السليمة لنمو الحركة الاجتماعية واستمرارها ، ولولاها لما أمكن أن تدوم أي حياة للفرد أو للمجتمع ، وأكد ذلك « جون ديوي » بقول :

« إِنَّ وجود المجتمعات وبقائها واستمرارها يتوقف على عملية النقل الثقافي ، وهذا النقل يتم بانتقال عادات العمل والتفكير والشعور من الكبار إلى الناشئين ، فبغير انتقال المثل العليا ، والآمال والمطامح ، والمعايير والآراء ، إلى أولئك الوافدين عليها لا يمكن لحياة الجماعة أن تدوم ... » ^(٢) .

إِنَّ المكونات الاجتماعية والنفسية التي يكتسبها الإنسان ناشئة عن التربية ، وبذلك كانت ضرورة للفرد كما هي ضرورة للمجتمع على حد سواء ^(٣) .

وليس من نافلة القول ما ذكره بعض المربين :

« إِنَّهُ لو انتقل سكّان الكرة الأرضية إلى المريخ تاركين وراءهم أطفالهم

(١) الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية : ١٩ .

(٢) الديمقراطية والتربية : ٣ .

(٣) الأسس الاجتماعية للتربية : ٤ و ٥ .

الصغار، ثم عادوا إليهم بعد عشرين عاماً لوجودهم قطعاً من البهائم...»^(١).

ومما يدلّ على عمق هذا القول وأصالته أنّ بعض الذئاب كانت تختطف بعض الأطفال في المقاطعات الشماليّة الغربيّة من بلاد الهند، فكانت تفترس الكثيرين منهم، وكانت تشفق على بعضهم وتعتهدهم، ولمّا عرف بعض رجال الخير الأماكن التي تأوي إليها الذئاب، ذهبوا إلى الغابات التي تأوي إليها الذئاب، فوجدوا بعض الأطفال على قيد الحياة، فانتشلوهم من براثنها وأسموهم بأولاد الذئاب أو أولاد المتوحّشين، ومن الغريب أنّهم كانوا يسلكون مسالك الذئاب، ويقلّدونها في أصواتها، ويأكلون كما تأكل الحيوانات المفترسة، ويمزّقون ملابسهم التي وضعت عليهم، ويميلون إلى العزلة، والالتجاء إلى الأماكن المظلمة، ويربضون كما تربض الذئاب، وحاول بعض النّاس أن يربّوهم ويعلموهم الكلام أو العمل فلم يفلحوا.

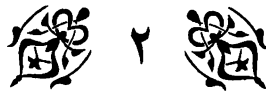
ووصف «فلانتين پول» في كتابه «الحياة في أدغال الهند» أحد هؤلاء الذين عثر عليهم بعض الهنود، فحملوه إلى ملاجئ الأيتام في يوم ١٨٦٧/٢/٤ م، فقال:

«لقد كانت تظهر عليه علامات العته التي يشاهدها الإنسان في المعتوهين العاديين كانهفاض الجبهة، والقلق، والاضطراب، وأكثر ما يكشّر عن نابه كما يفعل الحيوان المفترس، وكان يعتمد في تعرّف الأشياء على حاسة الشم أكثر من اعتماده على حاسة الذوق، ولم يكن من الممكن استمراره في أي عمل بدون مراقبة مستمرة، وكان يمشي على أربع، ولم يقدر على المشي على رجله إلّا بعد بضعة أشهر، وكان إذا مشى يقف وقفات فجائيّة ويسير سيرة المتعثّرة، كما كان يحرك رأسه بسرعة يمنة ويسرة، ويحدّق بنظره كأنما يترقّب هجوم عدوّ مخيف،

وظلت حياته على هذا الحال حتى توفي^(١).

إن التربية - حسب هذه البحوث التجريبية - من الأمور الكسبية التي يتطبع عليها الإنسان ، وقد ألمح القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة . قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٢) ، وقد دلت الآية بوضوح على أن ما يحصله الإنسان من علم ونمو فكري بعد أن يولد إنما هو عن طريق الكسب بسبب ما يلتقطه السمع والبصر والعقل ، وقد سبق القرآن بذلك ما قرره علماء التربية في هذا المضمار .

والمهم أن التربية إنما تكون قاعدة أساسية لتطور الإنسان ، وارتقائه فكرياً ، فيما إذا استهدفت الازدهار التام لشخصيته ، وعنت بغرس النزعات الخيرة في نفسه ، وإذا لم تعن بذلك فإن الإنسان يفقد أصالته وذاتيته .



وأسمى أنواع التربية وأكثرها عطاءً للإنسان هي التربية الدينية التي تهدف إلى النمو الروحي ، والتهذيب النفسي ، وتنمية السلوك ، وتعويد النفس على العادات الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والمثل الكريمة ، وأكد علماء النفس هذه الظاهرة في بحوثهم فقالوا :

« إن الدين يمنح الإنسان قوة الإيمان ، والتعقل ، والبصيرة ، وهذه القوى تشكل طاقات روحية تسعى إلى تدعيم الخير في قلوب البشر ، وهذا هو أسمى وأنبى الغايات الإنسانية .. »^(٣).

(١) النهج الحديث في أصول التربية وطرق التدريس : ١١٠/١ - ١١٧ .

(٢) النحل ١٦ : ٧٨ .

(٣) مجالات في علم النفس : ٤٥ .

إِنَّ الدين هو العاصم الوحيد من الشذوذ والانحراف ، فهو يعمل على تهذيب الغرائز ، وتشذيب الرغبات ، وطهارة النفوس وإنقاذها من الانحلال وصيانتها من الانهيار ، وعدم تلوثها بالآثام والمغريات ، فهو إذا استحكم في النفس أودع فيها قوة هائلة متماسكة تصدّها عن ارتكاب الجريمة ، وتحجزها من الانحراف ، وتوحي لها فعل الخير ، والتسابق في ميادين البرّ .

إِنَّ التربية التي تصاغ على وفق الأساليب الدينيّة تحقّق للمجتمع أعظم الانتصارات ، فإنّها تقضي على أسباب القلق ، وعوامل التمرد ، كما تؤهّل الفرد للحياة في بيئته .

إِنَّ التربية التي لا تعنى بالدين لا بدّ أن تفشل ، ويمنى الإنسان في ظلّها بكثير من الاضطراب والاختفاق .

إِنَّ القوى الروحيّة تؤثّر أثراً إيجابياً على السلوك الإنساني ، وعلى توجيهه بما يتّسم بالاتزان العقلي والنفسي .. فَإِنَّ الإيمان إذا كان عن فكرة وعقيدة فأثره يجري في الأعضاء والجوارح أفعالاً وسلوكاً ، واندفاعاً نحو قوى الخير .

لقد أجمع علماء النفس وغيرهم على أَنَّ للدين أثراً فعّالاً في تكوين الحياة العامّة ، وفي إيجاد وسائل الأمن والاستقرار في الأرض ، وأنّ من المحال أن يظفر الإنسان بأية حياة كريمة تتوفّر فيها عناصر الدعة والمحبة والاستقرار من دون أن تسود التربية الروحيّة الواعية الهادفة إلى إصلاح النفوس ، وتهذيب الطباع ، وإبعادها عن بواعث الهوى والغرور ، ويؤكد ذلك أنّه لمّا ضعف الوازع الديني في هذه العصور انتشرت الجرائم ، وشاع الانحلال والتفسّخ ، وتعاقبت المحن الكبرى يتبع بعضها بعضاً ، ومنى المجتمع الإنساني بكثير من المشاكل الرهيبة حتّى طغت على العقول فكوّنت عنصر هلع وخوف للإنسان المعاصر ، فقد سبقت الشعوب في طريق لا تدري ما هو مؤداه ، فأخذت الدول الكبرى تطارد بعضها بعضاً عبر الفضاء والغابات وأعماق البحار مستخدمة أسلحة التدمير والفناء من القنابل الذريّة والهيدروجينيّة والرؤوس النوويّة

كُلَّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ امْتِدَادِ نَفوذِهَا وَسُلْطَانِهَا ، وَاسْتِعْمَارِ الشُّعُوبِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا تَمْتَلِكُ
وَسَائِلَ الْقُوَّةِ فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَوْطَانِهَا .

وَبِالرَّغْمِ مِمَّا انْتَشَرَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ أَلْوَانِ الثَّقَافَةِ ، وَتَزَايِدِ الْوَعْيِ الْعِلْمِيِّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ
لَمْ يَكُنْ يَجْدِي بَأْيَ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ فِي إِنْقَازِ الْإِنْسَانِ مِنْ وَيلاتِ الْحُرُوبِ ، وَغَيْرِهَا
مِنْ مَشَاكِلِ السَّاعَةِ الَّتِي أَرْهَقَتْ الْإِنْسَانَ ، وَأَجْهَدَتْهُ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ . وَإِنَّ مِنْ أَوْهَى الْأَرَاءِ
الْقَوْلَ بِأَنَّ فِي نَشْرِ الْعُلُومِ وَالثَّقَافَاتِ ضِمَانًا لِلسَّلَامِ وَالرِّخَاءِ ، وَعَوَضًا عَنِ التَّهْذِيبِ
الِدِينِيِّ وَالْخُلُقِيِّ ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ أَوْهَى مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ سِلَاحَ ذَوِّ حَدَّيْنِ ،
فَهُوَ يَصْلُحُ لِلْهَدْمِ وَالتَّدمِيرِ ، وَيَصْلُحُ لِلْبِنَاءِ وَالتَّعْمِيرِ ، وَلَمَّا فَقَدَ الْوَازِعُ الدِّينِي فِي نَفُوسِ
سَاسَةِ الْعَالَمِ وَقَادَتِهِ صَارَ الْعِلْمُ نَكْبَةً عَلَى الْبَشَرِيَّةِ ، وَسَبَبًا لِإِغْرَاقِ الْعَالَمِ فِي الْمَخَافِ
وَالذُّعْرِ .

يَقُولُ « رُوبَرْتْ مِيلْكَان » :

« إِنَّ أَهَمَّ أَمْرٍ فِي الْحَيَاةِ هُوَ الْإِيمَانُ بِحَقِيقَةِ الْمَعْنَوِيَّاتِ ، وَقِيَمَةِ الْأَخْلَاقِ ،
وَلَقَدْ كَانَ زَوَالُ هَذَا الْإِيمَانِ سَبَبًا لِلْحَرْبِ الْعَامَّةِ ، وَإِذَا لَمْ نَجْتَهِدِ الْآنَ
لَاكْتِسَابِهِ أَوْ لَتَقْوِيَتِهِ فَلَنْ يَبْقَى لِلْعِلْمِ قِيَمَةٌ ، بَلْ يَصِيرُ الْعِلْمُ نَكْبَةً عَلَى
الْبَشَرِيَّةِ .. » ^(١) .

وَيَقُولُ « رُوبَرْتْ هِشْنِس » :

« لَقَدْ بَلَغَ الْعِلْمُ - أَيُّ الْعِلْمِ الْمَادِيِّ - فِي آَنٍ وَاحِدٍ إِلَى الْأَوْجِ فِي الْمَعْرِفَةِ
وَالْتَّكْنُولُوجِيَا ^(٢) وَالتَّحَكُّمِ فِي الطَّبِيعَةِ ، وَإِلَى الْحُضِيِّصِ فِي حَيَاتِهِ
الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ . »

لَقَدْ سَجَّلَ الْعِلْمُ انتصاراته الرائعة فِي حَقُولِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْبِيُولُوجِيَّةِ ، فَهَنَّاكَ

(١) التَّفَكِيرُ الْفَلَسْفِي الْإِسْلَامِي : ١٧٤ .

(٢) التَّكْنُولُوجِيَا : عِلْمٌ يَبْحُثُ عَنْ أَصُولِ الْفُنُونِ وَالصَّنَائِعِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَصُورِهَا .

سباق في دنيا الاختراع والاكتشاف ، وهناك انطلاق مذهل في عالم الفضاء وعالم الكواكب ، فالوصول إلى القمر الذي لم تحلم به الإنسانية في جميع أوارها قد تحقّق وبات الانطلاق إلى غيره من سائر الكواكب أمراً مفروغاً منه .

وهل حققت هذه الاكتشافات المذهلة خيراً للإنسانية ، وانطلاقاً في ميادين التعاون والتكافل والرخاء ؟ ! إنها لم تحقّق أي شيء من ذلك ، بل على العكس قد وصلت الإنسانية إلى الحضيض من التقاتل الوحشي ، والتخاصم الفظيع الذي جعلها في رعب دائم وخوف مستمرّ ، كما انتهت إلى الحضيض في الانحلال الخلقي والفوضى الجنسية .

إنّ تيارات العلوم الحديثة دفعت الإنسان إلى احتقار أخيه الإنسان واليه عليه ، كما هو الحال في أمريكا ، فقد قضت أنظمتهم التشريعية بأن يحال بين الإنسان الأبيض والأسود في المدارس والجامعات ، وأن يكون للأبيض منازل عليا ، وللأسود منازل سفلى ، بل حتّى العقوبات ينبغي أن تتفاوت ، فقد أعلنت صحيفة الأهرام القاهرة بتاريخ ١٩٥٨/٨/٣٠ :

« أنّ الهيئة الدوليّة لمناهضة العنصرية دعت جميع معتنقي مبادئها إلى الاحتجاج على حكم الإعدام الذي صدر على « جيمي ولسون » الزنجي الأمريكي بتهمة سرقة دولار و ٩٥ سنتاً من سيّدة بيضاء ، ومن المقرّر أن ينفذ حكم الإعدام في « ولسون » يوم ٦ سبتمبر » .

ولم يستطع التقدّم العلمي الذي أحرزته الولايات المتّحدة أن يقضي على هذا الظلم والغبن في التفرقة بين أبناء الإنسان .

إنّ العلوم الماديّة لم تستطع على إيجاد التوازن ، وخلق روح المودة والتعاون بين أفراد المجتمع ، وقد عدل الكثيرون من فلاسفة العالم عمّا كانوا يعتقدون به من قبل من أنّ نجاة الإنسان وإنقاذه من ويلات الحروب وكوارثها إنّما يكون بتقدّم العلوم وتطوّرها ، وقد أعلنوا وهم ذلك وعدم أصالته وواقعيّته .

يقول «المستر ليمان» :

«لقد اعتقدنا خلال الحرب العالمية الأولى أن خلاص العالم هو في تقدم العلوم ، ولكننا اليوم قد زالت عن أعيننا غشاوة هذا الوهم»^(١) .
وحذر «إقبال» أشد الحذر من هذه العلوم بقوله :
«إياك أن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها...» .

وتحدث «إقبال» عن التعليم فقال :

«إن التعليم الحديث هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكونها كما يشاء ، أن هذا الحامض أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية ، فهو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة تراب»^(٢) .
وعلى أي حال ، فإن العلوم الحديثة لم تعن بتنمية السلوك الإنساني ، ولا بإعداد النشء لتعليم الحياة الاجتماعية وممارستها في إيجاد مجتمع سليم تسوده المحبة والتعاون .

إن أخطر ما تستهدف إليه العلوم المادية نبذها للجانب الروحي ، وعدم عنايتها بالتهذيب النفسي ، وقد نجم عن ذلك انتشار الأوبئة الأخلاقية ، ومن أهمها شيوع الجريمة ، وانعدام الروابط الإنسانية ، وتحلل روابط الأسرة وقواعد الأخلاق ، مما جعل الإنسان المعاصر يروح تحت كابوس ثقیل من جزاء الظلم والغبن .



ولم تعالج الديانة المسيحية الشؤون التربوية بصورة موضوعية ، فقد أهملت ذلك ،

(١) التربية لعالم حائر : ٥٢ .

(٢) نحو التربية الإسلامية : ٣٥ و ٣٦ .

ولم تشر إليه بقليل ولا بكثير، وإنما كانت قاصرة على الدعوة إلى الحياة الأخرى، وإلى امتهان الحياة الدنيا، ونبذ ما فيها من متع وملاذ، ودعت إلى المعيشة في الأديرة والكنائس، والإعراض عن السكنى في غيرها.

يقول بعض المعنيين بالبحوث التربوية:

« وقد أصبحت التربية المسيحية مقصورة على الإعداد للحياة الآخرة، أما هذه الحياة التي نحياها فلا تحاول التربية المسيحية شيئاً مما يتصل بها، سواء أكان هذا الشيء يرمي إلى تربية الذوق الجميل أم يمت إلى الحياة العقلية بصلة، ولذا كانت التربية المسيحية مضادة للتربية الفردية الحرة عند اليونان، وللتربية الاجتماعية العملية عند الرومان .. »^(١).

لقد وجّه رجال الدين المسيحي جميع جهودهم على قصر التربية في الشؤون الأخروية. يقول « وليولا »:

« إن الغرض من التربية هو إصلاح ما أفسده آباؤنا، وذلك بمعرفتنا لله حق المعرفة، ومحبتنا له، والتزامنا طريقته بفضل اكتسابنا للفضائل »^(٢).

وقد وقفت الكنيسة تحارب رجال الفكر، وتحارب كل من يدعو للتقدم والإصلاح، كما وقفت إلى جانب الاستعمار تحمي مصالحه وأطماعه، مستخدمة في ذلك التربية المسيحية.

يقول: « ميريل كيرثي »:

« وفي المستعمرات التي بلغ فيها التحالف بين الكنيسة والدولة من القوة والاشتداد ما بلغه في ولايات (نيوانغلند) كانت التربية، وهي تحت

(١) تطوّر النظرية التربوية: ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) تطوّر النظرية التربوية: ٢٥ - ٢٦.

سيطرة مختلف الطوائف الدينية تستعمل سلاحاً استراتيجياً لزيادة القوة السياسية للفتات المسيطرة عليها أو لحمايتها ضد منافسة المبادئ والعادات المناهضة»^(١).

وقد أناطت تلك الدول خلال القرن الثامن عشر وظائف المعلمين بالكنيسة ، فالذي يظفر بتزكيتها يحرم من مهنة التعليم^(٢).

وأخذت الكنيسة تحارب الوعي الفكري ، وتنكّل بكلّ من يدعو إلى الإصلاح فسأقت للمحاكم (٣٠٠/٠٠٠) عالم ، وأحرقت منهم (٣٢/٠٠٠) ، وكان منهم العالم الطبيعي (برنو) ، وقد نقت منه الكنيسة آراءً من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وقد حكمت عليه المحكمة بالحرق حياً ، وحُكِمَ بالإعدام على « كاليه » لقوله بحركة الأرض حول الشمس .

ونتيجة الصراع القائم بين العلم والكنيسة قرّر الثائرون من علماء الطبيعة أنّ العلم والدين ضرّتان لا تتصالحان^(٣) ، واندفعت سائر القوى العلمية والاصلاحية إلى إعلان الحرب على الكنيسة والقضاء على خرافاتها وعقائدها الوضعية التي تجافي القواعد المنطقية والعلمية ، وأدت هذه الثورة الفكرية إلى الثورة الفرنسية الكبرى ، التي أنتجت إعلان حقوق الإنسان ، ومن أهمّها الاعتراف بالمساواة والحرية والعدالة بين الناس على اختلاف قومياتهم وعناصرهم .

وعلى أي حال ، فإنّ المسيحية لم تقرّر في جميع بنودها التشريعية أي مادة ترجع إلى التربية العلمية أو المهنية ، فقد كانت التربية المسيحية بصورة عامّة خاضعة لخرافات الكنيسة ، وأضاليل القساوسة ، وأوهام الرهبان .

(١) التربية والصراع الاجتماعي : ١٢ .

(٢) التربية والصراع الاجتماعي : ١٤ .

(٣) التكامل في الإسلام : ١١٥/٥ .

أما الإسلام - والحمد لله - فإنه منذ بزوغ نوره قد استخدم جميع طاقاته ، وأجهزته بشكل إيجابي وبناء إلى إيجاد التربية الصحيحة الهادفة إلى تنمية الوعي الإنساني ، ورفع المستوى الفكري والاجتماعي ؛ وذلك في ضمن عملية تربوية واحدة يتم على أساسها تشكيل الأفراد وهم على نمط واحد انقياداً للحق ، وانصياعاً للعدل ، وتسابقاً في ميادين البر والخير . إن طابع التربية الإسلامية لم يكن دينياً محضاً كما كان عند المسيحيين والإسرائيليين في الصدر الأول من تاريخهم ولم يكن دنيوياً محضاً ، كما هو الشأن عند الرومان ، وإنما كان يلائم بين الدين والدنيا ، فكان يهدف إلى الإصلاح الشامل للحياتين .

لقد تناولت التربية الإسلامية جميع الطبقات الاجتماعية فوضعت لها المناهج الخلاقة المبتنية على أحدث الوسائل التي تنتهي إليها سير الحضارة الإنسانية ، وتقدم الإنسان وتطوير حياته ، ونضوج عقله .. إنها بكل اعتزاز المصدر الوحيد لحضارة المسلمين ومجدهم في أيام عصورهم الذهبية .

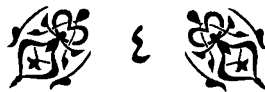
يقول بعض الباحثين عن التربية الإسلامية :

« لا يستطيع أحد من المربين والمؤرخين أن ينكر أن التربية الإسلامية هي الأساس المتين لحضارة المسلمين ، والمثل العليا في تلك التربية تتفق مع الاتجاهات الحديثة في عالم التربية اليوم ، فقد قدس الإسلام العلم والعلماء ، وسما بالعلم إلى درجة العبادة ، وعنى العناية التامة بجميع أنواع التربية ، وخاصة التربية الروحية والدينية والخلقية ، ونادى بالحرية والمساواة وتكافؤ الفرص بين الأغنياء والفقراء في التعليم ، وقضى على نظام الطبقات ، وفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ، وإعطاهما كل وسيلة للتعلم إذا وجدت لديهما الرغبة في العلم والإقبال عليه .

وقد فتحت المساجد والمعاهد ودور العلم والحكمة ، ودور الكتب

والحلقات الدراسية ، والمنتديات الأدبية والعلمية أمام الطلاب للتعلم والدراسة والبحث ، وقدمت إليهم الدولة الإسلامية كل ما يحتاجون إليه من طعام ومسكن وعلاج ومساعدات مالية لتمكينهم من المعيشة والتفرغ لطلب العلم ، وإننا لنفخر إذا قلنا إن مبادئ التربية الحديثة التي نادينا بها في منتصف القرن العشرين ولم تستطع الدولة المتمدنة تنفيذها كلها حتى اليوم قد روعيت ونفذت في التربية الإسلامية في عصورها الذهبية قبل أن تخلق التربية الحديثة بمئات السنين»^(١).

لقد قدم الإسلام لجميع شعوب الأرض الثروات الفكرية الحافلة بجميع مقومات النهوض والارتقاء ، والاصلاح الشامل لجميع مناهج الحياة . إن الإسلام جعل العلم بصورة عامة عنصراً أساسياً من عناصر التكوين الاجتماعي ، والنهضة الفكرية للمسلمين ، وقد حث عليه بإصرار ، وجعل طلبه فريضة من فرائض الإسلام ، وسنعرض ذلك بصورة مفصلة عند الحديث عن الاطار الثقافي في التربية الإسلامية .



وحينما استولت القوى الاستعمارية الغادرة على الوطن الإسلامي الكبير ومزقته إلى دويلات خاضعة لنفوذه ، لا تتمكّن من حماية نفسها ، ولا تستطيع الحصول على استقلالها قد ربطتها بعجلتها ، وسيّرتها تحت إرادتها ، وبعد فراغها من هذا التخطيط الذي قضى فيه على أصالة المسلمين وقوتهم ، اتّجهت بجميع طاقاتها ووسائلها إلى محاربة الوعي الإسلامي ، فحاربت العقيدة الإسلامية وحاربت الخلق الإسلامي . لقد أدرك الاستعمار أساس القوة التي يتمتع بها العالم الإسلامي في أثناء حروبه

(١) التربية الإسلامية: ٣ و ٤.

وصموده وفتوحاته ، وهي عقيدته الأصيلة التي تأبى الضيم والذلّ والعبودية ، فوضع الخطط والنظم لمحاربة الوعي الإسلامي ، ولاجتذاذ أنواره من النفوس ، فاستعمل الحرب الفكرية التي هي من أفتك أنواع الأسلحة النفسية ، ومن أحدث الوسائل الفتية لسيطرته وبقائه ، وقد اعتمد في ذلك على ما يلي من الوسائل :

١ - تغيير المناهج التعليمية

وعمد المستعمرون إلى تغيير جميع مناهج التربية والتعليم في البلاد الإسلامية ، فجزّروها تجريداً تاماً من المحتويات الدينية ، كما عمدوا إلى تشويه التاريخ الإسلامي والدسّ والافتراء على معتقدات المسلمين وأخلاقهم .

لقد عهدت الحكومة البريطانية في مصر إلى « دنلوب » بوضع مناهج التعليم ، وقد قام بدوره بوضع سياسة خاصة للتعليم أقصى عنها جميع الأسس التربوية الإسلامية ، واستبدلها بأنظمة هزيلة تنتج العقم الفكري ، وقلب المفاهيم الدينية .

وتقوم سياسة التعليم التي وضعها « دنلوب » على دعامين :

الأولى : توجيه أكبر قسط من العناية في المدرسة إلى حشو الذهن بالمعلومات ، وإغفال ما عدا ذلك من مقومات التربية إغفالاً تاماً ، أو وضعه في المرتبة الأخيرة ، وتشغل المدرسة بمظاهر سطحية لا ترمي إلى هدف ولا تحقق فائدة .

الثانية : نظام التجانس العقيم الذي وُحّد أساليب التربية والتعليم ومناهجها وخططها في جميع مدارس المرحلة الواحدة حتى استحالت متكررة متشابهة ، وانعدم بذلك الطابع الشخصي ، الذي يجب أن تطبع به كلّ مدرسة في حدود بيئتها الخاصة^(١) .

ومن الطبيعي أنّ هذه الضحالة في برامج التعليم قد قضت على الوعي الأصيل في

نفوس النشء ، وجعلته أداة طيعة بيد المستعمرين .

وفي العراق عمدت سلطات الاحتلال الانكليزي إلى الإمعان في وضع المناهج لخدمة مصالحهم ، والقضاء على الروح الوطنية والدينية ، فقد جاء في مذكرات « طه الهاشمي » أن « مسز بل » طالبت باستخدام الضباط المتقاعدين الذين خدموا في الجيش العثماني سابقاً ليكونوا في الجيش العراقي ، فأجابها مسؤول بريطاني كان يعمل في السفارة البريطانية :

« كيف نستخدم هؤلاء الضباط في الجيش العراقي الجديد ، وهم من هم وطنية وإخلاصاً ؟ إنهم سينشئون جيلاً وطنياً لا غبار عليه » .

فابتسمت « مسز بل » بخبث وقالت له :

« لا تخش شيئاً ، إن المستر فلاناً في المعارف ، وهو المسؤول عن تربية الجيل الجديد » ^(١) .

لقد أخذت المخططات التربوية التي وضعها الاستعمار تعمل على تجريد الناشئة الإسلامية من عقائدها الدينية ، وقد نجحت بذلك إلى حد بعيد .

يقول القسيس « صموئيل زويمر » :

« والتعليم المدرسي والتربية الأخلاقية الغربية قد أسفرا عن نتائج جمّة ، وأثمرتا ثمرات نافعة في الأطفال والمراهقين على السواء .. لقد استطعت أن أقنع التلاميذ المسلمين مرّة وأضع بين أيديهم كرة تمثل الكرة الأرضية ، ثم حوّلت عليها نوراً قوياً ، وأقنعتهم بذلك أن الأمر بصيام شهر رمضان ليس آتياً من عند الله لأنه يتعذر أداء هذه الفريضة » ^(٢) .

(١) مجلة الأقلام : الجزء الثاني من السنة الرابعة ، من مقال لمحمود شيت خطاب تحت عنوان « المعنويات » .

(٢) الغارة على العالم الإسلامي .

وصرّح « جيب » في زهوة ونشوة عما أحدثته التربية الاستعمارية من زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين . يقول :

« لقد استطاع النشاط التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين - عن غير وعي منهم - أثراً جعلهم يبدوون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد .. ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار .. فالواقع أن الإسلام كعقيدة وإن لم يفقد إلا قليلاً من أهميته وسلطانه ، ولكن الإسلام كقوة مهيمنة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانه .. »^(١).

لقد استطاعت التربية الاستعمارية أن تحول بين المسلمين وبين دينهم ، فاكتمحت منهم تلك الروح الوثابة الأصلية التي تسحق الطغيان ، وتدمر الظلم ، وتحطم الماردين .

لقد عبث بهم القوى الاستعمارية فأجهزت على قيمهم ومثلهم وأصالتهم ، وتركتهم - كما يريد الاستعمار - انقياداً للغرائز ، وإعراضاً عن الحق ، وصدوفاً عن العدل .

إن المناهج التربوية التي صنعها الاستعمار قد فتكت بالمسلمين ، فأوجدت فيهم ناشئة قد تعرت من جميع الأخلاق الكريمة ، وأصبحت أمل المستعمر وطلائعه وجنوده ، ولنستمع إلى الإمام شرف الدين عملاق الفكر الإسلامي يحدثنا عما أحدثته الأنظمة التربوية في مدارسنا من الويلات والكوارث . يقول :

« فاستحوذ - أي الاستعمار - علينا دخولاً في مدارس ، وإصغاءً إلى وساوسه ، فاندفعنا للزج بأفلاذ أكبادنا إلى أحضانهم تحوطهم طوائف منه أو من حملة مبادئه بالحضانة واللقانة ، حتى إذا خرج الفوج الأول من

(١) من مقدّمة كتاب « إلى أين يسير الإسلام؟ » .

شبان الجيل المأمول ، علمنا أنّ الخسارة أكبر من الربح ، والإثم أكبر من المنفعة ؛ وذلك لأنهم تعلّموا دون توجيه ، أو تعلّموا في ظلّ توجيه مفسد يخضع الثقافة إلى مناهج استعماريّة تغزو أرواح أبنائنا بأفتك ممّا يغزو به الاحتلال في بلادنا .

وكنّا في تعليم أبنائنا هذه المعارف المسمومة كالباحث عن حقه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفّه ، وفي الحقّ لقد خدعت أمتنا بأوهام من الغرور باطلة ، حيث أرادت استرجاع مجدها بتعليم ناشئها ، فدفعتهم إلى أحضان هذه المدارس التي لم تتأسس في الشرق إلّا للاستيلاء عليه بجميع ما فيه من دنيا أو دين ، فأضرّتهم ضرراً لا يتدارك ، وأضاعت مجدها على وجه آخر هو الفنّ ، وأسرع له وأشدّ وأفطع ؛ إذ تخرّجوا جنوداً علينا وعلى مقدّسات مبادئنا ، وتلك مصيبة ما مني الإسلام والشرق بمثلها ..»^(١) .

وهو رأي وثيق للغاية ، فإنّ الإسلام والشرق ما منيا بمثل ذلك الغزو الثقافي الذي أفسد العقائد والأخلاق .

٢ - التبشير المسيحي

وكان المفروض في التبشير المسيحي أن يحمل روح المسيح في هديه وصفائه ، وزهده واستقامته ، إلّا أنّه من المؤسف أنّ الاستعمار قد استخدمه لتخدير الشعوب ، وإرغامها على الظلم والاستبداد ، وتضليل المسلمين وإبعادهم عن دينهم .

إنّ التبشير المسيحي كان الركيزة الأولى التي يعتمد عليها الاستعمار الغربي في بقائه ونفوذه ، وقد أدلى بذلك وزير خارجيّة بريطانيا في مؤتمر « دنبرج » . قال :

« إنّ المبشرين هم ساعد الحكومة في الأمور الهامّة ، ولولاهم لما أمكن

(١) الإمام شرف الدين حزمة ضوء على طريق الفكر الإمامي : ١٣٤ .

أن تقاوم كثير من العقاب ، وعلى هذا فنحن في حاجة إلى لجنة دائمة ينام بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين بالنصرانية .

ولنستمع إلى تقرير آخر أدلى به رئيس غرفة التجارة في « هامبورغ » قال فيه :

« إن نمو ثروة الاستعمار متوقف على الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات ، وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمانة إدخال الدين المسيحي في البلاد المستعمرة ؛ لأن هذا هو الشرط الجوهري للحصول على الأمانة المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية » .

لقد اعتمد المستعمرون على التبشير المسيحي لاختلاس ثروات الشعوب واستنزاف أرزاق الملايين وتجويعهم ، وقد اتجه التبشير - بوحى من الاستعمار - يعمل بكل طاقاته وأجهزته ضد الإسلام الذي يهدد مصالح المستعمرين ويحجر بينهم وبين أطماعهم ، وقد أكدت الدوائر الاستعمارية ذلك ، فقد جاء في قرار المؤتمر الألماني ما نصه :

« إن ارتفاع الإسلام يهدد مستعمراتنا بخطر عظيم ، ولذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح الحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة ، والمؤتمر الاستعماري مع اعترافه بضرورة المحافظة على خطة الحياد تماماً في الشؤون الدينية ، ويشير على الذين أمسكوا زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن ينتفعوا من أعمال إرساليات التبشير التي تبث مبادئ المدنية ، خصوصاً بخدماتهم التهذيبية والطبية ، ومن رأيي أن الخطر الإسلامي يدعو إلى ضرورة المسيحية الألمانية لاتخاذ التدابير - من غير تسويق - في كل الأرجاء التي لم يصل إليها الإسلام بعد .. » .

إن الدوائر الاستعمارية تحارب الإسلام ، وتناهضه بجميع أجهزتها وإمكاناتها ، وتسعى جاهدة لتنصير المسلمين أو انحرافهم عن دينهم ، وقد أثمرت نتائج المبشرين

في هذا الموضوع إلى حد بعيد ، فقد تنصّر جملة من المسلمين ، ففي أندونيسيا تنصّر ربع مليون مسلم ، وهكذا في غيرها من المناطق الإسلامية ، وهو أمر طبيعي ؛ لأنّ الكثيرين من المسلمين قد جهلوا واقع دينهم ، فلا بدّ أن تجرفهم الدعايات المضلّة والكاذبة .

وعلى أي حال ، فإنّ لجان التبشير المسيحي تكيد للمسلمين في غلس الليل وفي وضح النهار ، وتسعى لسلب العقيدة الإسلامية من النفوس . يقول « موسيو شاتيله » أحد دعائم التبشير المسيحي :

« مهما اختلفت الآراء في نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثاني من خطّتهم ، وهو الهدم ، فإنّ نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائماً للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية ، والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبيل لأعمال المدنية الأوربية ؛ إذ من المحقّق أن يضمحل من الوجهة السياسية ، وسوف لا يمضي زمن غير قصير حتّى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربية .. » .

إنّ مخطّطات التبشير المسيحي تحمل شارات الموت والدمار للشعوب الإسلامية ، فهي من أعظم الوسائل للقضاء على أصالة المسلمين واستعبادهم ، وإخضاعهم للسيطرة الاستعماريّة .

٣ - المدارس المسيحيّة

وثالث الأتافى التي يعتمد عليها الاستعمار الغربي في محاربته للوعي الإسلامي نشره للمدارس المسيحيّة ، فليس الغرض منها تثقيف العقول وتربية النشء ، وإنّما الغرض منها شلّ الحركة الإسلامية ، وتنصير المسلمين أو تقريبهم من النصرانية ، وقد أكّد ذلك بعض المبشرين بما يلي :

« المدارس هي من أحسن الوسائل لترويج أغراض المبشرين ، وقد كان

عدد التلاميذ في المدرسة التبشيرية في طهران قبل سنتين من ٤٠ إلى ٥٠ فصاروا (١١٥)، وكلهم يتلقون التربية النصرانية..».

وقد أولى الاستعمار مزيد اهتمامه وعنايته في المدارس المسيحية للبنات؛ لأنها الشجرة الوحيدة التي يسلك منها لإفساد الأخلاق. يقول «جيب»:

«إن مدارس البنات هي يؤبؤ عيني، لقد شعرت دائماً أن مستقبل سورية إنما هو بتعليم بناتها ونسائها، لقد بدأت مدرستنا للبنات في بيروت، ولكن ليس لها بعد بناء خاص بها، وها هي قد أثارت اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيات التبشيرية، وقد اهتمت فرنسا بالإشراف على مناهج التعليم..».

إن المدارس المسيحية بصورة عامة إنما هي قواعد استعمارية انشئت لمناهضة الإسلام وتنصير المسلمين، ويقول «ا. ل. شاثليه» في بحث له عن إرساليات التبشير البروتستانتية:

«ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية في المدرسة.. وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليبث في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنسية..».

وحاول بعض أحرار المسلمين إنشاء جامعة إسلامية تعمل لصالح المسلمين، فأوجب ذلك انتشار الذعر في الأوساط الاستعمارية، فعقدوا مؤتمراً في «لكنو» وجاء فيه هذا التقرير الخطير إلى القس «رسيمون»:

«ولكن عبثاً يبني هؤلاء آمالهم على الجامعة الإسلامية؛ لأن التربية النصرانية قد انبثت في دمائهم بفضل مدارس التبشير، وباحتياطات استمدتها حكومة هولندا من أصول الدين النصراني، ومن شأنها أن تزعزع آمال المسلمين الباطل..».

المدارس المسيحية تبث سمومها في الناشئة المسلمة ، وتسلب عنهم كل وعي إسلامي ، وتغرس في نفوسهم الميوعة والاستهتار .

٤ - استخدام الطب

واستخدم الاستعمار الغربي الطب ، وجعله وسيلة من وسائل الغزو الفكري لمحاربة الإسلام ، ونشر الأفكار المسيحية في الوطن الإسلامي ، فقد ذكرت جريدة المؤيد المصرية بعدها (٦٦٨٧) أنَّ أهم الوسائل التي يستخدمها المبشرون لتذليل الصعوبات التي تقف في طريق التبشير هي :

١ - توزيع الكتاب المقدس .

٢ - التبشير من طريق الطب ؛ لأنه في مأمن من مناوأة الحكومة له ، والمسلمون يلجأون بأنفسهم إلى مستشفيات المبشرين ومستوصفاتهم .

وجاء في العدد نفسه تقرير للقس « سن كلير لسرال » ما نصه :

« واكتسب المبشرون محبة الناس لهم بسبب الأعمال الطبية التي تصدر عن المبشرين ، فتجعل الأعداء لهم يعترفون بأن النصرانية مصدر عمل صالح » .

وأضاف يقول :

« والوسائل التي يتذرع بها المبشرون هنا هي الإرساليات الطبية من نساء ورجال ، ورحلات المبشرين ، والأعمال النسائية » .

وختم تقريره بالقول :

« ويتقرب المبشرون الألمان إلى المسلمين بالمدارس والإرساليات الطبية ، وهي مثل الشوك في أجسام زعماء المسلمين » .

وجاء في العدد نفسه تقرير آخر للقسيس « سلستين » عن الإرساليات الطبية قال فيه :

« وتوجد إرساليّة تبشير طبيّة دانماركيّة في (حوبي مردان) تقوم بها النساء المسلمات ، ووظيفتهنّ التبشير بين النساء المسلمات ، وهي على أهبّة الهبوط إلى كابل عاصمة الأفغان ، وممّا لا شكّ فيه أنّ النساء اللاتي يتعاطين الطبّ يلاقين مزيد الحفاوة ؛ لأنّ المسلمين لا يهتمّون بأعمال النساء المبشّرات ... » .

وتحوّلت جمعيّة الإسعاف الأرمني إلى جمعيّة تبشير كما أدلى بذلك القس « ليبسوس » فقد جاء في تقرير له :

« إنّ الاهتمام في صيانة الكنيسة الشرقيّة لا يكفي للنهوض بالشرق ، بل تجب مناهضة ومناوأة الإسلام عدوّ المسيحيّين الشرقيّين الأقدمين ، وعلى أثر ذلك تحوّلت جمعيّة إسعاف الأرمن إلى جمعيّة التبشير الألمانيّة » .

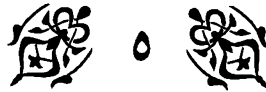
وقد عهد بعمادة هذه الجمعيّة إلى (ليبسوس) ، وهو من أخبث الحاقدين على المسلمين ، وهو صاحب الكلمة المشهورة « أنّه لا يكفي المناضلة والمناوأة للمسلمين ، بل يجب شهر السلاح ضدهم » .

هذه بعض الوسائل التي اعتمد عليها الاستعمار الغربي في غزوه الفكري إلى الوطن الإسلامي ، والغرض منها سلب العقيدة الدينيّة من نفوس المسلمين ، والقضاء على أصالتهم ومجدهم المتمثّل في وعيهم الإسلامي ، وقد خطب « رويمر » في مؤتمر للمبشّرين بجبل الزيتون في فلسطين فأعرب عن مدى حقدهم البالغ ضدّ المسلمين ، قائلاً :

« ولكن علينا أننا لا نبغي إخراج المسلمين من الإسلام ، ثمّ إدخالهم إلى الديانة المسيحيّة ، ولكننا نكتفي بإخراجهم من الإسلام ، وإبقاءهم بلا دين ، وبذلك تكونون أنتم الطليعة الأولى للركب الاستعماري .

باركتكم عناية الرب» (١).

هذا هو اتجاه الاستعمار الغربي في طلائعه التبشيرية نحو المسلمين حقداً وعداءً ونكاية ، حتى لا تبقى في نفوسهم أية ركيعة دينية ليشيع بينم التفسخ والانحلال ، وهذا أسوء مصير تصل إليه الأمة في مجاهل هذه الحياة . ومن الطبيعي أن المجتمع الذي لا يقبل على الدين لهو مجتمع قد ضعفت قواه العقلية ، وروابطه الفكرية ، وهو حتماً لا بد أن ينعزل عن موكب الحياة ، ويسير بخطى سريعة نحو التأخر والزوال .



وحققت القوى الاستعمارية جميع ما تحلم به وتصبو إليه من استعباد المسلمين وإذلالهم ، وإشاعة الفقر والحرمان في ربوعهم ، فاستنزفت ثرواتهم ، واستولت على سائر إمكانياتهم الاقتصادية ، فصرقتها على بناء كيانها العلمي والاقتصادي ، والعالم الإسلامي يزرح تحت كابوس ثقليل من الجهل والفقر ، قد تأخر في جميع الميادين الصناعية والاقتصادية والعسكرية .

ومن أعظم الخطوب والبلايا التي تركها الاستعمار جاثمة في الوطن الإسلامي اصطناعه لإسرائيل ، وإيجاده لهذه العصاة التي لفظتها جميع الأمم ، وقيامه بحمايتها وتسديدها ، وغدق الأسلحة والأموال عليها بلا حساب ، والغرض من ذلك حماية مصالحه ، وقمع جميع الحركات الإسلامية أو الوطنية العربية .

إن إسرائيل هي الوطن الأم للاستعمار ، والقاعدة الأولى لعدوانه ، فهي ركيخته ومصدر انطلاقه لغزو الشعوب ، وسلب ثرواتها ، وقد وقف الاستعمار إلى جانبها يسدّد عدوانها ، ويزرّ اعتداءها ، ويدفعها إلى التوسع وإلى ضرب العرب ، وإرغامهم على

(١) الغارة على العالم الإسلامي ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، جريدة المؤيد المصرية ، سرّ انحلال الأمة العربية ، مجلّة العربي .

ما يكرهون .. لقد بنت إسرائيل سياستها على العدوان ، وعلى أموال أمريكا تصرفها في قتل العرب ، وإجلائهم عن أراضيهم ، واستيطانهم بها ليخلقوا الوطن الإسرائيلي الكبير بدلاً من الوطن العربي ، وقد أدلت الأوساط السياسية الإسرائيلية بذلك ، كما صرّحت بأنّ على العرب أن يستوطنوا في ديار غير ديارهم ؛ لأنّها ملك لإسرائيل وعدتهم بها أنبياءهم كما يزعمون .

لقد عمدت إسرائيل إلى استئصال العرب في فلسطين ، وإبادتهم إبادة جماعية بشكل وحشي لم يعهد له نظير حتّى في عصر الغاب .. وأمريكا تعزّز هذه الإجراءات القاسية التي انتهكت فيها كرامة الإنسان ، وتمدّها بطائرات الفانتوم ، والأجهزة الالكترونية ، ويقف أسطولها السادس لحمايتها ، كما تقف إلى جانبها في هيئة الأمم المتحدة تسدّد عدوانها ، وتلتمس لها المعاذير ، وتدفعها إلى التوسّع والظفر بمكاسب جديدة .. تفعل أمريكا ذلك وتستفيد شركاتها من البترول العربي في كلّ سنة ما يزيد على ثلاثين ألف مليون دولار ، بالإضافة إلى احتكارها لأسواق المسلمين والسيطرة عليها .

لقد تفوّقت أمريكا على سائر دول العالم بالأموال التي تجني الكثير منها من بلاد المسلمين ، فكان جزاؤهم منها جزاء سنمار ، فسَلَطَتْ عليهم شذاذ الآفاق يمعنون في قتلهم وإراقهم ، ويشردّونهم من ديارهم .. والأدهى من ذلك أن تعقد في بعض العواصم الإسلامية اتّصالات دبلوماسية مع إسرائيل ، ويسمح لها بتأسيس الشركات الاحتكارية التي تقوم بعمليات التجسّس ، واستنزاف ثروات المسلمين .

لقد استشفّ الرسول الأعظم ﷺ من وراء الغيب أنّ اليهود عنصر من عناصر الهدم والتخريب ، وأنّهم يتربّصون بالمسلمين الدوائر ، ويبغون لهم الغوائل ، فأمر ﷺ بإجلائهم وإخراجهم من الجزيرة العربية ، وأكّد ذلك بإصرار بالغ في ساعاته الأخيرة من حياته ، ولو أنّ المسلمين استجابوا لنداء لنبيّهم لما مُنُوا بهذه الكارثة الكبرى التي تهدّد كياناتهم ، وتندّرهم بالويل والدمار .

إن إسرائيل تشكّل أعظم خطر على العالم العربي والإسلامي ، وذلك بما تحمله من نوايا الحقد والكيد على الإسلام ، فهي تسعى جاهدة لإزالة معالمه ، وإطفاء نوره ، وتجلى ذلك في إحراقهم للمسجد الأقصى ، وإبادة جميع المعالم الإسلامية من البلاد المحتلة .. والغرب يؤيد جميع خطواتها ، ويمدّها بأحدث الأسلحة لأنها تحمي مصالحه وأطماعه ، فالواجب على الحكومات القائمة في الوطن العربي والإسلامي أن توحد كلمتها ، وتزيل ما بينها من خلاف لإنقاذ المسلمين من هذه العصابة .

إن الدول العربية مدعوة وملزمة قبل غيرها باتخاذ جميع الوسائل لصيانة أراضيها من الغزو الإسرائيلي ، فإن إسرائيل أخذت بالتوسع ، وهي تدعو جميع يهود العالم للهجرة إليها لتقيم في ربوع وطننا العربي ، الوطن الإسرائيلي الذي تحلم به ، وهي تعتمد على قابليّاتها الدبلوماسية ، وعلى تأييد الولايات المتحدة ، وما تغدقه عليها من الأموال والأسلحة .. فلا بدّ لها من اتخاذ موقف حاسم وموحد ، ولا بدّ أن تجهّز نفسها بأدث الأسلحة ، وتقيم في مناطقها معامل الأسلحة الثقيلة لئلا تعتمد في ذلك على الدول الخارجية التي تسعى لضمّها تحت مناطق نفوذها ، ومن أهمّ الأمور - فيما نحسب - بثّ الوعي التربوي ، والعمل على تغذية النشء في المعاهد والجامعات بخطر إسرائيل والصهيونية العالمية ، وأن تستخدم في سبيل ذلك جميع أجهزة الإعلام من الإذاعة والتلفزيون والصحافة ، ولا بدّ من نشر الوعي بصورة خاصة بين القوات المسلّحة التي هي العمود الفقري للأمة ، فإنّها إن تسلّحت بالوعي والإيمان أحرزت الأمة الانتصار ، ومحت عنها هزيمة الذلّ والعار .

إنّ العالم الإسلامي يمرّ بمرحلة دقيقة حاسمة من تاريخه ، فقد عبث به الاستعمار فأقعده عن السير في طريق التقدّم ، وتركه جريحاً على مفترق الطرق تتحداه عوامل الانحلال من الداخل والخارج ، فعلى رجال التربية والتعليم أن يهتوا إلى تكوين العقيدة الإسلامية في نفوس النشء ، وتنمية أحاسيسهم بالخطر المحدق في البلاد من الصهاينة والاستعمار ، وعلى وزارة التربية والتعليم أن تنشأ أجهزة خاصة مسؤولة عن

كل ما يتصل بعملیات التخطيط في ميادين التربية لتقوم بدراسات إسلامية يعهد بتدريسها في جميع المعاهد العلمية حتى تستطيع تنمية السلوك الديني بين أبناء الجيل .

إن سبب الأزمة التي يعانيها النظام التقليدي التربوي في البلاد الإسلامية إنما هي وليدة الأنظمة التربوية الاستعمارية الحاكمة على هذه الأمة ، فلا بد من اكتساحها وإزالتها حتى يتكوّن جيل من الشباب يؤمن بوطنه ، ويجاهد من أجل تحريره من الاستعمار الاقتصادي والسياسي والثقافي الذي فرضه الإنجليز في البلاد .

على الحكومات القائمة في البلاد الإسلامية أن تعيد النظر في سياستها التربوية في حرص وأمانة ، وأن تناقشها بعمق وشمول ، فإن فلسفة التربية والتعليم في العصور الماضية ما كانت تهدف إلى إيجاد نشء يستطيع النهوض بوطنه ، وتطويره في نواحيه المختلفة ، فإن الغاية من التعليم فيما مضى وحتى في هذا الوقت إنما كانت تعنى إلى خلق موظفين في جهاز الحكم ليس لهم أي هدف أو فلسفة اجتماعية ، لذا أصبح من المحتّم دراسة الخطط والمناهج والأساليب في التعليم حتى تتمكن من إعداد نشء قادر على تحمّل المسؤولية في بناء مجتمعه ، كما أن الواجب تمحيص جميع الكتب المدرسية على اختلاف أنواعها ، وإزالة ما فيها من زيف فكري وعقائدي ، وأن ننحّي جميع المبادئ والآراء المناهضة للدين الإسلامي ، وهناك واجب آخر وهو لزوم الرقابة الشديدة على الهيئات التعليمية ، فتفصل عنها دعاة الأفكار الهدامة ، وأصحاب العقائد الخرافية ، كالوجودية ، فتبعدهم عن هذه المهنة ، وتحول بينهم وبين عقول النشء .

لقد قدّم الإسلام منهاجاً كاملاً للتربية يهدف إلى تكوين الإنسان الصالح الذي يتسابق في ميادين الخدمة الاجتماعية ، ويسعى إلى تحقيق التكامل في بيئته ومجتمعه .. إنه منهج متميّز قد توفّرت فيه جميع عوامل النهوض والارتقاء والتماسك ، فقد جعل المسلمين في عصورهم الأولى قوّة متماسكة لا مثيل لهم في الأرض ، يفتحون ويغزون ويعمرون ويقيمون المثل الكريمة القائمة على أوامر الإنسانية

والمحبة والتعاون .

إنَّ التربية الإسلامية الخلقة قد استطاعت - بكلَّ اعتزاز وفخر - أن تستج خيرة الرجال ، وعظماء الإنسانية في قابلياتهم ومواهبهم وقدراتهم ، أمثال : عمّار بن ياسر ، وأبي ذرّ وسلمان وغيرهم من بناء التاريخ الإسلامي ، الذين ناهضوا الظلم ، وتنكروا للجهور ، وحالفوا الحقّ ، وبعثوا في هذه الأمة روح التضحية والنضال لاحتضان العدل ومناجزة الظلم والطغيان .

يعاني العالم الإسلامي في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخه أزمة حادة في كيانه التربوي ، فقد انتشرت فيه الميوعة والتسيّب والانحلال ، وسادت فيه الأهواء الخاصّة التي تجانب الحقّ ، ولم يعد أيّ ظلّ للتربية الإسلامية ، فقد تلاشت أكثر عناصرها ومقوماتها ، فقد انعدم الوفاء ، وفقدت المحبة والتعاون في سبيل الله ، وعمّ النفاق الاجتماعي ، وساد الجشع والتهالك على الظفر بالمادة من أيّ طريق كان ، فلا تحرّج في الكسب ، ولا نصح في العمل ، ولا تجنّب عن الخدع ، فلم يعد هناك احتياط ، ووقوف في الشبهات ، أو تورّع عمّا حرّمه الله ، كما لم يعد ظلّ للعطف والرأفة والتراحم بين الناس ممّا أوجب تفكّك المجتمع وتقلّله ، وإصابته بكثير من الأوبئة والأمراض الاجتماعية .

ومن بين المحن الكبرى التي مني بها المجتمع الإسلامي انفصال الكثيرين من الناشئة الحديثة عن أسرهم ، وتخليّهم عن جميع الروابط والتقاليد الاجتماعية ، فلم يهتمّوا بصورة ملحوظة بالعواطف الحيّاشة التي تكنّها الآباء لهم ، كما لم يعنوا بأداء ما عليهم من الواجبات التي فرضها الله لآبائهم ، خصوصاً في حال شيخوختهم وعجزهم ، فقد أصبحوا يعانون كثيراً من جفاء أبناءهم وفقدانهم للرعاية والعطف .

إنّ محنة الآباء لقاسية جداً ، خصوصاً من أبنائهم الذين يتلقّون معارفهم في العواصم الغريبة ، فإنّهم قد اكتسبوا عادات الغرب وطباعه في التخلّي عن الأسرة ، وعدم الاهتمام بأيّ شأن من شؤون التقاليد الاجتماعية ، فالشاب والفتاة لا يخضعان

في سلوكهما إلى الأبوين ، خصوصاً إذا لم تكن لهما مركزية اجتماعية ، فإنهم ينفرون منهما ، ويقابلونهما بمزيد من الامتهان والاحتقار .

لقد أصبح أكثر الشباب ينسابون وراء شهواتهم وميولهم ورغباتهم الجنسية ، قد احتضنتهم دور السينما والملاهي ، وانصرفوا إلى اللهو وإلى ما تبثه شاشة التلفزيون من الصور الخلاعية ، ولم تعد عندهم حياة للجد ، وسبب ذلك فقدانهم للتربية الواعية التي تهدف إلى صيانتهم ، وتحليهم بالعادات الكريمة والأخلاق الفاضلة .

وقد عنى هذا الكتاب بدراسة موضوعية وشاملة لما منيت به التربية الحديثة من عوامل النقص والانحلال ، كما عنى بعرض شامل للتربية الإسلامية وما تهدف إليه من تنمية الوعي ورفع مستوى الفكر ، وحفل بعرض المخططات الثقافية الإسلامية الهادفة إلى نشر العلم المركّز على الإيمان بالله ، وتهذيب النفوس .. آملاً أن أكون قد ساهمت في تنمية الوعي الإسلامي ، وخدمة الإسلام ، وإبراز بعض أفكاره التربوية الخلاقة ،

إنه تعالى وليّ القصد والتوفيق

عبد شريف العشري

الجف لأشرف

٢٧ / صفر / ١٣٩١ هـ

معاني التربية
وأهدافها



نحن مدعوون للبحث عن مدلول التربية في اللغة والاصطلاح العلمي ، وبيان ضرورتها وأهدافها ، وإيضاح الجهة التي تربطها بالتعليم والفلسفة والسياسة ، فقد عنى علماء التربية بتحقيق ذلك كله ، وبما أنّ ضرورة البحث المقارن تقتضي تحقيق ذلك كمقدمة أولية أو تمهيدية إلى البحوث التربوية الحديثة مع مقارنتها بالنظم التربوية الإسلامية التي هي موضوع بحثنا ، فإذن لا بدّ أن نعرض إلى ذلك بشيء من الإيجاز .

المدلول اللغوي

التربية في اللغة مأخوذة من ربّ ولده ، والصبي يربه « رباه » أي أحسن القيام عليه حتّى أدرك^(١) ، وفي الحديث : « لَكَ نِعْمَةٌ تُرَبُّهَا » ، أي : تحفظها وتراعيها وتربّيها . كما يربّي الرجل ولده . وفي حديث ابن ذي يزن : « أُسِّدُ تُرَبُّبٌ فِي الْغِيضَاتِ أَشْبَالاً » ، أي : تُرَبِّي ، وهو أبلغ منه ، ومن تُرَبُّبٌ بال تكرير الذي فيه ، وَتَرَبُّبُهُ وَارْتَبَّهُ وَرَبَّاهُ تربيةً على تحويل التضعيف ، وَتَرَبَّاهُ على تحويل التضعيف أيضاً أحسن القيام عليه ، ووليه حتّى يفارق الطفولة كان ابنه أو لم يكن^(٢) .

إنّ التربية - حسب المعنى اللغوي - عبارة عن تعاهد الطفل بالتغذية والرعاية ،

(١) تاج العروس : ٢٦١/١ .

(٢) لسان العرب : ٤٠١/١ .

وحسن القيام عليه حتى يفارق طفولته ، وهو شامل لتنمية مداركه وعقله .

المصطلح العلمي

وعني علماء التربية - منذ أقدم العصور - بتفسير هذه الكلمة وإيضاح مدلولها العلمي ، ولكنهم لم يستقرّوا على تفسير واحد لها ، وفيما يلي عرض ذلك :

١ - أسبق تعريف لها هو ما أدلى به افلاطون بقوله :

« التربية إعطاء الجسم والروح كل ما يمكن من الجمال ، وكل ما يمكن من الكمال » .

وشمل هذا التحديد التربية البدنية والروحية ، فالتربية البدنية هي التي توجد النمو والازدهار في الجسم ، والتربية الروحية هي التي تبعث الكمال والفضيلة .

٢ - عرض « هيل » إلى تحديد التربية الكاملة ، فقال :

« التربية الكاملة هي التي تحفظ الصحة البدنية والقوة الجسمية للتلميذ ، وتمكّنه من السيطرة على قواه العقلية والجسمية ، وتزيد في سرعة إدراكه ، وحدة ذكائه ، وتعوّده سرعة الحكم ودقته ، وتقوده إلى أن يكون رقيق الشعور يؤدّي واجباته بذمة وضمير... » .

وهذا التحديد يقتصر على التربية الكاملة الشاملة للتربية البدنية والعقلية ، وهو قريب ممّا أفاده افلاطون .

٣ - وعرفها « جولد سيمون » بقوله :

« التربية : هي الطريقة التي بها يكون العقل عقلاً ، ويكون القلب قلباً... » .

ومعنى هذا التعريف أنّ التربية هي التي تكون أداة إلى النمو العقلي ، وازدهار النفس بالأخلاق الفاضلة ، وهو مقتصر على التربية الروحية .

٤ - وحدّدها « هربرت » بقوله :

« التربية إعداد الإنسان ليحيى حياة كاملة .. » .

وهذا التعريف كالسابق مقتصر على التربية النفسية دون غيرها .

٥ - وعرّفها « جون ملتون » بقوله :

« التربية الكاملة : هي التي تجعل الإنسان صالحاً لأداء أي عمل ، عاماً

كان أو خاصاً ، بدقّة ومهارة في السلم والحرب .. » .

ونظر هذا التعريف إلى التربية المهنية دون غيرها .

٦ - وعرّفها « مستالوتزي » بقوله :

« التربية تنمية كلّ قوى الطفل تنمية كاملة متلائمة .. » .

٧ - وقال « هسلي » :

« التربية : تهذيب القوى الطبيعية للطفل كي يكون قادراً على أن يقود

خليفة سعيدة .. » .

٨ - وقال « جيموئل » :

« التربية : إعداد الفرد ليسعد نفسه أولاً وغيره ثانياً .. » .

٩ - وعرّفها « ليثري » بقوله :

« إنّ التربية هي العمل الذي تقوم به لتنشئة طفل أو شاب ، وأنها مجموعة

من العادات الفكرية أو اليدوية التي تكتسب ، ومجموعة من الصفات

الخلقية .. » .

١٠ - ولعلّ أوثق تعريف هو ما أدلى به « جون ديوي » من أنّها عملية تكثيف ما بين

الفرد والبيئة ، يقول :

« التربية : هي صوغ وتكوين لفعالية الأفراد ، ثمّ صيها في قوالب معينة ،

أي تحويلها إلى عمل اجتماعي مقبول من الجماعة...»^(١).

هذه بعض التعاريف التي أدلى بها علماء هذا الفن، وإن كان بعضها لا يخلو من نظر؛ لأنها عنيت بتحديد نوع خاص منها، ويجب أن يكون التعريف ملماً وشاملاً لجميع كُفَراد المعرفة حسب ما يقوله علماء المنطق.

المدلول التربوي

أمّا المدلول التربوي - حسب ما ذكره المعنيون بهذه البحوث - فله معنيان: أحدهما عامّ والآخر خاصّ، أمّا المعنى العامّ فهو شامل لكلّ عمل يصدر عن قصد أو غير قصد لكن فيما إذا كان من شأنه أن ينمّي قواه أو قوى غيره الجسميّة والعقليّة والخلقية أو الذوقية.

فالتربية بمفهومها العامّ تشمل ما تحدّثه عوامل التربية الثلاث^(٢) من آثار في تنمية القدرة والاستعداد البشري، سواء أكانت هذه الآثار ناشئة عن قصد أم عن غير قصد، فكلّ حركة تصدر عن الإنسان، وكلّ عمل يقوم به أو يصدر من غيره، وكلّ مظهر من مظاهر البيئة الاجتماعيّة التي تؤثر في نفس الإنسان، وفي كيانه المادي وغيره، سواء أكانت من عهد تكوينه نطفة في بطن أمّه أم في عهد آبائه وأجداده، كلّ هذه الأمور لها آثارها في تربية الإنسان، عظمت أو صغرت، وكلّها تعدّ من آثار التربية بالمعنى العامّ.

يقول المربيّ الإنجليزي «استوارت مل»:

«إنّ التربية بمعناها العامّ تشمل كلّ ما نعمل لأنفسنا، وكلّ ما يعمله غيرنا بقصد تقريبنا من كمالنا الطبيعي، فهي بأوسع معانيها تشمل الآثار غير

(١) الجامع في التربية العامّة: ١٢، روح التربية والتعليم: ٥ و ٦.

(٢) عوامل التربية الثلاث: الوراثة، والبيئة، والإرادة.

المباشرة التي تحدثها في الأخلاق ، والقوى الإنسانية من الأمور التي لها أغراض مباشرة مختلفة ، كالقوانين وأشكال الحكومات والفنون والصناعة وأنواع الحياة الاجتماعية ، بل العوامل الطبيعية التي لا سلطان لإرادة البشر عليها ، كالمناخ وطبيعة الأرض وموقع البلاد الخاص .

فالتربية بالمعنى العام تشمل كل شيء يؤثر في بناء الأخلاق ، سواء أصدَرَ من نفس الإنسان أم من غيره ، بل حتّى الأمور التي هي خارجة عن الاختيار ، كالمناخ وطبيعة الأرض لها دخالة في التربية ، وفي بناء الشخصية ، فإذا نظر الإنسان إلى صورة رائعة وأثرت في نفسه ، فلا بدّ أن يكون لها تأثير في تنمية خياله وذوقه ، وكثيراً ما نسمع ما يقوله النَّاسُ : « ربّنتي الأيام أو ربّاني الزمن أو ربّنتي الحوادث » . ومن الطبيعي أنّ هذه الأمور كلّها خارجة عن الاختيار .

المعنى الخاصّ : ويقصد به انتقال الأسس التربويّة والثقافيّة من جيل إلى جيل ، ويقول بعض المربّين في تحديدها :

« التربية بمعناها الخاصّ الذي يقصد منه عادة مقصورة على المساعي التي توجّه نحو تقويم الناشئين في ناحية خاصّة من نواحي الحياة ، أي المساعي والجهود التي يبذلها الكبار من أفراد المجتمع في سبيل تثقيف عقول الناشئين منهم ، وتقويم أخلاقهم ، كما تطلق التربية بمعناها الخاصّ على ما يقوم به المربّون والمدرّسون الفنّيون لتهديب الناشئين .. » ^(١) .

وأنكر « جون ستيورات » التربية بالمعنى العامّ ، وقصرها على المعنى الخاصّ فقال :

« إنّ كلمة التربية إنّما تطلق على الثقافة التي يسلّمها كلّ جيل لما يتلوه

من أجيال لتزويد الناشئين بما يقومهم ، ويرفعهم إلى المستوى الذي وصل إليه آبائهم»^(١).

وهذا التحديد يصرفها إلى المعنى الخاص ، إلا أن الكثيرين من علماء التربية ذهبوا إلى أن التربية بمفهومها الخاص لا تثمر في بناء الكيان الشخصي ما لم تنسجم مع التربية العامة التي هي عبارة عن المؤثرات الاجتماعية .
يقول المربي « ت . س . ألبوت » :

« تستطيع المدارس أن تنقل إلى تلاميذها جزءاً من الثقافة فحسب ، ولا يكون هذا النقل مثمراً إلا إذا كانت العوامل الخارجية في انسجام تام معها ، ولا نقصد بتلك العوامل الخارجية مجرد الأسرة والبيئة ، بل عوامل أخرى كالعمل واللعب والصحافة والمشاهد العامة والاستعراضات ووسائل التسلية والرياضة »^(٢).

ضرورة التربية

التربية ضرورة من ضروريات الحياة ، وشأن أصيل من شؤون الإنسان ، بها يكسب مقوماته النفسية والاجتماعية ، وبها يتحقق امتيازه عن سائر الكائنات ، فهي ضرورة للفرد والمجتمع على حد سواء .

يقول بعض المربين :

« التربية بالنسبة للفرد عملية تطبيع اجتماعي ، ينتج عنها إكسابه الصفة الإنسانية التي يتميز بها عن سائر الحيوانات الأخرى ، فنحن نعلم أن الفرد يرث عن والديه وأجداده أساسه البيولوجي من لون الشعر ،

(١) تطوّر النظرية التربوية : ٢٣ .

(٢) التعليم : ١١٤ .

والعينين ، وطول القامة ، إلى غير ذلك من الصفات الجسميّة ، ولكنّه يكسب المكوّنات الاجتماعيّة والنفسيّة لشخصيّته عن طريق التربية ، ولهذا كان اكتساب الصفات الإنسانيّة عملاً أساسياً تقوم به التربية .. وبذلك تكون التربية عمليّة اجتماعيّة ضروريّة للفرد كما هي ضرورة للمجتمع على حدّ سواء ..»^(١).

إنّ التربية تكسب الإنسان المقوّمات الفرديّة ، والعادات التي يبقى متأثراً بها طوال حياته ، وقد ذهب بعض علماء النفس إلى أنّ الطفل في أصغر ما يلزمه من العادات ، وفي أهمّ الخصائص العقليّة والخُلقيّة ، وفي الموقف العامّ الذي يقفه من الناس ، وفي وجهة النظر العامّة التي ينظر بها إلى الحياة أو العمل في كلّ هذه الأشياء مقلّد إلى حدّ كبير ، ولكنّه في أغلب الحالات يكون لا شعورياً ، فإذا منح الطفل بتقليده الأشخاص المهدّبين ظلّ متأثراً بأخلاقهم وعواطفهم ، وأنّ هذا التأثير في أوّل الأمر يعتبر تقليداً ، ولكنّه سرعان ما يصبح عادة ، والعادة طبيعة ثانية ، والتقليد هو أحد الطريقتين اللذين تكتسب بهما الخصائص الفرديّة ، وتتكوّن بهما الأخلاق الشخصية . التربية عنصر من عناصر الحياة ، ومبدأ أساسي للتكامل الشخصي ؛ لأنّها تقوم بتكيّف الانسان وتطويره ونضوجه .

يقول بعض الباحثين في الشؤون التربويّة :

« إنّ التربية ضرورة للفرد ذاته كما هي ضرورة للمجتمع ؛ ذلك لأنّ الفرد في بدء حياته لا يعتبر انساناً اجتماعياً ناضجاً ، إنّهُ كائن حيّ من الناحية البيولوجيّة ، كائن غير ناضج ، فيتعذّر عليه العيش في المجتمع والتكيّف معه .

وهنا تظهر أهميّة التربية في مساعدته على تنمية فرديّته وترقيتها ،

ومساعدته على تنمية قدراته واستعداداته ومهاراته إلى أقصى ما هو
مهيئاً له ، وعلى اكتساب الصفة الاجتماعية للعيش في المجتمع والتكيف
معه ، والالتقاء إليه ، وعلى هذا فالتربية تهتم الفرد كما تهتم المجتمع
تماماً... إنها ضرورة اجتماعية ، وضرورة فردية...»^(١).

التربية هي الوسيلة الوحيدة التي يملكها الإنسان لتحقيق نضوجه ، ورفع مستواه
الفردى والاجتماعى ، ومن ثم كانت ضرورة لازمة للحياة ، وعنصر مهم في كيان
الفرد والمجتمع ، وقد سبق أن دَلَّنا على ذلك بمزيد من البيان في تقديم هذا الكتاب .

الأهداف التربوية

وتحمل التربية أهدافاً خطيرة ، ومسؤوليات اجتماعية كبيرة ، وقد عني
الأخصائيون في بيانها ، ولكنهم اختلفوا في تحديدها ، والسبب في ذلك يرجع إلى
اختلاف وجهات نظرهم فيها ، فبعضهم قصر نظره على الأهداف الروحية ، والبعض
الآخر نظر إلى الأهداف المادية ، وثالث نظر إلى الأهداف الاجتماعية ، ورابع نظر
إلى النمو الفردى والتكوين الشخصى ، وفيما يلي عرض موجز لذلك :

١ - الأهداف الروحية

وذهب بعض المربين الإسلاميين إلى أنَّ الغرض الأساسى من التربية وطلب
العلم إنما هو تطهير النفس ، وصفاء الذات ، والاتصال بالله تعالى الذى هو من أسمى
الغايات ، وأنبل المقاصد .

يقول الغزالي :

« أيتها الولد ، كم من ليالٍ أحييتها بتكرار العلم ، ومطالعة الكتب ،

وحُرِّمَتْ على نفسك النوم ، لا أعلم ما كان الباعث فيه ، إن كان نيل غرض الدنيا ، وجذب حطامها ، وتحصيل مناصبها ، والمباهاة على الأقران والأمثال ، فويل لك ثم ويل لك ، وإن كان قصدك إحياء شريعة النبي ﷺ ، وتهذيب أخلاقك ، وكسر النفس الأمارة بالسوء ، فطوبى لك ثم طوبى لك ..»^(١).

وذهب بعض المرّين الإسلاميين إلى أنّ تطهير النفس من العيوب شرط أساسي لتلقّي العلوم ، ولذا كان من واجب المعلم أن لا يقبل طالباً حتّى يختبره في أخلاقه ، فإنّ وجده مهذب الأخلاق اشتغل بتعليمه ، وإلاّ منعه أشدّ المنع ، خيفة من أن يستعين بالعلم على الفساد ، فيعود الضرر من جرّاء ذلك عليه وعلى غيره ...»^(٢). وقال «فوريل» :

«إنّ التربية ينبغي أن تقود الإنسان إلى معرفة نفسه الداخلية ، وتقدير الطبيعة ، والثقة بوحداية الله ، ويجب أن ترفع الإنسان إلى الحياة الطاهرة المقدّسة الناشئة عن معرفة الله والطبيعة والنفس الإنسانيّة»^(٣). وأكّد «فرويل» في كثير من بحوثه على ذلك ، قال :

«إنّ الغرض من التربية حياة طاهرة مقدّسة ، ملوّها بالإخلاص والطهارة». وقد اتّفق كبار المرّين على أنّ التعليم الذي لا يؤدّي إلى الكمال وتهذيب النفس لا يستحقّ أن يسمّى تعليماً ، ويقول : «ويلولا» :

«إنّ الغرض من التربية هو إصلاح ما أفسده آباؤنا ، وذلك بمعرفة الله

(١) أيّها الولد : ٩٤.

(٢) آداب المريدين / ابن عربي : ٩٣/٢.

(٣) روح التربية والتعليم : ٢١.

حق المعرفة ، ومحبتنا له ، والتزامنا طريقه بفضل اكتسابنا للفضائل ..» .

وأكد « جون لوك » على الجانب الأخلاقي في التربية ، فقال :

« إن الفضيلة هي أهم ما تهدف إليه التربية » .

وهذه الآراء قد حصرت أهداف التربية في الناحية الروحية والأخلاقية ، ولم تكن بغيرها من أنواع التربية .

٢ - الأهداف المادية

ويرى فريق من المربين وغيرهم أنّ الغرض من التربية يجب أن يكون لإعداد الناشئين لاكتساب العيش ، ويسمى ذلك عند بعض المربين من الإنجليز « غرض الخبز والزبد » .

وهذا الرأي له قيمته ؛ لأنّ الإنسان - بحسب حبه للبقاء - فهو مرغم على السعي لاكتساب وسائله ، وليست هناك وسيلة أهم من جلب القوت ، واكتساب الرزق اللازم لبقائه وبقاء من يعول به « فإنّ تعليم الحرفة أمان من الفقر » .

وليس للغني أن يطمئن إلى ثروته ويترك الحرفة والصناعة ، فقد جعل الله الأرض ذلولاً ، وأمرنا بالسعي في مناكبها ، والأكل من رزقه ، وعلينا أن نعلّم أبناءنا كيف يضربون في الأرض لاكتساب الرزق »^(١) .

وهذا الرأي ناظر إلى الناحية المادية ، ولم يهتم بغيرها من النواحي التربوية .

٣ - الأهداف الاجتماعية

ونظر بعض المربين إلى الناحية الاجتماعية فأكد على رعايتها والاهتمام بها .

(١) النهج الحديث في أصول التربية وطرق التدريس : ٣٣/١ .

يقول « جان بياجه » :

« إن أهم أهداف التربية تحقيق الازدهار التام لشخصية الانسان ، ودعم حسن الاحترام لحقوق الغير وللحريات الأساسية ، كما يجب على التربية أن تعزز روح التفاهم والصداقة بين كافة الشعوب ، وكافة الجامعات العنصرية أو الفئات الدينية ، وأن تساعد في تنمية النشاط الذي تقوم به منظمة الأمم المتحدة للحفاظ على السلم .. »^(١).

وأكد ذلك (كوندرسيه) فقال :

« إن التربية يجب أن تعمل أولاً على أن تتيح لكل فرد من اتقان مهاراته ، وجعله قادراً على القيام بالمهام الاجتماعية التي تطلب منه ، ونمو قدراته إلى أقصى حد ، كما يجب أن تعمل على بث روح المساواة بين أفراد الشعب ، وإذا تحقق ذلك فقد حققت التربية المساواة السياسية التي يقرها القانون ، وأما الهدف الاجتماعي من التربية فيعبر عنه توجيه التعليم بشكل ينتج عنه ارتقاء الصناعة وتقدمها ، بحيث تزداد سعادة المواطنين ، ويتمكن أكبر عدد من الناس من القيام بالمهام الضرورية للمجتمع ».

وقد أعلن الإسلام أغلب هذه الأمور ، واعتبرها من العناصر الأساسية في حقه التربوية ، كما سنوضح ذلك بمزيد من التفصيل .

٤ - النمو الفردي

ويرى بعض المربين أن الهدف من العملية التربوية هو النمو المتكامل للفرد حسب ما تؤهله استعداداته وقدرته ، ومن بين الوسائل تحقيق التراث الثقافي الذي

(١) حق الناس في التربية والتعليم ، مأخوذ من المادة ٢٦ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .

يجب أن ينتظم سيكولوجياً لكي يناسب مراحل النمو المختلفة^(١).

وأضاف بعض المربين إلى ذلك العناية بتقويم الأخلاق ، وحسن السلوك ، والنشاط في العمل ، وقوة الإرادة ، والاعتماد على النفس ، وتهذيب الغرائز ، واحترام الناس ، والاعتراف بحقوقهم ، وحسن علاقة الفرد بالمجتمع ، والعمل على إصلاح الفاسد ، وتقديم أحوال بيئة الشخص ، والسعي إلى رقي المجتمع الإنساني^(٢).

ويرى افلاطون أنّ من أغراض التربية أن نطلق سراح الأسرى الجهلة ونحرّهم من أغلالهم ونخرجهم من عالم الظلمات إلى عالم النور ، ومن الكهوف والمغارات السفلية إلى عالم الشمس والحرية ، وأن نرفع أرقى الطباع النفسية إلى منزلة تفكر في عمل خير شيء في الوجود .

أهداف أخرى

وأدلى فلاسفة التربية ببعض الأهداف التي توجب النمو الفردي ، والتكوين الذاتي ، وأهمّها :

١ - الصحة .

٢ - التكيف الانفعالي والاجتماعي .

٣ - معرفة العالم الطبيعي .

وهناك طائفة أخرى من الفلاسفة حصروا أهداف التربية في التعليم الثانوي بعشرة أهداف ، وهي :

(١) الأسس الاجتماعية للتربية : ٦٥ .

(٢) النهج الحديث في أصول التربية : ٩/١ .

- ١ - تنمية الطرق الصحيحة للتفكير.
- ٢ - غرس العادات المفيدة التي تتعلق بالعمل والدرس.
- ٣ - تنمية الاتجاهات الاجتماعية.
- ٤ - إكساب الأفراد مجموعة من الميول المناسبة.
- ٥ - تنمية الذوق الأدبي وغيره من النواحي الجمالية.
- ٦ - تنمية الحاسة الاجتماعية.
- ٧ - تنمية توافق فردي اجتماعي.
- ٨ - إكساب الفرد المعلومات المهمة.
- ٩ - تنمية الصحة الجسميّة.
- ١٠ - تنمية فلسفة ثابتة للحياة^(١).

هذه بعض الأهداف التربويّة ، وسنذكر جملة أخرى عند التحدّث عن أنواع التربية.

التربية والتعليم

إنّ مفهوم التربية بالمعنى العامّ - كما تقدّم - يشمل جميع أنواع النشاطات التي تؤثر في تنمية الفرد واستعداداته وسلوكه ، ولا يختصّ ذلك بما يقوم به الفرد من إعداد لنفسه ، أو بما يقوم به الغير لتنمية قدرته ، بل يشمل مفهوم التربية ما هو أكثر من ذلك ؛ إذ يحوي كلّ تعديل وتهذيب للأخلاق والسلوك ، ويحوي كلّ ما يتمّ بطريق غير مباشر ، كالقوانين السائدة ، ونظام الحكم ، وأنماط المعيشة ، والتقاليد ،

والعادات الاجتماعية ، والأنظمة المتبعة في العرف ، وغيرها .

فهذه العوامل غير المباشرة تؤثر في التربية كما تؤثر فيها البيئة المادية ، والظروف الطبيعية التي لا تخضع لسيطرة الفرد ، كالجو ، والموقع الجغرافي ، وغيرها ، ومن ثمّ كان كلّ ما يساعد على تشكيل الكائن البشري وجعله في الحالة التي هو عليها من العوامل المؤثرة في تكوين التربية وإيجادها .

وعلى هذا فالتربية - بهذا المعنى - تشمل كلّ تنمية وتهذيب ينصبّ على قوى الفرد واستعداداته ، ونواحي سلوكه بقصد توجيهه .

أمّا « التعليم » فيقصد به نقل المعلومات من المعلم إلى المتعلّم ، بقصد إكسابه ضرورياً من المعرفة ، فمعنى التعليم - على هذا - محدود في هذا الإطار ، في حين أنّ التربية أوسع معنى ، وأسمى قصداً ؛ لأنها تتضمن كلّ نهوض وترقية إيجابية لقوى الفرد .

التربية بالمعنى العامّ تنصبّ على جميع نواحي شخصية الفرد من جسميّة وعقليّة وخلقيّة ، أمّا التعليم فيقصد به نقل المعرفة إلى الفرد كإحدى الوسائل في تربيته ، فهو بهذا المعنى عامل جزئي ، وليس فيه من الإيجابية للفرد المتعلّم إلّا بقدر ما يستطيع أن يحصل عليه من المعرفة .

إنّ المعرفة ليس لها أي أثر في حياة الفرد ، إلّا إذا كانت معرفة حيّة مطابقة لواقع الحياة حتّى يستفيد منها في سلوكه ^(١) .

وأما المعرفة الناقصة فلا أثر لها في تكوين الشخص ، بل إنّها في كثير من الأحيان تعمل على تأخيرها في الحياة العمليّة ، وسنوضح ذلك بمزيد من التفصيل عند البحث عن التربية الحديثة .

الفلسفة والتربية

إنَّ العلاقة بين الفلسفة والتربية وثيقة جدًّا ، وقد أكَّد « فخته » هذا الارتباط في مقالاته للشعب الألماني ، فقال :

« إنَّ فنَّ التربية لن يصل إلى حالة الوضوح التامّ بدون مساعدة الفلسفة ، فهناك علاقة متبادلة بين الاثنين ، وإحدهما بدون الأخرى ناقصة لا يمكن الانتفاع بها » .

وذهب « جون ديوي » إلى أبعد من هذا فقال :

« إنَّ الفلسفة اليونانية - وهي فلسفة نظامية معروفة - لم تنشأ إلا تحت ضغط مسائل التربية على عقول المفكرين ، فالطبيعيون الأولون لم يكونوا إلا فصلًا في تاريخ العلم ، أما جماعة السوفسطائيين ومن جاؤا لمناهضتهم ، فأولئك هم الذين اضطرَّتهم شؤون التربية حينئذٍ لأن يتفلسفوا .. فكان لهم كلام في التربية أدَّى بهم إلى نظريات في الفلسفة » ^(١) .

ويقول « هوبارث سبنسر » :

« إنَّ التربية الحقَّة لا تكون عملية إلا عن طريق الفلسفة الحقَّة » .

علم النفس والتربية

وتدخَّل علم النفس في الشؤون التعليمية ، فتناول جميع موادها فحلَّلها إلى عناصرها الأولية من حيث القدرات والعمليات العقلية التي تدخَّل فيها ، فقد تناول بالتحليل القراءة والكتابة والحساب واللغات والإنشاء ، كما تناول بالبحث فنون

الرسم ، والنقش ، والزخرفة ، والمواد العملية ، وحلّ جزءاً كبيراً منها إلى عناصرها الأولى ، عقلية كانت أو يدوية ، ومن نتائج هذه البحوث أن صار في استطاعة المدرّس أن يعرف ما يناسب التلميذ بحسب استعداداته ، وما يناسب التلميذ الواحد في سنّ دون الآخر أو في مرحلة تعليمية دون الأخرى ، وفي استطاعته كذلك أن يكون أكثر فهماً لأحسن الطرق لتعليم المواد الدراسية المختلفة .

إنّ علم النفس هو المرشد الأكبر في عمله ، سواء أكان في الحقول التعليمية أم في المجالات التربوية^(١) .

التطوّر التربوي

كان المنزل في فجر التاريخ الإنساني هو الجهاز الوحيد للتربية المقصودة ، وكانت العشيرة البدائية هي التي تقوم وحدها بتربية الأطفال من النواحي الجسميّة والعقليّة والخلقيّة ، وتهيئ لهم الوسائل لإعدادهم للحياة ، وظلّ الأمر على هذا الحال حتّى فاتحة العصور القديمة ، فالأسرة الرومانيّة في أقدم عصورها كانت تشرف وحدها على تنشئة أطفالها وتربيتهم من مختلف النواحي وفق ما تشاء لها نظمها الخاصّة بدون تدخّل من جانب أيّة سلطة من سلطات المجتمع العامّ .

وبذلك كانت التربية من العوامل التي يساعدها المنزل ويكمل نقصها ، وكانت جهود المنزل التربويّة مختلطة بنشاطات أخرى غير متميّزة عنها ، حتّى كانت تربية الأطفال أشبه شيء بتربية غير مقصودة ، ثمّ أخذ المنزل يوجد عناية خاصّة لشؤون التربية ، ويتّجه إليها في صورة مقصودة ، وبعد أن ظهرت الكتابة^(٢) ، ودوّن بفضلها ما

(١) علم النفس .. أسسه وتطبيقاته التربويّة : ٢٣ و ٢٤ .

(٢) إنّ اختراع الكتابة لم يحدث إلّا منذ ألف سنة تقريباً ، وكانت خبرات كلّ جيل قبل ذلك تنتقل إلى جيل آخر عن طريق المشافهة ، ولمّا اخترعت الكتابة تمكّن الإنسان من

اهتدى إليه الإنسان من الحقائق في مختلف الشؤون أصحبت تربية الجيل اللاحق تتوقّف على إحاطته بما كشفه السلف ، وما دوّن في ميادين العلوم والفنون ، انضمّ إلى وظائف المنزل التربويّة القديمة وظيفة جديدة وهي وظيفة التعليم بمعناه المدرسي الأخصّ .

وكان يقوم بهذه الوظيفة الآباء والأقرباء وكبار أفراد الأسرة والعشيرة حيال صغارهم^(١) ، ولمّا أشرق نور الإسلام على العالم أحدث تغييراً هائلاً في جميع نواحي الحياة ، ومن أهمّها الناحية التربويّة ، فقد عني بها عناية بالغة ، فحثّ المسلمين على التعليم حتّى يتمكّنوا من الاطّلاع على مصادر المعرفة والثقافة في سبيل تحسين حياتهم ، ورفع مستواهم ، وسنعرض ذلك عند البحث عن الاطار الثقافي في الإسلام .

التربية والسياسة

إنّ أي نظام سياسي لا بدّ له من نظام تربوي يدعمه ، وقد عنت الثورات السياسيّة والاجتماعيّة باستخدام التربية والتعليم ، والاعتماد عليهما في سبيل استمرار حكمها ، وإيضاح فلسفته .

يقول بعض المعنّيين في الشؤون التربويّة :

« وتتنّح السيطرة الاجتماعيّة عن طريق التربية عندما تحدث ثورة من الثورات السياسيّة أو العسكريّة أو الاجتماعيّة ، فإذا نجحت الثورة في تحقيق مآربها السياسيّة كان عليها أن تتّجه إلى التربية لتتخذ منها أداة

→ تسجيل معرفته وزيادتها ، الأمر الذي سهّل اجتماع عناصر الثقافة وزيادتها ، ولذلك قيل : إنّ اختراع الكتابة أخطر اختراع في تاريخ الإنسان ، جاء ذلك في علم الاجتماع : ٢٧٤ .

لتحقيق أهدافها الاجتماعية ، إنه بغير التربية تبقى الثورات في نطاق محدود منعزلة عن بقية المجتمع وعن بقية أفرادها ، فإذا ما استمرت الثورة في انعزالها ولم يتحقق انتشارها ، وانتشار أهدافها في المجتمع كان الزمن كفيلاً بإفنائها .. » .

والاعتماد على التربية من أهمّ الوسائل في الأنظمة الحديثة ، فهي ترى أنّ التربية والعلم يجب أن يحمل شعار الثورة الثقافية ، وقد استخدمت الشيوعية جميع وسائل النشر والتبشير لبثّ أفكارها ، وإيجاد خلايا لها في معاهد التربية والتعليم لتتخذ من الطلبة جنوداً لتدعيم أفكارها ، وضرب المعسكر الرأسمالي المنهار .

وعلى أي حال ، فإنّ السياسة - بما لها من مفهوم شامل - قد استخدمت التربية بجميع أجهزتها ووسائلها ، وهي ضرورة حتمية لها إن أرادت البقاء والاستمرار .



عوامل التربية



إنَّ التربية إنَّما تكون قاعدة أساسية للناتج السلوكية بصورة عامة فيما إذا استندت إلى العوامل المؤثرة في بنائها وتكوينها ، ويستحيل أن تتحقّق أو توجد ثمراتها من دون أن تتوفّر فيها الأسباب المؤدية إلى إيجادها ، وهي حسب ما نصّ عليها علماء التربية وغيرهم تتلخّص فيما يلي :

الوراثة

وعزى علماء النفس الذكاء والغباوة إلى قانون الوراثة ، وقالوا: إنَّهما يستندان إليها استناداً مباشراً ، وفرّعوا على ذلك أنّ الطفل إذا كان ذكياً بحسب وراثته فإنّه يتلقّى المناهج التربوية والتعليمية بسهولة ، كما أنّ الذكاء من أهمّ العوامل المؤدية إلى النموّ الفكري ، والنضوج العلمي ، وإذا كان الطفل بليداً بحسب وراثته فإنّه من الصعوبة بمكان أن تجدي كافّة الوسائل التربوية والتعليمية في تقدّمه ، وازدهار شخصيته .. ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة للبحث عن الوراثة التي هي من أهمّ الوسائل في بناء الكيان التربوي .

١ - تحديد الوراثة

عرّفت الوراثة بأنّها ميل طبيعي في الفرع لمشابهة أصله في تكوينه الجسماني ، وفي وظائف أعضائه ، وحدّدها جماعة من علماء الوراثة فقالوا: «إنّها مشابهة الفرع لأصله» ، ويتّضح فيما يلي واقعية هذا التحديد وأصالته .

٢ - التحليل العلمي

والتحليل العلمي للوراثة هو أنَّ الإنسان في بدء حياته وتكوينه إنما هو خلية صغيرة واحدة تسمى «زايجوت»، وهذه الخلية هي أعجب ما في الكون، ومن أغمض الأسرار وأدقها، وتدلل على عظيم قدرة الله تعالى خالق الكون وواهب الحياة، وهي تنشأ نتيجة عملية إخصاب بين خليتين هما - في غاية الدقة - البويضة^(١) والحيوان المنوي^(٢)، وعندما تتحد هاتان الخليتان تنتجان نواة فرد

(١) البويضة: حبيرة صغيرة جداً، ببضوية الشكل، تحتوي على قشرة فيها مادة مائية تسمى (بروتوبلازما).

(٢) إنَّ الحيوانات المنوية المندفعة بكثرة تقصد البويضة للقاء، وحينما تشعر بهجومها عليها تستعد لاتخاذ أكبرها جسماً، وأقواها، وأنشطها حركة، وعندما يدنو الحويمن النشط منها يظهر على سطحها انتفاخ صغير من الجانب المقابل له، ثم يرق قشره استعداداً لهجومه، ثم يهجم الحويمن عليها من ذلك الانتفاخ، ويثقبه برأسه، ثم يلج في صميمها ويبقى ذنبه خارجاً، فتتكمش البويضة عليه، وتتقلص حتى تقطع ذنبه، ويمتزج الحويمن داخل البويضة، وبهذا يتم تكميل اللقاح، وبعد فترة تنزل البويضة من البوق إلى الرحم فلتلتصق بإحدى جدرانها الداخلية، وتنمو هناك، وتتكوّن فيها الأنسجة والأجهزة الحيويّة العضويّة، وتظهر الأطراف والجذع والرأس بالتدريج، ويكون هذا غالباً في الشهر الثاني من الحمل، ثم يستر هذا المجموع بغشاء قوي سميك يسمى (المشيمة)، ووظيفتها حفظ الجنين وتغذيته بواسطة أوعيتها الشعريّة المنبّئة في جدرانها حيث تمتص دم الأم الذي كان حيضاً قبل الحمل وبعده، وهذه التغذية تكون بصورة كيميائية عجيبية أشبه ما تكون بامتصاص جذور النبات للماء من الأرض، وبعد كمال خلقة المشيمة يتولّد داخلها سائل أصفر باهت الصفرة يسمى «السائل الامينوسي» وهو يتولّد من ترشحات الرحم المائية، ومن الأغشية المحيطة به، وفائدته أنّ يدفع بالجنين داخل الرحم ليدفع عنه كلّما تلاقيه الأم من هزّات وصدمات، مضافاً إلى حفظه للجنين بالحرارة المناسبة له، وهو مع ذلك كلّه يحدّد عنق الرحم ويوسّعه عند الولادة، كما يقوم بتطهير الطريق وتعقيمه أمام الجنين قبل الولادة ليسهل خروجه مع رفع الضغط الرحمي عليه حين الطلق، إلى غير ذلك

جديد ، وفي تلك اللحظة يقضي بأن سيكون ذكراً أو أنثى ، طويلاً أو قصيراً ، ذكياً أو غيبياً ، غسل العينين أو أزرقهما ، ففي هذه الخلية تنطبع جميع الصفات والمميّزات ، ولا يمكن أن تتغيّر.. فالوراثة إذن هي مجموعة المميّزات التي تتركز في البويضة المخضبة .

٣- قوانين الوراثة

إنّ قوانين الوراثة من الأمور الذاتية التي لا تنفك عن الإنسان في جميع أدوار حياته ، ومن أهمّها ما يلي :

الأول : من أظهر قوانين الوراثة ، وأكثرها مشاهدة مشابهة الفرع للأصل في مظاهره الشكلية ، وخواصه الذاتية ، وهو أمر بين في جميع الكائنات الحية ، فبذور القطن تخرج قطناً ، وبذور الزهرة تخرج زهرة وتحاكيها في ألوانها وخصائصها ، وهكذا سائر البذور النامية ، ويظهر ذلك في الحيوانات بصورة ظاهرة ، فالقطّة الصغيرة تشبه أبويها في هيكلها وسائر صفاتها ، وفي الإنسان يشبه الولد أبويه لا في الصفات العامة فحسب ، بل في دقائق الصفات ، فالآباء السود يلدون أبناءً سوداً ، والآباء البيض يلدون أبناءً بيضاً ، ومن ذلك الذكاء والغباء ، فهما من الصفات

﴿ ذلك من الفوائد .

ثمّ بعد تكوين المشيمة وحدوث السائل ، وحصول هيكل الجنين يظهر الحبل السري في جانب السرة ، ويطول إلى نصف متر أو أكثر ، وفائدته نقل الدم من الأم إلى الجنين لتغذيته ، ثم إخراج الدم من الجنين إلى الأم ليلتقي مع دم الأم في دورتها الدموية ، هذا هو تكوين الجنين في الرحم ، وقد فضله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : الآيات ١٢ - ١٤] .

الوراثية ، وسبب ذلك - فيما قرره علماء الوراثة - أنَّ للإنسان جزءاً نوعياً خاصاً لا يموت صاحبه ، بل يمتدّ ويستأنف حياته في نسله ، هذا الجزء اسمه « جرم بلازم » ويقول « وايزمان » :

« إنَّ الولد أخو الأب من أمّين مختلفين ؛ إذ إنّه في اللحظة التي تخصب فيها البويضة تنقسم إلى قسمين : قسم منها يظلّ محتفظاً بصفات الأب ، ويورث إلى الجيل الجديد ، وقسم آخر يستهلك في النموّ ويسير في طريق النموّ فيتحول إلى مضغة ثم إلى جنين » .

ويقول « بيرون » :

« إنَّ ابني ، وهو منسوب إليّ ولكنني أرى أجداده الماضين ينازعوني هذا الملك العزيز لديّ ، فإنّهم يشوّهون طهارة نفسه ، ويكذّرون صفاء روحه بما رسب في أعماقهم من نزعات شريرة مجهولة ، انتقلت إليه بالوراثة .. » .

وقسموا الوراثة حسب المشابهة إلى ثلاثة أقسام :

١ - الوراثة بالتحيز

ومعناها أن يشابه الفرع أحد أصليه في كلّ الصفات أو معظمها ، كأن يكون الولد مثل أبيه في كثير من صفاته الجسميّة والعقليّة .

٢ - الوراثة بالائتلاف

وهي مخالفة الفرع لصفات أصله ، كما إذا تزوّج أوربي بشرقية ، فإنَّ الإبن يخالف أبويه في مظاهرهما الشكليّة .

٣ - الوراثة بالاقتران

وهي أن يكون الفرع مشابهاً لأحد أصليه في صفات ، وللثاني في صفات أخرى ،

كأن يأخذ الولد الذكاء وطول القامة عن أبيه ، وسواد الشعر وشكل العينين عن أمه ، وأكد ذلك « مندل » فقال :

« إن كثيراً من الصفات الوراثية تنتقل بدون تجزئة أو تغير من أحد الأصيلين أو منهما إلى الفرع » .

الثاني : إن الإنسان قد يرث صفات أجداده السابقين ، ومميّزاتهم الشكلية . يقول الدكتور « الكسيس كارل » :

« يمتدّ الزمن مثلما يمتدّ في الفراغ إلى ما وراء حدود جسمه .. وحدوده الزمنية ليست أكثر دقة ولا ثباتاً من حدوده الاتساعية ، فهو مرتبط بالماضي والمستقبل ، على الرغم من أن ذاته لا تمتدّ خارج الحاضر .. وتأتي فرديتنا - كما نعلم - إلى الوجود حينما يدخل الحويمن في البويضة ، ولكن عناصر الذات تكون موجودة قبل هذه اللحظة ومبعثرة في أنسجة أبونا وأجدادنا وأسلافنا البعيدين جداً ؛ لأننا مصنوعون من مواد آبائنا وأمهاتنا الخلوية ، وتتوقف في الماضي على حالة عضوية لا تتحلل .. ونحمل في أنفسنا قطعاً ضئيلة لأعداد من أجسام أسلافنا ، وما صفاتنا ونقائصنا إلا امتداد لنقائصهم وصفاتهم .. » .

وهذا الرأي صريح في أن الأبناء والأحفاد يرثون أغلب صفات آبائهم وأجدادهم النفسية والجسمية ، وأنها تنتقل إليهم بغير إرادة ولا اختيار .

الوراثة والبيئة

إن الدور الذي تلعبه البيئة في التكوين النفسي لا يزال غامضاً ، وهناك اعتقاد سائد يقضي بأن التغيير في البيئة يؤدي إلى التغيير في الوراثة ، وقد استطاع العلم - بعد أبحاث تجريبية قام بها علماء الوراثة دامت ثلاثين عاماً أجريت على النبات -

والحيوان والإنسان - أن يقوَّض هذا الاعتقاد ويزيفه ، فقد ثبت أنَّ البيئة ليست إلا عاملاً مساعداً للوراثة ، فهي تقرر أنَّ المميَّزات تظهر ، وإلى أي حدَّ يمكن أن تنمو ، فالوراثة تقضي بتعيين العوامل الثابتة ، والبيئة تعيِّن العوامل المتغيِّرة .

البيئة مهما تغيَّرت وتطوَّرت فإنَّها لا تنتج مطلقاً ما يخالف الوراثة ، فإنَّها من الأمور الذاتية التي لا يمكن أن تطرأ عليها عوامل التغير والتبديل ^(١) .

الإسلام وقانون الوراثة

واكتشف الإسلام ظاهرة الوراثة قبل أن يكتشفها علماء النفس والوراثة ، ودلَّ على كثير من آثارها ومميَّزاتها ، وأنَّ لها دخالة إيجابيّة في التكوين السليم وعدمه للإنسان ، فهي تؤثر أثراً ذاتياً في الشخص منذ بداية تكوينه ، فقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال : « السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ » ^(٢) .

ومعنى الحديث : أنَّ العوامل الوراثيّة تمنح الإنسان - وهو في بطن أمِّه - إمّا السعادة إن توفَّرت في آبائه الصفات الفاضلة والنزعات الكريمة ، أو الشقاء إن كانت طباعهم شريرة .. وحتى الصفات العارضة تنتقل بالوراثة إلى الأبناء ، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك فيما اقتصَّ من خبر نبيِّه نوح ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ^(٣) ، لقد كشفت الآية عن انتقال عقائد الكفَّار إلى أبنائهم ، وأنَّهم يرثون صفاتهم الذميمة .. وقد أثر عن الرسول

(١) الإنسان ذلك المجهول : ٢٠٣ ، التربية الحديثة : ٢٦٧ ، النهج الحديث في أصول التربية ،

من أمالي الإمام الصادق ﷺ .

(٢) بحار الأنوار : ٤٣/٣ .

(٣) نوح ٧١ : ٢٦ و ٢٧ .

الأعظم ﷺ أن رجلاً من الأنصار أقبل إليه فقال له :

يا رسول الله ، هذه بنت عمّي ، وأنا فلان ، حتّى عدّ عشرة من آبائه ، وهي ابنة فلان حتّى عدّ عشرة آباء لها ، وليس في حسبي ولا في حسبها حبشي ، وأنها وضعت هذا الحبشي ، فأطرق ﷺ ثمّ رفع رأسه وقال له :

«إِنَّ لَكَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ عِرْقًا ، وَلَهَا تِسْعَةُ وَتِسْعُونَ عِرْقًا ، فَإِذَا اشْتَمَلَتْ اضْطَرَبَتْ الْعُرُوقُ ، وَسَأَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ عِرْقٍ مِنْهَا أَنْ يَذْهَبَ الشُّبُهَةُ إِلَيْهِ . قُمْ ، فَإِنَّهُ وَلَدُكَ ، وَلَمْ يَأْتِكَ إِلَّا مِنْ عِرْقٍ مِنْكَ أَوْ عِرْقٍ مِنْهَا»^(١).

فانصرف الرجل آخذاً بيد امرأته وولده .. ودلّت على هذه البادرة على ما تنقله الوراثة من أدقّ الصفات وأعمقها إلى الأبناء ، وقد ربّ الإسلام كثيراً من الأحكام على هذه الظاهرة ، ونلمح إلى بعضها :

أولاً: لقد حثّ الإسلام بإصرار على من يريد الحياة الزوجيّة أن يتعرّف على المرأة فيتبصّر في أحوالها ، ويبحث عن شؤونها وشؤون أسرتها حذراً من أن يكونوا مصابين ببعض العاهات أو الأمراض النفسيّة ، فتسري إلى أبنائهم .. وقد أكّد الرسول الأعظم ﷺ على ضرورة الفحص عن ذلك ، فقد قام ﷺ خطيباً بين أصحابه فقال :

«أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدِّمَنِ .

فانبرى إليه قوم فقالوا له :

يا رسول الله ، وما خضراء الدمن ؟

قال : الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَنَبَتِ سُوءٍ»^(٢).

(١) مستدرک الوسائل / المحدث التوري : ٦٣١/٢ .

(٢) وسائل الشيعة : ١٤/١٤ .

وأثر عنه عليه السلام أنه قال: «اخْتَارُوا لِطُفَيْكُم، فَإِنَّ الْخَالَ أَحَدُ الضَّجْبَيْنِ» ^(١).

وقال عليه السلام: «أَنْكِحُوا الْأَنْكَاءَ، وَأَنْكِحُوا فِيهِمْ، وَاخْتَارُوا لِطُفَيْكُم» ^(٢).

وفي حديث آخر: «تَخَيَّرُوا لِطُفَيْكُم فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَاسٌ» ^(٣).

وقد اهتم أئمة أهل البيت عليهم السلام اهتماماً بالغاً في ذلك، وأولوا هذه الجهة المزيد من العناية، فقد استشار إبراهيم الكرخي الإمام الصادق عليه السلام في الزواج فقال عليه السلام له:

«انْظُرْ أَيْنَ تَضَعُ نَفْسَكَ، وَمَنْ تُشْرِكُهُ فِي مَالِكَ، وَتُطْلِعُهُ عَلَى دِينِكَ وَسِرِّكَ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَبِكْرًا تُنْسَبُ إِلَى الْخَيْرِ وَإِلَى حُسْنِ الْخُلُقِ...» ^(٤).

وقال عليه السلام: «إِنَّمَا الْمَرْأَةُ قِلَادَةٌ، فَانْظُرْ مَا تَتَّقَلَّدُ، وَلَيْسَ لِلْمَرْأَةِ خَطَرٌ لَا لِصَالِحَتَيْنِ وَلَا لِطَالِحَتَيْنِ، فَأَمَّا صَالِحَتَيْنِ فَلَيْسَ خَطَرُهَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، هِيَ خَيْرٌ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَمَّا طَالِحَتَيْنِ فَلَيْسَ خَطَرُهَا الثَّرَابُ، الثَّرَابُ خَيْرٌ مِنْهَا» ^(٥).

ولصيانة الأسرة من الانحطاط فقد كره الإسلام الزواج من المرأة الحمقاء، فقد روى الإمام أبو عبدالله عن جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَتَزْوِيجَ الْحَمَقَاءِ، فَإِنَّ صُحْبَتَهَا بَلَاءٌ، وَوَلَدُهَا ضِيَاعٌ» ^(٦).

وكذلك حذر الإسلام من الزواج بالمرأة المجنونة لئلا ينتشر في المجتمع

(١) وسائل الشيعية: ٢٩/١٤.

(٢) وسائل الشيعية: ٢٩/١٤.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٤٥/١.

(٤) وسائل الشيعية: ١٤/١٤.

(٥) معاني الأخبار: ٤٧.

(٦) فروع الكافي: ٣٥٣/٥، الحديث ١. وسائل الشيعية: ٥٦/١٤.

المصابون بالشذوذ والعاهاات ، فقد روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « سألته بعض أصحابنا عن الرجل المسلم تعجبه المرأة الحسناء أ يصلح له أن يتزوجها وهي مجنونة ؟

قال لا ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أُمَّةٌ مَجْنُونَةٌ فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَطَّأَهَا وَلَا يَطْلُبَ وَلَدَهَا » ^(١).

وقد تضافرت الأخبار عن أئمة الهدى وهي تحث المسلمين على أن تكون رابطتهم الزوجية قائمة قبل حدوثها على أساس الاختبار والفحص حذراً من أن تكون المرأة أو أسرتها مصابين ببعض العاهات فيسري ذلك إلى الأبناء مما يؤدي إلى انتشار المنحرفين في سلوكهم بين أفراد المجتمع .

ثانياً: أكد الإسلام على المرأة أن تتعرف على حال الرجل الذي تريد أن يكون شريكاً لها في حياتها حذراً من أن يكون من ذوي العاهات أو مصاباً في سلوكه ، وتقع مسؤولية الفحص على ولي أمرها ، فقد روى الإمام الرضا عليه السلام ، عن آبائه عليهم السلام ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال :

« النِّكَاحُ رِقٌّ ، فَإِذَا أَنْكَحَ أَحَدُكُمْ وَلَيْدَتَهُ فَقَدْ أَرْقَاهَا ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ لِمَنْ يُرِقُّ كَرِيْمَةً » ^(٢).

وقد حذر الإسلام من تزويج المدمن على شرب الخمر ، فقد روى أبو عبد الله ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال :

« مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ بَعْدَ مَا حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِي فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُزَوَّجَ إِذَا خَطَبَ » ^(٣).

(١) تهذيب الأحكام : ١/٦ . وسائل الشيعة : ١٠/٥ .

(٢) الوسائل - كتاب النكاح : ٧٩/٢٠ .

(٣) وسائل الشيعة ٨٠/٢٠ .

وقال أبو عبدالله الصادق عليه السلام :

« مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ شَارِبِ خَمْرٍ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا »^(١).

وقد ثبت في الطب الحديث أنَّ تأثير المسكر ينتقل بالوراثة إلى الأبناء .

قال الدكتور « برجونس » :

« أما الخمرة فالإدمان عليها من مسببات العقم ».

وكتب « رمانبوس دنكان » عن العقم في محاضراته قصّة فتاة مدمنة ظلّت أعواماً بلا حمل ، مع أنّه لم يكن في جسمها ما يدعو إلى هذه العاهة ، ولمّا عولجت بالامتناع عن الخمر مدّة عام حملت ، ولا يفرّق في ذلك بين الرجل والمرأة ، ويعود السبب في ذلك إلى ضعف مركز الصلب ، وتنوّع مركز المخ ، والشخص المتسمّم به تنتقل سمومه وعلله إلى ذريّته ، فهو خطر عليه وعلى ذريّته وعلى الأُمّة ، والنوع الإنساني بالتالي ، وذكر أيضاً أنّ من يولد من أبوين مدمنين فإنّه يحمل آثار ضعف البنى ، ويكون عرضة للإصابة باضطرابات خطيرة قد تنتهي بالعتة أو الشلل العام أو العقم ، ثمّ ذكر عن تأثير الوراثة فقال :

« إنّ تأثيرها قاتل للجنين والطفل بعد ولادته ، حتّى إنّهُ قد تلاشت عائلات بأجمعها في عقبين أو ثلاثة أعقاب ، وزيادة على ذلك فإنّ ذريّة المدمنين قد تصاب بتشوّهات مؤلمة كعدم تساوي الجمجمة أو قصر القامة ، أو استسقاء الدماغ ، أو بتأخير وانحراف في نموّ القوى العقليّة ، كضعف الذاكرة أو انحطاط الحالة الصبيانيّة أو البله أو الهستريا ، وغير ذلك من العلل النفسيّة ، وقد حرّم هذا النطاسي وغيره من أئمّة الطبّ تزويج المدمن نظراً لهذه الأخطار الفظيعة المترتّبة على زواجه »^(٢) ،

(١) الوسائل : ٧٦/٢٠ .

(٢) العمل وحقوق العامل في الإسلام : ١٤٩ و ١٥٠ .

أما المرأة المدمنة على شرب المخدرات ، فإنَّ الكحول تنتقل منها إلى دم الجنين عن طريق المشيمة داخل الرحم ، كما ثبت انتقال الكحول إلى الطفل عن طريق الرضاعة ^(١) .

ويقول علماء النفس :

«إنَّ المدمن على شرب الخمر مصاب بسوء التكيف النفسي ، وأنه ضعيف الشخصية ، وأوصوا المرأة باختباره قبل أن تقدم على الاقتران به خوفاً من أن يكون مصاباً بهذا الداء لئلا تقع فريسة للكوارث والخطوب .. وتخطئ الفتاة إلى حدٍّ بعيد أنها لو تصوّرت أنَّ في استطاعتها أن تصلح من شأن هذه العادة بعد الزواج ، فسوء التكيف يدفعه إلى الإدمان .. كما أنَّ المرأة التي تحتسي الخمر تصبح قابلة للفجور ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الرجال ، فالإدمان على تعاطي المشروبات الروحية تدفع الزوج والزوجة إلى تحطيم القيود المانعة ، وتخدير الضمائر ، وبذلك يصبح من السهولة نسيان عهد الزواج وقيوده ^(٢) ، وتحطّم بذلك الحياة الزوجية ، وتنحلّ قواعد الأسرة» .

لقد اكتشف الإسلام هذه البادرة الخطيرة قبل أن يكتشفها العلم الحديث ، فمنع من تزويج شارب الخمر وقاية للنسل من أن يصاب بمثل هذه العاهات .

وكره الإسلام أيضاً أن تتزوَّج المرأة بشخص سيئ الخلق لئلا يسري ذلك إلى أبنائها منه ، فقد روى بشار الواسطي ، قال : « كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام : أنَّ لي قرابة قد خطب إليَّ وفي خلقه سوء ، قال عليه السلام : « لا تُزوِّجُه إنْ كَانَ سَيِّئَ الْخُلُقِ » ^(٣) .

(١) أُسس الصحة والحياة : ٢٨٧ .

(٢) التكيف النفسي : ١٦٥ .

(٣) من لا يحضره الفقيه : ١٣١/٢ .

إلى غير ذلك من الأخبار التي تحث المرأة على التعرّف على واقع الزوج خوفاً من أن تنجب منه أبناء غير صالحين فيما إذا كان غير صالح في نفسه وأسرته .

ثالثاً: نظراً لاهتمام الإسلام بقانون الوراثة ، فقد جعل لكلّ من الزوجين الخيار في فسخ عقد الزواج فيما إذا ظهر أحدهما مصاباً بشذوذ فكري أو لعاهة جسميّة من العيوب التي نصّ عليها الفقهاء ، فإنّ للطرف الآخر الحقّ في فسخ العقد ، والتخلّي عنه ، فقد قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « إِنَّمَا يُرَدُّ النِّكَاحُ مِنَ الْبَرِّصِ وَالْجَذَامِ وَالْجُنُونِ وَالْعَقْلِ »^(١) ، وهو شامل لكلّ من الزوجين .

وإنّما جعل الإسلام الخيار في فسخ العقد من إحدى هذه الأمراض صيانة للمجتمع الإسلامي من أن تنشأ فيه ناشئة ملوثة بهذه الأمراض المؤدية إلى تأخر المسلمين وضعف كياناتهم الاجتماعيّة . . كما أنّ القواعد الفقهيّة تقرّ الوسائل الحديثة التي أوصت بها منظمات الصحّة العالميّة من فحص دم الرجل والمرأة قبل اقترانهما حذراً من أن يكون أحدهما مصاباً ببعض الأمراض الجنسيّة ، كالسيلان الذي يسبّب في كثير من الأحيان عمى الطفل حين ولادته^(٢) أو السفلس وغيرهما من الأمراض الزهريّة الناشئة من الفوضى الجنسيّة ، فإنّ كوارثها تنتقل بالوراثة إلى الأبناء فتسبّب إصابتهم بمختلف الأمراض البدنيّة والعقليّة كما تؤدّي في نفس الوقت إلى إصابة الطرف الآخر وشقائه ومعاناته لأهمّ المشاكل النفسيّة ، وحرمانه من الحياة السعيدة .

الأسرة

إنّ الأسرة^(٣) إحدى العوامل الأساسيّة في بناء الكيان التربوي وإيجاد عمليّة

(١) وسائل الشيعة : ٥٩٤/١٤ .

(٢) أسس الصحّة والحياة : ٣٢٦ .

(٣) الأسرة في علم الاجتماع رابطة اجتماعيّة تتكوّن من زوج وزوجة وأطفالهما ،

التطبيع الاجتماعي، وتشكيل شخصية الطفل، وإكسابه العادات التي تبقى ملازمة له طول حياته، فهي البذرة الأولى في تكوين النمو الفردي وبناء الشخصية، فإنَّ الطفل في أغلب أحواله مقلِّد لأبويه في عاداتهم وسلوكهم، فهي أوضح قصداً، وأدقَّ تنظيمًا، وأكثر إحكاماً من سائر العوامل التربويَّة، ونعرض فيما يلي لأهمِّيتها، وبعض وظائفها، وواجباتها، وعمَّا أثر عن الإسلام فيها، كما نعرض لما منيت به الأسرة في هذه العصور من الانحراف وعدم القيام بمسؤولياتها.

أهمية الأسرة

وليس من شكِّ في أنَّ الأسرة لها الأثر الذاتي والتكوين النفسي في تقويم السلوك الفردي، وبعث الحياة والطمأنينة في نفس الطفل، فمنها يتعلَّم اللغة، ويكتسب بعض القيم والاتجاهات، وقد ساهمت الأسرة بطريق مباشر في بناء الحضارة الإنسانيَّة، وإقامة العلاقات التعاونيَّة بين النَّاس، ولها يرجع الفضل في تعلُّم الإنسان لأصول الاجتماع، وقواعد الأدب والأخلاق، كما أنَّها السبب في حفظ كثير من الحرف والصناعات التي توارثها الأبناء عن آبائهم... ومن الغريب أنَّ الجمهوريَّة التي نادى بها افلاطون، والتي تمجَّد الدولة، وتضعها في المنزلَّة الأولى قد تنكَّرت للأسرة، وأدَّت إلى الاعتقاد بأنَّها عقبة في سبيل الإخلاص والولاء للدولة، فليس المنزل مع ما له من القيمة العظمى لدينا سوى لعنة وشرٍّ في نظر افلاطون^(١)، وإذا كان من بين أمثالنا أنَّ بيت الرجل هو حصنه الأمين، فإنَّ افلاطون ينادي أهدموا هذه

وتشمل الجدود والأحفاد، وبعض الأقارب على أن يكون مشتركين في معيشة واحدة، جاء ذلك في علم الاجتماع: ٩٢.

ويرى البعض أنَّ الزواج الذي لا تصحبه ذريَّة لا يكون أسرة، جاء ذلك في الأسرة والمجتمع: ١٥ و ١٦.

(١) آراء افلاطون وأرسطو في فلسفة الأخلاق والسلوك: ١٤٣.

الجدران القائمة ، فإنها لا تحتضن إلا إحساساً محدوداً بالحياة المنزلية .

واجبات الأسرة

إن الأسرة مسؤولة عن نشأة أطفالها نشأة سليمة متسمة بالإنزان ، والبعد عن الانحراف ، وعليها واجبات ملزمة برعايتها ، وهي :

أولاً: أن تشيع في البيت الاستقرار والود والطمأنينة ، وأن تبعد عنه جميع ألوان العنف والكرهية والبغض ، فإن أغلب الأطفال المنحرفين والذين تعودوا على الإجرام في كبرهم ، كان ناشئاً ذلك على الأكثر من عدم الاستقرار العائلي الذي منيت به الأسرة .

يقول بعض المربين :

« ونحن لو عدنا إلى مجتمعنا الذي نعيش فيه فزنا السجون ودور البغاء ومستشفيات الأمراض العقلية ، ثم دخلنا المدارس وأحصينا الراسبين من الطلاب والمشاكسين منهم والمتطرفين في السياسة ، والذاهبين بها إلى أبعد الحدود ، ثم درسنا من نعرفهم من هؤلاء لوجدنا أن معظمهم حرموا من الاستقرار العائلي ، ولم يجد معظمهم بيتاً هادئاً فيه أب يحذب عليهم ، وأم تدرك معنى الشفقة ، فلا تفرط في الدلال ، ولا تفرط في القسوة ، وفساد البيت أوجد هذه الحالة من الفوضى الاجتماعية ، وأوجد هذا الجيل الجديد الحائر الذي لا يعرف هدفاً ولا يعرف له مستقراً »^(١).

إن إشاعة الود والعاطفة بين الأبناء له أثره البالغ في تكوينهم تكويناً سليماً ، فإذا لم يرع الآباء ذلك فإن أطفالهم يصابون بعقد نفسية تسبب لهم كثيراً من المشاكل

في حياتهم ، ولا تثمر وسائل النصح والإرشاد التي يسدون بها لأبنائهم ما لم تكن هناك مودة صادقة بين أفراد الأسرة ، وقد ثبت في علم النفس أنّ أشدّ العقد خطورة ، وأكثرها تمهيداً للاضطرابات الشخصية هي التي تكون في مرحلة الطفولة المبكرة خاصة من صلة الطفل بأبويه^(١) ، كما أنّ تفاهم الأسرة وشيوع المودة فيما بينها ممّا يساعد على نموّه الفكري ، وازدهار شخصيته .

يقول الدكتور « جلاس ثوم » :

« ومهما تبلّغ مسؤولية الوالدين في إرشاد الطفل وتدريبه وتوجيهه من أهميّة فإنّها لا ينبغي أن تطغى على موقف أساسي آخر ينبغي أن يتّخذوه ، ذلك هو أن يخلقوا من البيت جوّاً من المحبة تسوده الرعاية ، ويشيع فيه العطف والعدالة ، فإذا عجز الآباء عن خلق هذا الجو الذي يضيء فيه سنن التكوين التي تقيم حياته ، حرّمه بذلك من عنصر لا يمكن تعويضه على أي وجه من الوجوه فيما بعد ، فمع أنّ للدين والمجتمع والمدرسة أثرها في تدريب الطفل وتهذيبه ، إلّا أنّ أحداً منها لا يعنى بتلك العواطف الرقيقة الرائعة التي لا يمكن أن تقوم إلّا في الدار ، ولا ينتشر غيرها إلّا بين أحضان الأسرة »^(٢).

إنّ السعادة العائليّة تبعث الطمأنينة في نفس الطفل ، وتساعده على تحمّل المشاق وصعوبات الحياة .

يقول سلامة موسى :

« إنّ السعادة العائليّة للأطفال تبعث الطمأنينة في نفوسهم بعد ذلك ، حتّى إذا مات أبوهم بقيت هذه الطمأنينة ، وقد وجد عند إجلاء الأطفال

(١) الأمراض النفسية والعقلية .

(٢) مشكلات الأطفال اليومية : ٤٨ .

من لندن مدة الغارات في الحروب الأخيرة أن الذين سعدوا منهم بوسط عائلي حسن تحملوا الغربة أكثر مما تحملها الذين لم يسعدوا بمثل هذا الوسط؛ وذلك لأن الوسط العائلي الحسن بعث الطمأنينة في الأطفال، فواجهوا الغربة مطمئنين، ولكن الوسط العائلي القلق الذي نشأوا فيه يزداد بالغربة. وإذا أعطينا الطفل -مدة طفولته في العائلة- الحب والطمأنينة أعطى هو مثل ذلك»^(١).

ثانياً: أن تشرف الأسرة على تربية أطفالها، وقد نص علماء الاجتماع على ضرورة ذلك وأكدوا أن الأسرة مسؤولة عن عمليات التنشئة الاجتماعية التي يتعلم الطفل من خلالها خبرات الثقافة وقواعدها في صورة تؤهله فيما بعد لمزيد من الاكتساب، وتمكّنه من المشاركة التفاعلية مع غيره من أعضاء المجتمع^(٢)، كما أكد علماء التربية على أهمية تعاهد الآباء لأبنائهم بالعطف والحنان، والحدب عليهم، والرفقة بهم حفظاً وصيانة لهم من الكآبة والقلق، وقد ذكرت مؤسسة اليونسكو في هيئة الأمم المتحدة تقريراً مهماً عن المؤثرات التي تحدث للطفل من حرمانه من عطف أبيه، وقد جاء فيه:

«إن حرمان الطفل من أبيه -وقتيّاً كان أم دائماً- يشير فيه كآبة وقلقاً مقرونين بشعور الإثم والضعينة، ومزاجاً عاتياً متمرداً، وخوراً في النفس، وفقداناً لحس العطف العائلي، فالأطفال المنكوبون بحرمانهم من آبائهم ينزعون إلى البحث في عالم الخيال عن شيء يستعوضون به عما فقدوه في عالم الحقيقة، وكثيراً ما يكونون في مخيلتهم صورة الأب مغوراً أو الأم من الحور.. وقد لوحظ في (معاهد الأطفال) أنه إذا كانت

(١) عقلي وعقلك.

(٢) علم الاجتماع: ٤٨٧.

صحة الطفل البدنية ، ونموه العضلي ، وضبط دوافعه الإرادية تفتتح وتزدهر بصورة متناسقة في تلك المعاهد ، فإن انفصاله عن والديه قد يؤدي من جهة أخرى إلى ظهور بعض المعاييب كصعوبة النطق ، وتمكن العادات السيئة منه ، وصعوبة نمو حسه العاطفي»^(١).

إن أفضل طريق لحفظ الأبناء مصاحبتهم ورقابتهم ، ويرى المربون المحدثون :
« أن أفضل ميراث يتركه الأب لأطفاله هو بضع دقائق من وقته كل يوم»^(٢).

ويرى بعض علماء الاجتماع والباحثون في إجرام الأحداث :
« أن أفضل السبل للقضاء على انحراف الأحداث هو أن نلقت الآباء من الشوارع ليلاً»^(٣).

وإذا قام الأب بواجبه من مراقبة أبنائه ومصاحبتهم ، فإنه من دون شك يجد ابنه صورة جديدة منه فيها كل خصائصه ومميزاته وانطباعاته ، وعلى الآباء أن يتركوا مجالس اللهو ويعكفوا على مراقبة أبنائهم حتى لا يدب فيهم التسيب والانحلال .
يقول شوقي :

لَيْسَ الْيَتِيمُ مِنْ انْتَهَى أَبْوَاهُ مِنْ هَمِّ الْحَيَاةِ وَخَلْفَاهُ ذَلِيلًا
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِي تَلَقَّى لَهُ أُمًّا تَخَلَّتْ أَوْ أَبًا مَشْغُولًا

ثالثاً: يرى بعض المربين أن من واجبات الآباء والأمهات تجاه أطفالهم هو تطبيق ما يلي :

(١) أثر الأسرة والمجتمع في الأحداث الذين هم دون الثالثة عشر : ٣٧ .

(٢) مجلة المختار : عدد ابريل / ١٩٥٦م ، تحت عنوان أقوال مأثورة .

(٣) مجلة الهلال : ١٨ ، عدد مايو / ١٩٥٧م .

١ - ينبغي أن يتفق الأب والأم على معايير السلوك ، وأن يؤيد كل منهما الآخر فيما يتخذه من قرارات نحو أولادهما .

٢ - ينبغي أن يكون وجود الطفل مع الأب بعد عودته من عمله جزءاً من نظام حياته اليومي ، فحتى صغار الأطفال يكونون في حاجة إلى شعور بالانتماء ، وهم يكسبون هذا الشعور من مساهمتهم في حياة الأسرة .

٣ - ينبغي أن يعلم الأطفال أنَّ الأب يحتاج إلى بعض الوقت ليخلو به إلى نفسه كي يقرأ أو يستريح أو يمارس هوايته .

٤ - تحتاج البنت إلى أب يجعلها تشعر بأنوثتها ، وأنها من الخير أن تكون امرأة تتمتع بالفضيلة والعفاف والاستقامة .

٥ - يحتاج الولد إلى أب ذي رجولة وقوة على أن يكون في الوقت نفسه عطوفاً ، حسن الإدراك ، فالأب المسرف في الصلابة والتزمّت قد يدفع ابنه إلى الارتواء في أحضان أمّه ناشداً الحماية وإلى تقليد أساليبها النسائية^(١) .

هذه بعض الأمور التي يجب رعايتها ، والاهتمام بها ، فإن وفق الآباء إلى القيام بها تحققت التربية الصالحة التي تنتج أطفالاً يكونون في مستقبلهم ذخيرة للأمة وعزاً لأبائهم .

إنّ للطفل خصائصه الذاتية من الصفاء والبراءة ، وسلامة العاطفة ، وبساطة الفكر ، فعلى الأبوين أن يفتحوا عينيه على الفضائل ، وأن يغرسا في نفسه النزعات الخيرة ليكون لهما قرة عين في حياتهما .

وظائف الأسرة

وللأسرة وظائف حيوية مسؤولة عن رعايتها والقيام بها ، وهذه بعضها :

(١) كيف تكون أباً ناجحاً : ٣٩ ، ٦٧ ، ٨٥ .

١ - أنها تنتج الأطفال ، وتمدّهم بالبيئة الصالحة لتحقيق حاجاتهم البيولوجية والاجتماعية ، وليست وظيفة الأسرة مقتصرة على إنتاج الأطفال ، فإنّ الاقتصار عليها يحو الفوارق الطبيعية بين الإنسان والحيوان .

٢ - أنها تعدّهم للمشاركة في حياة المجتمع ، والتعرّف على قيمه وعاداته .

٣ - أنها تمدّهم بالوسائل التي تهيّأ لهم تكوين ذواتهم داخل المجتمع .

٤ - مسؤوليتها عن توفير الاستقرار والأمن والحماية والحنوّ على الأطفال مدّة طفولتهم ، فإنّها أقدر الهيئات في المجتمع على القيام بذلك ؛ لأنها تتلقّى الطفل في حال صغره^(١) ، ولا تستطيع أبة مؤسسة عامّة أن تسدّ مسدّ الأسرة في هذه الشؤون .

٥ - على الأسرة يقع قسط كبير من واجب التربية الخلقية والوجدانية والدينية في جميع مراحل الطفولة .. ففي الأمّ تحارب مدارسها الرسمية الدين بطريق مباشر أو غير مباشر ، كالشيعية ، وفي الأمّ التي تسير معاهدها الدراسية على نظام الحياذ في شؤون الدين والأخلاق ، كفرنسا وغيرها ، يقع عبء التعليم الديني على الأسرة .. فبفضل الحياة في الأسرة تتكوّن لدى الفرد الروح الدينية وسائر العواطف الأسرية التي تؤهّله للحياة في المجتمع والبيت^(٢) .

إنّ فترة الطفولة تحتاج إلى مزيد من العناية والإمداد بجميع الوسائل التي تؤدّي إلى نموّه الجسمي والنفسي ، وإنّ من أوهى الآراء القول بأنّ الوظيفة الوحيدة للأسرة إمدادها للأبناء بالمال اللازم لهم ، فإنّ هذا القول قد تجاهل العوامل النفسية المختلفة التي لا بدّ منها لتكوين الفرد الإنساني ، كالحنان والعطف ، والأمن والطمأنينة ، فإنّها لازمة لنموّ الطفل النفسي ، ويجب أن تتوفّر له قبل كلّ شيء^(٣) .

(١) المجتمع الإنساني : ٥٩ و ٦٠ .

(٢) الأسرة والمجتمع : ٢٠ و ٢١ .

(٣) الأسرة التربوية الاجتماعية : ٦٩ - ٧١ .

لقد أكد علماء النفس والتربية أنَّ للأسرة أكبر الأثر في تشكيل شخصية الطفل ، وتتضح أهميتها إذا ما تذكرنا المبدأ البيولوجي الذي ينصُّ على ازدياد القابلية للتشكيل أو ازدياد المطاوعة كلما كان الكائن صغيراً ، بل يمكن تعميم هذا المبدأ على القدرات السيكلوجية في المستويات المتطورة المختلفة .

إنَّ ما يواجهه الطفل من مؤثرات في سنِّه المبكر يستند إلى الأسرة ، فإنَّها العامل الرئيسي لحياته ، والمصدر الأول لخبراته ، كما أنَّها المظهر الأصيل لاستقراره ، وعلى هذا فاستقرار شخصية الطفل وارتقاؤه يعتمد كل الاعتماد على ما يسود الأسرة من علاقات مختلفة كمّاً ونوعاً . . إنَّ من اكتشافات علم التحليل أنَّ قيم الأولاد الدينيَّة والخُلقيَّة إنَّما تنمو في محيط العائلة ^(١) .

هذه بعض الوظائف المهمَّة التي تقوم بها الأسرة في ميادينها التربويَّة .

الأسرة في الإسلام

وأقام الإسلام نظام الأسرة على أسس سليمة تتفق مع ضرورة الحياة ، وتتفق مع حاجات النَّاس وسلوكهم ، واعتبر الغريزة العائليَّة من الغرائز الذاتِيَّة التي منحها الله للإنسان . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ^(٢) ، فهذه الظاهرة التي فطر عليها الإنسان منذ بدء تكوينه من آيات الله ، ومن نعمه الكبرى على عباده .

وشيء آخر جدير بالاهتمام هو أنَّ الإسلام يسعى إلى جعل الأسرة المسلمة قدوة حسنة وطيبة تتوفَّر فيها عناصر القيادة الرشيدة . قال تعالى حكاية عن عباده الصالحين : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا

(١) كيف تساعد أبنائك في المدرسة : ١٩٣ .

(٢) الروم ٣٠ : ٢١ .

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿١﴾، وأهم قاعدة من قواعد التربية أن توجد عمليّاتها التربويّة القدوة الحسنة والمثل الأعلى للخير والصلاح.

وقد ألمحنا في بحوث الوراثة إلى اهتمام الإسلام البالغ على أن تقوم الرابطة الزوجيّة على الاختبار والفحص حذراً من أن يكون أحد الزوجين مصاباً ببعض العاهات فتسري إلى أبنائهم، فينشأ في المجتمع أفراد مشوّهون في سلوكهم وأتجاهاتهم، كما جعل الإسلام لأب الفتاة ولاية عليها، وشرك بينهما في اختيار الزوج الصالح لها حذراً من أن تختار بمفردها زوجاً من ذوي العاهات، فتجّر لنفسها الويلات والشقاء، وتبتلى منه بذريّة طالحة تشقى ويشقى بهم المجتمع.

ومن الطبيعي أنّها لا تحسن اختيار الزوج الصالح لها، فإنّها لا تعلم من الحياة إلّا قسورها، وهي تحكم على خطيبها بما يبيده لها من حديث مصطنع ووعود خلافة، وما ينمّقه لها من رسائل الغرام، أو ما يتمتع به من حسن الصورة والتجميل والتزيين بالأزياء المغرية، وهي - بصورة جازمة - لم تطلع على مكر الحياة وخبت الفاسقين وكيد العاشقين، ولم تعرف كذب الوعود، ورياء العهود، ولم تفقه أنّ الزواج السعيد الذي يحقّق أحلامها وآمالها إنّما يكون إذا اقترنت برجل شريف النفس، كريم الخلق، صادق الإيمان، حتّى يعنى بشؤونها وحقوقها، وتنجب منه الذريّة الطيّبة التي تكون قرّة عين لها في حال كبرها وشيخوختها.. وهذا هو ما يريده الإسلام لها. وعلى أي حال، فإنّ نظام الأسرة الذي سنّه الإسلام يقوم على أساس من الوعي والعمق لما تسعد به الأسرة، ويؤدّي إلى تماسكها وترابطها من الناحية الفيزيولوجيّة والنفسية والاجتماعيّة، بحيث ينعم كلّ فرد منها، ويجد في ظلالها الرأفة والحنان والدعة والاستقرار.

إنّ الإسلام يحرص كلّ الحرص على أن تقوم الرابطة الزوجية - التي هي النواة

الأولى للأسرة - على المحبة والتفاهم والانسجام ، وهو الزواج المثالي الذي عناء هاميلوك اليس » بقوله :

« لا يقوم الزواج المثالي حقاً على توافق الشهوة فقط ، وإنما يقوم على اتحاد غير شهواني ، أساسه مودة عميقة تتوثق على ممر الأيام ، وتشمل شتى نواحي الحياة ، وهو اتفاق الأذواق والمشاعر والميول ، وهو اتفاق على الحياة المشتركة ، بما قد تستلزمه من أعباء الأبوة »^(١).

وهذا هو ما ينشده الإسلام في الرابطة الجنسية أن تكون مثالية ، وتقوم على أساس وثيق من الحب والتفاهم حتى تؤدي العمليات التربوية الناجحة أثرها في تكوين المجتمع السليم .

لقد شرع الإسلام جميع المناهج الحية الهادفة إلى إصلاح الأسرة ونموها وازدهار حياتها ، فعنى بالبيت عناية خاصة ، وشرع آداباً مشتركة بين أعضاء الأسرة ، وجعل لكل واحد منها واجبات خاصة تجاه أفراد أسرته ، وهي مما تدعو إلى الترابط ، بالإضافة إلى أن لها دخالة إيجابية في التكوين التربوي .. ولا بد لنا من عرض ذلك على سبيل الإيجاز .

أهمية البيت

وللبيت أهميته البالغة في التربية ، فمن طريقه تحقق البيئة الاجتماعية آثارها التربوية في الأطفال ، فبفضله تنتقل إليهم تقاليد أمتهم ونظمها وعرفها الخلقي وعقائدها وآدابها وفضائلها وتاريخها ، وكثير مما أحرزته من تراث في مختلف الشؤون ، فإن وفق المنزل في أداء هذه الرسالة الجليلة حققت البيئة الاجتماعية آثارها البليغة في التربية ، وإن فسد المنزل ، فإن الطفل حتماً يفسد ، ولا تكون له

أية شخصية .

إنَّ المنزل يقوم بأكثر من دور في حياة الطفل ، فهو المنبع الطبيعي للعطف والحنان ، فمنه يستمدُّ حياته المطمئنة الهادئة^(١) .. وقد عني الإسلام به عناية خاصة ، فأمر بأن تسود فيه المحبة والمودة ، وترك الكلفة ، واجتناب هجر القول ومزجه ، فإنَّ لذلك أثراً عميقاً في تكيف الطفل ، وإذا لم يوفَّق البيت لأداء مهمته ، فإنَّ الطفل يصاب بانحرافات خطيرة ، منها القضاء على شعوره بالأمن ، وتحطيم ثقته بنفسه ، وغير ذلك ممَّا نصَّ عليه علماء النفس .

المناهج المشتركة

وجعل الإسلام مناهج مشتركة بين جميع أعضاء الأسرة ، ودعاهم إلى تطبيقها على واقع حياتهم حتَّى تخيم عليهم السعادة ، ويعيشون جميعاً في نعيم وارف ، وهي :

١ - الحبّ والمودة

ودعا الإسلام إلى سيادة الحبّ والمودة والتآلف بين أفراد الأسرة ، وأن يجتنبوا عن كلّ ما يعكّر صفو الحياة والعيش ، وتقع المسؤولية بالدرجة الأولى على المرأة ، فإنَّ باستطاعتها أن تحوّل البيت إلى روضة أو جحيم ، فإذا قامت بواجبها ، ورعت ما عليها من الآداب ، كانت الفدّة المؤمنة ، فقد أثر عن رسول الله ﷺ أن شخصاً جاءه فقال له : إنَّ لي زوجة إذا دخلت تلقتني ، وإذا خرجت شيعتني ، وإذا رأيتني مهموماً قالت : ما يهملك ؟ إن كنت تهتمّ لرزقك فقد تكفّل به غيرك ، وإن كنت تهتمّ بأمر آخرتك فزادك الله همّاً ، فانبرى ﷺ يبدي إعجابه وإكباره بها وقال :

(١) عوامل التربية : ٩٠ . التعليم ٨٧ . الأسرة والمجتمع : ١٩ .

«بَشَّرَهَا بِالْجَنَّةِ ، وَقُلْ لَهَا : إِنَّكَ عَامِلَةٌ مِنْ عَمَالِ اللَّهِ»^(١).

وإذا التزمت المرأة برعاية زوجها ، وأدّت حقوقه وواجباته شاعت المودة بينهما ، وتكوّن رباط من الحب العميق بين أفراد الأسرة ، الأمر الذي يؤدي إلى التكوين السليم للتربية الناجحة .

٢ - التعاون

وحثّ الإسلام على التعاون فيما بينهما على شؤون الحياة ، وتدبير أمور البيت ، وأن يعيشوا جميعاً في جوّ متبادل من الودّ والتعاون ، والمسؤوليّة تقع في ذلك على زعيم الأسرة وهو الزوج ، فقد طلب الإسلام منه أن يقوم برعاية زوجته ويشترك معها في شؤون منزله ، فقد كان النبي ﷺ يتولّى خدمة البيت مع نسائه ، وقال : «خِدْمَتُكَ زَوْجَتُكَ صَدَقَةٌ»^(٢).

وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشارك الصديقة سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام في تدبير شؤون المنزل ، ويتعاون معها في إدراته ، ومن الطبيعي أنّ ذلك يخلق في نفوس الأبناء روحاً من العواطف النبيلة التي هي من أهمّ العناصر الذاتية في التربية السليمة .

٣ - الاحترام المتبادل

وحثّ الإسلام على تبادل الاحترام ، ومراعاة الآداب بين أعضاء الأسرة ، فعلى الكبير أن يعطف على الصغير ، وعلى الصغير أن يقوم بإجلال الكبير وتوقيره ، فقد أثر عن النبي ﷺ أنّه قال في جملة وصاياه العامّة :

(١) مكارم الأخلاق : ٢٢٩/١ .

(٢) كنز العمال : ٤٠٨/١٦ ، الرقم ٤٥١٣٨ .

«فَلْيَنْعِظْ كَبِيرُكُمْ عَلَى صَغِيرِكُمْ ، وَلْيَوْقُزْ صَغِيرُكُمْ كَبِيرَكُمْ...»^(١).

إنّ مراعاة هذه الآداب تخلق في داخل البيت جوّاً من الفضيلة والقيم الكريمة ، وهي توجب تنمية السلوك الكامل في نفس الطفل ، وتبعثه إلى الانطلاق في ميادين التعاون مع أسرته ومجتمعه ، وقد ثبت في علم التحليل النفسي بأنّ قيم الأولاد الدينيّة والخلقية إنّما تنمو في محيط العائلة^(٢).

اضطراب الأسرة

وإذا مُنيت الأسرة بعدم الانسجام والاضطراب ، فإنّ أفرادها يصابون بآلام نفسيّة ، واضطرابات عصبيّة ، وخصوصاً الأطفال ، فإنّهم يمتنون بفقدان السلوك والانحراف ، وقد أظهرت الدراسات والبحوث التربويّة الحديثة أنّ من أهمّ الأسباب التي تؤدّي إلى انحراف الأحداث هو اضطراب الأسرة وعدم استقرارها ، فتنشأ منه الأزمات التي تؤدّي إلى انحرافهم^(٣) ، لذا من اللازم الحفاظ على استقرار الأسرة ، وإبعادها عن جميع عوامل القلق والاضطراب حفاظاً على الأحداث ، وصيانة لهم من الشذوذ والانحراف .

مسؤوليات الأب

والأب ليس مسؤولاً عن الحياة الاقتصاديّة وتوفيرها لأبنائه فحسب ، وإنّما هو مسؤول عن تربيتهم وتهذيبهم ، وآدابهم وتوجيههم الوجهة الصالحة ، وأن يعودهم على العادات الطيّبة ، ويحذّرهم من العادات السيئة . يقول الإمام زين العابدين عليه السلام :

(١) كشف الخفاء / العجلوني : ١٦٩/٢ ، الحديث ٢١٣٩ .

(٢) كيف تساعد أبنائك في المدرسة : ١٩٣ .

(٣) المذنبون الصغار : ١٥٠ .

وَأَمَّا حَقُّ وَلَدِكَ: فَتَعَلَّمَ أَنَّهُ مِنْكَ ، وَمُضَافٌ إِلَيْكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، وَأَنَّكَ مَسْئُولٌ عَمَّا وَلِيْتَهُ مِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ ، وَالِدَّلَالَةِ عَلَى رَبِّهِ ، وَالْمُعُونَةِ لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ فَيْكَ وَفِي نَفْسِهِ ، فَمُثَابٌ عَلَى ذَلِكَ وَمُعَاقِبٌ ، فَاعْمَلْ فِي أَمْرِهِ عَمَلِ الْمُتَزَيِّنِ بِحُسْنِ أَثَرِهِ عَلَيْهِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا ، الْمُعْذِرِ إِلَى رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِحُسْنِ الْقِيَامِ عَلَيْهِ ، وَالْأَخْذِ لَهُ مِنْهُ ...»^(١).

وكان هذا الإمام العظيم يدعو لولده بهذا الدعاء :

«وَأَجْعَلُهُمْ أَثَرًا أُنْقِيَاءَ ، بُصْرَاءَ سَامِعِينَ لَكَ ، وَلِأَوْلِيَائِكَ مُحِيزِينَ مُنَاصِحِينَ ، وَلِجَمِيعِ أَعْدَائِكَ مُعَانِدِينَ وَمُبْغِضِينَ»^(٢).

إنَّ الأبَّ مسؤول عن تربية أبنائه تربية صالحة ليكونوا قرة عين له في مستقبله ، وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام يعنون بهذه الجهة ويولونها المزيد من الاهتمام . يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المرثي الأول في الإسلام إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام :

«وَوَجَدْتُكَ بَغْضِي ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي ، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي ، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَنَّكَ أَتَانِي ، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَغْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي»^(٣).

إنَّ الولد ليس بعضاً من الأب ، بل هو نفسه ، يحكي وجوده وكيانه ، فعليه أن يهتم بشؤونه التربوية ، وأن يعنى في تهذيبه وكماله ليكون فخراً وزيناً له ، أمّا إذا أهمل تربيته ، ولم يعن بشؤونه يغدو نقمة ووبالاً عليه .. ونعرض فيما يلي إلى بعض مسؤوليات الأب :

(١) تحف العقول : ٢٦٣ .

(٢) الصحيفة السجادية : الدعاء

(٣) نهج البلاغة : ٣٩١ ، رقم ٣١ (في وصيته للحسن عليه السلام) .

١ - العناية بالابناء

على الأب أن يعنى أشد العناية بأبنائه ، وأن يوليهم المزيد من اهتمامه ، ويغدق عليهم العطف والحنان ، ويقوم بتكريمهم أمام الغير ، فإنّ لذلك أثره الفعّال في بناء كيانهم التربوي ، وازدهار شخصيّتهم ، ونموّهم الفكري ، وعلى هذا الأساس الخلّاق كان النبي ﷺ يرعى سبطيه وريحانيته الحسن والحسين ، فكان يحملهما ويقول : « هَذَانِ رِيحَانَتِي مِنَ الدُّنْيَا ، مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّهُمَا »^(١) ، وكان يقول لبضعته سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام : « ادْعِي ابْنَتِي » ، فتأتي بهما إليه ، فيشمّهما ويضمّهما إليه^(٢) ، وروي أنّ الأقرع بن حابس لما رأى شدّة إقبال النبي ﷺ على سبطيه قال له : « إنّ لي عشرة من الأولاد ما قبّلت واحداً منهم ... » .

فغاض النبي ذلك وقال له : « مَا عَلَيَّ إِنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْكَ »^(٣) .

لقد سكب النبي ﷺ في نفس ولديه الحسن والحسين عليه السلام مثله وهديه ، وأفاض عليهما نزعاته الرحيمة حتّى صارا بحكم تربيته من أروع أمثلة التكامل .. وقد حفلت سيرتهما النديّة بكلّ مظاهر العظمة والخلود ، وكلّ ما تعتزّ به الإنسانيّة في جميع أدوار تاريخها ، سموّاً في الخلق ، وسموّاً في الذات ، وانطلاقاً في مبادئ الحقّ والخير .

إنّ عناية الآباء بأبنائهم ، وإغداق اللطف والحنان عليهم ، من أهمّ المقومات للكيان التربوي التي تزدهر به شخصيّة الطفل ، ويكون بمنجى من العقد النفسيّة التي هي من أخطر الأمراض التي يصاب بها الإنسان .. لقد أثبتت البحوث التربويّة الحديثة أنّ المواطنين الصالحين ، ورجال العلم الطيّبين ، إنّما يأتون من الأسر التي

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٨٣/١ .

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٨٣/١ .

(٣) مكارم الأخلاق : ٢٥٢/١ .

تعنى بالأطفال ، وترغب فيهم^(١) ، وقد أكد علماء النفس هذه الظاهرة ، كما ذكروا أنَّ الأبناء المنبوذين من أسرهم يبدون سلوكاً عدوانياً ، ويكونون سلبيين ، مشاكسين ، متمردين ، وكثيراً ما يبرعون في ابتكار الحيل التي تضايق الكبار ، كما يظهرون الميل إلى السلوك الإجرامي^(٢) ، أمّا مظاهر النبذ فهي :

١ - القسوة في معاملة الطفل وأخذه بالشدة المسرفة .

٢ - استعمال العقاب البدني القاسي .

٣ - نقد الطفل نقداً مستمراً ، وكشف معايبه له ، وخاصة أمام الغير .

٤ - الإسراف في إهماله واتهامه .

٥ - عدم ذكره بخير .

٦ - الغص من شأنه بالقياس إلى إخوته .

٧ - إبداء الدهشة والاستغراب إذا ذكره بعض الناس بخير^(٣) .

فيجب على الآباء أن يتعدوا في معاملة أبنائهم عن هذه الطرق الملتوية حفاظاً على سلوكهم ، ووقاية لهم من الشذوذ والانحراف .

٢ - المساواة بينهم

وينبغي للأب أن يغمر جميع أولاده بالحبّ ، ويساوي بينهم بالحنان والعطف والرعاية ، فإنّ اختصاص بعضهم بذلك وحرمان الباقيين منه ممّا يؤدّي إلى العقد النفسيّة ، والغيرة ، والحفيظة ، ونشوب الثورات الانفعاليّة في نفوسهم ، كما تجعلهم عرضة للإصابة بأمراض عصبية خطيرة .

(١) تربية التربة الطفل وسيكولوجية الطفل : ٣٠٥ .

(٢) علم النفس التربوي : ١٠٠/٣ .

(٣) علم النفس التربوي : ١٠١/٣ و ١٠٢ .

وحكى القرآن الكريم قصة يوسف حينما آثره أبوه يعقوب ، وميّزه على بقية أبنائه ، فأجمع رأيهم على الكيد له ، فألقوه في غيابة الجب ، وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ، فحزن عليه يعقوب حتى ابيضّت عيناه ، فهو من الحزن كظيم ، وهذه المحنة الكبرى التي دهمته كانت نتيجة الإثرة ، وتقديمه ليوسف على إخوته ، وقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال : «اغْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي السِّرِّ ، كَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يُغْدَلَ بَيْنَكُمْ فِي الْبَرِّ وَاللُّطْفِ»^(١).

ونظر ﷺ إلى رجل له ابنان فقبل أحدهما وترك الآخر ، فنهزه ﷺ وقال له : «هَلَا سَاوَيْتَ بَيْنَهُمَا»^(٢).

إنّ المساواة بين الأبناء عنصر من عناصر التربية الإسلامية ، فليس للأب أن يميّز بعض أبنائه على بعض ، كما أنّه ليس من الإسلام في شيء أن يخصّ أولاده بعطفه وإحسانه ، ويحرم بناته من ذلك ، أو يخصّ بعض أبنائه بشيء من أمواله ويحرم الباقين ، فإنّ ذلك يؤدّي إلى نشوب العداء والكراهية فيما بينهم ، بالإضافة إلى أنّه يسبّب تأخراً في كيانهم التربوي ، كما يؤدّي إلى اضطرابهم النفسي ، وعدم تفاعلهم مع بقية أفراد المجتمع .

والظاهرة الغريبة في الطفل الذي يفقد العطف الأبوي أنّه يحمل في نفسه عقداً نفسيةً وضمينة على المجمع ، وقساوة في الخلق ، وأنّه يصاب بما يلي :

١ - الكذب .

٢ - السرقة .

٣ - القسوة .

٤ - الشرور .

(١) مكارم الأخلاق : ٤٧٣/١ .

(٢) مكارم الأخلاق : ٢٥٢/١ .

٥ - الهجوم على الغير .

يقول « ولالبري » :

« إِنَّ الكره الأبوي للطفل يستطيع دائماً أن يعوّق الطفل عن التكيف في الحياة ، وذلك بالقضاء على شعوره بالأمن ، وتحطيم ثقته بنفسه ، وقد أثبتت البحوث النفسية الحديثة أَنَّ من أهم أسباب القلق يرجع إلى انعدام الدفء العاطفي في الأسرة ، وشعور الطفل بأنه شخص منبوذ محروم من الحبّ والعطف والحنان ، وأنه مخلوق ضعيف يعيش وسط عالم عدواني ، كما أَنَّ عدم العدالة بين الاخوة توظف مشاعر القلق في نفسه ، ويقتل فيه روح البصيرة التي تعينه على أن يشق طريقه في يسر وطمأنينة ، والرجل القلق دوماً يحسّ بالهلاك والعذاب النفسي أينما وجد »^(١).

على الآباء أن يعدلوا بين أبنائهم ، ويجنبوهم هذا الداء الخطير الذي ينخر في كيانهم النفسي .

٣ - إشاعة الودّ

على الأب أن يغمر بيته بالودّ والعطف ، ويشيع بين أهله الحبّ والحنان ، وأن يقابل خصوص زوجته بالإحسان ، ويوفّر لها جميع ما تحتاج إليه ، فإنّ ذلك - أولاً - من حقوقها الطبيعية التي فرضها الله لها ، و - ثانياً - أنه يبعث على التربية الصحيحة للطفل وازدهار شخصيته ؛ لأنه يعيش في جوّ من الحبّ والدعة والاستقرار .. وحثّ الإسلام على مراعاة الزوجة . يقول الرسول الأعظم ﷺ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » .

(١) التكيف النفسي : ٢١ و ٢٢ .

وقال ﷺ: «عِيَالُ الرَّجُلِ أَسْرَاؤُهُ، وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَحْسَنُهُمْ صَنِيعاً إِلَى أَسْرَائِهِ»^(١).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ مَلَكَهُ نَاصِيَتَهَا، وَجَعَلَهُ الْقِيَمَ عَلَيْهَا...»^(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي الضَّعِيفَيْنِ»^(٣) يعني المرأة والمملوك.

كما أن على الأب أن لا يتناول على أهله، وأن لا يظلمهم، فقد أثر عن الرسول الأعظم ﷺ أنه قال: «خَيْرُ الرِّجَالِ مِنْ أُمَّتِي الَّذِينَ لَا يَتَنَاطَلُونَ عَلَى أَهْلِهِمْ، وَيَحْتَنُونَ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَظْلِمُونَهُمْ»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٤) ^(٥).

إن طبيعة الأب ومعاملته لأسرته تترك أعمق الأثر في تكيف الطفل، فإن كانت معاملته حسنة ازدهرت شخصية الطفل، وإن كانت سيئة تركت في سلوكه أسوء الأثر، وأوقفت نموّه الفكري.

٤ - اجتناب فحش القول

والأب باعتباره عميد الأسرة فهو مسؤول عن إقامة الكيان التربوي فيها، وعليه أن يجتنب فحش القول، وبذاءة الكلام، وكل ما يخل بالآداب العامة، وأن يقيم في بيته العفة والطهارة، ويجنب أهله المنكر وسيئ القول، فإن كلامه وسيرته تنفذ إلى

(١) مكارم الأخلاق: ١/٤٦٩.

(٢) مكارم الأخلاق: ١/٤٦٩.

(٣) بحار الأنوار: ٢٦٨/٧٩.

(٤) النساء: ٤: ٣٤.

(٥) مكارم الأخلاق: ١/٢٤٨.

أعماق قلوب أبنائه ، وتنطبع فيها سيرته وأخلاقه .

إنَّ الطفل لا ينشأ نشأة سليمة وهو يشاهد أبويه يفعلان المنكر ، ويقترفان الإثم ، وأنَّ الأب الذي يكذب وطلب من طفله أن يكون صادقاً فإنه لا ينصاع لقوله ، وإنَّما يتَّبِع عمله وسيرته .. على الأب إذا أراد أبناءه أن يكونوا قرة عين له في مستقبله فعليه أن يطبّق على واقع حياته الصفات الكريمة ، وأن يسير سيرة طيّبة ليكون قدوة حسنة لأهله وغيرهم .

٥ - مراقبة سلوك الأبناء

إنَّ الجرائم الأخلاقية التي تصدر عن الأحداث كثيراً ما تنشأ من عدم مراقبة آبائهم ، وإهمالهم لما يصدر منهم من شذوذ وانحراف ، ومن الطبيعي أنَّ الطفل الذي لم يكتمل وعيه ولا رشده لا يميّز بين الخير والشرّ ، فإنه حينما يرتكب القبيح ، ويرى غَضَّ النظر عنه أو إقراره له ، فإنه يتمادى في الشرّ والإثم حتّى ينطبع في نفسه ، ويصبح عادة له .

لقد حثَّ الإسلام على مصاحبة الأبناء في سنّهم المبكر ، ومراقبة سلوكهم خوفاً عليهم من التلوّث بالجرائم التي تسبّب انحرافهم عن السلوك النير . ومن المؤسف إهمال الآباء - في هذه العصور - لهذه الجهة التي يتوقّف عليها مصير الأبناء في مستقبلهم ، وقد أدّى هذا الإهمال الفظيع إلى التسيّب والانحلال الذي مُني به أكثر الأبناء ، فقد أصبح التهور والشذوذ طابعاً لهم في كثير من سلوكهم وأخلاقهم .

ومن أبشع ألوان الإهمال وأكثرها انحرافاً عن المناهج التربوية الصحيحة ترك الآباء لبناتهم مع زملائهنّ في الدراسة في المعاهد والكليات ، وهم في سنّ مماثلة من دون أن تكون منهم أية مراقبة ، ومن الطبيعي أنَّ ذلك يؤدّي في كثير من الأحيان إلى سقوط عقّة الفتاة ، وانحرافها عن موازين الاستقامة في سلوكها .

وعلى أي حال ، فإنَّ الأب مسؤول أمام الله عن مراقبة سلوك أبنائه وإبعادهم

عن جميع النزعات الشريرة .

يقول الغزالي : « اعلم أنّ الطريق في رياضة الصبيان من أهمّ الأمور وأوكدّها ، والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية عن كلّ نقش وصورة ، وهو قابل لكلّ ما نقش ، ومائل إلى كلّ ما يمال إليه ، فإنّ عود الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه ، وكلّ معلّم له ومؤدّب ، وإنّ عود الشرّ وأهمّل إهمال البهائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم عليه ، والوالي له ، وقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ^(١) ، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى ، وصيانتّه بأن يؤدّبه ويهذّبه ويعلمّه محاسن الأخلاق ، ويحفظه عن قرناء السوء ، ولا يعودّه التنعم ، ولا يحبّب إليه الزينة ، وأسباب الرفاهية ، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أوّل أمره ، فلا يستعمل في حضانتّه وإرضاعه إلّا امرأة صالحة متديّنة تأكل الحلال ، فإنّ اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث .. » ^(٢) .

ورأي الإمام الغزالي رأي وثيق للغاية تؤكّده البحوث التربويّة الحديثة ، فإنّ مراقبة الطفل في سنّه المبكّر ، وتعوّده العادات الطيّبة ، وإبعاده عن النزعات الشريرة تؤدّي إلى سعادته ونجاحه في الدنيا والآخرة ، كما أنّ إهماله وعدم مراقبته ممّا يؤدّي إلى شقائه وهلاكه .

٦ - تأديب الأطفال

إنّ واجب الأب الإسراع في تأديب أطفاله إذا شذّوا في سلوكهم ، أو ارتكبوا

(١) التحريم ٦٦ : ٦ .

(٢) تاريخ التربية : ٨٢ .

ما يخالف التقاليد الدينية والاجتماعية ، أو ما يجافي الآداب العامة ، فإنَّ اللازم عليه الإسراع في تأديبهم بما يقلع روح الشر والتمرد منهم .. وقد أكَّد الإسلام ذلك ، فقد أثار عن النبي ﷺ أنه قال : «لَا يَزَالُ يُؤَدَّبُ أَحَدُكُمْ وَلَدُهُ خَيْرَ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَّصِدَّقَ بِنِصْفِ صَاعٍ كُلِّ يَوْمٍ»^(١).

وفي حديث آخر: «أَكْرَمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ يُغْفَرْ لَكُمْ»^(٢).

إنَّ الشذوذ الذي يصيب الأطفال ويظل ملازماً لهم إنَّما هو ناتج - على الأكثر - من إهمال الآباء ، وعدم قيامهم بتأديب أطفالهم إذا انحرفوا عن الطريق القويم .

يقول الشيخ النراقي : «إِنَّ الصَّبِيَّ إِذَا أَهْمَلَ فِي أَوَّلِ نَشْؤِهِ خَرَجَ - فِي الْأَكْثَرِ - رَدِيءَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَفْعَالِ ، فَيَكُونُ كَذَّاباً حَسُوداً لَجُوجاً عُنُوداً سَارِقاً خَائِئناً ذَا ضَحْكَ وَفُضُولٍ ، وَرَبَّماً صَارَ مَخْنَثاً مَائِلاً إِلَى الْفُسْقى وَالْفُجُورِ ...»^(٣).

أمَّا كَيْفِيَّةُ تَأْدِيبِهِ فَسَوْفَ نَتَحَدَّثُ عَنْهَا فِي الْبَحْثِ الْآتِيَةِ .

٧ - إبعاد الطفل عن العملية الجنسية

ونهى الإسلام عن أن يغشى الرجل أهله أمام أبنائه ، فإنَّ ذلك ممَّا يوجب تهيج الشهوة عندهم ، وانطلاقهم في ميادين الدعارة والفجور . يقول الإمام الباقر عليه السلام لجابر : «إِيَّاكَ وَالْجُمَاعَ حَيْثُ يَرَاكَ صَبِيٌّ يُخْسِنُ أَنْ يَصِفَ حَالَكَ»^(٤).

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : «لَا يُجَامِعُ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ وَلَا جَارِيَتَهُ وَفِي الْبَيْتِ صَبِيٌّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُوْرِثُ الزَّانَا»^(٥).

(١) مكارم الأخلاق : ٢٧٠/١ .

(٢) مكارم الأخلاق : ٤٧٨/١ ، الحديث ١٦٥١ .

(٣) جامع السعادات : ٢٧٠/١ و ٢٧١ .

(٤) طب الأئمة : ١٣٥ .

(٥) المحاسن : ٣١٧ . وسائل الشيعة : ٩٥/٧ .

وقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا عَشِيَ امْرَأَتَهُ وَفِي الْبَيْتِ صَبِيٌّ مُسْتَنْقِظٌ بِرَاهُمَا، وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمَا وَنَفْسَهُمَا، مَا أَفْلَحَ أَبَدًا، إِنْ كَانَ غُلَامًا كَانَ زَانِيًا، أَوْ جَارِيَةً كَانَتْ زَانِيَةً»^(١).

وقد أكد علماء التربية الجنسية ضرورة إبعادهم عن ذلك. يقول «سير بيسي»:

«وما دامت الناحية الجنسية موجودة عند الجميع حتى عند الأطفال منذ مولدهم، ولو بقيت في حالة الكمون حتى سن البلوغ، فمن المهم أن تتفادى الإتيان بأي عمل قد يستثيرها قبل أوانها، وثمة آباء لا يرون إبعاد الطفل عن الحجرة عندما يخلعون ملابسهم، ولكنهم يتمادون في هذا السبيل، ويظنون أن واجبهم يحتم عليهم - باعتبارهم من التقدميين المجددين، أو المثقفين - أن يوفرُوا الفرص لكي نراهم عراة، ولكن متى تكررت رؤية الطفل فإنها عن قريب تولد اهتماماً زائداً بخصائصه في نفسية الطفل»^(٢).

إن نفسية الطفل سريعة التأثر والانفعال بما تراه، ولذلك كان من الضروري إبعاده عن كل ما يثير الشهوات وفساد الأخلاق صيانة له من الانحراف والشذوذ، ولما لم تكن التربية الغربية بذلك منيت أبنائها بالانحلال النفسي وسائر أنواع المشكلات الجنسية، وتدهور الأخلاق، وانعدام الروابط الاجتماعية.

٨ - إبعاد الطفل عن تناول الحرام

على الأب أن يحرص كل الحرص على تعويد أطفاله - منذ نعومة أظفارهم - على تناول الحلال وإبعادهم عما حرّمه الله - كالمنغصوب من الطعام - أو نجس العين

(١) أصول الكافي: ٥٨/٢.

(٢) التربية الجنسية: ٥٥.

-كلحم الخنزير- أو كان نجساً بالعارض -كالطعام الذي يتلوّث بالنجاسة الخارجية - وغيرها ممّا ذكره فقهاء المسلمين في رسائلهم العملية .. فعلى الأب أن يسعى جاهداً في تعويدهم على ذلك ، فإنّ للتغذية أثراً فعّالاً في سلوك الطفل ، وتنميته حسب ما دلّلت عليه البحوث الطبيّة الحديثة .

إنّ الإسلام شديد الحساسيّة بكلّ ما يعوق نمو الطفل ، وازدهار شخصيّته ، والتغذية الملوّنة بالحرام تؤثر أثراً ذاتياً في دخائل النفس ، وتوقّف فعالّيّاتها السلوكيّة ، فتغرس فيها النزعات الشريرة ، كالقسوة والاعتداء والهجوم المتطرّف على الغير .. وقد راعى الإسلام باهتمام هذه الجوانب ، فألزم بإبعاد الطفل عن الغذاء الحرام ، فقد أثر عن الرسول الأعظم ﷺ أنّه رأى ريحانته وسبطه الأوّل الإمام الحسن عليه السلام قد أخذ من تمر الصدقة فجعلها في فيه ، وكان طفلاً ، فقال له : « ازم بها ، أما علمت أنّا لا نأكل الصدقة » (١) .

ولمّا حُمِلت عيال أبيّ الضيم الإمام الحسين عليه السلام أسرى إلى الكوفة بعد كارثة كربلاء الخالدة في دنيا الأحران ، انبرى بعض الكوفيّين حينما رأى أطفال الإمام وهم يعانون آلام الجوع وقسوته ، فناولهم بعض التمر والجوز متصدّقاً بها عليهم ، فزجرتهم السيّدة أمّ كلثوم حفيدة الرسول الأعظم ﷺ وعرفتهم أنّها صدقة ، وهي محرّمة على أهل البيت ، فأسرعت الصبية إلى لفظها من أفواهها .. ولمحافظة أهل البيت عليه السلام على هذا السلوك النير في ميادين التربية نشأت فيهم تلك الناشئة الطيّبة التي لم يعرف التاريخ مثيلاً لها صدقاً في القول ، وعقّة في السلوك ، ونزاهة في القصد .

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن بعض مسؤوليّات الأب وواجباته تجاه أبنائه ومن يعول بهم .

مسؤولية الأم

إنَّ الأمَّ هي المدرسة الأولى في بناء شخصيّة الطفل وإكسابه العادات ، فإذا كانت مهذّبة كريمة تمّ إنشاء جيل صالح ، متّسم بالإنّزان في سلوكه ، وإذا لم تكن مهذّبة فإنّ الجيل حتماً يصاب بالتحلّل ، ويمنى بكثير من المفساد .

إنَّ الأمَّ تتحمّل مسؤوليّة اجتماعيّة كبيرة ، فإنّها مسؤولة عن مستقبل الأُمّة وصلاحيها وانطلاقها ، فهي بمهدّها وحضانتها اللبنة الأولى في بناء الكيان التربوي الصالح أو الطالح .

إنَّ أهمّ ناحية في تربية الطفل تستند إلى الأمّ ، فهي التي تبني الأسس لاتّجاهات الطفل وأخلاقه ، وهي التي توجّهه نحو الفضائل والطموح ، والإقدام ، والعمل ، والاعتماد على النفس .. وهذه الأسس التي يكتسبها الطفل قبل الثامنة من عمره يصعب تبديلها كلياً فيما بعد ، ولذلك فإنّ أثرها في حياة الشعوب ورفقيها كبير جداً ، فإذا اعتاد الولد أن يكون طموحاً ومقدماً ونشيطاً ومثابراً في أعماله ، ويتقن ما يعمل ، فإنّه من الطبيعي يكون ركناً قوياً لقيام شعب يتمتّع بطاقات كبيرة لانجاز الأعمال وبناء الحضارة المزدهرة^(١) .

لقد توفّرت في الأمّ بعض الدوافع الذاتية لرعاية الطفل وتربيته ، ولعلّ من أهمّها - فيما نحسب - هي :

١ - أنّها أكثر صبراً من غيرها على تربية أطفالها ورعايتهم ؛ لأنّها مدفوعة بدافع فطري ذاتي ، فقد أوجد الله في قرارة نفسها الحبّ العميق لأطفالها ، وجعلهم ثمرة لقلبها ومهجتها ، ولولا ذلك لما أمكن أن يعيش الطفل ويحيا .

٢ - أنّها أكثر دراية وإمعاناً بأخلاق أبنائها ونفسيّاتهم ، وأبصر بالوسائل السليمة

التي تجدي في توجيههم بعثاً نحو الخير، وزجراً عن الشر.

٣- أن الطفل يستجيب لأُمّه بحكم فطرته وحاجته إليها، فهو يسعى جاهداً لتنفيذ رغباتها وكسب رضاها.

هذه بعض الأمور التي تحمل الأُمّ المسؤولية الخطيرة عن التربية الواعية لأبنائها.

واجباتها:

وعلى الأُمّ التي تريد أن ترى من أبنائها قرّة عين وذخيرة لها في مستقبلها أن تسهر على تربيتهم، وترعى سلوكهم، وتبثّ في نفوسهم النزعات الطيبة والمثل الكريمة، ونعرض فيما يلي لبعض المناهج التي ينبغي لها أن تطبقها على واقع تربيتها:

١- تحبّد لهم كلّ سلوك طيّب، وتلمسهم النتائج الشريفة التي تترتّب على فعله، وتشجيعهم عليه بجميع طاقاتها.

٢- أن تجنبهم عن كلّ طريق إجرامي أو عادة سيئة، وتخوّفهم من سلوك أي جهة لا تتفق مع العادات الدينية والاجتماعية، وتدللّ لهم على ما يترتّب عليها من الضرر لهم وللأسرة والمجتمع.

٣- عليها أن تربي بناتها بالطهارة والعفة، وترشدهنّ إلى محاسن النساء الخالدات، وتحذرنّ من الاستهتار وخلع الحجاب، وارتداء بعض الأزياء التي ترتديها الفتاة الغربية التي لا تشعر بالعفة والكرامة.. على الأُمّ أن ترعى باهتمام أمر بنتها، فتراقبها، وتفحص شؤونها، حتّى لا تتلوّث بالأخلاق الفاسدة التي دهمت بلاد المسلمين، وغزت حياتهم الفكرية والعقائدية.

إنّ البنت أطوع لأُمّها من الولد، وأحرص منه على كسب رضاها؛ وذلك لشدة حاجاتها إليها، فعلى الأُمّ أن تتعاهدها، وتصلح شأنها، وتروّضها على إدارة المنزل، وتشعرها بأعباء الحياة لتؤدّي البنت في مستقبلها دوراً مشرقاً، وتكون أمة

طَيِّبَةً لِنَشْءٍ آخَرِينَ .

- ٤- أن لا تسرف في دلال أطفالها ، فإنّ لذلك من المضاعفات السيئة التي توجب تأخر التربية ، وعدم قابلية الطفل في مستقبل حياته لتحمل مشاق الأمور ومصاعبها .
- ٥- أن تشعر أبناءها بمقام أبيهم ، ولزوم تعظيمه ، واحترامه حتّى يتسنى له القيام بتأديب من شدّ منهم ، وإرغامه على السلوك الحسن .

٦- على المرأة أن تجتنب المساءة مع زوجها ؛ لأنّ ذلك يخلق جوّاً من البغضاء والكراهية بينهما ، فيؤدّي إلى اضطراب الطفل وشعوره بالمخاوف وخلق عقد نفسيّة عنده ، وقد حتّ الإسلام المرأة على إرضاء زوجها ، وحرّم عليها إتيان ما يكره ، فقد أثار عن النبي ﷺ أنّه قال : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ آذَتْ زَوْجَهَا بِلِسَانِهَا لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهَا صَرْفًا وَلَا عَدْلًا وَلَا حَسَنَةً مِنْ عَمَلِهَا حَتَّى تُرْضِيَهُ »^(١) .

وقال ﷺ : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ لَمْ تَرْضَ بِزَوْجِهَا ، وَحَمَلَتْهُ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَمَا لَا يَطِيقُ مِنْهَا ، لَمْ تُقْبَلْ مِنْهَا حَسَنَةٌ ، وَتَلَقَى اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهَا غَضَبَانٌ »^(٢) .

وقال ﷺ : « لَا تُؤْذِي الْمَرْأَةُ حَقَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى تُؤْذِيَ حَقَّ زَوْجِهَا »^(٣) .

وقال الإمام أبو جعفر عليه السلام : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ قَالَتْ لِزَوْجِهَا : مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ ، فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهَا »^(٤) .

إنّ واجب المرأة المسلمة إرضاء زوجها ومسايرته ، والاندماج معه ، واجتنابها

(١) مكارم الأخلاق : ٣١٤/٢ .

(٢) مكارم الأخلاق : ٣١٦/٢ .

(٣) مكارم الأخلاق : ٤٦٤/١ .

(٤) مكارم الأخلاق : ٤٦٥/١ .

عن كل ما يزعجه حتى تتمكن هي وإيائه من القيام بتربية أطفالهم تربية صحيحة .

٧ - إذا شدّ بعض أبنائها وسلوك غير الجادة ، فواجبها إخبار أبيه ليقوم بتأديبه ، وحمله على السلوك القويم ، وليس لها إخفاء ذلك وحجبه عنه ؛ لأنّ الولد يتشجّع على ارتكاب الرذيلة والمنكر ، كما أنّه ليس لها أن تمنع زوجها وتدفعه عن القيام بتأديب أولاده ؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى تمرّدهم وفساد تربيتهم .

٨ - أن تبعد أطفالها عن الشوارع ، فإنّها لا تخلو من المغريات ، ودوافع السلوك المضاد للمجتمع ، فقد أصبحت تعجّ بالمنحرفين والمصابين بأخلاقهم الذين هم مصدر لتلويث الأطفال ، وجزّهم إلى حمأة الرذائل والموبقات .

٩ - أن تمنعهم من الأسباب التي تؤدّي إلى سقوط العقّة والطهارة ، وانهيار الأخلاق والآداب ، كقراءة الكتب والروايات الخلاعية ، ومراودة دور السينما الخليعة ، ودور الرقص ، وغيرها من الأمور المثيرة التي توجب السقوط في حضيض الدعارة والمجون ، وتقضي على تماسك الشخصية وانهيار تكاملها وتفاعلها مع المجتمع .

١٠ - أن تحافظ على العقّة وحسن السلوك ، ولا تتبرّج تبرّج الجاهليّة الأولى ، ولا تخلع حجابها ، وتكون محافظة في سيرتها على الآداب الإسلامية حتى تكون قدوة حسنة لأبنائها على التزام العقّة والنجابة ، والابتعاد عمّا يثير الشهوات ويفسد الأخلاق .

إنّ العلاقة الزوجيّة التي تسود فيها الأمانة هي التي تنشأ العواطف الغالية في الرجل ليؤمن إيماناً صحيحاً بأنّ أبنائه وزوجته مقدّمون على نفسه ومصالحته .

أمّا إذا زالت الأمانة فلا يشعر الرجل بغيرة على زوجته ، ولا يجد باعثاً نفسياً على تربية أولاده ، ولا اهتماماً بمستقبلهم ، ولا يحفل بأن يعيشوا في كنفه وفي ذرى عطفه ، وهذا هو البلاء العظيم الذي تُمنى به الإنسانيّة ، فإنّ من آثاره فساد النشء ،

حيث لا يعرفون لهم أباً عطوفاً يشفق عليهم ، ويقدمهم على نفسه ، وبذلك تموت العواطف التي بموتها تموت الإنسانية .

هذه بعض الأمور التي ينبغي للأُم مراعاتها وتطبيقها على واقع حياتها الزوجية حتى يتسنى لها إنشاء جيل صالح .

واجبات الأبناء

وأولى الإسلام رعاية الأبناء لأبائهم اهتماماً خاصاً ، وأوجب عليهم طاعتهم المطلقة ، وجعل عقوبهم من الكبائر التي توعد عليها بالنار .

لقد أعلن كتاب الله العظيم في غير آية من آياته لزوم الإحسان للأبوين ووجوب طاعتهما ، وقرن ذلك بعبادته وطاعته .

قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ ^(١) .

على هذا النهج القويم الذي يمثل أصالة الإسلام وخلوده في تربيته وتعاليمه يجب على المسلم أن يعامل أبويه ويقابلهما بكل ما يملك من طاقات الخدمة والإحسان ، وأن يسخر نفسه للعمل بما يرضي عواطفهما ، ويشيع في نفوسهما روح الرضا والقبول ، وليس له أن يتفوه بكلمة سأم أو ضجر منهما فيما إذا بلغا سن الشيخوخة ، وعجزا عن القيام بشؤونهما ، فإنه تتأكد خدمتهما ورعايتهما ، وعليه أن يخفض جناح الذل ، ويدعو لهما ويقابلهما بكل ألوان التكريم والإكبار ، فإن ذلك من موجبات الغفران .

وقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام بلزوم البر والإحسان إليهما ، وفيما يلي بعض تلك النصوص :

١ - روى الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي رَاغِبٌ فِي الْجِهَادِ نَشِيطٌ .

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : فَجَاهِدْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنَّكَ إِنْ تُقْتَلَ تَكُنْ حَيًّا عِنْدَ اللَّهِ تُرْزَقُ ، وَإِنْ تَمُتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُكَ عَلَى اللَّهِ ، وَإِنْ رَجَعْتَ رَجَعْتَ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا وَلِدْتَ .

قال : يا رسول الله ، إن لي والدَيْنِ كبيرين يزعمان أنَّهما يأُمنان بي ويكرهان خروجي .

فقال ﷺ : فَقَرِّ مَعَ وَالِدَيْكَ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْتَهُمَا بِكَ يَوْمًا وَلَيْلَةً خَيْرٌ مِنْ جِهَادِ سَنَةٍ ^(١) .

إنَّ بَرَّ الْوَلَدِ بِأَبِيهِ أَكْثَرُ ثَوَابًا ، وَأَعْظَمُ أَجْرًا ، مِنَ الْجِهَادِ الَّذِي هُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ .

٢ - وروى زكريا بن إبراهيم قال : « كُنتَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمْتَ وَحَجَجْتَ ، فَدَخَلْتَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فَقُلْتَ لَهُ : إِنِّي كُنتَ نَصْرَانِيًّا وَإِنِّي أَسْلَمْتُ .

فقال ﷺ : أَيُّ شَيْءٍ رَأَيْتَ فِي الْإِسْلَامِ ؟

قال زكريا : قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا كُنْتُ تَذْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ ﴾ ^(٢) .

فرفع الإمام عليه السلام يديه بالدعاء له بالهداية والتوفيق ، وسأله زكريا فقال له :

(١) الكافي: ١٦٠/٢ ، الحديث ١٠ .

(٢) الشورى ٤٢: ٥٢ .

إِنَّ أَبِي وَأُمِّي عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ ، وَأُمِّي مَكْفُوفَةُ الْبَصَرِ ، فَأَكُونُ مَعَهُمْ وَأَكُلُ مِنْ أُنَيْتِهِمْ ؟
فَقَالَ ﷺ : يَا أَكُلُونَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ ؟

قال زكريّا : لا ، ولا يمسّونه .

قال ﷺ : لَا بَأْسَ ، فَاَنْظُرْ أُمَّكَ فَبِرَّهَا ، فَإِذَا مَاتَتْ فَلَا تُكَلِّهَا إِلَى غَيْرِكَ . كُنْ أَنْتَ الَّذِي تَقُومُ بِشَأْنِهَا .

ولمّا قفل راجعاً إلى بلده أخذ في برّ والدته ، والإحسان إليها ، وتعاهد خدمتها ، فاستغربت من كثرة عنايته بها ، فقالت له : يا بني ، ما كنت تصنع هذا بي وأنت على ديني ، فما الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفيّة ؟ !
قال : رجل من ولد نبينا أمرني بهذا .

قالت : هذا الرجل نبيّ .

قال : لا ، ولكنه ابن نبيّ .

قالت : إِنَّ هَذِهِ وَصَايَا الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ دِينَكَ خَيْرُ دِينٍ .

وطلبت منه أن يعرض عليها الإسلام ، فأسلمت ^(١) .

لقد بنى الإسلام على مكافأة المحسنين والبرّ بالأبوين بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى .

٣ - ويؤكد الإسلام بصورة خاصّة على خدمة الأمّ والبرّ بها أكثر من الأب ؛ لأنّ حقوقها على الولد أكثر من حقوق الأب ، فقد روى الإمام أبو عبدالله ﷺ : « أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ :
مَنْ أَبَرُّ ؟ قَالَ : أُمُّكَ .

ثُمَّ مَنْ؟ أُمُّكَ .

ثُمَّ مَنْ؟ أُمُّكَ .

ثُمَّ مَنْ؟ أَبَاكَ^(١) .

إنَّ الولد مسؤول أمام الله عن رعاية أمّه والبرّ بها ، وتوفير ما تحتاج إليه جزاءً
لأتعابها القاسية ، وعنائها الشاقّ الذي بذلته في تربيته .. وفي الحديث : « أن رجلاً
كان يحمل أمّه فيطوف بها ، فسأل النبي ﷺ : هل أدّيت حقها ؟
فقال ﷺ : لا ، وَلَا بِزُفْرَةٍ وَاحِدَةٍ »^(٢) .

إنَّ البرّ بالوالدين ، ولزوم طاعتهما ، والقيام بجميع ألوان الخدمة لهما ، كلّ ذلك
من العناصر الأساسيّة في التربية الإسلاميّة الهادفة إلى تماسك المجتمع على أساس
من المودة الصادقة والحبّ المتبادل .

الأسرة في العصور الحديثة

ومشكلة الأسرة - في هذه العصور الحديثة - مشكلة خطيرة جدّاً ، فقد فقدت
نتيجة التغيّرات الاجتماعيّة كثيراً من وظائفها التي كانت تقوم بها من ذي قبل ، فأدّى
ذلك إلى تفكّك عرى الأسرة ، وانهيار الروابط التي كانت تربطها فيما قبل .

يقول بعض المربّين :

« والواقع أنّ من مخاطر المجتمع الحديث الرئيسيّة أنّ الدور الطبيعي
الذي كانت تقوم به الأسرة يتضاءل نتيجة لاستيلاء مؤسسات أخرى
على كثير من مسؤوليّاتها ، ونخشى نتيجة التضاؤل أن تفقد الأسرة الأثر

(١) أصول الكافي: ١٥٩/٢ و ١٦٠ .

(٢) مستدرک الوسائل : ٢٠٠/١٠ .

الفعال ، الذي هو من أهم قوى الاستقرار في المجتمع ...»^(١).

وإنّ من أوهى الآراء القول بإهمال شؤون الأسرة ، وترك الحديث والبحث عنها ؛ لأنها لا تؤثر في تطوّرنا الاجتماعي ، بل إنّها مصدر من مصادر الاستغلال يجب تحطيمها كما أعلنته الماركسيّة في بداية تطبيقها زاعمة أنّ الرجل يستغل زوجته وأولاده فيتخذهم أدوات انتاج^(٢) ، وأصرّ «انجلز» على ذلك فقال :

« ولا تعود العائلة الفردية بتحويل وسائل الانتاج إلى ملكيّة عامّة ، الوحدة الاقتصاديّة للمجتمع ، وتصبح إدارة المنزل الخاصّة صناعة ، وتصبح العناية بالأطفال وتربيتهم قضية عامّة ؛ إذ يأخذ المجتمع على عاتقه تربية جميع الأطفال على حدّ سواء أكانوا ثمرة زواج أم لم يكونوا .. وبهذا يختفي الخجل الذي يساور قلب الفتاة من جزاء النتائج التي هي في زماننا أهمّ عامل اقتصادي خلقي يعوق الفتاة من استسلامها بحرّيّة إلى الشخص الذي تحبّه ...»^(٣).

وقد تراجعت الشيوعيّة عن كثير من مقرّراتها ؛ لأنها اصطدمت بالواقع الذي يعيشه النّاس في جميع مراحل تاريخهم من أنّ الأسرة نظام مستقرّ ثابت لا غنى للبشريّة عنه ، ومن ثمّ اتّجه المشروع الروسي إلى إعلاء شأن الأسرة والعمل على حماية الدولة لمصلحة الأمّ والطفل ، ومنح المرأة إجازة قبل الولادة وبعدها بأجر كامل^(٤).

وعلى أي حال ، فلا بدّ لنا من وقفة قصيرة للحديث عمّا منيت به الأسرة من

(١) التعلّم : ٨٧.

(٢) بيان الحزب الشيوعي : ٦٩ ، طبع دار التقدّم - موسكو .

(٣) أصل العائلة : ٨١ ، ويراجع في معرفة المزيد من ذلك النظام الشيوعي : ٥٠ .

(٤) الدستور السوفييتي : المادة ١٢٢ .

الأضرار الفظيعة في ظل الحضارة المادية الحديثة .

انعزال المرأة عن التربية

وكانت المرأة فيما قبل مستقرة في بيتها تعنى بتربية أولادها ، والقيام بشؤون زوجها ، وكانت تقوم مقام المعلم بين أبنائها مشتركة مع الرجال في ذلك .. أمّا في هذه العصور فقد خرجت الزوجة لتقوم بأعمال تشابه أعمال الرجل ، وأصبحت شؤون المنزل والقيام بمهامه عملاً ثانوياً بالنسبة لها ، وأصبحت المرأة في كثير من الدول ترى أن إنجاب الأطفال يتعارض مع قيامها بتولّي الوظائف العامة ، الأمر الذي نجم منه تحديد النسل ، وعدم التفكير في إنجاب الأطفال .

ومما لا شبهة فيه أنّ المرأة مسؤولة عن تهيئة الجو الاجتماعي والنفسي لنشأة الأطفال نشأة سليمة متكاملة ، وقد نجم من تخلّيها عن هذه الوظيفة كثير من المضاعفات السيئة ، وكان من أهمّها انهيار الأسرة ، فقد أصبح التقاء المرأة بزوجها وأطفالها التقاءً سريعاً ، وأصبحت الأسرة في نظر الكثيرين أكثر شبهاً « باللوكاندة » من دون أن يوجد ذلك الرباط الاجتماعي والنفسي الذي يربط بين أفراد الأسرة ، والذي يدعوهم دائماً إلى وضع مصلحة الأسرة فوق كلّ اعتبار^(١) .

إنّ خروج المرأة من البيت قد أوجب حرمان الطفل من التمتع بحنان أمّه ، وذلك لمزاولتها العمل ، وتركه لها أكثر الوقت ، ومن الطبيعي أنّ تغذيته الاصطناعية وتعهّد المربية لشؤونه لا يسدّ مسدّ حنان الأمّ وعطفها ، فقد أثبتت التجارب العلمية أنّ الطفل لا ينمو ، ولا يترعرع على حليب أمّه ، فحسب بل على عطفها وحنانها ، وهذا الغذاء العاطفي لا يقلّ أهميّة عن الغذاء الجسدي في تنمية شخصيته ، ومن هنا جاءت أفضلية التغذية الطبيعية من ثدي الأمّ على التغذية الاصطناعية ،

ففي الأولى يتمتع الطفل بأمرين هما الغذاء والحنان ، وأما التغذية الاصطناعية فإنها تخلو غالباً من شعور الطفل بحنان أمه ، ومن هنا يحسن في الأطفال الذين يحرمون من التغذية الطبيعية أن تضمهم أمهاتهم إلى صدورهن حسب ما ينصح به أطباء الأطفال^(١).

وعلى أي حال ، فإنّ الطفل لا ينشأ نشأة سليمة إلا إذا أخذ حظّه من الحبّ والحنان من أمه ، وهو - في الغالب - قد حرم من هذه الجهة حين انعزال المرأة عن التربية .

وقد نعى على المرأة خروجها من بيتها جمع كبير من علماء التربية والاقتصاد والنفس ، ونعرض لكلماتهم من دون أن نعلق عليها .

يقول الفيلسوف الكبير « بتراندرسل » :

« إنّ الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة ، وأظهر الاختبار أنّ المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة »^(٢).

ويقول العالم الاقتصادي « جون سيمون » :

« النساء قد صرن الآن نساكات وطباعات ، وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها ، وبهذا فقد اكتسبن بضعة دريهمات ، ولكنهنّ في مقابل ذلك قد قوضن دعائم أسرهنّ تقويضاً .

نعم ، إنّ الرجل صار يستفيد من كسب امرأته ، ولكن بأزاء ذلك قلّ كسبه لمزاحمتها له في عمله .. »^(٣).

(١) أسس الصحة النفسية : ٧٥ .

(٢) الإسلام والحضارة الغربية : ٩٢/٢ .

(٣) مجلّة المجلّات : ١٧ .

ويقول العالم الاجتماعي «أجوست كونت» - جواباً عن سؤال قدّمته «هيركور» تسأله عن رأيه في المرأة فأجابها :-

«إنّ حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية إذا جرت على النسق الذي تريد به ، كما هو حالة الرجل ، فيكون أمرها قد انتهى ، فإنّها تصير مستعبدة مملوكة»^(١).

وتقول الكاتبة «آني رورد» :

«لأنّ تشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخفّ بلاءً من اشتغالهنّ في المعامل ، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب بروق حياتها إلى الأبد ، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة .. الخادمة والرقيق يتنعمان بأرغد عيش ، ويعاملان كما يعامل أولاد البيت ، ولا تمسّ الأعراض بسوء .

نعم ، إنّه العار على بلاد الانجليز أن تجعل بناتها مثلاً للردائل بكثرة مخالطة الرجال بالنساء ، لا تسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت وترك أعمال الرجال سلامة لشرفها ..»^(٢).

يقول الأستاذ شفيق جبري : «إنّ المرأة في أمريكا أخذت تخرج من طبيعتها في مشاركتها للرجل في أعماله ، إنّ المشاركة لا تلبث أن تتضعع بها قواعد الحياة الاجتماعية ، فكيف تستطيع المرأة أن تعمل في النهار ، وأن تعنى بدارها وبأولادها في وقت واحد ، فالمرأة الأمريكيّة قد اشتطّت في هذا السبيل اشتطاطاً قد يؤدّي في

(١) دائرة معارف وجدي : ٦٠٥/٨ و ٦٠٦ .

(٢) مجلّة المنار : ٤٨٦/٤ .

عاقبة الأمر إلى شيء من التنازع بينها وبين الرجل»^(١).

يقول «صاموئيل سمايلس» :

«إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل مهما تنشأ عنه من الثروة للبلاد ، فإن نتيجته هادمة لبناء الحياة المنزلية ؛ لأنه يهاجم هيكل المنزل ، ويقوّض أركان الأسرة ، ويمزّق الروابط الاجتماعية ..»^(٢).

تقول السيّدة «أمينة السعيد» : «إنّ الجهل ما زال منتشرًا في النساء ، وإنّ التشريعات العائليّة بصورتها الراهنة أحقّ بالعلاج من دخول البرلمان .. والبيت في رأيي جنّة ما بعدها جنّة ، واستقرار المرأة فيه يعادل آلاف الحقوق السياسيّة ..»^(٣).

هذه بعض الآراء التي أدلى بها جمع من المفكرين - وهي من دون شك - تحمل طابعاً كبيراً من السمة العلميّة ، فإنّ خروج المرأة من بيتها ودخولها في المعامل ، ومزاحمتها للرجل في عمله واقتصاده ممّا أدّى إلى عجزها عن القيام بوظيفتها في تربية النشء ، فإنّها لم تعد إلى المنزل إلّا وقد أضناها العمل ، واستنزفت الأتعب جميع قواها ، فكيف تتمكّن من تربية أطفالها تربية سليمة .

ومن الطبيعي أنّ ذلك يشكّل خطراً جسيماً على النشء يعرّضه إلى الإصابة بكثير من الأمراض النفسيّة ، وعدم الاستقامة في سلوكه ، حسب ما دلّل عليه علماء التربية والنفس .

تضالّ نسبة الزواج

والشيء الخطير الذي يهدّد كيان الأسرة في جميع أنحاء العالم هو تضالّ نسبة

(١) أرض السحر .

(٢) نظريّة العلاقة الجنسيّة في القرآن الكريم : ٩٤ و ٩٥ .

(٣) علّمتني : ٢٤ .

الزواج وانخفاضه إلى حد كبير، فإن الحضارة المادية الحديثة قد جعلت المرأة متاعاً رخيصاً، وسلعة مبتذلة، حتى امتنع الكثيرون من الشباب عن الزواج؛ لأن ما ينشدونه من المتعة الجنسية قد صار بمتناول أيديهم، فإذا لمأذا يقدمون على الزواج ويعانون أعباءه وأثقاله.

يقول الشيخ بهي الخولي: «يمتنع الشباب عن الزواج؛ لأن الزواج قيد يحجزه عن التحوّض فيما شاء من اللذة المتجددة، فقد أقبلت عوامل التطور الحديث على كثير من المجتمعات الغربية بحريّات واسعة في الفكر والقول والعقيدة والسلوك الخاص، وأنشأت لهم أهدافاً في المال، والمنفعة واللذة الحسّية تعارض ما كان لهم من أهداف روحية، ومقاييس لمعاني العِرض والعفة، وصار لكلّ منهم حرّيته الواسعة في حياته الخاصة يفعل منها ما يريد دون رقابة من قانون أو تحرّج من عرف، بل يفعل ما يريد بتحريض من العرف وعطف من المجتمع.

وكان من ذلك أن تفجّرت الشهوات، وسادت عبادة الجنس، وراج جنون اللذة يستبدّ بالباب كثير من أفراد المجتمعات، فروا في الزواج قيداً يحدّ من حريّاتهم في ابتغاء ما يريدون، فنبذوا حياة الأسر وركنوا إلى المخادعة، كلما فترت رغبة أحدهم في خليلته أو فترت رغبتها فيه انصرف كلّ منهما عن صاحبه إلى حيث يجد اللذة في رغبة جديدة وشوق أشدّ.

ولا شك أنّ ذلك يفضي إلى قلة النسل، أي تناقص عدد السكّان، وضعف الأمة في مقوماتها المادية والمعنوية، وقد ظهرت آثاره السيئة منذ عشرات السنين في بعض البيئات الأوربية، وأخذت في الازدياد والاتساع حتى شملت كثيراً من الدول. وها نحن نرى كثيراً من علماء الاجتماع يدقّون نواقيس الخطر، وينذرون أممهم - إذ تهمل حياة الأسرة - سوء المصير بانهايار الأخلاق، وانحلال روابط المجتمع، وانقراض النسل.

ولقد وُفق «المارشال ريبتان» غداة احتلال الألمان لفرنسا في الحرب العالمية الأخيرة أن ينادي قومه إلى الفضيلة، ويعزو الهزيمة إلى هجر حياة الأسرة فكان ممّا قاله :

«زنوا خطاياكم فإنّها ثقيلة في الميزان، إنكم نبذتم الفضيلة، وكلّ المبادئ الروحيّة، ولم تريدوا أطفالاً، فهجرتم حياة الأسرة، وانطلقتم وراء الشهوات»^(١).

إنّ الدولة -باسم الإسلام- مكلفة أن تعني أعظم العناية بإنشاء الأسر وحياطتها، وتوفير ضمانات الاستقرار لها، وتحسّن ما تلده الظروف الاقتصادية والثقافية والسياسية من آثار تمسّها. نعم، هي مسؤولة عن ذلك مسؤوليتها عن التموين والتعليم والدفاع، وما أشبه هذه الأغراض التي لا يمكن تركها للأفراد لأنّها من صميم عمل الدولة ..» .

الشذوذ الجنسي

وكان لتضاؤل نسبة الزواج وانخفاضه آثاره السيئة التي تهدّد كيان الأسرة بالدمار والانحلال، واضطراب السلوك بين أفرادها، ومن أخطر آثاره إشاعة الشذوذ الجنسي وانتشاره بين الناس .

ومن الطبيعي أنّه ليس شيء أخطر على الإنسانية، ولا أفتك بها من إشاعة الفوضى الجنسيّة، فيها تضاع الأنساب، وتنهار قواعد الأخلاق، وقد وضع الإسلام جريمة الزنا في صفّ الشرك بالله، وقرنها مع جريمة قتل النفس التي صانها الله وتوعّد بالخلود في النار لمقترفها. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا *

(١) حقوق الإنسان: ١١٥ و١١٦.

يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴿١﴾.

لقد وضع الإسلام السدود والحواجز أمام جريمة الزنا فأمر بإخفاء الزينة صيانة للمرأة. قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِزَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾، كما منع من خلوة الرجل مع المرأة الأجنبية، قال الرسول الأعظم ﷺ: «لَا يَخْلُونَ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ» (٣).

وحرّم ملازمة المرأة الأجنبية، ففي الحديث: «لَا يَطْعَنُ أَحَدُكُمْ بِمَخِيطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ» (٤).

وجعل صلاة المرأة في بيتها كصلاتها في المسجد.

كلّ ذلك صيانة لها من الاختلاط الذي يدفعها إلى السقوط في حمأة الرذائل،

(١) الفرقان ٢٥: ٦٨ - ٧٠.

(٢) النور ٢٤: ٣٠ و ٣١.

(٣) صحيح البخاري: ٤٨/٣.

(٤) المعجم الكبير / الطبراني: ٢٠/٢١٢. الجامع الصغير / السيوطي: ٣٩٧/٢.

وفقدانها لكرامتها وعزّتها وشرفها .

إنّ الإسلام بجميع أجهزته وطاقاته يحارب الشذوذ الجنسي ، ويحارب الفوضى الغريزيّة ، ويناهض جميع الوسائل التي تؤدّي إلى سقوط المرأة في حمأة الرذائل ، ويطالب بالنهوض بها إلى أرقى المستويات ، يريد أن تكون ربّة عائلة ، ومربّية جيل ، وسيّدة كريمة تحاط بهالة من العزّة والكرامة .. ولكنّ الحضارة الماديّة الحديثة قد أغرت المرأة ، وحبّبت لها الإثم والفجور ، فأخرجتها من ذلك الميدان المشرق إلى حياة كريهة تحفّها الضعة والهوان ووخز الضمير .

لقد سرت في العالم الغربي موجات من الفوضى الجنسيّة ، فلم تعد المرأة الغربيّة تعرف معنى للعقّة والكرامة ، والحياء والأمانة ، ولم تفقه بحكم تربيتها الحديثة أي مغزى أصيل لهذه الحياة سوى إشباع رغباتها الجنسيّة ، وقد انتشر البغاء في الغرب انتشاراً فظيماً يندى له جبين الإنسانيّة ، انتشر في المنتديات والمعاهد والمحلات العامّة ، ولم يعد ذلك أمراً قبيحاً ينكره المجتمع أو ينفر منه ، فقد تسالم على تشجيعه وإقراره .

يقول « بولا بيورو » :

« إنّ هذا العمل - أي احترام البغاء - قد أصبح في زماننا نظاماً محكم التركيب يجري بما شئت من التنظيم في أيدي الموظّفين والعاملين المأجورين ، ويعمل فيه أرباب القلم وناشرو الكتب والخطباء والمحاضرون والأطباء والقبائلات والسيّاح التجاريّون ، ويستعمل له كلّ جديد من فنون النشر والعرض والإعلان » .

ويقول « جورج اسكان » :

« أصبح تعاطي الفجور ، وعدم التصوّن ، واتّخاذ الأطوار السوقيّة معدوداً عند فتاة العصر من أساليب العيش المستجدة » .

قد عَجَّت صحفهم اليومية والسياسية ومجلاتهم وكتبهم بإغراء المرأة ودفعها إلى التجارة بجسدها ، وخلعها لثوب العفة والطهارة ، وقد نجم من ذلك تسيب المرأة وتحللها ، واندفاعها وراء الشهوات والمغريات ، كلما ملّت من رفيق اتخذت خدناً آخر لها ، وقد فسدت بذلك شؤون الأسرة ، وعمّ الاضطراب والانحراف جميع أعضائها .

إنّ البغاء آفة كبرى على المجتمع ، فإنّه من أهمّ العوامل التي تنخر في كيانه وتقضي على أصالته وتماسكه ، فالمجتمع الذي يصاب بهذا الداء الويل تنتشر فيه الأمراض الزهرية ، كالقرحة الرخوة والسفلس والسيلان المنوي ، وهي ممّا توجب تدمير الصحة العامة ، وتعريض الإنسان للإصابة بكثير من الأمراض المهلكة ، كما تقضي على تماسك الشخصية ، وإزالة جميع أرصدها الأخلاقية والأدبية .

لقد انتشر هذا الداء في كثير من مناطق العالم ، فالمستشفيات والمؤسسات الصحية ودور عيادات الأطباء الخاصة تستقبل كلّ يوم سيلاً عارماً من المصابين به ، وبالرغم من المعالجات الحديثة له ، كالبينسلين وغيره ، فإنّه قد انتشر بصورة هائلة ، وكان من آثاره الإصابة (بالهستريا) ، وقد ضجّت المستشفيات العقلية بالمصابين من جرّائه ، كما كثرت عدد ضحاياه في العالم ، وهو في نفس الوقت يحول دون نموّ الاقتصاد العامّ الذي يتوقّف على ازدهار الصحة وتقدّمها في البلاد ، كما يستهلك قسماً كبيراً من الاقتصاد العامّ لشراء الأدوية والعقاقير لإسعاف المصابين وإنقاذهم ممّا هم فيه .

ومن مظاهر الشذوذ الجنسي تفشّي الحبوب المسقطة للحمل وانتشارها بين الفتيات اللاتي يمارسن البغاء ويخشين من الحمل ، وقد انتشر ذلك بصورة مؤسفة في الجامعات والمعاهد الغربية ، فقد كثر فيها الإجهاض والسقط .

ومن الطبيعي أنّ لذلك أثراً كبيراً على صحّة المرأة وإرهاقها ، مضافاً لتقليله

للنسل ، ومن نتائج هذا الانحراف والشذوذ كثرة اللقطاء ، فقد فحشت هذه النسبة في عواصم الغرب ، واهتمت الحكومات هناك ببناء الملاجئ لاستقبال هذا البشر المنكوب ، الذي يفقد العطف الأبوي ، وهو يمني بكثير من العقد النفسية - كما يقول علماء النفس - ومن أخطر ما يصاب به أن يمني بقساوة الخلق والطبع والضعينة على المجتمع .. هذه بعض الأخطار التي تنجم عن الفوضى الجنسية ، وهي تهدد الأسرة بأمواج من الآثام الطاغية حتى ليوشك أن تغرق فيها .

عقوق الأبناء

ومن مظاهر ما منيت به الأسرة من الانحلال - في هذه العصور - انفصال الأبناء عن آبائهم انفصلاً متميزاً في الرأي والعقيدة والاتجاه ، فقد عملت التربية الحديثه بما تملك من طاقات مادية وحضارية على الزهد والتشكيك بقيم الآباء وعاداتهم وأفكارهم ، وأصبح الأبناء ناقلين على مثل آبائهم وقيمهم ، ونتج من ذلك نضال فكري وثوري على المثل القديمة ، والنبد لكل ما يعتنقه الآباء من القيم والتقاليد الاجتماعية ، كما نتج صراع آخر عنيف وحاد فيما بينهم ، فالآباء دوماً يشكون ما يعانونه من عقوق أبنائهم ، وسوء آدابهم ، ويحكون صوراً متنوعة من جفائهم وعدم حشمتهم ومقابلتهم بالقسوة والحرمان .

يقول المربي « جون ديوي » :

« ومن العبث أن ندب ذهاب تلك الأيام القديمة السعيدة على مناقب أولادنا ، والحشمة والاحترام والطاعة الخلقية ؛ إذ النوح لا يعيد الذاهب ، وبكاء ما فات يزيد الحسرات ، فإنّ التغييرات الحادثة نتائج نوايس طبيعية ، ولا يقابلها إلاّ تغيير كافٍ في التهذيب ... » .

وهو رأي وثيق للغاية ، فإنّ التغييرات الحادثة في نظام الأسرة وغيرها من الأنظمة

التربوية والاجتماعية قد أوجبت تمرّد الأبناء ، وخروجهم من حدود الطاعة .
وهيئات أن تعود الطبيعة الأولى من دون أن يكون هناك تهذيب للطباع والغرائز ،
وغرس النزعات الخيرة في أعماق النفوس .

التحلل والميوعة

ومنت كثير من الأسر الحديثة بألوان فظيعة من التحلل والانحراف .
فقد أسرفت في التفنن بأنواع الملذات والمحرمات ، ممّا أدّى إلى انهيار الأخلاق
وانحطاط السلوك ، ومن الطبيعي أنّ الانسياق وراء اللهو يخلق جيلاً غير متماسك
لا يعنى بالقيم الإنسانية ولا بالمثل الاجتماعية ، فالطفل الذي يشاهد أبويه وهما
عاكفان على إدمان الخمر ، وتبادل الرذائل ، فإنّه حتماً يتأثر بذلك في سلوكه
وتوجيهه .

يقول بعض الباحثين في الشؤون التربوية :

« لقد أصبحت الأسرة جوّاً مخزياً للتربية بصورة عامة ؛ لأنّ الآباء
والأمّهات في العصر الحديث قد تجاوزوا الحدّ المقرّر في السذاجة
أو العصبية أو الضعف أو الشدة ، وربّما يعلم أكثرهم بعض العيوب
لأطفالهم .

أكثر الأطفال الذين يجدون صوراً مختلفة عن سوء الأخلاق
والفساد ، والمشاكاة والسكر في البيت والأسرة ، والكثيرون منهم إن لم
يجدوا مثل هذه القضايا في البيت فلا بدّ وأنهم تعلّموها من أصدقائهم ،
فيمكن القول بلا مبالغة أنّ كثيراً من الآباء والأمّهات في العصر الحديث
يجهلون تربية أطفالهم مهما كانت الطبقة التي ينحدرون منها ،
والمدارس أيضاً لا تستطيع أن تؤدّي واجبها ؛ لأنّ الأساتذة لا يختلف

سلوكهم عن سلوك الأبوين كثيراً..»^(١).

إن انحراف الناشئة وفساد سلوكها يستند -على الأكثر- إلى ميوعة الأسرة وتحللها، ولا نعدو الصواب إذا قلنا إن كفة إصلاح الأسرة يفوق سائر العوامل التربوية الأخرى، فهي المدرسة الأولى التي تؤثر أثراً مباشراً على السلوك والتوجيه.

المدرسة

والمدرسة إحدى العوامل التربوية العاملة على تكوين الطفل، وتقويم تربيته، فإن حسنت مقاصدها، وسلّمت مناهجها، وقام برعايتها وإدارتها رواد مخلصون أثمرت في تكوين جيل واع مؤمن بأهداف أمته ووطنه، وإذا أهملت ما عليها من الواجبات والمسؤوليات انهارت قيم الأمة، وأصبحت الناشئة بسلوكها ومقاصدها.. ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة للحديث عنها.

أهمية المدرسة

للمدرسة أهمية بالغة في تقدّم الإنسان وتطوير حياته، فهي مصدر إشعاعه الفكري، ونضوجه العلمي، وهي من أهمّ العوامل لإنقاذ الناس من شرّ الجهل والرديلة.

يقول بعض المربيين: «من فتح مدرسة فقد أغلق سجنًا».

وقال «شكسبير»:

«العلم هو الجناح الذي نستطيع أن نظير به إلى السماء».

وقال بعض الكتّاب الفرنسيين:

«إنّ العالم سائر بنجاح نحو التفكير في الإنسانية، ومن المحال أن ترقى

أمة من الأمم إلا بتعميم التعليم ، ولا وسيلة لإنقاذ الناس من شر الجهل إلا بالعلم .

إن إشاعة المدارس ، وانتشار العلم من الشروط الأساسية في نهضة الأمة ، وبلوغ أهدافها ورفقيها ، كما أنها من العوامل المهمة في بناء الكيان التربوي ، وإكساب الطفل لشخصيته وسلوكه ، وقد ذهب بعض المربين إلى أنها أعمق أثراً ، وأبلغ قصداً في التربية من مؤثرات الأسرة وتربيتها . قال :

« والمدارس العامة بحكم وضعها هي الأداة المنظمة للتربية الوطنية ، وفضلاً عن ذلك فإنه على العكس مما يشاع كثيراً من أن الأسرة هي التي يجب أن تضطلع وحدها بعبء التربية الأخلاقية ، فإني أقّر أن ما تقوم به المدرسة من التكوين الخلقي للطفل يجب أن يكون على غاية كبيرة من الأهمية ، فإن جزءاً كبيراً من هذه الثقافة الأخلاقية ، بل أهم جزء فيها لا يمكن تلقينه في أي مكان آخر . فلو استطاعت الأسرة وحدها أن توقظ وتنمي العواطف الأسرية اللازمة للحياة الخلقية ، أو بمعنى أعم التي تكون أساس العلاقات الفردية البسيطة ، فإن هذه الأسرة بحكم تكوينها البسيط لا تستطيع أن تكون أداة صالحة لإعداد الطفل للقيام بواجباته في الحياة الاجتماعية »^(١).

إن مدة الطفولة تكون الحياة الفكرية فيها ضعيفة ، والحياة الوجدانية ساذجة ، ولا تسمح حالة الطفل النفسية بتكوين عناصر حياته من دون المدرسة ، ومن ثمّ اهتم علماء التربية بها ، وجعلوها من أهم العناصر التربوية .

التعليم

وليس المقصود بالتعليم - عند علماء التربية - مجرد تعلم القراءة والكتابة ،

وإنّما جعلوه شاملاً لكلّ تعلّم يؤهّل الفرد للحياة في بيئته ، ويعطيه قدراً كافياً من الدراسة لجعله مواطناً واعياً قادراً على خدمة نفسه ومجتمعه الذي يعيش فيه .

أهداف التعليم

وعنى علماء التربية بالأهداف والأغراض التي تترتب على التعليم ، وهي كما يلي :

١ - تنمية الإدراك

إنّ الوظيفة الأولى للتعليم هي تنمية الإدراك والميول وتوجيههما الوجهة الصالحة التي تتفق مع صالح الفرد والمجتمع ، والهيئات التعليمية هي المسؤولة عن إدارة هذا التوجيه وتنمية الشعور في خدمة البشر ، والاندفاع للعمل الإيجابي في صالح الغير ، وهذا أهمّ ما ينشده الإسلام .

ففي الحديث : «أَحَبُّ لِعَبْدِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَأكْرَهُ لِعَبْدِكَ مَا تُكْرَهُ لِنَفْسِكَ» ^(١) ، وعلى تكوين هذه النزعة الكريمة في النفس بنى الإسلام تربيته الخلقة الهادفة إلى خدمة المجتمع وتطوير وسائل رقيه على أساس المحبة والنصح .

وأكد علماء النفس على أنّ المهمة الأولى للمدرسة إنّما هي التأثير في سلوك الأفراد تأثيراً يرسمه لها المجتمع كما يتمثل في سلطاته التعليمية ، والمدرسة من حيث هي كذلك تنصبّ وظيفتها الرئيسية على سلوك الأطفال ، ويقاس مدى تحقيقها لوظيفتها بمدى التغيير الذي تنجح به في سلوك أبنائها ، ومن ثمّ كان عندهم أن تستعين المدرسة بكلّ العلوم الإنسانية كي تحقّق هذه الوظيفة ، الأمر الذي دعا إلى وجود فرع لعلم النفس خاصّ بالمشكلات التربوية ، وهو المسمّى بعلم النفس

التربوي ، أو علم النفس التعليمي ^(١) .

٢ - نشر الوعي الثقافي

إنَّ المقياس العامّ لتقدّم الشعوب في كلّ عصر إنّما هو بمقدار ما يتهيأ للأفراد من الفرص التعليميّة ، فإنّ ذلك من أعظم الثروات التي تملكها الأُمّة .

إنّ التعليم يجب أن يستهدف نشر الوعي الثقافي المبنيّ على إدراك الفرد للظروف المحيطة به ، وقدرته على تحسين تلك الظروف ، وعلى معاهد التربية والتعليم أن تعمل على إنماء الروح العلميّة ، واستخدام أساليب العلم الحديث ، سواء أكان في حياتنا الخاصّة أم العامّة ، حتّى تزدهر الحياة ، ويسود الوعي العلمي في جميع أنحاء البلاد .

٣ - التعرف على المشاكل الاجتماعيّة

ويجب أن يعنى التعليم بصورة خاصّة بالتعرّف على مشاكل المجتمع ، والأحداث التي تواجهه ، وفيما نحسب أنّ من أهمّ الخطوب والأحداث التي رزء بها العالم الإسلامي هو الاستعمار الذي أجهز على كرامة المسلمين ، ومزّق أوطانهم إلى دويلات خاضعة لنفوذه ، وقد غرس في قلب الوطن الإسلامي دويلة إسرائيل ، وأخذ يمدّها بالسلاح والعتاد ، كما قام بحمايتها ، وتسديد عدوانها واعتدائها على العرب ، وهي تقوم بدورها جاهدة على إذلال العرب والمسلمين وسلب أوطانهم ، وإجلاء العرب عنها ، والغرض من ذلك إقامة الوطن الإسرائيلي الكبير بدلاً من الوطن العربي ، حتّى يتمّ للاستعمار الاستيلاء على منابع الثروات الضخمة في هذه البلاد ، فالواجب على الأسرة التعليميّة أن تغذّي الناشئة بالأخطار الناجمة عن الصهيونيّة والاستعمار ، وأن تخلق فيهم روحاً ثوريّة حاكمة على الاستعمار ومناهضة

له ، فإنّ ذلك من أعظم الخدمات الكبيرة التي تؤدّيها الهيئات العلميّة للبلاد .

واجبات المعلّمين

وليست رسالة المعلّمين مقصورة على تلقين المعلومات للتلاميذ ، وحشو أذهانهم بالمعارف ، وإنّما واجبهم أشمل من ذلك وأوسع ، فيجب عليهم أن يقوموا بتربيتهم وإعدادهم إعداداً صالحاً للحياة المستقلّة من مختلف وجوها ونواحيها ، ويلزمهم تقوية ملكاتهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وتعهّد غرائزهم وميولهم ، وغرس العادات الصالحة في نفوسهم ، وتربيتهم بالنظم التي تتفق مع نظم مجتمعهم على النحو الذي يجعل منهم مواطنين صالحين ، ومن ثمّ فإنّ اللازم على الأسرة التعليميّة أن توطّد أسباب التعاون مع الطلاب حتّى تتعرّف على مشاكلهم وسلوكهم ، وليس لها أن تتخذ من منصّة الدراسة عرشاً تجلس عليه ، بل لا بدّ أن تندمج معهم بروح من الاخوة حتّى تبصّرهم الحقّ ، وتقيم في نفوسهم حصانة ذاتيّة من الوقوع في السبل الملتوية .

إنّ الرسالة التي يقوم بها المدرّس كرائد للتلاميذ ، وموجّه لأولياء الأمور ، ورائد في بيئته المحليّة هي الأساس لتكوين مجتمع سليم ، فإذا قام بأداء رسالته التربويّة ، وتوفّرت بينه وبين تلاميذه الثقة والمحبة ، استطاع أن يعدّ للمجتمع ناشئة خيرة وسليمة .

على الأسرة التعليميّة أن تبتعد عن التحيّزات والنقائص ، فإنّها تحدّد الفاعليّة الفرديّة والاجتماعيّة في نفوس الطلاب ، وعليها أن تتعرّف على الثغرات المهمّة التي تعوق النموّ العلمي عند التلاميذ ، إلى غير ذلك من الواجبات .

وقد ذكر المعنّون بالبحوث التربويّة الإسلاميّة أموراً أخرى أوجبوا على الهيئات التعليميّة مراعاتها والاهتمام بها ، وهي :

- ١ - دراسة الحضارة الإسلامية وقيمها وتطوّراتها دراسة مفصّلة ، وإظهار الأثر الذي تركته هذه الحضارة في الحضارات الإنسانية الأخرى .
- ٢ - دراسة المجتمع الإسلامي الحاضر للوقوف على عوامل التغيير المستمرّ ، والتعرّف على نواحي القوة والضعف ، والإحاطة بكلّ جزء من أجزائه للتعاون على خلق مجتمع إسلامي واع قويّ متّحد ، يهدف إلى تحقيق العدالة ، ورفع مستوى المعيشة ، والأمن الفردي والجماعي .
- ٣ - إبراز الاتصال الجغرافي والثقافي بين أجزاء الوطن الإسلامي ، وأنه وحدة متكاملة يتأثّر كلّ جزء بما يقع في الأجزاء الأخرى .
- ٤ - دراسة مقارنة لنظم التربية والتعليم في جميع البلاد الإسلامية .
- ٥ - تيسير قيام الطلبة والأساتذة بزيارة الأقطار الإسلامية ، والاتّصال بمعاهد التعليم والتربية فيها .
- ٦ - إيقاظ الشعور الإسلامي في نفوس الطلبة ، وإكسابهم روح الاعتزاز بإسلامهم بحيث ينعكس ذلك في جميع ألوان مظاهر سلوكهم الفردي والاجتماعي .
- ٧ - دراسة التاريخ الإسلامي والجغرافيا بصورة مفصّلة للتعرف على أمجاد المسلمين في الماضي ، ومصالحهم في الحاضر .
- ٨ - إبراز الشخصيات الإسلامية الإسلامية الفدّة في شتى ميادين الحضارة الإنسانية .
- ٩ - إفهام النشء بواجباتهم تجاه الأمّة ، والقيام بخدماتها في الحقل الاجتماعي والسياسي .
- ١٠ - تحصين المواطنين ضدّ الغزو الفكري الأجنبي الذي يقصد منه إفساد الروح الإسلامية .

- ١١ - تبصير المسلمين بالأخطار التي تهدّدهم من الاستعمار والصهيونيّة .
 - ١٢ - تحفيز المسلمين على العمل الإيجابي لاستخلاص الأراضي السليبة التي احتلّتها العصابة الصهيونيّة .
 - ١٣ - تربية السلوك الإسلامي المشتمل على أساس من التعاون ، والعمل المشترك ، والشعور بالمسؤوليّة ، وإيثار الصالح العامّ .
 - ١٤ - أن تحتوي المناهج الدراسيّة على واجبات التلميذ تجاه أبويه وأسرته .
- هذه بعض الأمور التي يجب ملاحظتها ، وهي لا تخصّ الأسرة التعليميّة ، بل نعمّ المسؤوليّة جميع المصلحين والمخلصين لأمتهم ودينهم .

مميّزات المعلّم

- إنّ المعلّم رائد أمة ، ومعلّم جيل ، قد أنيطت به أعظم المسؤوليّات الاجتماعيّة ، وقد ذكروا له بعض المميّزات التي يجب أن تتوفّر فيه ، وهي :
- ١ - أن يحصل على قسط من المعرفة والعلم تساعد على التعرّف على طبيعة السلوك الإنساني والأسباب والدوافع الكامنة وراء هذا السلوك .
 - ٢ - أن يكون مكتسباً لمجموعة من المهارات تساعد على تمكّن الجماعة من مواولة بعض أنواع النشاط .
 - ٣ - أن يكون مكتسباً لمجموعة من الاتّجاهات الخيرة التي تساعد على التفاعل بنجاح مع تلاميذه .
 - ٤ - أن يكون دقيق الملاحظة ، قادراً على التصرّف ومراعاة الظروف والمواقف المختلفة .
 - ٥ - أن يحاسب نفسه عمّا قدّمه للطلبة من أعمال ، ويقف على الأعمال التي

أثمرت في ميادين الإصلاح .

هذه بعض الأمور التي ذكرت للمعلم الناجح في أداء مهمته ، والذي نراه أن نجاح الهيئة التعليمية ليس في شحن أذهان الطلبة بالمعلومات ، وإنما النجاح الباهر الذي تحرزه هو ما تخرّجه من المواطنين الصالحين الذين يخدمون الأمة بوعي وإيمان ، وإذا لم تكن بذلك انهار صرح التربية ، وتعثّر التقدم الاجتماعي ، فإنّ المعلم إذا لم يكن مؤهلاً ، نشر الاضطرابات النفسية بين التلاميذ ، كما لو كان مصاباً بمرض معدٍ^(١).

وعلى أي حال ، فإنّ التربية الحقيقية تتطلب من الهيئة التعليمية القدرة على العمل وحسن البصيرة ، والتحليّ بالعادات الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والاعتماد على النفس ، وإرضاء الضمير ، وعليها أن تحقّق المبادئ التي تتطلبها التربية الحقّة ، وهي :

١ - العمل للوصول إلى الكمال .

٢ - الانتفاع بالموهب الفطريّة لدى الأطفال ، وتوجيهها توجيهاً صالحاً .

٣ - تربية الغرائز ، وتشجيعها على العمل الصالح .

٤ - العناية بحواسّ التلاميذ وأجسامهم وعقولهم .

٥ - استغلال النشاط الذاتي للطفل حتّى ينتفع بما وهبه الله له من المواهب وما ورثه من الميول الصالحة .

٦ - إعطاء الطفل الفرصة في التدريب على اكتساب أحسن الأخلاق والعادات^(٢).

هذه بعض الأمور التي يميّز بها المعلم الناجح ، وذكروا أنّه لا يكفي أن يكون المعلم متقناً لما يدرّسه من مواد ، بل يجب أن يكون ملماً بأصول علم النفس ،

(١) الأمراض النفسية والعقلية: المقدّمة.

(٢) روح التربية والتعليم: ١٩.

وقواعد التربية ، وعلم الاجتماع ، ووظائف الأعضاء ، حتّى يتسنى له الوقوف على قوى الأطفال الجسميّة والنفسيّة ، وعلى طبيعتها ووظائفها ونشأتها ، كما يجب أن يكون على علم بما اكتشفه علماء التربية من حقائق وسنوّه من طرق ، ولا يكفي مجرد إلمامه بهذه المواد ، بل لا بدّ أن يجيد تطبيقها ، ويحسن الاستفادة من حقائقها في تربيته للأطفال ، وفضلاً عن هذا وذاك أن يكون المعلم في شخصه وسلوكه قدوة لغيره ، وأن يكون أنموذجاً صالحاً ، وأسوة حسنة لتلاميذه^(١) ، وسنوضح ذلك في بحوثنا الآتية .

مسؤوليّة المعلم

إنّ المعلم يحمل مسؤوليّة خطيرة وواجباً عظيماً ، فإنّه مسؤول أمام الله عن أفلاذ أكباد الناس ، وتربيتهم تربية سليمة ليكونوا في مستقبل حياتهم قرة عين لآبائهم ، وذخيرة لأوطانهم .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي : « إني لا أعرف أمانة أكبر مسؤوليّة ، وأشدّ خطراً ، وأعمق أثراً في مستقبل الأُمّة وحياتها من التربية والتعليم ، فزلة من زلّاتها قد تردي أُمّة بأسرها في هاوية ، وقد تؤدّي إلى الاضمحلال والتفسّخ والفوضى في الأخلاق والاجتماع والسياسة والتعليم ، واللا دينية والإلحاديّة ، كذلك يمكنها وحدها أن توجّه العقول والنفوس توجيهاً صالحاً ، وتنشأ الأُمّة نشأة جديدة ، وتبني لها مستقبلاً باهراً... »^(٢) .

إنّ المعلم مسؤول عمّا يصيب الأُمّة من زيغ فكري وعقائدي ، وهو مسؤول عن النموّ الفكري ، والتهديب النفسي بين الناس ، وقد قرن « جيلبرت هايت » بين وظيفة

(١) عوامل التربية : ١٦ .

(٢) نحو التربية الإسلاميّة الخيرة : ٢٤ و ٢٥ .

المعلم ووظيفة الطبيب ، وجعل مسؤولية المعلم أشد من مسؤولية الطبيب ؛ لأنّ الناس إذا عرفوا أنّ الطبيب لا يشعر بمسؤوليّة فإنّهم ينصرفون عنه ، ولكنّ الصغار الذين يذهبون إلى المدارس قد لا يدركون أنّ معلّمهم يهمل تعليمهم ، والآباء لا يصاحبون أبناءهم حتّى يطلّعوا على واقع أمرهم ، ولو فرضنا أنّهم ذهبوا معهم لما استطاعوا معرفة الحقيقة ومدى قيام المعلم بواجبه .

إنّ الناس إذا عرفوا عن الطبيب أنّه يهمل واجباته كان من السهل عليهم الانصراف عنه ، ولكنّ التلاميذ الصغار لا يستطيعون الانصراف عن معلّمهم إلى آخر يختارونه ، ومن أجل هذا كانت مسؤولية المعلمين أمام ضمائرهم وأمام الأمة أعظم بكثير من مسؤولية الأطباء وغيرهم من خدّام الإنسانية^(١) ، وقد قيل : إذا أردت أن تبحث عن رقيّ قوم فابحث عن معلّمهم .

وقال بعض المربيين :

« إذا كنّا نرى أنّ من واجب المدرسة تنمية عقل التلميذ ، وتوسيع ميوله ومدراكه ، يجب أن يكون تعليمه قبل دخوله مدرسة المعلمين أرقى ممّا هو عليه »^(٢) .

ويرى « جون لوك » أنّ العقل الإنساني عندما يحمله الطفل إلى المدرسة يكون كالصفحة البيضاء فارغاً لا شيء فيه ، وأنّ المدرسة تقوم بملء جنباته بالتراث الإنساني ، والخبرات البشريّة ، ومعنى هذا أنّ عمليّة التعليم من جانب المدرّس لها أهمّيّتها الكبرى في تكوين السلوك الشخصي ، وتزويده بالكفاءات اللازمة التي تحقّق له نجاحاً طيّباً ، وعيشاً كريماً ، وتعاوناً صادقاً في مجتمعه .

وذهب علماء النفس إلى أنّ المدرّس مسؤول عن استثارة النموّ التربوي ، فإنّه قد

(١) فنّ التعليم : ٩ .

(٢) دراسات في تنظيم التعليم في مصر : ٢٤ و ٢٥ .

كَلَّفَ مِنَ الْمَجْتَمَعِ بِالْعَمَلِ عَلَى تَعْدَادِ خِبَرَاتِ الْأَطْفَالِ ، وَاسْتِثَارَةِ مَوَاهِبِهِمْ وَاسْتِعْدَادَاتِهِمْ ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ عَنْ إِدَارَةِ هَذَا النَّمُوِّ وَتَوْجِيهِهِ الْوَجْهَةَ الَّتِي تَتَّفَقُ مَعَ مَصَالِحِ الْمَجْتَمَعِ وَمَصَالِحِ الْفَرْدِ^(١) .

الاهتمام بالأسرة التعليمية

إِنَّ الْأُسْرَةَ التَّعْلِيمِيَّةَ هِيَ مَصْدَرُ الْإِشْعَاعِ الْفِكْرِيِّ فِي الْبِلَادِ ، فَعَلَى عَلَى وَزَارَاتِ التَّرْبِيَةِ أَنْ تَبْذُلَ الْمَزِيدَ مِنَ الْاهْتِمَامِ بِشَأْنِهَا ، وَالتَّعَرَّفَ عَلَى مَشَاكِلِهَا ، وَتَقْدِيمَ الْمَعُونَاتِ الْلازِمَةِ لَهَا ، فَإِنَّهَا مِنْ أَقَلِّ الطَّوَائِفِ رِيحاً ، كَمَا أَنَّ الْلازِمَ أَنْ تُشَجِّعَهَا عَلَى الْانْصِرَافِ إِلَى الْعَمَلِ الْجَدِّيِّ ، وَتُخَفِّفَ عَنْهَا الْإِرْهَاقَ ، وَتُشْعِرَهَا بِعُطْفِ الْوِزَارَةِ ، وَتَتَعَاوَنَ مَعَهَا عَلَى إِنْجَاحِ التَّعْلِيمِ ، وَالنَّهْوِضَ بِرَفْعِ مُسْتَوَاهِ ، وَتَبَثَّ فِي نَفْسِهَا رُوحَ الْإِخْلَاصِ لِلْوَاجِبِ ، وَأَنْ تَبْحَثَ عَمَّا تَمْنَى بِهِ مِنْ عَوَامِلِ التَّأَخُّرِ وَالْانْحِطَاطِ وَالنَّقْصِ فَتَزِيلَهَا ، لِتَصُونَ بِذَلِكَ كِرَامَةَ الْعِلْمِ .

إِنَّ الْاهْتِمَامَ بِالْمُعَلِّمِينَ شَأْنٌ مِنْ شُؤُونِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ فِي الْبِلَادِ الْمُتَطَوِّرَةِ ، فَإِنَّهُمْ مَرْكَزُ التَّوْجِيهِ ، وَمَصْدَرُ الْانْطِلَاقِ وَالنَّضْجِ الْعِلْمِيِّ فِي الْأُمَّةِ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَنَايَةِ بِهِمْ ، وَالتَّعَاوُنِ مَعَهُمْ فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ .

الاهتمام بالطلاب

إِنَّ التَّعْلِيمَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحَقِّقَ أَهْدَافَهُ فِي الْأَوْسَاطِ الطَّلَابِيَّةِ مَا لَمْ تَوْمِّنْ حَيَاتُهَا الْاِقْتِصَادِيَّةَ ، وَتَكُونَ فِي مُسْتَوًى اِقْتِصَادِيٍّ مَقْبُولٍ ، فَإِنَّهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ إِذَا لَمْ يَتَهَيَّأْ ذَلِكَ لَهَا لَا تَسْتَطِيعُ مِنْ مَوَاصِلَةِ التَّعْلِيمِ أَوْ التَّفَرُّغِ لَهُ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ عَلَى مَعَاهِدِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ أَنْ تَتَدَخَّلَ فِي هَذِهِ الْجِهَةِ ، وَأَنْ تُسَاهِمَ فِي مَعُونَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَعْوُزِينَ مِنْ

الطلاب ، فإنّ الفقر يقضي على المواهب والعبقريّات ، ويقضي على سائر الإمكانات البشريّة .

وعلى الحكومة أن تهيّء لهم دوماً الفحص الطبي المجاني ، كما أنّ عليها أن تمنحهم الغذاء اللازم ، وليس معنى ذلك أن تأخذ المدرسة على عاتقها مسؤوليّة القيام بجميع ذلك كلّهُ ، ولكن عليها أن تقوم بالقسط الوافر منه ، فإنّ هذا من أهمّ واجباتها ومسؤوليّاتها ، فإنّ تقديم المعونات والمساعدات اللازمة للطلبة الذين تعوزهم الظروف الاقتصاديّة من الاستمرار في دراستهم ممّا يتوقّف عليه مبدأ تكافؤ الفرص التعليميّة في البلاد .

فشل التعليم

ومني التعليم في أغلب أنحاء الأرض بفسل ذريع ، فلم يمكنه أن يحقّق رسالته التربويّة الهادفة إلى تهذيب الأخلاق ، وإصلاح النفوس ، والتحليّ بالعبادات الفاضلة ، والنزعات الكريمة ، ونشير فيما يلي إلى بعض مناحي النقص .

١ - إهمال الأخلاق

إنّ التربية الحديثة لم تبتن على أساس من التعاليم والمبادئ الأخلاقيّة ، فلم تكن الأوساط التعليميّة - على الأكثر - بهذه الناحية ، ولم تعرها أي اهتمام . يقول بعض المربّين :

« ويذهب الطفل إلى المدرسة وهو ملوّث بجرائم خلقيّة ، فلا تفكّر المدرسة في معالجتها ؛ لأنّ المدرّسين لا يفكّرون إلّا في الامتحان والنجاح ، أمّا الأخلاق فمهملة الإهمال كلّهُ ، ولا يفكّر أحد في تقويم المعوجّ منها »^(١) .

وقد أنتج هذا الإهمال الفوضى الأخلاقية في نفوس الشباب ، ولسوء التربية والجهل أن بعضهم يعتبر أن ذلك التسبب سلوكاً محموداً .

يقول المربي « هوريس مان » :

« إن التربية الحقّة مهمة ؛ لأنّ المدارس لسوء الحظّ لا تعنى إلّا بحشو الذاكرة ، والمدرّسون لا يفكّرون إلّا في كثرة الأخبار والتكلم ، وليست كثرة الكلام بالتربية والتعليم ، وليست وظيفة المدرّس إلقاء المعلومات فحسب ، ولكنّ وظيفته العناية بالتربية الحقّة من جميع النواحي ، وينبغي أن يكون المعلّم مربيّاً ، هو أن يصحب التعليم بالتربية »^(١) .

لقد أخفق التعليم في إيجاد نشء واعٍ متطوّر مؤمن بأهداف أمته ووطنه ، ومتصدّد إلى العمل الإيجابي في خير الإنسانية وصالح البلاد .

يقول بعض المربين :

« لن نكون مبالغين إذا قلنا إنّ التعليم قد أخفق في تكوين شخصيات ناضجة تتسم بالاتزان العقلي والنفساني ، وتستطيع أن تحيا حياة حرّة ذات روابط إنسانية طيبة ، والسبب واضح في أنّ التعليم لم يأخذ في الاعتبار الصلات التي توجد بين المدرسة والجماعة التي ينتمي إليها ، فالقائمون على شؤون التعليم يتناسون أنّ المدرسة يجب أن تعدّ الشباب عن طريق الخبرات ، وتعلم الحياة الاجتماعية وممارستها للعيش في مجتمع سليم يسوده الاستقلال والتعاون اللذان يعتبران بحقّ من أهمّ الصفات اللازمة للحياة الحاضرة .

إنّ اهتمام السلطات المدرسيّة بصبّ المعلومات في أذهان التلاميذ

أكثر من اهتمامها بتكوين خلق التلميذ يعطي الغلبة بتكوين خلق التلميذ على حساب التربية»^(١).

وانتقد «المستر ليمان» التربية الأمريكية فقال :

«إنها لا تخلق ثقافة ، ولا مجموعة مشتركة من المبادئ ، ولا تهذيباً أدبياً وذهنياً مشتركاً»^(٢).

إنّ التعليم إذا لم يعن بإقامة الأخلاق وتهذيب النفوس فهو تعليم فاشل ، وإنّ التعليم إنّما يكون ناجحاً إذا استهدف إصلاح النفوس وتقويم المشاعر . يقول «أرسطاطاليس :

« وليس ثمة درس يتعلّمه الإنسان ولا عادة يكتسبها أهم من الحكم الصائب على الأمور ، والابتهاج بالأخلاق الكريمة ، والأفعال النبيلة »^(٣).

إنّ إهمال الأخلاق وعدم العناية بحسن السلوك أدّى إلى المضاعفات السيئة ، وأهمّها انتشار الغرور والطيش والميوعة والقلق^(٤) في الأوساط الطلابية .

٢ - إهمال حسن السلوك

ومن المؤسف جداً - في هذه العصور - عدم اهتمام المدرسة بحسن سلوك الطلاب في خارج المدرسة ، كما أنّ الآباء لا يكثرثون بما يمتنى به أبنائهم من

(١) اتجاهات في التربية والتعليم : ١٢ .

(٢) التربية لعالم حائر : ٣١ .

(٣) علم السياسة : ١٨ .

(٤) القلق : حالة من الخوف الغامض الشديد الذي يصيب الإنسان ويسبّب له كثيراً من الكدر والضيق والألم .

الانحراف والشذوذ، وإثما جلّ اهتمامهم بما يحرزونه من النجاح في آخر العام الدراسي، وقد نجم من ذلك تمرد الناشئة، وفقدانها لكثير من الآداب والتقاليد الاجتماعية.

يقول بعض المربين:

«الأب الحريص على ولده وابنته لا يهتم إلا بنجاحهما في المدرسة في آخر كل عام، والمدرسة الناجحة في عرف المسؤولين هي التي تقدّم أكبر عدد من الناجحات والناجحين في آخر العام الدراسي، أما التربية.. أما العناية بسلوك الفتى والفتيات، فتلك أمور لا يهتم بها إلا نفر قليل.

وهذا الإهمال للناحية التربوية في البيت والمدرسة هو الذي زاد بعد الشقة بين الأبناء والآباء، وهو الذي زاد في هذا الصراع فأوجد جيلاً جديداً مستقلاً لا هدف له ولا غاية، يسير في الحياة على غير هدى لا يربطه بماضيه رابط، ولا يردعه عمّا يريد رادع»^(١).

ومن الطبيعي أنّ في هذا الإهمال أخطاراً اجتماعية كبيرة أهمّها ذلك كيان الأسرة وهدم بناء المجتمع الذي نعيش فيه.

٣- التعليم المجرد

وعنت المدارس الحديثة بالتعليم المجرد الذي لا يكسب التلميذ خبرات وتفاعلاً مع مجتمعه، فإنّ حشو ذهن الطلاب بالعلوم والمعارف لا أثر له في حياتهم الفردية إلا إذا كانت المعرفة حيّة مطابقة لواقع الحياة. ومن المؤسف أنّ أغلب المدارس لا تعنى بذلك، فإنّ همّ المدرّس هو إتمام المقررات الدراسية بأيّة صورة،

(١) البيت والمدرسة: ٣٣.

وهم التلاميذ هو حفظ هذه المقررات بقصد النجاح في الامتحان .

وقد أثبتت التجارب في تتبع التلاميذ بعد تخرجهم من المعاهد التربوية أن التوفيق في الامتحان ليس دليلاً كافياً على النجاح في الحياة العملية ، فكم من تلميذ مبرز في المدرسة قد فشل في ميدان العمل الاجتماعي ؛ وذلك لنقصان في تربيته ، ولذلك تقلل التربية الواعية من شأن المعرفة المجردة التي تأتي عن طريق التعليم الجامد ، أو عن طريق السلبية في التعلم ، كما تقلل من شأن المعرفة التي لا تتصل بالبيئة أو لا تمت إلى الحياة العامة بصلة .

إن عملية التعليم يجب أن تنصب إلى قوى الطفل كلها - دون أي استثناء - كما ينبغي أن تحاول الكشف عن تلك القوى لتدريبها وتنميتها وتوجيهها الوجهة الصالحة حتى يكتسب الطالب من ذلك عادات عقلية وجسمية واجتماعية نافعة له كعضو في المجتمع ، وحتى يكتسب أيضاً مهارات يتمكن من تكييف سلوكه بحسب الظروف المختلفة ، وكذلك ينبغي أن تكون التربية منصبة على وجدانه وذوقه وعواطفه حتى تكون منها نفساً وثابة تلتف حول الحق والعدل ، فإن التربية الحقيقية والتعليم الواقعي ما هما إلا أداة لتنظيم القوى البشرية بغية اكتساب سلوك يتفق ونظام المجتمع ، بحيث يضمن للفرد حسن التصرف والقدرة على التكيف في عالمه الاجتماعي .

أما التعليم وحده فهو محدود بالمعرفة التي يقدمها المدرس للتلميذ ، فيحصلها في نطاق فكرة التحصيل ، وليست المعرفة دائماً فوزاً إلا إذا فهم معناها ومغزاها ، واستخدمت فعلاً ، واستفاد منها صاحبها في حياته وسلوكه ، واستفاد منها المجتمع في بناء نفسه ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا عني التعليم بعقلية المتعلم وميوله ونشاطه وقدرته وسلوكه بما يحقق له إيجابية فعله في حاضره ومستقبله^(١) .

٤ - التعليم المختلط

وذهب الكثيرون من علماء التربية إلى أنَّ ممَّا يعوق نموَّ التعليم وازدهاره هو التعليم المختلط ، وأكّدوا على ضرورة فصل الجنسين ، واستدلّوا على ما ذهبوا إليه بما يلي :

١ - إنّ البنات لا يملكن الصّحة والقوّة والذكاء لمنافسة البنين في العمليّات الفكرية .

٢ - إنّ محاولة تعليم الجنسين في صفّ واحد ممّا تجعلهما في جوّ لا يستطيعون فيه استعمال ينابيع ذكائهم ، واستخدام فرص تعليمهم بصورة تامّة .. ففي مرحلتي ما قبل المراهقة والمراهقة بصورة خاصّة يعتبر فصل الجنسين الأسلوب الوحيد لخلق الجوّ التربوي الذي يلائم التعليم الصحيح .

٣ - إنّ للتعليم المختلط نتائج الأخلاقيّة والعاطفيّة الخطيرة في زمن الطفولة والمراهقة على حدّ سواء .. فقبل أن يكون لدى الصغار الوقت الكافي لفهم أنفسهم ، وبينما تكون حسّاسيّتهم في طريقها إلى التيقّظ ، قد يؤدّي النظام المختلط بالبنين إلى فقدان النشاط والصراحة . وفي البنات إلى فقدان الرقّة والنعومة والتواضع .. واجتماع المراهقين والمراهقات في المدرسة يثير في كثير من الأحيان الانفعالات الجنسيّة التي تسيئ إلى الحبّ والزواج في حياة الرشد .

٤ - إنّ التوجيه المهني والاجتماعي يختلف بالنسبة إلى الجنسين اختلافاً كبيراً ، فمن المستحيل وضع برنامج خاصّ في أي معهد من المعاهد العلميّة يلائم حاجات البنين والبنات معاً .. إنّ كلا الجنسين سيخسران من الناحية التربويّة ، من أية ناحية لو وضع منهاج للدروس المشتركة بينهما .

٥ - إنّ نموّ البنات أسرع من نموّ البنين ، الأمر الذي يخلق مشكلة صعبة في صفوف التلاميذ في سنّ المراهقة وما قبل المراهقة . إنّ النظام المختلط يضعهم

سوية عدّة ساعات يومياً للقيام بعمليات مشتركة في مرحلة يكون بينهما تفاوت في النواحي الجسميّة والانفعاليّة والاجتماعيّة .

إنّ المشاكل التي تنشأ من التعليم المختلط لا تؤدّي إلى تأخّر الصّحة العقليّة فقط بين التلاميذ ، ولا إلى نموّ الميول الجنسيّة بين الجنسين ، وإنّما تؤدّي إلى كثير من المشاكل والصعوبات^(١) ، وممّا لا شكّ فيه أنّه يؤدّي إلى تدهور الأخلاق وانهايار قواعد الآداب .. والذين لا يرون بأساً في الاختلاط ، ويصفونه بأنّه بريء وبعيد عن الدناسة والانحراف ، فإنّهم لا ينظرون إلى طبيعة الإنسان ومكوّناته وغرائزه ، فقد مجبل منذ بداية تكوينه إلى الاندفاع بنهم نحو الغريزة الجنسيّة ، ولا يقف أمام هذه الغريزة أي مانع أو حجاب .

وقد حكى تعالى في كتابه فيما اقتصر من خبر يوسف عليه السلام مع زليخا بقوله : ﴿وَالْأَنْصُرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) ، ويوسف عليه السلام من أنبياء الله ، فكيف بغيره ؟!

وحكى تعالى ما مجبلت عليه نفس الإنسان من الاندفاع نحو الشهوات . قال تعالى : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(٣) ، فما يحجب الشباب وهو في نظارة العمر ، وفي أتمّ القوى من اقتراف جريمة الزنا .

يقول العلامة الشيخ محمد أمين زين الدين : « واحضر أمام جائع منهوم مائدة شهية المأكّل ، متنوّعة الألوان ، ودعه يتمتّع برؤيتها ساعة وأكثر من ساعة ، لتستيقن صدق هذه الحجّة التي يقيمون .. دعه يتحلّى بالنظر إلى صحافها واحدة واحدة ، ويستنشئ روائحها عرفاً عرفاً ، ويتقصّى ألوانها لوناً لوناً ، ويعدّد فواكهها فاكهة فاكهة ،

(١) التربية وسيكولوجيا الطفل : ٩٤ و ٩٥ .

(٢) يوسف ١٢ : ٣٣ .

(٣) يوسف ١٢ : ٥٣ .

ويعيد النظر ويستأنف العهد والاستقصاء .

دعه يمتّع بصره وحواسّه كذلك ساعة أو ساعتين ثمّ سلّه : ألا يزال جائعاً بعد ، ألم يملأ عينيه بالنظر ، وأنفه بالعطر ، وذنه بالتعداد وبالتصوّر ونفسه بالمتعة ، فكيف تبقى جوعته بحالها ؟ !

إنّ متعة العين بالنظر الشهويّ ، ومتعة السمع بالحديث المملّد ، ومتعة الحواسّ الأخرى بالمدرّكات الجميلة المحبّبة ، لن تسدّ نهمة الجنس ، ولا جوعة المعدة يا أساتذة ، ومن يدّع غير هذا فإنّما يكذب نفسه وتكذّبه البداة من كلّ عقل ..» (١) .

ويحكى هذا الرأي واقع الحياة والفطرة السليمة التي فطر الله النّاس عليها ، وهي بأيّ حال لن تشدّ ولن تحيد عمّا طبعت عليه من اندفاع النّاس بنهم نحو الغريزة الجنسيّة ، وقد عبّّت الصحف العالميّة بنقل مآثم هذا الاختلاط ومعايره الذي تمنى به الجامعات والمعاهد التي تجمع بين الجنسين ، ولنستمع إلى بعض ما تحكيه هذه الصحف .

فقد كتبت مجلّة الاتحاد القومي مقالاً جاء فيه : « لقد أدّت المدارس المختلطة في أمريكا إلى نتائج سيّئة ، فقد انهكم الفتيان والفتيات في المغازلة والملاحقة وممارسة العلاقات الجنسيّة عوض الدروس ، وأدّى ذلك إلى انصراف الطلاب والطالبات عن المناهج الدراسيّة بشكل عامّ ، ولذلك فقد صمّم علماء التربية على فصل مدارس البنين عن البنات في الدورين الابتدائي والثانوي ..» .

وجاء في جريدة الشعب المصريّة : « ازدادت موجة الانحلال في أمريكا بصورة مفرّعة .. أصبحت المدارس والمعاهد مرتعاً خصيباً للشذوذ الجنسي ، وتحول التلاميذ والتلميذات إلى مدمني خمر وسفّاكي دماء .. المسدّسات والمدى

والسكاكين في جيوب الطلبة ، وعلب السجائر وأقراص منع الحمل في حقائب الطالبات ، ولم يعد الأمر يحتمل السكوت ، ولذلك قامت إحدى الهيئات القضائية ببحث جرائم طلاب المدارس في نيويورك وأوصت بتعيين رجل من رجال البوليس في كل مدرسة بصفة مستديمة للحدّ من نشاط عصابات الطلبة المنتشرة في المدارس ، وقد أبدى بعض رجال القضاء مخاوفهم من احتمال انسياق رجال البوليس مع الطلاب والطالبات في صخبهم الذي لا يعترف لحدود .

ويخمن القاضي « لندسي » الأمريكي أنّ ٤٥٪ من فتيات المدارسن يدنّسن أعراضهنّ قبل تخرّجهنّ ، وترتفع هذه النسبة كثيراً في مراحل التعليم العالية^(١) .

لقد أصبح من المؤكّد عند علماء التربية ضرورة فصل الجنسين في جميع مراحل التعليم ؛ وذلك لما في الازدواج من الأضرار البالغة التي توجب وقف نموّ التعليم وشيوع التحلّل والتفسّخ بين الطلاب .

٥ - تناقض التعليم

ومثني التعليم في جميع أنحاء المدارس بخليط من الآراء والمبادئ المتناقضة كانت ناشئة من أفراد الهيئة التعليميّة ، فقد يأتي مدرّس إلى قاعة المدرسة وهو يحمل فكرة خاصّة يحاول نشرها بين تلاميذه ، ويدعوهم إلى اعتناقها ، ويعقبه مدرّس آخر فيفند ذلك ، ويدعو إلى فكرة أخرى تناقض ما دعا إليه زميله ، ومن هنا نشأت محنة الطلاب .

يقول بعض المرّبين :

« ولكي تتصوّر معي مدى خطورة هذه البلبلة والتردّد عليك أن تتصوّر أعصاب الطالب وأفكاره وهي تستقبل ما بين كلّ صباح ومساء خليطاً

(١) نظرية العلاقة الجنسيّة في القرآن الكريم : ١١١ و ١١٢ .

من الآراء والمبادئ المتناقضة المتعاكسة ، وهو يُحمل على أن يعتقد بجمعها ، ويؤمن بها كلها .. يدخل عليه أستاذ الدين فيشرح له كل شيء عن الكون طبق المبدأ الإسلامي الحق ، ولكنه لا يكاد يدبر حتى يخلفه أستاذ علم الاجتماع فيهدم جميع ما كان قد بناه زميله الأول ، ويريد الطلاب على أن يعتقدوا بأفكار أخرى .. ثم إذا خرج جاء من وراءه مدرّس آخر يهدم ما بناه كلّ من الزميلين السابقين ، ويمضي في تشييد آراء جديدة على عقول الطلاب المساكين ، وقس على فكرة الكون جميع البحوث الأخرى ، كالأخلاق والتاريخ والاقتصاد وما وراء الطبيعة .

إنّ هذا التناقض أدّى إلى خلق اضطراب فكري في نفوس الطلاب ، وإلى اختلاف اتجاهاتهم وميولهم ، ومن المؤسف أن تكون معاهد التعليم ومؤسسات الثقافة سوقاً للأفكار الوافدة المعادية لتربة الوطن والدين .

وقد أخفقت بعض المدارس في البلاد الإسلامية إخفاقاً ذريعاً في أداء رسالتها ، فقد نشأ جيل غير واعي لأهداف دينه ووطنه ، تسوقه الدعايات الاستعمارية ، وتعتمد عليه في نشر أفكارها وأهدافها ، وإذا أراد المسؤولون مداواة هذا الإخفاق فعليهم أن يعنوا في تعريف الطلاب بعناصر التربية الإسلامية ، ويضعوا لها دروساً في جميع مراحل التعليم تعرّف الناشئة بالأنظمة الخلّاقة التي جاء بها الإسلام في تنمية السلوك الاجتماعي ، وخلق الروح الخيرة والنزعات الكريمة في نفس الإنسان .

البيئة

ومن أعظم المؤثرات في التربية هي البيئة ، فإنّ الطفل مقلّد لبيئته تقليداً غير شعوري ، وهي توجد في نفس الطفل مع سهولة ويسر الغرائز والعادات ، فإذا حسنت البيئة حسنت آثارها ، وإذا كانت ملوثة بالجرائم والانحراف أصيب النشء بعاهاتها وآفاتهما .

إنَّ الإنسان لا يخضع في سلوكه لتكوينه الداخلي فحسب ، وإنَّما يخضع إلى العوامل الخارجيّة التي تتفاعل معه وتؤثر فيه ، وبذلك تطبع البيئة آثارها في دخائل النفس ، وتكسبها الخلق والعادات ، ونعرض فيما يلي لبعض شؤونها .

١ - أهميّة البيئة

وأجمع المعنيّون في البحوث التربويّة أنّ البيئة الاجتماعيّة من أهمّ العوامل التي تعتمد عليها التربية وتستغلّها في تشكيل الشخصية الإنسانيّة ، وتحقيق رغبات الأفراد والطبقات داخل النطاق الحضاري العامّ ، كما تعمل على تحقيق درجة عالية من التكامل الاجتماعيّ ، كما أنّها في نفس الوقت تقلّل من ظهور التوتّرات ، ومظاهر السلوك المنحرف ، ممّا يؤدّي ذلك إلى اندماج الفرد بالجماعة وإيمانه بأهدافها وقيمتها^(١) .

٢ - مسؤوليتها

إنّ البيئة الاجتماعيّة مسؤولة عن أي انحطاط أو تأخّر للقيم التربويّة ، فهي مسؤولة عن رفع مستوى الطموح العلمي والأدبي في البلاد ، وعليها أن تعنى بمطالبة المسؤولين بإيجاد الوسائل الفعّالة لنشر الثقافة وإنارة العقول بالعلم ، فنحن إذا نظرنا إلى البيئات الاجتماعيّة في العصور التاريخيّة المختلفة لوجدنا أنّ البيئات التي تتميّز بدرجة كبيرة من التقدّم والحضارة هي التي قامت بوظيفتها في حثّ المسؤولين على تنمية الوعي ، وبثّ موجات العلم بين طبقات الشعب ، وهذا من جملة الأهداف الضخمة التي عناها الرسول الأعظم ﷺ في حديثه : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »^(٢) ، فالمسلمون جميعاً معنيّون بمطالبة حكوماتهم بإيجاد

(١) الأسس الاجتماعيّة للتربية : ٤٩ .

(٢) مستدرك الوسائل / النوري : ٢٤٨/١٤ .

الوسائل التي تدفعهم إلى التطوّر والرفقّ والمساهمة في بناء الحضارة الإنسانيّة .

٣ - استقرارها

إنّ استقرار البيئة الاجتماعيّة ، وعدم اضطراب الأسرة ، لهما دخل كبير في استقامة سلوك النشء ووداعته ، وقد بحثت مؤسّسة اليونسكو في هيئة الأمم المتّحدة عن المؤثّرات غير الطبيعيّة في نفسيّة الطفل ، وبعد دراسة مستفيضة قام بها الأخصائيّون قدّموا هذا التقرير :

« ممّا لا شكّ فيه أنّ البيئة المستقرّة سيكولوجيّاً ، والأسرة الموحّدة التي يعيش أعضاؤها في جوّ من العطف المتبادل ، هي أوّل أساس يركّز عليه تكيّف الطفل من الناحية العاطفيّة ، وعلى هذا الأساس يستند الطفل فيما بعد في تركيز علاقاته الاجتماعيّة بصورة مرضية ، أمّا إذا شوّهت شخصيّة الطفل بسوء معاملة الوالدين فقد يعجز عن الاندماج في المجتمع .. »^(١).

إنّ استقرار البيئة من أهمّ الأسباب في تماسك شخصيّة الطفل وازدهارها وإبعادها عن عوامل القلق ، فقد ذهب علماء النفس إلى أنّ اضطراب البيئة ، وما تحويه من تعقيدات ، وما تشتمل عليه من أنواع الحرمان ، كلّ هذا يجعل الطفل يشعر بأنّه يعيش في عالم متناقض مليء بالغشّ والخداع والخيانة والحسد ، وأنّه مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوّة تجاه هذا العالم العنيف^(٢).

٤ - أنواعها

وذكر المعنيّون بالبحوث التربويّة أنّ البيئة التي يعيش فيها الإنسان على

(١) أثر الأسرة والمجتمع في الأحداث الذين هم دون الثالثة عشرة - مؤسّسة اليونسكو : ٣٥ .

(٢) التكيّف النفسي : ٢٢ .

نوعين ، وهما :

الأول : البيئة الطبيعية

ويقصد بها كل ما يحيط بالإنسان من الأمور المادية ، فالأرض وما عليها وما في جوفها من الجماد والنبات والحيوان ، وما يتوَلَّد فيها من القوى والطاقات على اختلاف أنواعها ، فإنَّها جميعاً ممَّا تتكوَّن منها البيئة الطبيعية ، كما تتكوَّن منها العلوم الطبيعية التي تعلَّم في المدارس ، كدروس الأشياء في الصفوف الابتدائية ، وعلوم النبات والحيوان والفيزياء والكيمياء التي تدرَّس في المدارس الثانوية والجامعية ، فإنَّ جميع هذه العلوم تتعلَّق بالبيئة الطبيعية التي ينبغي للطلاب أن يتفهَّمها ، كثيراً أو قليلاً ، ليتمكَّن من تكييف نفسه .

الثاني : البيئة الاجتماعية

ويقصد بها المجتمع البشري ، وعلاقة أفرادهِ وجماعاتهِ ببعضهم ببعض ، فالعلاقات البشرية على اختلاف أنواعها ، سواء أكانت اقتصادية أم سياسية أم مهنية أم ثقافية أم سيكولوجية تتألف منها جميعاً البيئة الاجتماعية ، كما تتألف منها العلوم الاجتماعية التي تُدرَّس في المعاهد العلمية ، كالتاريخ والجغرافيا والتربية وعلوم الاقتصاد والسياسة .

إنَّ جميع هذه العلوم تتعلَّق بالبيئة الاجتماعية التي ينبغي للمتعلم أن يلمَّ بها حتَّى يتمكَّن من تكييف نفسه بمقتضاها ، وممَّا له الأثر الكبير في البيئة الاجتماعية والقيم الروحية والنفسية ، فإنَّ لهما الأثر الفعال في تربية الجيل الناشئ ورفع مستواه .

٥ - البيئة في الإسلام

واهتمَّ الإسلام في البيئة اهتماماً بالغاً ؛ لأنَّها من العناصر الفعَّالة في التكوين التربوي والاجتماعي ، فإذا صلحت مدَّت الأُمَّة بخيرة الرجال وأكثرهم كفاءة

وانطلاقاً في ميادين الخير والإصلاح ، وإذا فسدت منيت الأمة بالأشرار والفجّار الذين يحملون عقداً نفسيةً على المجتمع بأسره .

لقد عُنِيَ الإسلام في أمر البيئة ، فأرصد جميع أجهزته وطاقاته في إصلاحها وتقدمها ، فكان يهدف لأن تسود فيها القيم الواعية من العدل والحقّ والمساواة ، وأن تنعدم فيها جميع عوامل الانحطاط والتأخّر من الجور والظلم والأنانية ، وأن تكون آمنة مستقرّة خالية من الفتن والاضطراب ، وقد أنتجت البيئة الإسلامية العظماء والأفذاذ والعباقرة والمصلحين الذين هم من خيرة ما أنتجته الإنسانية في جميع مراحل تاريخها ، إيماناً بالله ، واندفاعاً نحو الحقّ ، وتغانياً في سبيل العدل .

والشيء الجدير بالاهتمام أنّ الإسلام قد عنى بصورة بالغة في أمر البيئة الخاصّة ، فلاحظ أهمّ جوانبها المؤثّرة في انفعال الفرد وإكسابه العادات والأخلاق ، وهي « الصداقة » ، فإنّها من أقوى العوامل التربويّة التي تنقل خلق كلّ واحد واتّجاهاته وميوله إلى الآخر . . وقد أكّد علماء الاجتماع هذه الظاهرة فقالوا :

« إنّ الحياة الاجتماعيّة حياة تأثير وتأثر ، فكلّ إنسان يتأثر فيمن حوله ويؤثر فيمن حوله » .

وفي المثل الانكليزي « أخبرني عن صديقك أخبرك عن نفسك » .

ويقول الشاعر العربي :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارَنِ مُقْتَدِي

وقد حتّ الإسلام بإصرار بالغ على الاتّصال بالأخيار والمتحرّجين في دينهم ، ومصاحبة ذوي الشرف والنبيل والاستقامة ، حتّى يكتسب منهم حسن السلوك ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

يقول الإمام الحسن عليه السلام في وصيّته الخالدة لجنادة :

«وَإِذَا نَارُ عَيْنِكَ إِلَى صُحْبَةِ الرِّجَالِ حَاجَةً، فَاصْحَبْ مَنْ إِذَا صَحِبْتَهُ زَانَكٌ، وَإِذَا خَدَمْتَهُ صَانَكٌ، وَإِذَا أُرِدْتَ مِنْهُ مَعُونَةً أَعَانَكُ، وَإِنْ قُلْتَ صَدَقَ قَوْلُكَ، وَإِنْ صَلَّتْ شَدَّ صَوْلَتِكَ، وَإِنْ مَدَدْتَ يَدَكَ بِفَضْلِ مَدَّهَا، وَإِنْ بَدَتْ مِنْكَ ثُلَمَةٌ سَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى مِنْكَ حَسَنَةً عَدَّهَا، وَإِنْ سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ، وَإِنْ سَكَتَ عَنْهُ ابْتَدَأَكَ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِكَ إِحْدَى الْمُلِمَّاتِ وَاسَاكَ، مَنْ لَا تَأْتِيكَ مِنْهُ الْبَوَائِقُ وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْكَ مِنْهُ الطَّرَائِقُ، وَلَا يَخْذُلُكَ عِنْدَ الْحَقَائِقِ، وَإِنْ تَنَازَعْتُمَا مُتَقَسِمًا أَثَرُكَ»^(١).

لقد حدّد الإمام السبط بهذه الكلمات الذهبية واجبات الصداقة في الإسلام، وهي تقضي بلزوم الرعاية والودّ والتعاون بين الصديقين .

وبما أنّ الصداقة توجب كسب العادات، وتفاعل الفرد بأخلاق صاحبه وميوله واتجاهاته، فقد حذّر الإسلام من مصاحبة بعض الأشخاص المصابين ببعض الأمراض النفسيّة والعاهات الأخلاقية .

يقول المربّي العظيم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام :

«يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْأَحْمَقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضِرُّكَ ؛ وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ، فَإِنَّهُ يَقَعُدُّ عَنْكَ أَخْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ ؛ وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالثَّأْفِ ؛ وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يَقْرُبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ، وَيُبْعَدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ» .

وتترتب على مزاملة هؤلاء الأشخاص كثير من الأضرار التي توجب فقدان التوازن في سلوك الشخص .. وقد حفلت مصادر الحديث والأخبار بحشد وافر من الأخبار التي أشرت عن النبي صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، وهي تحدّد صفات الصديق،

(١) كفاية الأثر: ٢٢٨، عنه بحار الأنوار: ١٣٩/٤٤. حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٢/٤٧٤.

ومدى تأثيره على صاحبه ، فقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال : « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ وَقَرِينِهِ »^(١).

وعلى الشاب المؤمن بدينه وعقيدته أن يكون حذراً من الاتصال ببعض الأشخاص المصابين بأخلاقهم وسلوكهم ، فإنهم يدفعونه إلى الإثم والفجور ، كما يجب عليه أن يجتنب حملة المبادئ الهزيلة كالوجودية وغيرها من التي تدعو إلى التحلل ورجوع الإنسان إلى عهد الغاب .

لقد مُني المجتمع الإسلامي بالكثيرين من هؤلاء المنحرفين الذين لا يملكون وعياً إسلامياً ولا وعياً وطنياً ، ولا يفقهون أي مغزى نبيل لمجتمعهم ، فراحوا يسعون بقوى محمومة إلى النيل من مقدّسات الأمة وقيمها الروحية والاجتماعية .. فعلى الشباب المؤمن بإسلامه ووطنه أن يحذر منهم ، ولا يتصل بهم لئلا يتلوّث بما تلوّثوا به أو ينحرف إلى ما انحرفوا إليه .

٦ - في العصور الحديثة :

وبلغت البيئة الاجتماعية في العصور الحديثة إلى درجة كبيرة من الاندماج والتشابه ، وذلك بسبب المخترعات الحديثة ، كالراديو والتلفزيون وتيسّر وسائل النقل التي قربت الاتصال ما بين الأمم والشعوب ، ونقل عادات كلّ أمة إلى أخرى ، وأدّى ذلك بطبيعة الحال إلى تبادل الأفكار على نطاق واسع لم يسبق له مثيل في العصور المتقدّمة ، فقد اشتركت أغلب الشعوب في الاتجاهات والتقاليد والعادات .

والشيء المؤلم أنّ البيئة الاجتماعية في جميع أنحاء الأرض قد منيت بكثير من المخاوف والذعر وفقدان الأمن ، وذلك بسبب الجشع الذي أترعت به نفوس ساسة الدول الكبرى من التهالك على غزو الشعوب الضعيفة واستعمارها وجعلها خاضعة

(١) أصول الكافي : ٦٤٢/٢ .

لنفوذها، ويضاف إلى ذلك صراعها الحادّ على المبادئ التي تعتنقها، فكلّ منها تريد أن تسود مبادؤها وقيمها على جميع أنحاء الأرض، وقد نجم من ذلك الحروب المدمّرة التي يشتعل لهبها في بعض مناطق العالم ممّا سبّب اضطراب البيئة الاجتماعية، وإصابة الإنسان المعاصر بالخوف والذعر.

إنّ الإنسان المعاصر يعيش على أعصابه، قد فقد الأمل بغده ومستقبله، لا يعلم ماذا يريد به؟ وماذا أضمرت له الدول الكبرى من الويلات والشرور، فقد اتّجهت بلا هدي ولا رشد نحو الحروب والدمار، واستخدمت جميع أجهزتها الاقتصادية والعسكرية والدبلوماسية لبغي بعضها على بعض، وإجهاز كلّ منها على الأخرى.. ففي كلّ نشرة إخبارية تذيعها محطات الإذاعة في العالم لا نسمع إلّا أخبار الفناء والتدمير، وأخبار الإبادة: إبادة لأرواح النّاس وإبادة لاقتصادهم.

لقد وجّهت الدول الكبرى اقتصاد شعوبها بسخاء إلى تطوير أدوات الحروب، ودفعت العلماء إلى الاختراع والإبداع فيها، فكان تطوّر هذه الأجهزة مذهلاً ومحيراً للعقول، فالأقمار الصناعية، والأجهزة الالكترونية قد استخدمت للكشف عن المواضيع الاستراتيجية، وما تملكه كلّ دولة من وسائل الدفاع والقوّة، وكان من أخطر ما توصّلت إليه الرؤوس النووية التي باستطاعتها أن تدمّر أي دولة من دول العالم في بضع ساعات، وبعث ذلك على إشاعة الذعر والقلق في جميع أنحاء العالم.

حقّاً أنّها أزمات ثقال ومصاعب مرهقة يعيشها الإنسان، فلا يعلم متى تنطلق آلهة الشرّ بأسلحتها المبيدة إلى تدمير الحياة، وتسليم مفاتيح هذا الكوكب بيد خالقه، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الأخطار كانت ناجمة من فقدان التربية الواعية في نفوس ساسة العالم وقادته، ولو كان عندهم أي وعي إنساني لجنبوا العالم من هذا الخطر العظيم، ووجّهوا جهودهم نحو أمن الإنسان ودعته ورخائه واستقراره.

وبهذا ينتهي بنا المطاف عن العوامل التي تتكوّن منها التربية العامّة.

التخطيط الثقافي
في العمليات
التربويّة الحديثة



وعنت الأنظمة الحديثة بصورة خاصة في شؤون التعليم ، وجعلته حقاً طبيعياً لكل مواطن ، والدولة مسؤولة عن توفيره وتهيئة الفرص اللازمة للجميع ، وخصّصت له جميع حكومات العالم وزارات خاصة ، ولجاناً متعدّدة تعنى بشؤونه وتطويره وازدهاره ، كما أسّست النقابات التعليميّة لتقوم برعاية شؤون المعلمين ، وتعمل لصالحهم ، ورصدت الدول الكبرى أضخم الأموال من ميزانياتها العامّة إلى توسيع نطاق التعليم حتّى عمّت فيها المدارس والجامعات والمعاهد العالية ، وهي تتناول البحث عن مختلف العلوم والفنون ، وكان من آثارها النهضة الفكرية الجبّارة والتطوّر الهائل في عالم الاختراعات والصناعات ، فقد استطاع الإنسان أن يغزو الفضاء ، ويصعد إلى القمر ، ويرسل الأقمار الصناعيّة ، وهي تصوّر المواقع التي تجتاز عليها ، وترسلها إلى الأرض ، وإذا ما حدث خلل في أحد أجهزتها أصلحه الإنسان وهو على الأرض ، كما تسجّل من تلقاء ذاتها المعلومات عن الحالة الجوية والأشعة الكونيّة التي تصادفها في فلكها وتبثّها إليه .. والعلم أخذ بالتطوّر والنموّ ، وسيحقّق للإنسان أعظم الانتصارات ، ولكن الأنظمة القائمة في العالم كلّ منها قد تبنت فلسفة خاصّة في عالم الحكم وعالم السياسة ، فاستخدمت العلم لنشر مبادئها وأفكارها السياسيّة ، ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة للتحدّث عن بعض مناهجها التعليميّة ، وما منيت به من الأخطاء .

المنهج التعليمي في الغرب

والنظام التعليمي في الدول الغربية يقوم على تطوّر العلوم الماديّة وبلورتها وتوسيع نطاقها، كما تعنى بذلك غيرها من دول العالم، فقد تسابقت جميع شعوب العالم إلى العلم والمعرفة، مؤمنة بأنّه حاجة من حاجات الحياة، وضرورة من ضروريّاتها، وأنّه لا يمكن بأي حال أن تستقبل مواكب النور والارتقاء إلّا بانتشار العلم في ربوعها.

يقول «آدم سميث» :

«إنّ شعباً تحكمه حكومة منظّمة يجب أن لا يترك فرد من أفرادها بغير تعليم...»^(١).

إنّ مقياس تقدّم الشعوب في جميع مراحل التاريخ يبتني على مدى ما تملكه الأُمّة من فرص التعليم، فهو الثروة الحقيقيّة التي يستطيع أن يهيئ لها الحياة الكريمة، ويحقّق لها السيادة على بقيّة الشعوب.

وكان العالم الغربي في العصور الغابرة يرسف في قيود الجهل قد انحطّ فكريّاً واجتماعيّاً، فلم يملك أي طاقة من طاقات التقدّم والعلم قد سيطرت عليه الخرافات والأوهام، وسادت فيه العادات والتقاليد الهزيلة، وقد دفعه شعوره بالنقص والتأخّر إلى الاتّصال بالعالم الإسلامي، فاقبّس منه عوامل نهضته وارتقائه، فأخذ عنه علوم الحساب والكيمياء والطبّ والفلسفة والفلك، وغيرها من التشريعات والأساليب الحيائيّة والاجتماعيّة، وترجموا مئات الكتب العلميّة الإسلاميّة إلى لغاتهم حتّى أنّ كثيراً من المصطلحات الإسلاميّة لا تزال تملأ لغاتهم، وقد اندفع الغرب إلى تأسيس المعاهد والمدارس، وإلى جعل الدراسة اختصاصيّة

في كل علم وفنّ.. ولكن المناهج التعليمية السائدة فيه قد منيت بكثير من الأخطاء ممّا أوجب فقدان التربية الواعية في جميع مناطق بلادهم ، ونشير فيما يلي إلى أهمّها:

إقصاء الأخلاق

ولم تعن المناهج التعليمية في الغرب بالمُثل الأخلاقية ، فقد أقصتها عن واقع الحياة الدراسية .

يقول بعض المربيين :

«إنّ نظام التعليم في الغرب إنّما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة»^(١).

ولم يعن التعليم في الغرب - بصورة جازمة - بالتربية الواعية الهادفة إلى غرس النزعات الكريمة والمُثل العليا في أعماق النفس ، وقد اتفق كبار المربيين على أنّ التعليم الذي لا يؤدّي إلى الكمال لا يستحقّ أن يسمّى تعليمًا ، فإنّ الغرض من التعليم إنّما هو إيجاد حياة طاهرة مقدّسة ملؤها الإخلاص والكمال كما يقول فروبل^(٢).

ويقول المستر «ليمان» في التربية الأمريكية :

«إنّها لا تخلق ثقافة مشتركة ولا مجموعة مشتركة من المبادئ ، ولا تهذيباً أدبياً»^(٣).

ويقول بعض المعنّيين في البحوث التعليمية في الغرب :

(١) ضرب كليم : ٨٥.

(٢) تربية الإنسان : ٧٨.

(٣) التربية لعالم حائر : ٥٢.

«إنَّ التعليم أصبح مجرداً من وضع أسس المحبة والتعاون بين الإنسان وأخيه ، فلا غرابة أن انعدمت الإنسانية بين الأفراد»^(١).

إنَّ المدرسة هي الوسيلة الفذة التي اصطنعها المجتمع الإنساني لتوجيه الأبناء الوجهة الصالحة حتَّى يكون سلوكهم موافقاً لما يرسمه لهم المجتمع من القيم والعادات ، إلَّا أنَّ المدرسة الغربيَّة لم تهتمَّ بذلك ، ولم تقم له أي وزن .

ومن الطبيعي أنَّ لذلك كثيراً من المضاعفات السيئة ، ولعلَّ من أهمِّها انهيار القيم الإنسانية ، وتدمير أسس التعاون بين أعضاء المجتمع ، وشيوع الأنانية والجشع والكذب والدسيسة بينهم .

يقول « جورج . ا . فريلند » :

« وإذا كان علماء الاجتماع يرون أنَّ المواطنة الصالحة وأخلاق الطيبة للفرد مقياس أساسي لقيمة الحضارة البشريَّة كان من واجبات التربية أن تتحمَّل عبئاً كبيراً هو إنقاذ الحضارة من التدهور ، ولقد كان هذا الوضع في خاطر الكاتب المفكّر « ه . ج . ولز » عندما قال : إنَّ الحضارة سباق بين التربية والدمار »^(٢).

إنَّ سبب الأزمة الأخلاقيَّة التي يعانيها المنهج التعليمي في الغرب وفي البلاد الخاضعة لحكمه إنَّما كانت ناشئة عن بعد المناهج والمقرَّرات الدراسيَّة عن النظم الروحيَّة والقيم الإنسانية ، فإنَّ المعاهد العلميَّة لا تستطيع أن تسهم إسهاماً كاملاً في بناء شخصيَّة الفرد إذا لم تكن مناهجها على أساس من الوعي الديني الصحيح ، وقد شعرت أمريكا بالفقر الروحي الذي مني به جيلها الجديد ، فسمحت للكنائس بفتح مدارس خاصَّة تسمَّى « المدارس الطائفيَّة » تديرها الكنيسة الكاثوليكيَّة ،

(١) التعليم ومعنى الحياة : ١٠ .

(٢) أساليب في التربية الحديثة : ١١ .

وهي تملك في أمريكا نظاماً واسعاً من المدارس الابتدائية ، وعددًا يزداد باستمرار من المدارس الثانوية ، كما تدير الكنيسة اللوثرية عددًا كبيراً من المدارس الابتدائية والثانوية ، وتقوم بعض المؤسسات الدينية على تخصيص أوقات معينة يأتي فيها ممثلون عن الكنائس لتعليم مسائل الدين في المعاهد الدراسية التي هي غير خاضعة للكنيسة ، كما حثت الأطفال على الذهاب إلى الكنائس ليتعلموا الدين هناك^(١)، ولكن الديانة المسيحية لم تملك منهاجاً سليماً في الميادين التربوية ، ولم تستطع أن تقوم بإصلاح شامل للحياة والفرد ، فكل ما فيها اللجوء إلى الكنائس ، والزهد في الحياة ، الأمر الذي أدى إلى خلق عقدة نفسية في نفوس الكثيرين من أبنائهم من الدين ، ونفورهم من الدعوة إليه .

وبالإضافة إلى قصور الديانة المسيحية عن معالجة شؤون الحياة وعدم وضعها للبرامج الإصلاحية ، فإنها قد منيت بالهزل والوهن بسبب ما دسّه فيها رجال الكنيسة من الافتراءات والخرافات التي تجافي المنطق ، وتناهض القوى العقلية المتحررة ، فليس - إذن - من الغرابة أن تفشل الديانة المسيحية في إعداد تربية سليمة متطورة متسمة بالإنسانية والتعاون في بناء المجتمع الإنساني .

وعلى أي حال ، فإن الأنظمة التعليمية في الغرب لم تنجح في أداء رسالتها التربوية ، ولم تحقق لمجتمعها نشأاً واعياً سليماً في سلوكه ، فقد أنتجت جيلاً مصاباً في أخلاقه وميوله متجهاً نحو الدعارة والعبث والمجنون ، والانطلاق وراء الشهوات ، ووراء اللهو والتحلل عن جميع القيم والآداب .

المناهج التعليمية في المستعمرات

وعمد الاستعمار الغربي إلى وضع منهج خاص للتعليم في مستعمراته يؤدي إلى

إمارة الوعي ، وإشاعة الفقر العلمي والروحي فيها ، وقد قالوا: إنّ الفتح العسكري يجب أن يقترن بفتح تعليمي ؛ وذلك لإبقاء نفوذهم وسيطرتهم ، وجعل البلاد تفقد الوعي بالتحرّر والخلاص من الاستعمار.

كانت المخططات القديمة للاستعمار سلبية تجاه التعليم ، فكانت ترمي إلى تقليل المتعلّمين أو محوهم ، ففي أمريكا الجنوبيّة عندما قامت الثورة على الاسبان - في أوائل القرن التاسع عشر - رفع القائد العامّ مذكرة إلى عاهله يخبره بانتصار جيوشه على الثوّار ، وأنّه قابل المتعلّمين بمنتهى القسوة فأفناهم ، وأنّه قد استأصل بذلك فكرة التمرد والعصيان - على حدّ تعبيره ..

وفي أمريكا الشماليّة كانوا يعتبرون تعليم الزنوج القراءة والكتابة من الأعمال الممنوعة ، ويعاقبون كلّ أبيض علّم زنجياً بعقوبة الحبس والجلد ، إلّا أنّ هذه السياسة قد فشلت ، وشعر المستعمرون بخطأهم ؛ وذلك لحاجتهم إلى الاستعانة بأهل البلاد لاستغلال مرافقهم الاقتصادية ، فلا بدّ لهم من تعليم النشء لإعدادهم للأعمال اللازمة ، فقاموا بتأسيس المعاهد التعليميّة ، ولكنّهم وضعوا لها منهجاً خاصّاً يؤدّي إلى حمل المتعلّمين على حبّ المستعمرين واندماجهم معهم فكريّاً ، وقد صرّح بهذه الظاهرة الكاتب الانجليزي اللورد « ميكالي » في تقرير له حينما كان رئيساً للجنة التعليميّة عام ١٨٣٥م التي قرّرت جعل اللغة الإنجليزيّة أداة لتعليم الهنود بدلاً من لغتهم ، وجاء في التقرير :

« يجب أن ننشئ جماعة تكون ترجماناً بيننا وبين الملايين من رعيتنا ، وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم ، إنجليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير... »^(١).

هكذا وضعت فرنسا مناهجها التعليميّة في الجزائر ، فقد جاء في بنودها :

« ما يترتب على أهل الجزائر من الواجبات نحو فرنسا مقابل الحماية التي تسديها إليهم ، والعدل الذي أدخلته إلى بلادهم ، والأمن الذي نشرته في ربوعهم ، ونعم التعليم والحضارة التي أغدقتها عليهم .

الاحترام الذي يجب أن يشعروا به نحو من يدير البلاد باسم فرنسا ، والاحترام الذي يجب أن يظهروه نحو العلم الفرنسي»^(١).

ولكن هذه السياسة لم تلبث أن باءت بالفشل ، فإنّ التعليم في المستعمرات قد بعث في نفوس أبنائها روح النضال والثورة ضدّ الاستعمار والمطالبة بالحرية والاستقلال ، فاجتمع ضروس السياسة الاستعمارية ، وقرروا تبديل مناهج التعليم ، واتخاذ ما يلي :

« يجب علينا أن نعلّم أولاد المستعمرات من غير أن نثقّفهم ، يجب علينا أن نعلّمهم تعليماً عملياً يجعلهم آلات صالحة في المعامل والمتاجر والحقول من غير أن نوسّع آفاق أنظارهم وأفكارهم إلى ما وراء الأعمال المطلوبة منهم .. »^(٢).

وكان هذا آخر ما توصّلوا إليه لحلّ معضلة التعليم في المستعمرات ، ومن هنا كان التعليم عقيماً وناقصاً ؛ لأنه مجرّد عن عناصر الثقافة الحيّة التي تزدهر بها الحياة الفكرية .

ومن الطبيعي أنّ مثل هذا التعليم المحدود يعود بالأضرار البالغة على المواطنين ؛ لأنه يعوق النموّ الفكري ، ويعرقل مسيرة التطوّر الاجتماعي .

(١) آراء وأحاديث : ١٥٤ .

(٢) آراء وأحاديث : ١٥٥ .

التدمير الشامل

وحمل التعليم الغربي شارات الفناء والتدمير لجميع القيم الأصيلة التي تحيا بها الأمة في مجالاتها الفكرية والاجتماعية ، واستهدف جميع مقوماتها الحية ، فأقصاها عن واقع الحياة ، وخدّرها تخديراً شاملاً ، فلم تحسّ بالضربات المتلاحقة ، ولم تشعر بالطعون المتواصلة ، قد سرت في أوصالها جميع عوامل التحلل والانهار .. ولعلّ من أفجع الصور المؤلمة التي دهمت المسلمين من هذا الغزو التعليمي هي :

إقصاء الإسلام

وعملت الأجهزة التعليمية الوافدة من الغرب على إقصاء الإسلام ، فليس له أي أثر حيّ في الكيان التعليمي ، فلا تعطى عنه إلا صورة موجزة لا تمثّل أهدافه ، ولا تحكي واقعه .

لقد أهمل التعليم شؤون هذا الدين العظيم الذي عالج جميع مشاكل الإنسان ، ووضع لإصلاحها المناهج السليمة ، فلم يعرض التعليم إلى ما تبناه الإسلام في أيام حكمه من السياسة البناءة التي هي أرقى سياسة عرفها الإنسان في جميع فترات تاريخه ، فقد تبنت الحقّ الخالص ، والعدل المحض ، وأعطت الناس الحريات الواسعة في مجالات الفكر والعقيدة ، وفي مجالات القول والعمل ، ومنحت المساواة الرائعة التي تنعدم فيها الامتيازات والمحسوبيات ، فالجميع أمام القانون والحقّ سواء .. كما وهبت الناس العدل بجميع مفاهيمه ورحابه وجعلت الدولة مسؤولة عن حمايته وصيانه ، فهو حقّ ذاتي من حقوق الإنسان ينعم في ظلاله ، ويعيش تحت وافرهِ .

ولم يشر التعليم بقليل ولا بكثير إلى الاقتصاد الإسلامي الذي يساير التطوّر ، وتزدهر فيه الحياة الاقتصادية العامة ، حيث لا بؤس ، ولا فقر ، ولا حرمان ، فالدولة

مسؤولة عن إبادة الفقر، والقضاء على شبحه، فهو رديف الكفر وقرين الإلحاد، وهي مسؤولة عن توفير العمل، وتهيئة الفرص المتكافئة للجميع، وعليها أن تفتح أبواب الضمان الاجتماعي الذي يقوم بالانفاق على المرضى والعاجزين، ومن لا يكفيهم الدخل اليومي، كما أنّ عليها أن تقوم بمراقبة السوق والقضاء على جميع ألوان الاحتكار والاستغلال، ولم يشر التعليم إلى قواعد التربية الإسلامية الهادفة إلى تماسك المجتمع وتطوّره وتهذيبه وتعاونه، وصيانتة من الشذوذ والانحراف، كما لم يعن التعليم بما قدّمه الإسلام من الطاقات العظيمة في تربية النفس وإصلاحها، وتحليّها بالآداب الرفيعة والأخلاق الفاضلة لم يشر التعليم إلى ما جاء به الإسلام من الأنظمة الاجتماعية التي تعنى بالوحدة تستهدف وحدة المشاعر والعواطف ووحدة المصير والاتّجاه.

لقد أهمل التعليم جميع ما أثر عن الإسلام في حقول هذه الحياة، وألقى الحجب الكثيفة على نوره وهديه، وأبرزه إلى الناشئة الحديثة بغير شكله وإطاره الذي نزل من ربّ العالمين، وقد اعترفت الأجهزة الاستعمارية بأنّ أنظمتهم التعليمية قد حلّت الروابط الإسلامية.

يقول «القسّ ويلس»:

«إنّ التربية الغربية هي من قبيل قوّة تنحلّ بها الروابط الإسلامية»^(١).

وأعلن «استورد كروفا»:

«إنّ التربية الغربية جعلت المسلمين يقتبسون من المبادئ المسيحية وأنهم على استعداد للدخول في النصرانية من حيث لا يشعرون»^(٢).

(١) جريدة المؤيد المصرية: العدد ٦٦٩٦.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي: ١٢٠.

إن القوى الاستعمارية قد سخرت جميع أجهزتها التعليمية والسياسية لإقصاء الإسلام عن واقع الحياة ؛ لأنه يهدّد مصالحهم وأطماعهم ، فقد جاء في مقرّرات المؤتمر الاستعماري الألماني ما يلي :

« إن ارتقاء الإسلام يهدّد نموّ مستعمراتنا بخطر عظيم ، ولذلك فإنّ المؤتمر الاستعماري ينصح الحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة ، والمؤتمر الاستعماري مع اعترافه بضرورة المحافظة على خطّة الحياء في الشؤون الدينية من حيث الظاهر يشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كلّ عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية ، وأن يستنفعوا من أعمال الإرساليات التبشيرية التي تبثّ مبادئ المدنية »^(١).

ويقول « وليم جيفورد بالكراد » :

« ومتى توارى القرآن ومدينة مكّة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرّج في سبيل حضارتنا التي لم يبعده عنها إلاّ محمّد وكتابه » .
وعلى أي حال ، فإنّ الاستعمار يكيّد للإسلام في غلس الليل وفي وضح النهار ، ويسعى جاهداً لإزالته وإقصائه .

فرض لغة المستعمرين

وفرض المستعمرون لغتهم في أنظمة التعليم ، وجعلوها جزءاً من البرامج الدراسية التي يناط بها النجاح والرسوب ، فقد جعل الفرنسيون لغتهم محوراً لجميع الدروس في الجزائر ، وقالوا :

(١) الغارة على العالم الإسلامي : ١٢١ .

«إن المدرسة يجب أن تكون قبل كل شيء معهداً لتعليم اللغة الفرنسية»^(١).

كما حظروا التعليم باللغة العربية ، وكذلك عمد الإنجليز إلى فرض لغتهم في جميع مستعمراتهم ، وخصّصوا لها درساً خاصاً ، كما جعلوا التعليم خاصاً بلغتهم في المعاهد العالية التي تبحث عن علم الطب والصحة ، وعلم الكيمياء والفيزياء ، بل حتّى التخصّص في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي عهدوا به إلى المعاهد الأوربية ، فمن أراد من طلاب العرب والمسلمين أن يحوز لقب «دكتور» فعليه أن يدرس في معاهدهم أو على من تخرّج منها ، وقد عبّ على هذا الأستاذ «محمد سعيد العرفي» بقوله :

«أليس من أشنع الرزايا ، وأشدّ المصائب ، وأقبح العار ، أن يتعلّم العرب آداب لغتهم ذات المجد الباذخ ، والحضارة القديمة من أعداء دينهم وأعداء لغتهم ؟ هذا والله هو الضلال المبين ؟» .

وأضاف يقول :

«إنّا ما سمعنا أنّ لغة من لغات العالم الراقية أو المنحطة ، يكون الحكم فيها والمرجع لأدائها غير أبنائها إلّا الأمة العربية في عصرنا الحاضر ، وما ذكر التاريخ أنّ أمة تتعلّم لغتها من أعدائها الذين هم لها بالمرصاد...»^(٢).

وعلى أي حال ، فإنّ فرض لغة المستعمرين في المدارس والمعاهد إنّما يخدم قوميّتهم ولغتهم ، ويخدم مصالحهم ومطامعهم ، ويربط المعاهد العلميّة دوماً بهم . يقول «الأستاذ محمد سعيد» :

(١) آراء وأحاديث : ١٥٥ .

(٢) سرّ انحلال الأمة العربية : ٢١٧ .

«إن هذه اللغات الأجنبية هي السبب الوحيد في بث الدعاية الأجنبية، ونشر القسم الفاسد من مدنيّتهم، وهي الطريق الذي سهّل للغربيين استيلاءهم على البلاد العربيّة وغيرها من ممالك الشرق، وهي العلة في خروج الأُمّة عن تقاليدها، وهي السبب في إضاعتها على الأُمّة دينها ولغتها وأزياءها، وكلّ ما له علاقة بماضيها، والغريب أنّ اللغات الأجنبية لا ترضى أن تساوي اللغة العربيّة في نصيب الدراسة والاعتبار والنجاح، بل تمتاز عليها في ذلك كلّ، فإنّ معرفة لغة أجنبيّة وحدها كافلة لنيل الشهادة، وأنّ جهل قواعد اللغة العربيّة ولذلك تعنى الحكومة كثيراً في القائمين بتعليم اللغات الأوربيّة فتنتقيهم من الأساتذة القديرين بها حتّى في المدارس الابتدائيّة، فينمو الطالب على حبّها عندما يرى اهتمام الحكومة والأُمّة، ويشاهد مقدرة المعلّم وسلطته وكرامته وزيادة راتبه فيفقد الروح الوطنيّة...»^(١).

وقد شجب رجال الفكر وكبار المرّبين فرض اللغة الانجليزيّة في المدارس والمعاهد لأنّها تعوق النموّ الفكري، وتعرقل سير الدراسة العامّة في البلاد لأنّ الطلبة لم يألفوها.

يقول «غاندي»:

«إنّ اللغة الانجليزيّة قد وقفت حجر عثرة في سبيل توصيل المعارف إلى الجماهير. إنّ الاهتمام المتزايد الذي يعطى للانجليزيّة قد وضع عبثاً ثقيلاً على التعليم والحجز على عقول الأطفال ليحيوا حياة طبيعيّة، بل وجعلهم غرباء في أرضهم ووطنهم...»^(٢).

(١) سرّ انحلال الأُمّة العربيّة: ٢٠٨.

(٢) التربية الأساسيّة: ٢١ و ٢٢.

ونظراً للأضرار البالغة التي تنجم على فرض اللغة الانجليزية في برامج التعليم فقد حظرها غاندي في المدارس الهندية ، وأصدر قراراً بذلك جاء فيه :

« لن نسمح بتدريس اللغة الانجليزية لأننا نعلم أن كثيراً من وقت الأطفال يضيع عبثاً في حفظ الكلمات والجمل الانجليزية ، وحتى إذا سمح لهم بحفظ وترديد هذه الجمل والكلمات الانجليزية فإننا نجدهم غير قادرين على أن يترجموها إلى لغتهم القومية ، وغير قادرين على المتابعة المفيدة لما يتعلمونه من أساتذتهم .. »^(١).

إنّ الدول الإسلامية والعربية باستطاعتها إقصاء هذه اللغة - التي هي من مخلفات الاستعمار - عن معاهد التعليم ، وترجمة الكتب الدراسية إلى اللغة العربية ؛ وذلك للتسهيل على الطلبة الذين يعانون الجهد والضيق من اللغة الانجليزية بالإضافة إلى أنّ في ذلك إحياء للغتهم التي جهد المستعمرون على إماتها وإضعافها ، وليس في الدعوة إلى إقصاء اللغة الأجنبية عن معاهد التعليم أن يقتصر المسلمون على لغة واحدة ، فإنّ تعلم اللغات حسن ومطلوب شرعاً ، فإنّ رسول الله ﷺ أمر زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة العبرية ، ومن الأمثال الجارية : « من تعلم لسان قوم أمن من شرهم » ، ويتأكد ذلك على الدعوة إلى الدين الإسلامي ، فإنّ عليهم أن يتعلموا اللغات الأجنبية مهما استطاعوا إلى ذلك ليبشّوا الدعوة إلى الله ، ويردّوا الشبه التي يلقّوها أعداء الدين وخصوم الإسلام .

إضعاف اللغة العربية

وتسعى الأجهزة الاستعمارية بجميع طاقاتها إلى إضعاف اللغة العربية الفصحى وإحياء اللغة العامية ؛ لأنّ اللغة الفصحى هي التي نزل بها القرآن الكريم ، وغرض

المستعمرين إبعاد المسلمين عمّا في القرآن من الثروات الفكرية الهائلة، وحجبهم عمّا فيه من جمال الفصاحة والإعجاز في البلاغة التي تدفع النفوس إلى الإقبال عليه.

يقول الأستاذ «محمد سعيد»:

«إنّ من أهمّ الأسباب التي حملت الاستعمار فيما مضى، وتحمله فيما هوأت على محاربة التربية الإسلامية أن تجد سبيلها إلى هذا الجيل هو أن يفرّق بينه وبين قرآنه كي يصبح بعد قليل غريباً عن أسلوبه، منحطاً عن مستوى فهمه، نائياً عن تذوق بلاغته، حيث يتأتّى لهم أن يقولوا بعد ذلك - في غيرة وحماس - أنّ الجيل اليوم لا يستسيغ جزالة القديم وثقله، فلا بدّ من تجديد وتبسيط. وما هو إلّا أن يفتح باب «التجديد والتبسيط» حتّى يقتحموا منه جميع حراهم إلى هذه اللغة فيقطعوها إرباً إرباً، وبذلك ينقطع آخر خيط من الأمل في إمكان عودة هذا الجيل إلى القرآن وهديه»^(١).

وثمة سبب آخر أدلى به «ساطع الحصري» يقول:

«لقد فكّر المستعمرون أنّ اللغة الفصحى هي التي تصل البلاد العربية بعضها ببعض، وهي التي تنقل الأفكار والنزعات من قطر عربي إلى آخر، فإذا ما توقّف حركة نشر اللغة الفصحى في البلاد العربية، وقامت فيها - بعكس ذلك - حركة جديدة ترمي إلى إنعاش وتدعيم اللغات العامية.. لا بدّ أن يصبح بعد مدّة كلّ قطر من الأقطار العربية ذات لغة خاصّة به، فيزول ذلك خطر انتشار فكرة الاستقلال، كما ينفي احتمال قيام فكرة الاتحاد بين مختلف الأقطار العربية.

وقد وجدت هذه الفكرة قبولاً حسناً في المحافل الانجليزية والفرنسية على حدّ سواء، وأخذ القوم يتحمّسون لها، ويتّون الدعاية للغات العامية في كلّ البلاد العربية، ولا سيّما في المستقلّة منها، واشترك في هذه الدعاية عدد غير قليل من مشاهير الرجال والاستشراق، حتّى أنّه قام جماعة من أبناء البلاد العربية يروّجون هذه الفكرة دون أن ينتبهوا إلى مصدرها الأصلي ومرماها الحقيقي، ودون أن يفكّروا في نتائجها الخطيرة...».

وأضاف بعد ذلك يقول:

«إنّ بعض الأوربيين أخذوا يدعون إلى هذه الفكرة، وصاروا يزعمون أنّ الإذاعات اللاسلكيّة وحفلات الغناء والتمثيل والسينما ستقوّي مركز اللغات العامية في البلاد العربية؛ لأنّ الكلام باللغة العامية يُرضي الدهماء أكثر من الفصحى، كما أنّ التمثيل باللغة العامية يجلب للمسارح عدداً أكبر من النظارة، وقالوا: إنّ كلّ هذه العوامل ستؤدّي في آخر الأمر إلى انتصار العامية وتغلّبها على الفصحى»^(١).

هذا هو اتّجاه الاستعمار الغربي في مناهجه التعليميّة والتربويّة. إنّهُ يحاول بجميع قواه المسعورة إماتة هذه الأمّة، والقضاء على جميع مقوماتها الفكرية والمعنويّة.

المنهج التعليمي الشيوعي

والنظام الشيوعي له سياسته الخاصّة نحو التعليم، فهو يرى ضرورة نموّ الحركة العلميّة، ولكن على أساس المنهج الماركسي، ولا يحفل بغيره، ومن المحتمّ على

جميع المنشآت العلمية تعريف الطلاب بتعاليم ماركس وانجلز ولينين ، فيما يختص بطبيعة العالم ، وقوانين النمو الاجتماعي ، والتحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية فالشيوعية ، وتعريفهم بثورة أكتوبر ، وسياسة الحزب الشيوعي ، ومدى الضغط الذي يتعرض له العمال في الدولة الرأسمالية .

إن من أهم أهداف التعليم الشيوعي غرس العقائد الماركسية في شعور الجيل الناشئ ، وتشكيل اتجاه التلاميذ وميولهم بما يتفق ووجهة النظر الشيوعية في العالم ، ولا بد لنا من وقفة قصيرة للبحث عن مناهجهم التعليمية وعرض ما يواجه بعضها من نقد بناء ونزيه .

١ - دراسة الدستور

يدرس الطلاب دستور الاتحاد السوفيتي في السنة العاشرة ، والغرض من ذلك إقناعهم بأن النظام الشيوعي هو من أرقى الأنظمة الديمقراطية ، كما يهدف في نفس الوقت إلى تعريفهم بأن الانتصارات التي حققها الاتحاد السوفيتي ترجع إلى متانة النظم الاشتراكية التي هي المرحلة الأولى في الانتقال إلى الشيوعية ، ويدرس الطلاب في هذا البرنامج نظام الحكم ودور الحزب الشيوعي في تسيير دفة الحكم في البلاد ، والتعرف على واجبات المواطنين السوفييت^(١) ، واختيار هذا السن في دراسة النظام الشيوعي إنما هو لأجل بناء العقيدة الماركسية في نفوس الجيل ، والإيمان بأهدافها ، والتفاني في سبيل مبادئها .

٢ - النزعة الإلحادية

ويعني التعليم الشيوعي بصورة أولية بغرس الإلحاد في نفوس الطلاب في جميع مراحل التعليم ، وتعريفهم بأن العالم ليس له بداية ولا نهاية ، وأنه لم يكن مخلوقاً

على يد كائن أبدي ، وأنّ المادة ليست سلبية جامدة تتلقّى حركتها عن الروح ، وإنّما هي من الكائنات الحيّة التي تملك نفسها بنفسها غير محتاجة إلى الروح ، وإنّما تمرّ بتطوّر تاريخي مستمرّ ، وأنّ الكون خالد لا نهاية له ، وليس هناك خالق للكون ولا واهب للحياة .

يقول « بوليتنزر » ورفقاؤه :

« لقد فقدت فكرة الله كلّ محتواها ، ولم يعد النقاش حول وجود الله أو عدم وجوده ؛ ذلك النقاش الذي أثارته النزعة الإلحادية الساذجة غير الماركسيّة يشاركها أثير سابقاً . لقد أصبح الله كما قال « لابلاس » فرضيّة لا نفع فيها ، وحلّ مشكلة وجود الله مشكلة فكرة الله في رؤوس النّاس ، هاتان مشكلتان لا تميّز النزعة المثالية الموضوعيّة بينهما »^(١) .

ويقول « لينين » :

« إنّ نظريّة الفيلسوف القديم هيرقليط المادية - الذي كان يرى أنّ العالم واحد لم يخلقه إله ولا إنسان ، كان وسوف يظلّ شعلة حيّة تتوهج وتنطفئ حسب قوانين معيّنة - إنّما هي عرض شائع لمبادئ النزعة الإلحادية الجدليّة »^(٢) .

وقال « انجلز » في ردّه على نظريّة هيغل الذي ذهب إلى أنّ الوجود قبل الأرض :
« الوجود قبل الأرض للفكرة المطلقة الذي قال به هيغل : إن هو إلّا بقايا وهميّة الإيمان بخالق فوق الأرض ، وأنّ العالم المادي الذي تدركه

(١) أصول الفلسفة الماركسيّة : ٢٠٦/٢ .

(٢) كراسات فلسفيّة / لينين ، والمادية الديالكتيكيّة والمادية التاريخية / ستالين ، ترجمة خالد بكداش : ١٧ .

حواسنا ، والذي ننتمي إليه نحن أنفسنا هو الحقيقة الوحيدة ^(١) .

وهذه النظرية الإلحادية قد أبطلها العلم ، وفندتها البحوث الفلسفية القديمة والحديثة ، فقد ثبت أن كل ممكن يحتاج في عالم تكوينه وإيجاده إلى علة موجدة هي التي تصنعه وتخرجه من حيز العدم إلى حيز الوجود ، ومن المستحيل أن يوجد المعلول بلا علة ، والمسبب بلا سبب ، ولا بد في العلة الإلحادية من القدرة الفعالة ، والإرادة الحازمة على الإيجاد والتكوين ، فإذا لم تكن كذلك فمن المحال أن تفيض التكوين والابداع ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه ، ويدل على قدرته وعظمته ، وعندما نقوم بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته .. إننا نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود .

لقد حجبوا عقولهم عن النظر إلى هذه الكواكب المنتشرة في الفضاء التي تعدّ بمئات الملايين ، فإن ما اكتشفه العلم الحديث من النجوم بمقدار من الكثرة بحيث لو كنّا نعدّها بسرعة (١٥٠٠) كوكب في الدقيقة لاستغرق عدّها لها (٧٠٠) سنة ، أمّا نسبة الأرض إليها فهي أقلّ كثيراً من نقطة على حرف في مكتبة تضمّ نصف مليون من الكتب من الحجم المتوسط .

ومن الطبيعي أنّها لم تكن ناشئة عن الصدفة ، وهل يمكن أن تكون الصدفة المدبرة والخالقة لهذه العوالم ؟ وكيف نستطيع أن نفسر أنّ هذا الانتظام في ظواهر الكون والعلاقات السببية والتكامل والفرضية ، والتوافق والتوازن التي تنتظم بسائر الظواهر وتمتدّ آثارها من عصر إلى عصر ؟ كيف يعمل هذا الكون من دون أن يكون له خالق مدبر هو الذي خلقه وأبدعه ؟

(١) مقدّمة كتاب لودفيغ فيوريخ / انجلز : ١٧ ، ترجمة ستورت .

يقول « جون وليام كوتس » :

« إنَّ هذا العالم الذي نعيش فيه قد بلغ من الاتقان درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة ، إنَّه مليء بالروائع والأمور المعقَّدة التي تحتاج إلى مدير ، والتي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى . ولا شك أنَّ العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله »^(١).

لقد حاولت الدول الكبرى بأقمارها الصناعية ، ومراكبها الفضائية ، التعرّف على واقع هذه الكواكب ، وهل هي مزوَّدة بالوسائل التي تتطلبها الحياة ، وقد استخدموا جميع الأجهزة العلميّة للتعرّف على ذلك ، وصرفوا عليها آلاف الملايين من أموال شعوبهم ، ولكنَّهم لم يصرفوا أفكارهم وعقولهم إلى النظر في موجد هذه الكواكب وخالقها ، فألّوا رؤوسهم ، وتخبَّطوا في عشواء مظلمة لا بصيص فيها من النور ، مصرّين على إنكاره ، وعامدين على جحوده في حين أنَّه أظهر حقيقة يراها الإنسان بعقله وفكره لم ينظروا إلى هذه الكواكب التي تدور في نظام عجيب ، وتسير في مسيرة مرتَّبة تذهل عن إدراكها العقول . قال تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(٢).

إنَّ دورة الأرض ودورة الشمس ودورة الأفلاك ليست مضبوطة بالساعة ولا بالدقيقة ولا بالثانية ، ولكنَّها مضبوطة بسرعة الشعاع الذي يقطع (١٨٦) ألف ميل في الثانية ، وعلى هذا النظام الدقيق سار الكون ، وانتظمت شؤونه ، وفاضت معطياته ، ولو اختلَّت مناهجه لارتطمت الكواكب واحترقت العوالم .

إنَّهم لم يمعنوا النظر في هذا الكوكب الذي نعيش على سطحه ، فإنَّه معلق في

(١) الله يتجلّى في عصر العلم : ٤٨ .

(٢) يس ٣٦ : ٤٠ .

الفضاء يدور حول محوره في كل (٢٤) ساعة مرّة واحدة ، وسرعة حركته (١٠٠٠) ميل في الساعة ، ويسبّح حول الشمس مرّة كلّ عام ، فيكون في ذلك تتابع الفصول ، إنّه لو كان يدور حول محوره بسرعة (١٠٠) ميل في الساعة لكان طول الليل عشرة أمثال ما عليه الآن ، وكذا طول النهار ، وكانت الشمس محرقة في الصيف لجميع النبات ، وفي الليالي الباردة ينجمد جميع ما عليها من نبات وحيوان ، كما أنّها لو اقتربت الشمس من الأرض أكثر ممّا عليه الآن لازدادت الأشعة التي تصل إليها بدرجة تؤدّي إلى امتناع الحياة فوقها ، كما أنّها لو ابتعدت عنها أكثر ممّا عليها لحدث العكس ، ولو كانت الأرض في حجمها كالقمر لعجزت عن احتفاظها بالغلاف الجوّي والمائي اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حدّ الموت ، ولو كان قطرها ضعف قطرها الحالي لأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه ، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي وزاد الضغط الجوي .

ولو كانت الأرض في حجم الشمس لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها إلى (١٥٠) ضعفاً ، ونقص بذلك ارتفاع الغلاف الجوّي ، ووصل وزن الحيوان إلى زيادة (١٥٠) ضعفاً عن وزنه الحقيقي ، كما تتعذّر الحياة الفكرية بصورة عامّة بالنسبة إلى الإنسان .

وخصّ الله تعالى الأرض بميزة أخرى بأن جعل لها غلّافاً غازياً كثيفاً سميكاً يقدّر بـ (٨٠٠) كيلومتر ، وهو يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يتكاثف مطراً يحيي به الأرض بعد موتها ، كما أنّه السبب في حيلولة الشهب القاتلة إلى الأرض ، وهو السبب في إيصال حرارة الشمس بصورة معتدلة إلى الأرض بحيث يمكن أن تعيش على سطحها النباتات والحيوانات .. وليس لبعض الكواكب هذا الغلاف ممّا سبّب عدم ظهور الحياة عليها ، فالمريخ له غلاف غازي رقيق وخالي من الاوكسجين ممّا جعله غير صالح للحياة .

لقد تجلّت قدرة الله العظيم في كلّ شيء من مخلوقاته وأنّ العقل ليقف خاسئاً وهو حسير من معرفته تعالى .

يقول ابن أبي الحديد :

فِيكَ يَا أَعْجَبَةَ الْكَوْنِ عَدَا الْفِكْرِ قَلِيلاً
أَنْتَ حَيْرَتَ ذَوِي اللَّبِّ وَبَلَبْتَ الْمُقُولَا
كُلَّمَا أَقْدَمُ فِكْرِي فِيكَ شِبْرًا فَرَّ مِيلًا
نَاكِصًا يَخْطُ فِي عَمِيَاءٍ لَا يُهْدِي السَّبِيلَا^(١)

إنّهم نظروا إلى الوجود نظرة عابرة حمقاء لا تستند إلى دقّة ، ولا تقوم على وعي ، فبنوا لهم إطاراً عقائدياً يقوم على إنكار الخالق العظيم الذي تجلّت قدرته في كلّ شيء .

لم ينظروا إلى أنفسهم وما فيها من الأجهزة العجيبة التي تدلّ على وجود الله ، فإنّ فيها العين التي يبصرون بها ، وهي تحتوي على التنظيمات التلسكوبية والمكروسكوبية ، وهي تحتوي على (١٣٠) مليون من مستقبلات الضوء وهي أطراف أعصاب الإبصار ، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الي يقيها ليلاً ونهاراً ، وتعتبر حركته حركة لا إرادية ، كما يمنع عنها الأتربة والذرات ، ويكسر من حدّة الشمس ، وجعل لها السائل المحيط بها المعروف بالدمع ، وهو من أقوى المطهرات والمعقّمات ، إلى غير ذلك من الأجهزة الدقيقة الموجودة فيها التي تنطق بوجود الخالق العظيم .

وفي الإنسان حاسة السمع ، وهي من أعظم أجهزة الإنسان ، ففيه (التيه) وقد أدلى العالم « كورثي » عن عجيب ما فيه بقوله :

«إنّ التيه يشتمل على نوع من الأقية بين لولبية ونصف مستديرة ، وأنّ في القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغير متصلة بعصب السمع في الرأس» .

ما طول تلك الأقواس ؟!

ما حجمها ؟!

كيف ركبت ؟!

حقاً أنّها دقة مذهلة تحير الألباب وتذهل العقول ، فهل تكونت هذه بمحض الصدفة ؟ أو أنشأتها الطبيعة العمياء . إنّ من يقول بذلك فقد ألقى بنفسه وتفكيره إلى مستوى سحيق من الجهل ما له من قرار .

ومن عجيب ما في الإنسان حاسة الشمّ ، فإنّ مركزه منطقة محدودة من الغشاء المخاطي المبطن ، وبه عدّة خلايا شمّية طويلة رقيقة تنقل الأثر إلى المخّ ، وذلك في جزء من الأنف ، وهو المدخل الرئيسي للجهاز التنفسي الذي يتوقّف عليه حياة الإنسان .

وفي الإنسان الجهاز العظمي المتكوّن من (٢٠٦) عظماً ، ويتّصل بعضها ببعض بالمفاصل ، وهذه العظام مصنع الحياة في الجسم ، فإنّها تكون الكريات الدموية الحمراء والبيضاء ، ومن عجيب أمرها أنّها في كلّ دقيقة من حياة الإنسان يموت منها ما لا يقلّ عن مائة وثلاثين مليوناً بسبب دفاعها عن الجسم ضدّ الميكروبات الوافدة ، ومضافاً إلى ما تصنعه العظام من كريات الدم ، فإنّها مخزن تحفظ للجسم ما يزيد على حاجته من الغذاء ، سواء أكان في داخل العظام نفسها كالمواد الدهنية والزلائية ، أو على العظام نفسها كالمواد الجيرية .

إلى غير ذلك ممّا في الإنسان من الأجهزة الدقيقة ، كالجهاز العصبي والتناسلي واللمفاوي والعضلي ، وهي منظّمة تنظيمياً مذهلاً .

هل وجدت هذه الأجهزة على سبيل المصادفة أو التخطيط العشوائي ؟

ومن العوالم الدقيقة المذهلة في هذا الإنسان خزائن النفس وإحياءاتها وتفاعلها وانفعالها ، ففي العناصر المتضادة والصفات المتقابلة من النور والظلام ، والرحمة والقسوة ، والحلم والغضب ، وغيرها .

يقول العلامة السماوي :

فِيكَ يَا نَفْسُ كَمَا فِي الْكَوْنِ نَوْرٌ وَظَلَامٌ أَنْتِ حَرْبٌ وَسَلَامٌ وَهوَ حَرْبٌ وَسَلَامٌ
كُلَّمَا سَادَ نِظَامٌ فِيكَ يَنْدُكُ نِظَامٌ أَوْلَيْسَتْ وَخَدَةُ الْعَدْلِ اقْتَضَتْ مَا
لَسْتُ أَذْرِي

لَكَ كَالشَّمْسِ عَلَى الْكَوْنِ طُلُوعٌ وَأُفُولٌ أَنْتِ نَفْسُ الْكَوْنِ إِنْ صَحَّ اتِّحَادٌ وَحُلُولٌ
أَشْرَقَتْ فِيكَ عُقُولٌ مِثْلَمَا ضَلَّتْ عُقُولٌ وَعَلَى قَارِعَةِ الشُّكِّ جَثَا مِنْ
لَسْتُ أَذْرِي

أصبح أنّ هذه العوالم المنطوية في عالم النفس قد أوجدتها الطبيعة الخرساء أو أنّها وجدت صدفة . حقاً إنّ من يؤمن بذلك لا يملك أي رصيد من النور والفكر ، ومن المؤسف أنّه قد سرى ضباب الإلحاد إلى كثير من نفوس الناشئة المسلمة فأترعت نفوسهم بالشكوك والأوهام نتيجة الجهل وفقدان التربية الواعية ، فغرتهم الأفكار الماركسيّة وغيرها من التي تقوم على الإيمان المطلق بالمادّة ، وإنكار الله واعتباره خرافة ووهماً من أوهام الرجعيّة .

إنّ الاطار العقائدي الذي تبنته الماركسيّة ما هو إلّا مهزلة من مهازل الفكر البشري ، ووهم من الأوهام الرخيصة ، وهو لا يلبث أن يتلاشى أمام المنطق والدليل ، ولا يؤمن به إلّا المنحرفون الذين يفقدون الأصالة في الشخصية والتوازن في السلوك والتفكير .

وعلى أي حال ، فإن الشيوعية تصرّ على معتقدها من إنكار الخالق العظيم ، وقد فسّرت كلّ حقيقة بتفسير مادي جدلي ، ونمت كلّ شيء إلى المادة ، وعلى هذا الأساس الألعلمي وضعت مناهجها التعليمية .

٣ - الرياضيات

أمّا الرياضيات عندهم فإنّها تنمّي طريقة التفكير الجدلي في نفوس التلاميذ ، وقد وجّهوا بحوثها إلى الخواصّ والقوانين الأساسية للمادة ، كما أنّ العالم المادي يشكّل صورة موضوعيّة مستقلّة عن الإدراك ، وأنّ مادة الطبيعة هي التي تمدّ الظواهر المعقّدة مثل الطاقة الذريّة ، وأنّ المادة والطاقة خالدتان ، كما أنّ الطاقة يمكن تحويلها إلى طاقة أخرى ، ونتيجة ذلك أنّ المادة الطبيعية لها دلالة كبيرة في تكوين النظرة الماديّة الجدليّة^(١) .

إنّ قِدَم المادة وخلودها وعدم خلقها قد أبطلها العلم القديم والحديث ، وقد أثبت المؤتمر الفلسفي الذي عقد في روسيا احتياج المادة إلى العلّة الموجودة ، وأنّ أي ممكن في الكون لا بدّ له من علّة فاعلة تهبه الحياة والبقاء^(٢) .

٤ - التاريخ

ويعدّ الشيوعيون التاريخ المادّة الكبرى لغرس الأفكار والمبادئ الشيوعيّة . يقول «كاريوف» :

«إنّ التاريخ يعدّ سلاحاً قوياً للتربية الشيوعيّة ، فهو يمدّنا بإجابات علميّة عن الاتجاه الذي يسير فيه التطوّر البشري ، كما يمدّنا بالوسائل التي يمكن للإنسانية المتطوّرة أن تستعجل بها ، وتسهّل مولد المجتمع

(١) دراسات مقارنة للمناهج : ٤٤ .

(٢) نظام الحكم والإدارة في الإسلام : ١٢٩ .

الجديد ، ويزود التاريخ التلاميذ بفهم الحقائق الأساسية في المجتمع الإنساني ، كما يكشف عن الصراع بين الطبقات ، ولتاريخ جمهوريات الاتحاد السوفيتي أهمية خاصة ؛ لأنه يساعد التلاميذ على فهم أعمال الثورة الاشتراكية التي لا يمكن تقديرها بثمن ، كما يساعدهم على تقدير حرب البطولات التي خاضها أبائهم وأجدادهم في سبيل حريتهم ، ويعلمهم المحافظة بعناية على النصر الذي أتت به الثورة وينمي فيهم الرغبة لتوجيه كل قواهم لتحقيق ما بذله أبائهم من جهد في بناء المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، كما يربي فيهم الولاء بمصالح الطبقات الكادحة ، وعدم التوافق مع كل القوى الرجعية»^(١).

أمّا تفسير التاريخ ، فإنّ عوامله عندهم ترجع إلى الشؤون الاقتصادية ، فقد نظر ماركس إلى التاريخ وحاول معرفة القوى التي شكّلتها وصاغته في الصورة المعينة التي عرف بها ، وقد انتهى إلى تفسيره بالتفسير المادي أو الاقتصادي ، وقد حمل وجهة نظره على أنّ جميع سير التاريخ وبواعثه ترجع إلى العوامل الاقتصادية .

إنّ المادة عند ماركس هي المحرك الرئيسي للتاريخ ، والعامل المهيمن على تطوّره ، وعن طريق المادة تتحد العوامل الأخرى ، فإنّها ليست مستقلة في تكوينها وشكلها ، بل تتأثر في وجودها وفي صورها بالظروف المادية المتصلة بطرق الانتاج ، وبالعلاقات التبادل التي تنشأ بين طبقات المجتمع ، وعلى عكس ذلك ذهب « هيجل » فإنّه يرى أنّ عالم الواقع المادي وما يجري فيه من الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ليست إلا انعكاسات مادية للفكر المجرد أنتجها الفكر وأوجدها العقل .

إنّ الأشياء المادية تشكّل - في نظر هيجل - بحسب تأثير الفكر عليها ، ولكنّ

ماركس قد أصرَّ على فكرته ، وجعل التطوُّر الديالكتيكي يسير تبعاً لتأثير المادَّة أو تبعاً لفرق الإنتاج ووسائله ، بينما يرى « هيجل » أنَّ الفكر هو أساس التطوُّر ، وهو الذي يشكِّل عالم الواقع .

ويقول « ماركس » :

« إنَّ الأوضاع القانونيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والفنّية والفلسفيّة ، وسائر المناحي الفكرية لا يمكن أن تفهم بذاتها ؛ لأنّها تحدّد وتشكِّل وفقاً لتأثير العوامل الماديّة أو الاقتصادية عليها ، فالأوضاع الاقتصادية هي المحور الرئيسي الذي تدور حوله جميع الأوضاع العامّة ، ويتساءل ماركس ما هي الظاهرة الماديّة التي تتطوّر دائماً ، وتدير التاريخ الإنساني ؟ ويجب عن ذلك فيقول : ليست هي البيئة الجغرافيّة التي لا تتغير ، وليست هي كثافة السكّان وإنّما الأساس في ذلك هو تطوُّر وسائل الإنتاج ، فالعوامل الاقتصاديّة هي التي تعمل على تطوُّر المجتمع الإنساني ، فإنَّ الإنسان ينفق معظم وقته في العمل لكي ينتج غذاءه ، ويصنع كساءه ، ويبني مسكنه ، وهو في عمله يستعين بأدوات خاصّة ، وكلّما تطوّرت هذه الأدوات تعدّلت العلاقات الجارية بين النّاس ، ويترتّب عليها اختلاف العلاقات الاجتماعيّة وتباين الايديولوجيّات ، وتتحكّم في كلّ ذلك العوامل الاقتصادية ، وعلى هذا الأساس يتطوّر التاريخ ، فالطاحونة التي تدار باليد تزوّدنا بالمجتمع الإقطاعي ، والطاحونة التي تدار بالبخار تزوّدنا بمجتمع صناعي رأسمالي . »

إنَّ جميع الأحداث التاريخيّة تفسّر بتفسير مادّي عند الشيوعيين .

يقول « انجلز » :

« إنَّ القوى الاجتماعيّة الفعّالة تعمل دائماً كالقوى الطبيعيّة على غير

هدى بقوة مدمرة طالما كنّا لا نفهمها ، ولا نقدّرها ، ولكن حالما نفهمها
وندرك فعلها واتجاهها وآثارها ، فإنّه يتوقّف علينا وحدنا إخضاعها ،
وبواسطتها تتوصّل إلى أغراضنا .. فإذا ما فهمت طبيعتها يمكن أن
تتحوّل في أيدي المنتجين الذين يعملون من سادة مرّدة إلى خدم
طيّعين»^(١).

لقد آمنوا أنّ المادة هي التي تفسّر أحداث التاريخ وتوضّح سير الأجيال ، وتولّد
الشكل الاجتماعي الذي يطبع العلاقات بين الأفراد في الجماعة .
يقول «ماركس» :

«إنّه لا يجب البحث عن مفتاح التاريخ في أدمغة الناس وآرائهم
وأفكارهم ، بل في علاقات الانتاج والقوانين الاقتصادية الموضوعية
التي تعمل مستقلة عن إرادة الناس» .

إنّ المنطق الذي تستعين به الماركسيّة في البحث عن هذه الظاهرة ، وفي
الاستدلال عليها ، إنّما هو منطق مذهبي وليس منطقاً منهجياً ، فإنّه لم يعتمد على
الدراسات العلمية المستندة إلى الإحصاء الدقيق ، والمقارنات السليمة ، فقد أخضع
التاريخ إلى العامل الاقتصادي وحده من دون أن يكون هناك أي أثر للضمير الإنساني
والوعي الفكري أو العائلي أو العاطفي ، وسائر النزعات الأخرى .

ومن الطبيعي أنّ لهذه العوامل الأثر الفعّال في تطوّر المجتمعات الإنسانيّة
وتقدّمها ، فقد انبرى المصلحون إلى إصلاح الأوضاع العامّة وتطوير وسائل الحياة ،
ولم يكونوا مدفوعين بأي دافع اقتصادي أو مادي .

لقد ساهم الكثير من المصلحين في بناء الحضارة الإنسانيّة فأقاموا المثل العليا ،

وفتحوا الآفاق الكريمة لشعوبهم، ولم يحفزهم إلى ذلك أي جانب مادي إنما كانوا مدفوعين بدافع الإصلاح وحب الخير العام^(١).

٥ - الأدب

ولم يعن الشيوعيون بالأدب، ولم يحفلوا بقيمه سوى الذي يشيد بالنظم الماركسيّة والعوامل الاقتصاديّة، أو الذي يهاجم النظم الرأسماليّة، فإنّ ذلك عندهم المستوى الأعلى للشعور الفياض الذي يبلغ به الأديب القمّة، وإنّ مني أدبه بضعف الأسلوب وهزال الفكر، ويعود السبب في ذلك إلى أنّ العامل الاقتصادي هو القاعدة الأساسيّة للأدب وسائر الفنون.

ومن الطبيعي أنّه لا واقعيّة لذلك، فإنّ مسألة الأدب مسألة وجدانيّة غير خاضعة لأيّ عامل اقتصادي، وإنّما هي نابعة من شعور الإنسان وما يحيط به من مؤثّرات لا تمتّ أكثرها بصلة إلى العوامل الاقتصاديّة، فما قيل في الرثاء من الشعر العاطفي الحزين الذي يهزّ أوتار النفوس، ويبعث في أعماقها حرارة الأسى والحزن وما قيل في وصف الطبيعة والمناظر الكونيّة ممّا هو أبلغ وأروع ممّا قيل في عالم الأدب، فهل كان ذلك مبعثه العوامل الماديّة؟ إنّ من يقول بذلك لم يفهم الواقع الأدبي القائم على العواطف والإحساس المجرّدين في كثير من الأحيان من المؤثّرات الماديّة.

٦ - الكتب الدراسيّة

إنّ سياسة الحزب الشيوعي تولي اهتماماً متزايداً بالكتب الدراسيّة، فإنّها تفحص فحوصاً دقيقاً وشاملاً، ويعنى بجميع بنودها وموادّها على أن لا تحفل بأيّ شيء يناهض الأفكار الماركسيّة، فقد أصدرت اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعي أمراً إلى قويسبار التعليم في ١٢ فبراير سنة ١٩٣٣ أنّه يجب أن توزن كلّ كلمة وكلّ تعريف

(١) نظام الحكم والإدارة في الإسلام: ١١٢ - ١١٤.

بما يتّفق ومبادئهم ، وقد جاء ذلك كردّ فعل لعدم اهتمامهم بالكتب الدراسيّة في الفترة السابقة لعام ١٩٣٢ .

وتعدّ الكتب الدراسيّة تحت إشراف الدولة حتّى تتأكّد أنّها تحوي المعلومات الأساسيّة المطلوبة في كلّ مادة ، وأنّها تمثّل وجهة النظر التي توافق عليها السلطات الحاكمة^(١) .

ومن الطبيعي أنّ هذه الاجراءات المشدّدة على التعليم تؤدّي إلى حرمان النشء من الاطلاع على القيم العلميّة الأخرى التي لها شأن كبير في بناء الشخصية العلميّة وازدهار الحركة الفكرية في البلاد .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن النظام التعليمي الخاضع للمبادئ الماركسيّة التي تحدّد من قيم التربية العلميّة ، وتهمل الكثير من جوانبها .

لقد تبين من هذا العرض الموجز للاطار الثقافي في ظلّ الأنظمة الرأسماليّة والماركسيّة أنّها قد عنت بصورة خاصّة في العلوم الصناعيّة التي طوّرت الحياة بصورة مذهلة لم يحلم بها الإنسان في جميع أدوار تاريخه ، ولكنها أهملت الجوانب الروحيّة ، وسلّطت معلول الهدم على جميع القيم الإنسانيّة التي يمتاز بها هذا الإنسان ، فلم يعد هناك ظلّ للرحمة ولا للتعاون بين أفراد المجتمع ، كما انحلت روابط الأسرة ، وفقد الإنسان كثيراً من الروابط الاجتماعيّة والقيم العليا التي لها الدخالة في توازنه وسلوكه .

وعلى أي حال ، فإنّ التخطيط الثقافي في التربية الحديثة ، سواء في الأنظمة الرأسماليّة أو الشيوعيّة ، إنّما يعني - بصورة أوليّة - إلى دفع الشباب للحصول على الشهادة ليعيش بها ، فإذا ظفر ونال الوظيفة أعرض عن العلم ، ورمى الكتاب ،

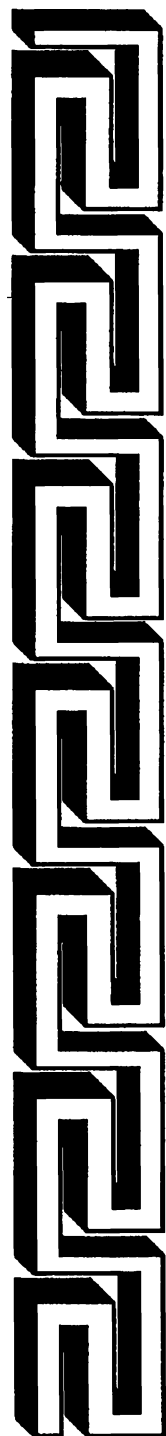
وأقبل بعضهم بنهم على متعه ورغائبه .

وشيء آخر جدير بالاهتمام هو أنّ أغلب المتخرّجين من المعاهد العالية سرعان ما ينسون أغلب معلوماتهم الدراسيّة ، ويعزى ذلك إلى سرعة التعليم ، كما أفادت سيكولوجيّة دراسة التعليم ، فقد أجريت سلسلة من الدراسات على طلبة الكليات فأنتجت أنّ ٥٠٪ من المادة الدراسية التي يعرفها الطالب قد نسيت خلال عام من دراسته ، وأنّ ٨٠٪ قد نسي بعد عامين^(١) .

إنّ سرعة التعليم ، وعدم طلب العلم لذاته ، قد أعقب هذه النتائج السيئة .



التخطيط الثقافي
في برامج
التربية الإسلامية



إنَّ الإسلام يؤمن بالعلم ، ويؤمن بمقدرته الخلقة على تطوير المجتمع الإنساني ونموّه وازدهاره ، كما يؤمن بأنَّ المجتمع الذي لا يقبل على العلم إنما هو مجتمع متأخّر ضعفت قواه العقلية وروابطه الفكرية ، وأتّه لا بدّ أن ينعزل عن موكب الحياة والنور ، وقد أثار عن الرسول الأعظم ﷺ أنّه قال : « هَلَاكُ أُمَّتِي فِي تَرْكِ الْعِلْمِ »^(١).

لقد أعلن الإسلام منذ بزوغ نوره مقاومته للجهل ، ومناهضته للجمود كما تبنّى بصورة إيجابية الدعوة إلى العلم ، والدعوة إلى تفتّح آفاق الفكر ، واعتبر ذلك عنصراً أساسياً في تشكيل حياة الفرد والمجتمع ، ومن أهمّ العوامل الدافعة للنهوض بالأُمَّة ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً ، ومن ثمّ جعل طلبه فريضة من فرائضه ، وعاملاً مهماً في بناء مجتمعه وتكوين حضارته .

وادّعى الغربيون أنّ الإسلام قد حارب الفكر ، وقضى على حرية الرأي ، وحظر على معتنقيه الاشتغال بالعلم .

يقول الكاتب الفرنسي « بيير لوتي » مشيراً لذلك ومفنداً له :

« عندنا نحن الأوروبيين نعتبر من الحقائق الثابتة أنّ الإسلام هو دين من أديان الظلام الفكري التي تحول بين معتنقيها والنور ، وهو يجلب الركود إلى الشعوب ، ويضع أمامها العقبات في سيرها نحو ذلك

المجهول الذي يدعونه بالتقدم ، وهذا يدل - قبل كل شيء - على الجهل المطلق بتعاليم النبي ، وفوق ذلك هو نسيان مدخل لشهادات التاريخ ؛ لأن الإسلام منذ القرن الأول قد جعل يتطور ويتقدم مع الأجناس المتباينة ونحن نعرف أي صعود سريع ذلك الذي منح إياه إبان حكم الخلفاء الأولين^(١).

ولا نعلم أن هناك اتهاماً أهزل ولا أرخص من هذا الاتهام يحكم بكذبه وزيفه كل من نظر إلى واقع هذا الدين العظيم الذي جعل طلب العلم في مقدمة شؤونه ، ومن أوليات مقاصده ، وأثبت الفروق الهائلة بين العالم والجاهل ، وجعل المقياس في تفاوت الناس واختلاف قيمهم قدر ما يحسنون ويعلمون .

يقول الإمام أمير المؤمنين رائد الحكمة والعلم في الأرض : « قيمة كل امرئ ما يحسنه »^(٢).

وعلى أي حال ، فإن الذي يعيننا هو البحث عن المخططات الثقافية التي هي جزء من برامج التربية الإسلامية ، ونعرض - بإيجاز - لبعضها :

فضل العلم

وأولى الإسلام اهتمامه البالغ بشأن العلم ، فأشاد بسموه ، وجعله عنصراً أساسياً من عناصر نهضته الفكرية ، وقد أعلن القرآن الكريم ذلك ، كما تواترت الأخبار عن النبي وأئمة الهدى ورجال الفكر في فضله ، ونعرض لبعضها :

أولاً: في القرآن

وأشاد الذكر الحكيم في غير آية من آياته بفضل العلم ، وسمو العلماء .

(١) موت فيليه : ٨٣ .

(٢) نهج البلاغة : ٤٨٢ .

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٥).

وهناك كوكبة أخرى من الآيات قد أعطت الأهمية للعلم، وأشادت بفضل العلماء، وأنهم مصدر النور ومبعث الفكر في الأرض.

ثانياً: في السنة

وتواترت الأخبار الواردة عن الرسول الأعظم ﷺ وأئمة الهدى في فضل العلم، وهذه بعضها:

١- قال رسول الله ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَلَا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ بُغَاةَ الْعِلْمِ» (٦).

٢- قال رسول الله ﷺ: «غَدَوَةٌ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِائَةِ غَزْوَةٍ» (٨).

(١) المجادلة ٥٨: ١١.

(٢) الزمر ٣٩: ٩.

(٣) النحل ١٦: ٤٣.

(٤) العنكبوت ٢٩: ٤٩.

(٥) فاطر ٣٥: ٢٨.

(٦) بغاة العلم: طلابه.

(٧) أصول الكافي: ٣٠/١.

(٨) راجع الأحاديث في المصادر التالية: مسند أحمد: ٢/٢٥٢ و: ٣/٢٣٥. سنن ابن ماجه:

٧/١. سنن الدارمي: ١/٢٧. مسند أبي داود: ١٤. المعبد: ١٣. أصول الكافي: ٣٠/١.

٣ - وقال ﷺ: «أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ الثُّبُوةِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ»^(١).

٤ - وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ، وَمَنْ أَرَادَهُمَا مَعاً فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ»^(٢).

٥ - قال ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ حَسَنَةٌ، وَدِرَاسَتُهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ، وَطَلَبُهُ عِبَادَةٌ، وَتَعْلِيمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ»^(٣).

٦ - قال ﷺ: «اطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ»^(٤)، وهو كناية عن المكان البعيد الذي تزم إليه الركائب بين مكاره السفر وشدائده.

إلى غير ذلك من الأخبار التي أثرت عن الرسول الأعظم ﷺ، وهي تحت المسلمين وتدفعهم إلى التقدّم في المجالات العلمية، وأن لا يدعوا شبحاً للجهل في مجتمعهم؛ لأنّه مصدر التأخّر والانحطاط.. أمّا ما أثار عن أئمة الهدى في فضل العلم فكوكبة كبيرة من الأخبار نلمح إلى بعضها:

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ، اعْلَمُوا أَنَّ كَمَالَ الدِّينِ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلُ بِهِ، أَلَا وَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ، إِنَّ الْمَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ قَدْ قَسَمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ وَضَمِنَهُ وَسَيَفِي لَكُمْ وَالْعِلْمُ مَخْزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ قَدْ أَمَرْتُمْ بِطَلَبِهِ مِنْ أَهْلِهِ فَاطْلُبُوهُ»^(٥).

وحدّث الإمام أمير المؤمنين تلميذه كميل بن زياد النخعي عن فضل العلم فقال له:

(١) و (٢) المصدر المتقدم.

(٣) تحف العقول: ٢٨.

(٤) روضة الواعظين: ١١/١.

(٥) أصول الكافي: ٣١/١.

« يَا كَمِيلُ ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ، الْعِلْمُ يَخْرُسُكَ وَأَنْتَ تَخْرُسُ الْمَالَ . وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ ، وَالْعِلْمُ يَزُكُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ .

يَا كَمِيلُ ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينَ يُدَانُ بِهِ ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ ، وَجَمِيلَ الْأُخْدُوَّةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ . وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ ، وَالْمَالُ مَخْكُومٌ عَلَيْهِ .

يَا كَمِيلُ ، هَلَكَ خَزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ »^(١) .

قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام : « اَطْلُبُوا الْعِلْمَ ، وَتَزَيَّنُوا مَعَهُ بِالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ »^(٢) .

لقد تظافرت الأخبار المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وهي تدعو المسلمين إلى تثقيف نفوسهم وبلورة أفكارهم ، والتحلي بزيينة العلم والأدب .

أقوال مأثورة

وأولى حشد من أقطاب الحركة الفكرية في الإسلام المزيد من اهتمامهم في دفع المسلمين إلى العلم ، ولهم كلمات قيمة في فضله نشير إلى بعضها :

قال أبو الأسود الدؤلي : « ليس شيء أعزَّ من العلم ، الملوك حكام الناس ، والعلماء حكام على الملوك »^(٣) .

قال الغزالي : « لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم ، فإنهم بالتعليم يخرجون الناس من حدِّ الهمجية إلى حدِّ الإنسانية »^(٤) .

(١) نهج البلاغة : ١٦٤/٣ .

(٢) أصول الكافي : ٣٦/١ .

(٣) تذكرة السامع : ١٠ .

(٤) إحياء العلوم : ٩/١ .

قال الجاحظ: «لست أطلب العلم طمعاً في بلوغ غاية، والوقوف على نهاية، ولكن التماس ما لا يسمح جهله، ولا يحسن بالعاقل إغفاله».

قال مصعب بن الزبير لولده: «تعلم العلم، فإن لم يكن لك جمال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً».

قال ابن عبد البر: «اطلبوا العلم، فإن كنتم ملوكاً برزتم، وإن كنتم سوقة عثتم»^(١).

وننهي بهذه الكلمات الحديث عن فضل العلم، وما له من الأهمية البالغة في الإسلام.

الأهداف العظيمة

لم يكن الغرض من طلب العلم - في الإسلام - يهدف إلى منافع مادية ضيقة أو يجرّ إلى مكاسب شخصية لا صلة لها بواقع الروح والتهديب، وإنما الغاية أنبل وأسمى شأناً من ذلك، ونشير - بإيجاز - إلى بعض تلك المقاصد العظيمة:

١ - أن يكون الداعي لطلب العلم خالصاً لوجه الله غير مشفوع بأي جهة مادية، فإنّ ما يعانیه الطالب من الجهد والعناء، وما ينفقه من السهر المتواصل، والتعب الشاقّ في تلقّي العلوم لا ينبغي أن ينشده شأناً ضيقاً من شؤون الحياة التي يرجع أمرها إلى التراب، وإنما ينبغي أن يقصد به مكسباً عظيماً يعود عليه وعلى المجتمع بالخير العميم، وليس هناك أسمى قصداً ولا أكثر عائداً من أن يطلب به رضا الله تعالى واليوم الآخر.

وقد قصر «إخوان الصفا» أهداف التعليم على كلّ ما يقصد به وجه الله تعالى،

فقالوا: «اعلم يا أخي أن كل علم وأدب لا يحمل صاحبه على طلب الآخرة، ولا يعينه على الوصول إليها، فهو وبال على صاحبه وحجة عليه يوم القيامة»^(١).

وقصر الغزالي التعليم على هذه الجهة فقال: «أيها الولد، كم من ليالٍ أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب، وحرمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث منه إن كان نيل غرض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال فويل لك، ثم ويل لك، وإن كان قصدك إحياء شريعة النبي ﷺ، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى..»^(٢).

وقد شجب النبي ﷺ جميع الدوافع المادية التي ينشدها من لا إيمان له، فقال ﷺ: «إِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيَمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ وَجْهَهُ النَّاسِ إِلَيْهِ لِيُعَظَّمُوهُ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٣). على هذه القاعدة المشرقة ركز الإسلام أهدافه الأصيلة في إلزامه بطلب العلم وحثيئته.

يقول بعض المرّبين في الإسلام: «ينبغي أن ينوي المتعلّم بطلب العلم رضا الله والآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهّال، وإحياء الدين، وإبقاء الإسلام، فإنّ بقاء الإسلام بالعلم...».

٢- أن يكون الباعث له على طلب العلم نشر المعارف، وإشاعة التقوى بين الناس، وقد حرّض الإسلام على النفر للتفقه في شؤون الدين، ومعرفة أحكام الله، وإبلاغها إلى الناس. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٤).

(١) رسائل إخوان الصفا: ٣٤٩/١.

(٢) أيها الولد: ٩٤.

(٣) تحف العقول: ٤٣ و ٤٤.

(٤) التوبة: ١٢٢.

إنَّ طلب العلم في الإسلام إنَّما يعني به إذا قصد به تهذيب النَّاس ، ورفع مستواهم ، وإبعادهم عن جميع ألوان الشذوذ والانحراف .. وإذا كان طالب العلم معنياً بهذا الهدف العظيم كان - حقاً - من ورثة الأنبياء ، ومن أئمة المتقين والصالحين . وعلى أي حال ، فإنَّ من أهمِّ الأهداف في التعليم الديني نشر العقيدة الإسلامية ، وتعريف الناس بأحكام الشريعة ، وتعويدهم على الأخلاق الفاضلة ، وإبعادهم عن الرذائل والأخلاق الفاسدة .

٣ - من دواعي التعليم في الإسلام إثارة الوعي الاجتماعي ، وبعث الناس إلى التعاون ، وطهارة القلب ، وصفاء النفوس ، وتنمية الشعور بالمسؤولية ، وتهيئة الوسائل التي تشجّع على النموّ الفكري والعلمي ، وتحسين الحياة العامة ، وتحريرها من الفقر والمرض والجهل . فإنَّ الطابع التعليمي في الإسلام لم يكن دينياً محضاً ، ولم يكن دنيوياً محضاً ، وإنَّما كان يلائم بين الدين والدنيا ، فهو يهدف إلى إعداد النَّاس للحياة الدنيا والآخرة ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ فِيمَا أَنَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ^(١) .

وقال ﷺ : « لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ ، وَلَا الْآخِرَةَ لِلدُّنْيَا ، وَلَكِنْ خَيْرُكُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ » .

٤ - ومن الأهداف العظيمة التي يعنى بها التعليم الإسلامي نشر الوعي السياسي ، وبلورة الفكر الاجتماعي ، وفتح الذهنية العامة أمام المصالح العامة ومراقبة الشؤون السياسية ، وإلى ذلك يهدف الحديث الشريف : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .

ومن الطبيعي أنَّ هذا الوعي إنَّما يتمّ في المجتمع الإسلامي إذا ازدهرت حياته

الفكرية والعلمية ، وأما إذا شاع الجهل فإنّ هذا الوعي الأصيل لا بدّ أن يتلاشى وينعدم ظلّه . إنّ الأزمات الخطيرة التي مني بها العالم الإسلامي في كثير من مراحل حياته إنّما كانت من النتائج المباشرة للانحطاط الفكري والاجتماعي .

٥ - ويستهدف العلم في الإسلام تماسك الأمة ووحدتها ، والقضاء على جميع التفرقة والانحلال ، فإنّ المسلمين جميعاً إنّما هم جسد واحد تجمعهم رابطة الإيمان التي هي أقوى من رابطة النسب ، وهذه الروح الخيرة إنّما تحصل فيما إذا انتشرت المعارف الإسلامية ، وفهم المسلمون واقع دينهم العظيم . إنّ أهداف التعليم في الإسلام لا تقتصر على الشؤون الدينية ، وأما هي شاملة لجميع العلوم التي تتطوّر بها الحياة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

يقول بعض المعنّيين في الشؤون التعليمية : « أنّ التعليم عند المسلمين كان يرمي إلى أربعة أغراض : غرض ديني ، وغرض اجتماعي ، وغرض يرجع إلى التلذذ العقلي ، وغرض مادي »^(١) .

هذه بعض الأهداف التي ينشدها الإسلام في المجالات العلمية .

وجوب التعليم

والظاهرة الفدّة التي يمتاز بها الإسلام على بقية الأديان والمذاهب أنّه أوجب على المسلمين وجوباً كفائياً تحصيل العلوم التي تنتظم بها حياتهم ، كما يجب عليهم وجوباً عينياً التفقه في شؤون دينهم العظيم ، أمّا اجتهاداً أو تقليداً ، فإنّ الجاهل به غير معذور ، ففي الحديث : « يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ : هَلَا عَلِمْتَ ؟ فَيَقُولُ : لَمْ أَعْلَمْ ، فَيَقَالُ لَهُ : هَلَا تَعَلَّمْتَ . »

وقسم الغزالي العلم إلى قسمين : فرض عيني ، وفرض كفائي . قال : « واختلف

الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم فتفرّقوا فيه إلى أكثر من عشرين فرقة ، كل فرقة حملت الوجوب على العلم الذي تذهب إليه .

فقال المتكلّمون : هو علم الكلام ؛ إذ به يدرك التوحيد .

وقال الفقهاء : هو علم الفقه ؛ إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام .

وقال المفسّرون والمحدّثون : هو علم الكتاب والسنة ، وعدّد الغزالي الكثير من تلك الفرق ^(١) .

وذهب القابسي إلى أن تعليم الصبيان واجب ، واستدلّ عليه أن المعرفة واجبة بنصّ القرآن الكريم ، كما أن معرفة القرآن واجبة أيضاً لضرورتها في الصلاة ، وإنّ الوالد مكلف بتعليم ابنه القرآن والصلاة ، فإن لم يتيسّر له أن يعلمه بنفسه فعليه أن يرسلهم إلى الكتاب لتلقّي العلم بالأجرة ، فإن لم يكن قادراً على نفقة التعليم فأبأوه مكلفون به ، وإذا عجزوا عن ذلك فإنّ المعلم يعلمه احتساباً أو يأخذ أجرته من بيت المال ^(٢) ، وقد تركّزت هذه النظريّة عند فقهاء المذاهب فأفتوا بأنّ طلب العلم فرض على جميع المسلمين ^(٣) .

وروي عن ابن وهب أنّه كان جالساً مع مالك يتذاكر معه في بعض المسائل العلميّة فحضرت الصلاة ، فقام إليها ، فقال له مالك : ما الذي قمت إليه بأوجب عليك من الذي قمت عنه ؟

وعلى أي حال ، فإنّ الإسلام قد حثّم على جميع المسلمين وألزمهم بتحصيل العلوم الدينيّة وغيرها لأجل تطويرهم ، وإقصاء الجهل عن واقع حياتهم ، فإنّ الجهل هو المصدر الوحيد للتأخّر والانحطاط .

(١) إحياء العلوم : ٢٤/١ .

(٢) التربية في الإسلام : ٩١ و ٩٢ .

(٣) مقدّمات ابن رشد : ١٤ و ١٥ .

التعليم الإجباري

ويحتّم الإسلام على الدولة أن تقوم بدور إيجابي بتحطيم أغلال الأميّة ، وأن تسعى جاهدة إلى نشر العلم والمعرفة بين الناس ، ومن طريق ما نُقل في هذا الموضوع أنّ عمر بن الخطّاب لقي أعرابياً فقال له :

- هل تحسن أن تقرأ القرآن ؟

- نعم .

- اقرأ أم الكتاب .

- والله ما أحسن البنات فكيف الأمّ .

فضربه عمر ثمّ سلّمه إلى الكتّاب ، فمكث مدّة ثمّ هرب ، وأنشأ يقول :

أَتَيْتُ مُهَاجِرِينَ فَعَلَّمُونِي	ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ مُتَّبَاعَاتٍ
كِتَابَ اللَّهِ فِي رَقٍّ صَاحِحٍ	وَأَيَّاتِ الْقُرْآنِ مُفَصَّلَاتٍ
فَخَطُّوا لِي أَبَا جَادًا وَقَالُوا	تَعَلَّمَ صَفْصَصًا وَقَرِيشَاتٍ
وَمَا أَنَا وَالْكِتَابَةَ وَالتَّهَجِّي	وَمَا حَظُّ الْبَنِينَ مِنَ الْبَنَاتِ ^(١)

إنّ التعليم ضرورة من ضرورات الحياة ، وعنصر هامّ في تقدّم المجتمع ورفيّه ، وقد ألزم الإسلام به كقاعدة أساسيّة في بناء مجتمعه ، وأكد بالذات على خصوص التفقّه في الدين .

يقول الإمام الصادق عليه السلام : « لَوَدِدْتُ أَنَّ أَصْحَابَنَا ضَرَبَتْ رُؤُوسُهُمْ بِالسَّيَاطِ حَتَّى يَتَفَقَّهُوا » ^(٢) .

(١) تاج العروس : مادة « بجد » .

(٢) الكافي : ٣١/١ .

وقال ﷺ: «إِنِّي لَسْتُ أَحِبُّ أَنْ أَرَى الشَّابَّ مِنْكُمْ إِلَّا غَادِيًا فِي حَالَتَيْنِ: إِمَّا عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَرَطَ، فَإِنْ فَرَطَ ضَيَّعَ، فَإِنْ ضَيَّعَ أَثِمَ، فَإِنْ أَثِمَ سَكَنَ النَّارَ، وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ»^(١).

إنَّ زمن الشباب دور القوَّة والعزيمة، وزمان الجِدِّ والعمل، وهو الدور الذي تتكامل فيه القوى، وتتوَّب فيه النزعات، فيجب أن تصرف طاقاته في العلم وتهذيب النفس وتكاملها.

الأجرة على التعليم

واختلف الفقهاء في جواز أخذ الأجرة على التعليم، فأجازه قوم ومنعه آخرون، واستدلَّ كلا الفريقين بأدلة دَوَّنت في الموسوعات الفقهيَّة وغيرها.. أمَّا الشيء المحقَّق فهو أَنَّ الأخيار والمتحرِّجين في دينهم - في أكثر العصور الإسلاميَّة - كانوا يتأثَّمون من الاكتساب بالتعليم، وكانوا يلتمسون بذلك وجه الله والدار الآخرة، وقد رَوُّوا أَنَّ التعليم هداية إلى الله، ولا يصلح أن يؤخذ عليه أجر، شأنهم في ذلك شأن الأنبياء الذين لم يسألوا أحداً من أجر على هدايته.. وقد امتنع فريق كبير من المعلِّمين من أخذ الأجر، فقد كان الضحَّاك بن مزاحم وعبدالله بن الحارث يعلِّمان الأطفال ولا يأخذان الأجر^(٢)، وكانوا يتحرَّجون حتَّى من أخذ الهدية التي يقدِّمها أولياء الطلاب إليهم، فقد أثار عن أبي عبد الرحمن السلمي أَنَّهُ كان يعلم الأطفال في مسجد من مساجد الكوفة، ثمَّ ذهب إلى بيته فوجد هدية من والد تلميذه فردَّها، ومعها كتاب جاء فيه: «نحن لا نعلِّم القرآن بأجر»^(٣).

(١) بحار الأنوار: ١٧٠/١.

(٢) المعارف / ابن قتيبة: ٥٤٧.

(٣) الطبقات الكبرى / ابن سعد: ١٧٣/٦. سير أعلام النبلاء: ٢٦٩/٤، باختلاف.

ويقول «الحاج خليفة»:

« فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب ، بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق ، على أن من تعلّم للاحتراف لم يأت عالماً إنما جاء شبيهاً بالعلماء ، ولقد كُشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به ، ولمّا بلغهم بناء المدارس في بغداد أقاموا مأتم العلم ، وقالوا: كان يشغل به أرباب الهمم العالية والأنفس الزكية الذين يقصدون الشرف والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم ويعلمهم ، وإذا صار عليه أجرة تداني إليه الأخصاء وأرباب الكسل .. »^(١).

وكانوا ينفقون الأموال الضخمة في تحصيل العلم لذاته لا للتكسب منه ، فقد قال أبو بكر محدث نيشابور:

« أنفقت في الحديث مائة ألف درهم ما كسبت به درهماً »^(٢).

ولمّا تطوّرت البلاد الإسلامية في العصور العباسية واتسعت الحركة العلمية اتّساعاً هائلاً ، صار العلم سبباً للدخول في جهاز الحكم ، كما صار سبباً للمعيشة ، ومنذ ذلك الوقت أصبح العلم يؤخذ عليه الأجر .

يقول «ابن خلدون»:

« وأصبح العلم من جملة الصنائع والحرف ، واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان ، فدفع للعلم من قام به سواهم ، وأصبح حرفة للمعاش ، وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للعلم .. »^(٣).

(١) كشف الظنون: ٥٣/١.

(٢) طبقات الشافعية: ١٦٩/٢.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ٤٣٢/١.

ولا تزال تحتفظ بطابع التعليم المجاني الجامعة الدينية الكبرى في النجف الأشرف وقم، فإنّ التعليم في جميع مراحل الدراسة فيهما لا يؤخذ عليه أجر، وإنّما هو خالص لوجه الله تعالى.

سنّ التعليم

ورعى الإسلام جميع الجوانب المؤدية إلى ازدهار التربية والتعليم، وكان من بينها تحديده لسنّ التعليم، فقد حدّدها بما يتفق والنموّ الفكري للطفل، وهو السنة السابعة من عمره، فقد روى محمد بن يعقوب عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، رائد الحركة العلميّة والفكريّة في الإسلام أنّه قال:

«الْغُلَامُ يَلْعَبُ سِنِينَ، وَيَتَعَلَّمُ الْكِتَابَ سِنِينَ، وَيَتَعَلَّمُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ سِنِينَ»^(١).

وقال عليه السلام: «دَعِ ابْنَكَ يَلْعَبُ سِنِينَ، وَيُودَّبُ سِنِينَ، فَإِنْ أَفْلَحَ وَإِلَّا فَلَا خَيْرَ فِيهِ»^(٢).

لقد أعلن الإسلام هذه الظاهرة قبل أن تكتشفها دراسة سيكولوجيّة التعليم الحديثة التي قرّرت أنّ سنّ التعليم للطفل فيما هو إذا بلغ سبع سنين، وأكّده منظّمة اليونسكو العالميّة، فقد جاء في مقرّراتها التربويّة ذلك..

أمّا إرسال الطفل إلى المدرسة قبل أن يبلغ هذا السنّ، فإنّه ممّا يوجب إرهاقه وعناءه، وشلّ نموّه الفكري، ومن المؤسف أن أكثر الآباء يزجّون بأبنائهم إلى المدرسة قبل أن يبلغوا هذا السنّ.

(١) وسائل الشيعة: ١٩٤/٧.

(٢) وسائل الشيعة: ١٩٤/٧ و ١٩٥.

يقول بعض المربين :

« ومن المشاهد المؤسفة في هذا العصر التكالب العنيف على التحصيل العلمي المجرد لدرجة جعلت الوالدين في كثير من الأحيان ينسون أنْ لأبنائهم طفولة ، وأنْ لهم قدرات وإمكانات عقلية وجسمية محدودة ، وأنْ لهم ميولاً ورغبات خاصة .. ينسون كل ذلك ويدفعون أبناءهم إلى التحصيل العلمي دفعاً قوياً لا هواة فيه ولا رحمة ، على الرغم من صغر أعمارهم وضالة قدراتهم ، فتجدهم يتعجلون إلحاقهم بالمدارس قبل الخامسة والسادسة ، ونجدهم يستكثرون عليهم ست سنوات أن يقضونها بالمرحلة الابتدائية ، فيحاولون القفز بهم من صف إلى صف ، وتجدهم يرهقونهم بدروس خاصة تستنفد طاقاتهم ، وتعطيل عمليات نموهم .. »^(١).

ويقول « العبدري » :

« إن السلف الصالح كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتاب في سن السابعة ، وهي السن التي يكلف فيها أولياء الأمور تعليم الأولاد الصلاة والفضائل والأخلاق ، ولكن الأطفال يذهبون الآن للتعليم في سن مبكرة ، فليحذر المدرس من تعليمهم القراءة في سن مبكرة ؛ لأن تعليمهم في هذا السن يرهقهم جسدياً وعقلياً .. والواقع أن الآباء يرسلون أطفالهم إلى المدارس والكتاتيب مبكرين لا يقصدون تعليمهم ، ولكنهم يريدون التخلص من متاعبهم بإبعادهم عن البيت .. »^(٢).

إن إرسال الأطفال إلى المدرسة ، وهم في سن مبكرة له مضاعفاته السيئة ،

(١) مدخل الشرع الشريف : ١٦٣/٢ .

(٢) التخطيط للتربية والتعليم : ٨٨ .

ومن أخطرها أنها تغرس في نفوسهم روح السأم والكلل ، وتوقّف نموّهم الفكري .
وهنا ظاهرة فذّة أكّد الإسلام على رعايتها ، وهي ضرورة قيام المربّين والآباء
بتغذية الأطفال بالروح الدينيّة خوفاً من أن تغزوهم الأفكار الإلحادية ، فقد أثار عن
الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال :

«عَلِّمُوا صِبْيَانَكُمْ مِنْ عِلْمِنَا مَا يَنْفَعُهُمْ اللَّهُ بِهِ ، لَا تَغْلِبْ عَلَيْهِمُ الْمَرْجِيَّةُ بِرَأْيِهَا..»^(١).

إنّه ليس هناك شيء أخصب من نفوس الصغار لنشر الدعوة الدينيّة واعتناق ما في
الإسلام من خير وجمال .. إنّ دعوتهم إلى الدين إنّما هي تطهير لنفوسهم من الزيف
والضلال ، وهداية لهم إلى مستقبل أفضل .

إنّ الطفل أكثر ما يكون قابليّة للتشكيل ، وأطوع ما يكون للتأثير بأي فكرة كانت .
يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «وَأَمَّا الْقَلْبُ الْحَدِيثُ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أَلْقِيَ فِيهَا مِنْ
شَيْءٍ قَبِلَتْهُ..»^(٢).

فيجب استغلال هذه الظاهرة وتوجيههم الوجهة الصالحة التي تتّسم بالتوازن
وحسن السلوك ، ومن المؤسف إهمال المربّين والآباء لذلك ، فإنّهم لم يعنوا بمناعة
أبنائهم من الإصابة بالأوبئة الفتاكة التي دهمت بلاد المسلمين من الوجوديّة
وغيرها ، فقد أصيب الكثيرون بجراثيمها ، وصاروا من الضعة والهوان بأقصى مكان ،
فانطلقوا يحاكون «الخنافس» في ملابسها وأزيائها ، والوجوديّة في تحلّلها وتسببها ،
لا عن وعي ورشد ، قد انعدمت فيهم جميع المقاييس التي توزن بها القيم الإنسانيّة ،
ويميّز فيها بين الخير والشرّ ..

(١) وسائل الشيعة : ١٩٧/٧ .

(٢) نهج البلاغة : ٣٩١ .

أنواع العلوم

ويأمر الإسلام بالخوض والاختصاص بجميع أنواع العلوم والمعارف ، خصوصاً التي تتطور بها الحياة الفكرية والاجتماعية ، بل إن بعضها يكون واجباً يتحتم على المسلمين القيام به ، كعلم الطب والصيدلة وغيرهما من سائر العلوم والفنون الصناعية ، ويتأكد ذلك بصورة خاصة معرفة العلوم الحديثة والتخصص بها ، فقد أصبحت أساساً لرفقي الشعوب ونهضتها ، فإن من أوثق الأسباب التي أوجبت تدهور العالم الإسلامي ، وتمزيق أوطانه ، وتظافر القوى الاستعمارية على نهب ثرواته ، والاستيلاء على موارده الاقتصادية هو ما مني به من الجهل والانحطاط الفكري ، وتأخره في عالم الصناعات ، وعدم مسايرته للدول الناهضة التي أقامت أسس حضارتها على العلم والفن .

وعلى أي حال ، فإن العلم الذي حث الإسلام على طلبه لا يتقيد بنوع خاص ، وإنما يشمل جميع أنواع العلوم والفنون ، وقد فتق أغلب أبوابها أئمة أهل البيت عليهم السلام ، الذين هم خزنة علم النبي صلى الله عليه وآله ، ومستودع حكمته وأسراره ، فقد خاضوا في محاضراتهم وبحوثهم جميع ألوان العلوم العقلية والنقلية كعلم الفقه والحديث ، وعلوم القرآن الكريم ، وعلم الطب والكيمياء وغيرها ، وكان الإمام الصادق عليه السلام له الضلع الأكبر في بلورة الحياة الفكرية ، واتساع نطاق العلوم التي ساهمت في بناء الحضارة الإسلامية .

يقول « الأستاذ السيد مير علي الهندي » :

« ولا مشاحة أن انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله ، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد (علي بن أبي طالب) المسمى بالإمام (جعفر) والملقب

بالصادق، وهو رجل رحب أفق التفكير، بعيد أغوار العقل ملم كل الإلمام بعلوم عصره، ويعتبر في الواقع أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الإسلام، ولم يكن يحضر حلقاته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية»^(١).

ويقول «الأستاذ محمد صادق نشأت»:

«كان بيت جعفر الصادق كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار في الحديث والتفسير والحكمة والكلام، فكان يحضر مجلس درسه في أغلب الأوقات ألقان، وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين»^(٢).

والمهم الذي نريد أن نوكدّه أنّ الإسلام قد أقام حياته الفكرية على إشراق جميع أنواع العلوم وتطورها، ولم يتبنّ نوعاً خاصاً منها.

يقول «العقّاد»:

«العلم في الإسلام يتناول كل موجود وكل ما يوجد، فمن الواجب أن يعلم فهو أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام؛ إذ إنه خير عبادة أن يهتدي الإنسان إلى سرّ الله في خلقه، وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله...»^(٣).

نعم، إنّ الإسلام أكّد على ضرورة التفقه في الدين ومعرفة أحكام الله؛ لأنّها

(١) جعفر بن محمد: ٥٩.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ٨١/١.

(٣) التفكير فريضة إسلامية: ٨٦.

السبب في تنظيم العلاقات الاجتماعية ، والسبب في توازن سلوك الشخص واستقامته ، ولا يقتصر التفقه في الدين على معرفة الطقوس الإسلامية ، كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها ، وإنما يشمل المعاملات من العقود والإيقاعات ، والحدود والديات وغيرها ، مما عرضت لكل شأن من شؤون الحياة ، سواء في عالم الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد ، وغيرها مما يتعلق بأداب السلوك والأخلاق .

العلوم المحرّمة

وحرم الإسلام بعض العلوم والفنون ، وحظر من تعلّمها واستعمالها لأنها تحجب العقول ، وتميت الوعي ، وتسبّب الخمول والجمود ، وهي :

السحر

وفي السحر أضرار بالغة على المجتمع ، فهو يوجب تمسك الناس بالباطيل والخرافات ، ويدفعهم إلى الإيمان بالأوهام والأضاليل ، فتعليمه وتعلّمه حرام ، وقد قرنه الإسلام بالشرك والكفر ، ففي الحديث : « إِنَّ السَّاحِرَ كَالْكَافِرِ »^(١) .

وفي حديث آخر : « مَنْ تَعَلَّمَ شَيْئًا مِنَ السُّحْرِ ، قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا ، فَقَدْ كَفَرَ ، وَكَانَ آخِرَ عَهْدِهِ بِرَبِّهِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ »^(٢) .

وعن النبي ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : مُذْمِنٌ خَمْرٍ ، وَمُذْمِنٌ سِحْرٍ ، وَقَاطِعٌ رَحِمٍ »^(٣) .

(١) نهج البلاغة : ١٠٥ .

(٢) بحار الأنوار : ٢١٠/٧٦ .

(٣) المكاسب للشيخ الأنصاري ، وقال الشهيد في الروضة : « إِنَّ تعليم السحر حرام ، والتكسب به سحت ، ويُقتل مستحلّه » .

إِنَّ من يتعاطى هذا الفنّ فهو مارق من الدين ، ولا نصيب له من الإسلام ؛ لأنه أداة تخريب وضلال ، ومصدر عبث وفتنة بين النَّاس ، وقد آمن بالسحر جملة من البسطاء والسذج ، واتخذوا قول السحرة منطق الحقّ الذي لا يخطئ ، فكانوا يفزعون إليهم للكشف عمّا يجهلونه ، فإذا أَلَمَّتْ بهم حادثة جهلوا فاعلموا ، كالقتل والسرقة ، بادروا إليهم ليخبرونهم عن الفاعلين لها حتّى يقتصّوا منهم ، وفي كثير من الأحيان تلقى السحرة تبعة ذلك وجريته على الأبرياء ، ممّا أدّى إلى شيوع الفتنة والفساد في المجتمعات المؤمنة بقولهم .

علم النجوم

وعلم النجوم يهدف إلى الاعتقاد بتأثير الكواكب في الأحداث ، وأنّ لها دخالة ذاتية في إيجادها وتكوينها على سبيل الاستقلال ، بحيث يمتنع التخلف عنها امتناع تخلف المعلول عن العلّة العقلية ، أو الاعتقاد بأنّها المدبرة لهذا العالم والموجدة لهذا الكون - كما يذهب لذلك بعض المنجمين - ومن الطبيعي أنّ ذلك يؤدّي إلى إنكار الله تعالى ، أو تعطيله عن التصرف في الحوادث السفلية بعد خلقه لهذه الأجرام والكواكب ، وقد حذّر الإسلام من تعلّم ذلك أو الإيمان به ، ففي الحديث : « مَنْ صَدَّقَ مُنْجِمًا أَوْ كَاهِنًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ » ^(١) .

وقد أراد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يسافر فبادر إليه بعض المنجمين فقال له :

إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظهر بمرادك من طريق علم النجوم .

فرمقه الإمام بطرفه وقال منكرًا عليه :

« أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مِنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مِنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضَّرُّ ، فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ ، وَاسْتَغْنَى

عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي تَيْلِ الْمَخْبُوبِ ، وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ .

ثم قال : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا كُمْ وَتَعَلَّمُ النُّجُومِ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكُهَانَةِ ، وَالْمُنَجِّمِ كَالْهَاهِنِ ، وَالْكَاهِنِ كَالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ »^(١).

هذا هو منطق الإسلام الهادف إلى الإيمان بالله ، وريط مجريات الأحداث بمشيئته وإرادته ، وليس للأجرام السماوية أي دخالة في التأثير عليها . نعم يستثنى من العلم بالنجوم معرفة الأنواء الجوية ، ومعرفة الخسوف والكسوف ، وما يجري مجراها ، فإنها لا تتصادم مع الدين ، ولا تخالف واقعه وهديه .

هذه بعض العلوم المحرمة في الإسلام ، وهي - من دون شك - توجب شل الحركة الفكرية ، وإماتة الوعي ، وتبعث على الإيمان بالأوهام والخرافات .

تعليم المرأة

لم يكن التعليم في الإسلام وقفاً على الرجل فقط ، وإنما كان للمرأة حظٌ وافر منه ، فقد بعث الإسلام في نساء المهاجرين والأنصار حماسة لتعلم القراءة والكتابة ، والتفقه في أمور الدين ، ويروي البخاري أن النساء قلن للنبي ﷺ : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فعينَ لهنَّ يوماً يلقاهنَّ فيه ويعلمهنَّ .

وعدّد البلاذري بعض النساء الكاتبات ، منهنَّ : حفصة زوج النبي ﷺ ، وأمّ كلثوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد التي قالت : « علّمني أبي الكتاب »^(٢) ، وكان عيسى بن مسكين يدعو بنيه وبنات أخيه فيعلمهنَّ القراءة والعلوم^(٣) ، ويرى الجاحظ أن المرأة

(١) نهج البلاغة : ١٠٥ .

(٢) فتوح البلدان : ٤٥٨ .

(٣) آداب المعلمين : ٢٢ .

تمنع من الكتابة ورواية الشعر، ولكن تعلّم القرآن، ومن القرآن سورة النور^(١)، وحضر القابسي من تعليمها خشية فسادها، وقال: «سلامتها من تعلّم الخط أنجي لها».

وهذا الرأي يفقد الأصالة العلميّة، ولا يلتقي مع روح الإسلام وهديه، فإنّ الإسلام ووجه جميع أجهزته وطاقاته لإقصاء الجهل، ومحو الأميّة، وجعل العلم حقاً ذاتياً لكلّ إنسان، ذكراً كان أو أنثى، وألزم الدولة بتهيئة الفرص المتكافئة بتحصيل العلم لكلّ إنسان بغضّ النظر عن أصله وقوميّته ومكانته الاجتماعيّة، وأنّ كلّ إنسان له الحقّ في المشاركة الواسعة في جميع ألوان النشاطات العلميّة والفكريّة.

إنّ رسالة الإسلام تبثني على العلم والإيمان بأنّه عنصر هامّ من عناصر التقدّم الاجتماعيّ للأمة والفرد على حدّ سواء، وهو ليس مقصوراً على الرجال فقط، إنّما يشمل المرأة، فإنّها القاعدة الأساسيّة التي يركز عليها بناء الأسرة، وقد عني الإسلام بها عناية بالغة، فأشاد بدورها ووظيفتها في إقامة المجتمع الإنساني، وازدهار الحياة وتطوّرها. إنّ عناية الإسلام بالمرأة لا نظير له في جميع الأديان والمذاهب الاجتماعيّة، فقد أعطاهما أقصى ما يمكن أن تعطى من الحقوق، سواء في نطاق العلاقات العامّة بالدولة أو المجتمع، أو في نطاق العلاقات الخاصّة بالأفراد.. فكيف يحضر عليها العلم الذي هو السبب في تطوّرها وتقدّمها فكريّاً واجتماعيّاً، وأنّ من المحال أن تصل إلى أي مرتبة من مراتب الرقيّ والكمال ما لم تبين حياتها على العلم والدين.

نعم، إنّ الإسلام يمنعها من التعلّم المختلط، ويحضر عليها التبرّج؛ لأنّ ذلك يدفعها إلى تيّارات سحيقة من التفسّخ والتحلّل، ويوجب سقوط عفتها وكرامتها.. الإسلام ينشد كرامة المرأة، وأهاب بها أن تنزل إلى أي مستوى سحيق، وطلب منها أن تكون سيّدة هذا الجنس وأن تتولّى توجيهه وتربيته، وتقوم بإعداده

للحياة على أسس سليمة .

مكانة المعلم

واحتفى الإسلام بالمعلم احتفاءً بالغاً ، وأولاه المزيد من العناية والتكريم ؛ لأنه اللبنة الأولى في رقي المجتمع وتكامله ، والسبب في تغيير سلوك الأفراد والجماعات ، وتنمية أفكارهم ، وتوجيههم الوجهة الصالحة ، وكان النبي ﷺ يعنى به ، ويرفع من مكانته ، فقد أثر عنه أنه خرج ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفي الثاني جماعة يعلمون الناس فقال : «أما هؤلاء فيسألون الله فإن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت معلماً» ، ثم عدل إليهم وجلس معهم ، وقد أعطى ﷺ بذلك خير مثل لتشجيع التربية والتعليم .

المعلم قدوة

ومما لا ريب فيه أن المعلم هو القدوة الفذة لتلاميذه ، فمنه يكتسبون العادات الطيبة ، والاتجاهات السليمة ، ومنه يستمدون حسن السلوك والتوازن ، فإن سيرته وهديه ينفذان إلى أعماق قلوبهم ، فعليه أن يبالغ في تهذيب نفسه ، ويروضها على الأخلاق الكريمة ، والمثل العليا ليكون لهم أسوة حسنة .

قال بعض الخلفاء لمعلم ولده : « ليكن إصلاحك بني إصلاحك لنفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيوبك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت .. »^(١) .

يقول بعض المرّبين : « إن المعلم هو القدوة الصالحة .. يراقبه تلاميذه للأخذ عنه

(١) الدرّ النضيد : ١٣٨ . عيون الأخبار / ابن قتيبة : ١٦٦/٢ .

من حيث لا يعلم...»^(١).

ويقول مربِّ آخر: «إنَّ أكثر النَّاس مقلِّدون ينظرون إلى حال القائل ، والذي لا ينظر إلى حال القائل وإنَّما يقصر النظر إلى ما قاله فهو نادر ، فلتكن عناية المعلِّم بتزكية نفسه أكثر منه بتحسين علمه ونشره...»^(٢).

ومن الأقوال المأثورة: «إنَّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زلَّت موعظته من القلوب كما يزُل القطر عن الصفا»^(٣).

وما أروع هذه الأبيات التي تُسبِت إلى أبي الأسود الدؤلي :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرُهُ	هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّغْلِيمِ
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ	عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
وَإِذَا بِنَفْسِكَ فَانْهَاهَا عَنْ غِيَّهَا	فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهَنَّاكَ يَقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى	بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّغْلِيمُ

إنَّ ما منيت به الناشئة الحديثة من الشذوذ والانحراف عن التقاليد الاجتماعية كل ذلك ناشئ - على الأكثر - من تسبب بعض المعلمين ، وتحللهم من القيم والآداب ، فأثر ذلك في سلوك تلاميذهم .

حقوقه

وللمعلِّم الحقوق الوافرة على تلاميذه ، فهو مصدر تكاملهم ومعرفتهم بخبرات

(١) الدرّ النضيد: ١٣٨ .

(٢) مفتاح السعادة: ٤٣/١ .

(٣) مختصر جامع بيان العلم: ٩٨ .

الحياة ، وهو مصدر الإشعاع لعقولهم وأفكارهم ، فتحقه عليهم أكثر من حقوق آبائهم ، فواجبهم أن يكتفوا له أسمى ألوان الاحتراف والتبجيل .

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام : « وَأَمَّا حَقُّ سَائِسِكَ بِالْعِلْمِ : فَالْتَّعْظِيمُ لَهُ ، وَالتَّوْقِيرُ لِمَجْلِسِهِ ، وَحُسْنُ الْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعُونَةُ لَهُ عَلَى نَفْسِكَ فِيمَا لَا غِنَى بِكَ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَنْ تُفَرِّغَ لَهُ عَقْلَكَ ، وَتُخْضِرَهُ فَهْمَكَ وَتُزَكِّيَ لَهُ قَلْبَكَ ، وَتُجَلِّيَ لَهُ بَصَرَكَ بِتَرْكِ اللَّذَاتِ ، وَتَقْصِرَ الشَّهَوَاتِ ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ فِيمَا أَلْقَى إِلَيْكَ رَسُولُهُ إِلَى مَنْ لَقَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ فَلَزِمَكَ حُسْنُ النَّادِيَةِ عَنْهُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا تُخْنَهُ فِي رِسَالَتِهِ ، وَالْقِيَامُ بِهَا عَنْهُ إِذَا تَقَلَّدَتْهَا » .

وحفلت هذه الكلمات الذهبية بأروع حقوق المعلمين ، وأكثرها عائدة على الأمة توجيهاً وسلوكاً وأخلاقاً .

إنَّ الهيئة التعليمية لها أوفر الحقوق وأكثرها لا على الطلبة فحسب ، بل على الأمة بأسرها ؛ لأنها مصدر النور والوعي الذي تستمد منه عوامل نهضتها وارتقاؤها .. فعلى جهود المعلمين تتأسس الحضارة ، وتزدهر معالم الحياة ، وتتحقّق الآمال الجسام التي تصبو إليها الأمة في جميع مراحل حياتها .

آدابه ومسؤولياته

وأدلى علماء التربية القدامى من المسلمين ببعض الآداب والمسؤوليات التي ينبغي للمعلم أن يطبقها على واقع حياته العلمية ، وهي - من دون شك - ممّا توجب جعله قدوة فذة ، ومثالاً يحتذى به ، كما توجب ازدهار التربية والتعليم ، وإيجاد نشء متّسم بالتوازن وحسن الأخلاق ، وهي :

١ - أن يقصد بعمله التهذيبي وجه الله ، وأن يكون اشتغاله بالتعليم في سبيل الله تعالى لإصلاح ناشئة المسلمين لا طمعاً في مال أو جاه ، فإن كان قصده ذلك ضلّ .

قال سفيان بن عيينة: «كنت قد أوتيت فهم القرآن فلمّا قبلت الصرة - أي المال - من أبي جعفر سلّبتة» .

٢- أن يكون قوي اليقين بالله عزّ وجلّ ، وأن يقوم بشعائر الدين ، وإظهار السنن ، وإخماد البدع ، وأن يتخلّق بمحاسن الأخلاق حتّى يقذف الله في قلبه الفهم .

قال ابن مسعود: «ليس العلم بكثرة الرواية ، إنّما العلم نور يقذفه الله في القلب» .

٣- أن يتنزّه في ساعات فراغه عن امتهان المهن الحقيرة ، كالحجامة والدباغة وما إلى ذلك .

٤- أن ينظّف جسمه بإزالة الأوساخ ، وتقليم الأظافر ، واجتناب الروائح الكريهة .

٥- أن يقتصد في ملبسه ومطعمه ومسكنه .

قال الشافعي: « ما شبت منذ ستّة عشر سنة » .

٦- أن يبتعد ما استطاع عن الحكّام والملوك .

قال الأوزاعي: « ما شيء أبغض إلى الله من عالم يزور وزيراً » .

٧- أن يتشبه بأهل الفضل والدين من معلّمي الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من أكابر العلماء .

٨- أن يكون ذا عناية بالعلوم المفيدة ، وأن يتجنّب غير المفيدة التي يقلّ نفعها ، ويكثر الجدل فيها ، والقليل والقال عنها .

٩- أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة ، من نوع ما روي عن شقيق البلخي أستاذ حاتم الأصمّ ، فقد قال لحاتم :

- منذ كم صحبتني ؟

- منذ ثلاث وثلاثين سنة .

- ما تعلّمت منّي في هذه المدة ؟

- ثمان مسائل .

- إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل .

- لم أتعلم غيرها ، ولا أريد أن أكذب .

- هاتها حتى أسمعها .

- محبة الحسنات ، ومداغة الهوى ، والعدالة ، والتقوى ، ومصادقة الحق وعداوة

الشیطان ، وملازمة الطاعة وترك الذل للخلق بسبب المعيشة ، والتوكل على الله .

فطفق شقيق يدي إعجابه وإكباره قائلاً :

- يا حاتم ، وفقك الله ، إني نظرت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن فرأيتهما

تدور على هذه المسائل الثمان .

١٠- أن لا ينصب نفسه للتعليم حتى يستكمل أهليته ، ويشهد له أفاضل أساتذته

بذلك .

قال الشبلي : « من تصدّر قبل أوانه ، فقد تصدّى لهوانه » .

١١- أن يؤدّب طلابه وتلاميذه بسيرته وعمله تأديبهم بقوله وموعظته .

١٢- أن يحبّ تلاميذه ، ويصونهم عن الأذى ما استطاع .

قال أبو العباس : « أكرم عليّ جليسي الذي يتخطى الناس حتى يجلس إليّ ، ولو

استطعت أن لا يقع عليه الذباب لفعلت » .

١٣- أن يغفر لتلاميذه خطاياهم ، ويعذرهم على هفواتهم ، فإن أراد تنبيههم على

ذنوبهم لمح لهم ، فإن لم يتعظوا صرح لهم ، فإن لم يفدّهم ذلك وبّخهم .

قال رسول الله ﷺ : « عَلِّمُوا وَلَا تُعَنَّفُوا ، فَإِنَّ الْمُعَلَّمَ خَيْرٌ مِنَ الْمُعَنَّفِ » ^(١) .

وقال: «لِينُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ، وَلِمَنْ تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ»^(١).

١٤ - أن يرحّب بطلبته إذا حضروا إليه ويسأل عنهم إذا غابوا عنه.

١٥ - أن يقول: لا أدري إذا سئل عمّا لا يعرفه.

قال ابن مسعود: «يا أيّها النّاس، من علم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم فليقل الله أعلم، فإنّ من العلم أن تقول: الله أعلم.

١٦ - أن يتفهّم مستوى طلابه، ويخاطبهم على قدر فهمهم وإدراكهم فيكتفي للحاذق بالإشارة، ويوضّح لغيره بالعبرة، ويكرّر لمن لا يعلم.

١٧ - أن يذكر لهم قواعد الفنّ التي لا تنخرم مطلقاً أو غالباً مع مستثنياتها إن كانت موجودة، وأن يحرّضهم على الاشتغال في كلّ وقت ويطالبهم بإعادة محفوظاتهم، فمن وجده حافظاً أثنى عليه، ومن وجده مقصّراً عنّفه، وأن يطرح عليهم أسئلة يختبر بها أفهامهم، ويأمرهم بالاعتدال في الطلب إذا ما أسرفوا فيه، وظهر ذلك على أجسامهم وفي وجوههم، وإذا ما رأى من أحد ضجراً أو نحوه أو صاه بالراحة والاستجمام.

١٨ - أن لا يعلم أحداً ما لا يحتمله ذهنه أو سنّه، ولا يشير على أحد بقراءة كتاب يقصر عنه ذهنه، فإن استشاره من لا يعرف حاله في قراءة فنّ مشكل، أو كتاب معضل أو بحث عريض، لم يشر عليه بشيء حتّى يمتحنه، فإذا امتحنه سمّى له الكتاب الذي يقدر عليه، ولا يمكن طالباً من الاشتغال بعدّة فنون لا يستطيع اتقانها معاً.

١٩ - أن لا يدرّس، وهو منزّع النفس فيه ملل أو مرض أو جوع أو غضب، فإنّ ذلك مضرّ بنفسه وبطلابه.

(١) منية المريد: ٨٧. الكافي: ٣٦/١، الحديث ١. بحار الأنوار: ٦٢/٢، الحديث ٧.

٢٠- أن لا يطيل في درسه تطويلاً مملاً، ولا يقصره تقصيراً مخلاً، وأن لا يجاوز صوته مجلسه، ولا يقصر عن سماع الحاضرين.

٢١- أن يجعل للطلاب أوقاتاً معينة يعرضون فيها عليه ما حفظوه من القرآن والكتب، وكان المعلمون قديماً يجعلون ذلك عشية يوم الأربعاء وصبيحة يوم الخميس، وطيلة الجمعة للاستراحة والاستجمام.

٢٢- أن يساوي بين طلابه، فلا يميز بعضهم على بعض، فقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا مُؤَدِّبٍ وَلِيَ ثَلَاثَةَ صَبِيَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَمْ يُعَلِّمْنَهُمْ بِالسُّوِيَّةِ، فَقَبِرَهُمْ مَعَ غَنِيَّتِهِمْ، وَغَنِيَّتُهُمْ مَعَ فَقِيرِهِمْ، حُسِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْخَائِتَيْنِ».

كما أن عليه أن لا يكون في مجلسه مكان يتميز فيه بعض التلاميذ على بعض، بل كل من جلس فيه فهو أولى به.

٢٣- أن يرعى ميول المتعلم ورغباته النفسية، فيعلمه العلم الذي يرغب فيه، فإن لم تكن عنده بضاعة فيه أرشده إلى من يعلمه.

يقول «ابن سينا»: «ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له ومواتية، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه، وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة، ما كان أحد غفلاً من الأدب، وعارياً من صناعة، وإذن لو اجتمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات، وربما نافر طباع الناس جميع الآداب والصناعات فلم يعلّق منها بشيء... ولذلك ينبغي لمدير أمر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك...».

٢٤- أن يكافئ الطالب المجد، ويمدحه أمام الطلاب.

قال ابن مسكوب: «ويمدح الصبي بكل ما يظهر منه من خلق جميل، وفعل حسن، ويكرم عليه».

٢٥- أن يكون دقيقاً في معاملته للطلاب ، يعدّ عليه أنفاسه ، ويحاسبه على جميع حركاته وسكناته .

٢٦- أن ينمّي في نفوس تلاميذه الرغبة إلى طلب العلم ، ويبين لهم أنّه من أهمّ المكاسب التي تعود عليهم وعلى المجتمع بالخير العميم ، فإنّ هذه النزعة الكريمة إذا انطبعت في نفوسهم اندفعوا وراء العلم بلذّة وشوق ، وازدهرت بذلك الحياة الفكرية والعلمية في البلاد^(١) .

وحفلت هذه الأمور بجميع المقوّمات للتربية الرفيعة التي تستهدف إيجاد الإنسان الكامل في سلوكه وأتجاهاته وميوله .

ولمّا كانت الهيئات العلمية في العصور الإسلامية الأولى تسير على وفق هذه البرامج استطاعت أن توجد النشء الصالح المتّسم في سموّ أدبه ، وكمال نضوجه ، وأن تحقّق أروع نهضة علمية امتدّت موجاتها المشرقة إلى جميع العصور .

طريقة التعليم

وتبنّى المربّون القدامى من المسلمين منهجاً خاصّاً للتعليم يعود بالخير العميم على المتعلّمين ، ونشير إلى بعض بنوده :

١- ترك الشدّة

وينبغي للمعلّم أن يعامل طلابه بالرفق واللين ، وأن يجتنب الشدّة والقسوة ؛ وذلك لأنّهما يعوقان النموّ الفكري ، ويخلقان في نفس التلميذ عقداً نفسية خطيرة .

(١) مصادر البحث : الوثيقة / ابن عبدون : ٢١٤ . المدوّنة / الإمام مالك : ٢٦/٤ . تدريب الراوي / النووي : ١٢٨ . إحياء العلوم / الغزالي : ٦٢/٣ . تهذيب الأخلاق . تذكرة السامع / ابن جماعة : ٣٠ . آداب المعلّمين : ٤٣ . نظم القلادة / البكري : ٩٩ . آداب المريدين / ابن عربي : ٣ . تحف العقول . الوعي التربوي : ٤٨ .

يقول ابن خلدون: «إن إرهاف الحدّ بالتعليم مضرّ بالمتعلم ، ولا سيّما في أصاغر الولد ، ومن كان مرباه بالعسف .»

٢ - العقوبات البدنية

وإذا شدّ الطالب في سلوكه أو أهمل دروسه ، ولم ينفع معه النصح ، فإنّ اللازم تأديبه حتّى يثوب إلى الهدى والرشاد ، وكان المعلمون في العصور الإسلامية الأولى يلجأون إلى عقوبة الضرب والحبس حتّى مع أبناء الملوك ، فقد ضرب أبو مريم مؤدّب الأمين والمأمون الأمين بعود فخدش ذراعه ، فدعاه الرشيد فعمد أن حسر ذراعه أمام أبيه فسأله عن أمره فقال له :

« ضربني أبو مريم » .

فأرسل الرشيد خلف أبي مريم فقال له :

- ما بال محمد يشكوك ؟

- غلبني خبثاً وعرامة .

- أقتله فلأن يموت خير من أن يموق^(١) .

وورد في وصيّة الرشيد إلى الأحمر مؤدّب ولده : « وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإنّ أباهما فعليك بالشدة والغلظة .. »^(٢) .

وشاهد أبو نواس الشاعر الخليع عقوبة نزلت بأحد الصبيان في مكتب حفص فنظمها بقوله :

قَالَ حَفْصُ : اجْلِدْهُ إِنَّهُ عِنْدِي بَلِيدٌ

(١) الموق : الحمق في غباوة . محاضرات الأدباء : ٣٠/١ .

(٢) مقدّمة ابن خلدون : ٣٩٩ .

لَمْ يَزَلْ مُذْ كَانَ فِي الدَّرْسِ عَنِ الدَّرْسِ يَحِيدُ
كَشَفَتْ عَنْهُ خُزُوزٌ وَعَنِ الْخَزْزُ بُرُودُ
ثُمَّ هَالُوهُ بِسَيْرٍ لَيْنٍ مَا فِيهِ عُودُ^(١)

وكان الأب يقول لمعلم ولده: « لك اللحم ولي العظام » ، وكان الضرب والتعذيب عند بعض المعلمين من أعظم وسائل التربية ، إلا أنه أمر مغلوط لا يقرّه الإسلام ، فإنه يرى أن التربية يجب أن تتركز على الرحمة والشفقة واللين ، ويجب أن تبتعد عن جميع الطرق الملتوية .. أمّا إذا شدّ الطفل في سلوكه فليس له أن يسرف في ضربه وتعذيبه ؛ لأنّ ذلك يخلق عقداً نفسيةً عند الطفل ، ويعوق عن نموّ تربيته وازدهار شخصيته .

يقول « ابن خلدون » : « وإن أرغم العلم بالقهر ، سطا بالمتعلم القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقاً ، فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبداً عليهما في التأديب .. »^(٢) .

وفي الحديث : « عَلِّمُوا وَلَا تُعَنِّفُوا ، فَإِنَّ الْمُعَلِّمَ خَيْرٌ مِنَ الْمُعَنِّفِ » .

ويقول ابن قتيبة : « يستحبّ للعالم إذا علم أن لا يعنّف وإذا علم أن لا يأنف »^(٣) .
وقد شبهوا المعلم بالوالد العطوف فقالوا : « المعلم للصبيان عوض عن آبائهم »^(٤) .

(١) ديوان أبي نواس : ٤١٨ .

(٢) مقدّمة ابن خلدون : ٥٤٠ .

(٣) عيون الحكم والمواعظ : ٥٢٢ .

(٤) أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين / القاسبي : ٥٤ .

وقالوا: « ينبغي له -أي للمعلم- أن يعتني بمصالح الطالب ، ويعامله بما يعامل به أعزّ أولاده من الحنو والشفقة عليه ، والإحسان إليه ، والصبر على جفاء ربّما وقع منه .. وأن يوقفه على ما صدر منه بنصح وتلطّف لا بتعنّف وتعسف^(١) .

وسأل بعضهم القاسي وهو من أعلام المربّين في القرن الرابع الهجري فقال له :
« هل يستحبّ للمعلّم التشديد على الصبيان أو يرفق بهم ولا يكون عبوساً ؟

فأجاب القاسي : إذا أحسن المعلّم وضع الأمور في موضعها .. والنظر في زجر الصبيان لا يخرجهم من حسن رفقه بهم ، ولا من رحمته إيّاهم ، فإنّما هو عوض عن آبائهم ، فكونه عبوساً أبداً من الفظاظة الممقوتة ، وممّا يوجب جرأة الصبيان عليه^(٢) .

إنّ شدة المعلّم تخلق عقداً نفسيّة عند الطفل ، وتوجب سأمه من العلم وعدم الرغبة فيه .

الزجر بالتعريض

ويرى المربّون في الإسلام أنّ من وسائل التعليم أن يزجر الطالب بالتعريض فيما إذا شدّ في سلوكه أو أحلّ بواجبه ، فإنّ ذلك أردع له من التصريح بالذنب ، فقد قالوا :
« إذا رأى المعلّم من أحد طلبته مكروهاً ولحظ في سلوكه اعوجاجاً فلا يصرّح له بذلك مباشرة ، بل يعرض إليه في سياق كلامه مع الطلبة جميعاً كاشفاً عن وجه المذمّة في المكروه إجمالاً ، فتحصل بذلك الفائدة المنشودة^(٣) .

وهذه الطريقة أكثر عائدة على المتعلّم من النقد الذي يجزّه إلى التمرد والإصرار

(١) تذكرة السامع : ٤٩ .

(٢) تذكرة السامع : ٤٦ .

(٣) أحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين : ٥٤ .

على الخطأ ، وقد أكد الإسلام ذلك في مقام الإرشاد والتعليم ، فقد أثر عن سبطي النبي ﷺ الحسن والحسين ﷺ أنهما اجتازا على شيخ لا يحسن الوضوء ، وكانا طفلين ، فرأيا أنهما إذا قالاه : إنك لا تحسن الوضوء مع كبر سنك ربما تأخذه العزة في الإثم ، فأجمعا على أن يتوضئا أمامه ليرى أي الوضوئين أحسن ، وانطلقا إلى الشيخ فأخبراه بذلك ، وقاما فتوضئا أمامه فتنبه الشيخ إلى خطئه من دون أن يأنف ، وطفق يقول لهما :

« يا سيدي ، كلاكما تحسنان الوضوء ، ولكن عمكما الشيخ لا يحسن شيئا » .

وقد تبنى الإسلام هذه الطريقة النبيرة ، وأكد على ضرورتها لأنها ترجع الضال في مسيرته إلى جادة العدل والقصد ، وتوجب سلامته من الشذوذ والانحراف .

قال المربون : إذا لم يصلحه التعريض لقلة فهمه وإحساسه صارحه ونهاه عن ذلك سرا ، فإن لم ينته نهاه جهرا ، ويغلظ له في القول إذا اقتضى الحال ذلك ، وإن لم ينته فيطرده ويعرض عنه إلى أن يرجع^(١) .

آداب المتعلمين

وأولى علماء التربية في الإسلام المزيد من العناية والاهتمام بشأن طلاب العلوم ، فوضعوا لهم المناهج الرفيعة الهادفة إلى تهذيبهم واتصافهم بالأخلاق الكريمة ، والآداب الفاضلة ، ونشير - بإيجاز - إلى بعضها :

١ - أن يطلب العلم لله وللدن لا لأُمور الدنيا ، ولا لأي غرض زائل ، فإذا عقد نيته على الإخلاص لله ، رفع الله من شأنه ، وذلل له الصعوبات ، وسهل له العسير ، ومنحه الفهم والذكاء ، ووهب له الخير في آخرته ودنياه .

(١) أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين : ٥٤ .

٢- أن يحافظ على شعائر الدين ، ومكارم الأخلاق ، وإظهار السنن ، وأن يخشى الله في سرّه وعلائيته ، ويظهر قلبه من الصفات الذميمة ، كالحسد والرياء والعجب والكبرياء ، فإنّ هذه الأمور من أخطر الصفات ، وهي ممّا تحجب التوفيق عنه .

قال بعض المرّين : « كما لا تصحّ الصلاة إلّا بتطهير الظاهر من الأحداث والأخبث ، فكذلك لا تصحّ عبادة القلب بتعلّم العلم إلّا بعد طهارته من خبائث الأخلاق ، ونجاسات الصفات ، وليس العلم بكثرة الرواية إنّما العلم نور يقذف في القلب ... » .

٣- عليه أن يتزّن بالحلم والوقار ، فقد أثار عن النبي ﷺ أنّه قال : « تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ ، وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ ، وَتَعَلَّمُوا الْوَقَارَ وَالسَّكِينَةَ ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمْتُمْ مِنْهُ الْعِلْمَ ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ عَلَّمْتُمُوهُ الْعِلْمَ ، وَلَا تَكُونُوا جَبَابِرَةَ الْعُلَمَاءِ » ^(١) .

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « اَطْلُبُوا الْعِلْمَ ، وَتَزَيَّنُوا مَعَهُ بِالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَهُ الْعِلْمَ ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ طَلَبْتُمْ مِنْهُ الْعِلْمَ ، وَلَا تَكُونُوا عُلَمَاءَ جَبَّارِينَ ، فَيَذْهَبَ بِاطْلِكُمْ بِحَقِّكُمْ » ^(٢) .

ومن الطبيعي أنّه إذا تزّن الطالب بهذه الأخلاق الكاملة صار قدوة للغير ، وأثر تأثيراً إيجابياً على سلوك الناس وأخلاقهم .

٤- أن يجدّ في الدراسة ، ويبذل قصارى جهده في التحصيل ، فإنّ العلم ليس إلهامياً ، وإنّما هو من الأمور الكسبيّة ، فكلمّا سعى جاهداً في التحصيل ظفر بالثروة العلميّة ، كما أنّ عليه أن يحافظ على الوقت ، ولا يتأخّر عن موعد الدراسة ، فإنّ

(١) المعبد / العلمي : ١٣ . أصول الكافي : ٣٦/١ . التربية والتعليم في الإسلام : ٧٤ - ٧٩ .

الفارابي رسالة في السياسة : ٢٩ .

(٢) أصول الكافي : ٣٦/١ ، الحديث ٢ .

ذلك مما يوجب تأخّره ، وضياع دروسه ، وزهادة المدرّس فيه .

٥ - أن لا يفرط في الدراسة ، فإنّه ينهك القوى ، ويعيق النموّ الفكري ، فلا بدّ له من الوقت الكافي لراحته ، وتقوية جسمه ، واستجمامه ، فإنّ للبدن على الإنسان حقاً ، فلا بدّ من رعايته .

يقول الغزالي : « ينبغي أن يؤذن للولد بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً ، يستريح إليه من تعب العلم بحيث لا يتعب في اللعب ، فإنّ منع الصبي من اللعب وإرهاقه في التعلّم ممّا يميت قلبه ، ويبطل ذكائه ، وينغص عليه العيش ، حتّى يطلب الحيلة في الخلاص منه » .

٦ - أن لا يسأل أستاذه أسئلة تعنّت وتعجيز ، فذلك ممّا يوجب سلب التوفيق عنه لأنّه يتناول بالعلم ، وفي نفس الوقت لم يرع حرمة أستاذه التي هي أولى بالرعاية من كلّ شيء .

٧ - أن ينظر إلى أستاذه بعين الإجلال والاحترام ، فإنّ حقوقه عليه أوفر من حقوق أبيه ، ويروى عن الشافعي أنّه قال : « كنت أصفّح الورقة بين يدي مالك صفحاً رفيقاً هيبة له لئلا يسمع وقعها » .

كما أنّ عليه أن يبجل أستاذه في حال حضوره وغيبته ، وأن يخاطبه بأسمى عبارات التكريم والاحتراف ، ولا يناديه باسمه ، وأن يصبر على بعض هفواته ، أو جفوته ، وسوء خلقه .

قال الشافعي : « قيل لسفيان بن عيينة : إنّ قوماً يأتوك من أقطار الأرض تغضب عليهم ، يوشك أن يذهبوا ويتركوك ، فقال : هم حمقى إن تركوا ما ينفعهم لسوء خلقي » .

كما أنّ عليه أن يسبق أستاذه في الحضور إلى مجلس الدرس ، وأن يجلس أمامه ، ولا يستند بحضرته إلى حائط أو وسادة أو يدير ظهره إليه ، فإنّ ذلك ممّا

يتنافى مع حقوق الأستاذ ، وعليه أن يلقي بسمعه وحواسه لما يلقيه ، ولا يجعل أستاذه يحتاج إلى إعادة الكلام ، كما أنّ عليه أن لا يثأب أو يتجشأ أو يضحك أمامه ، وأن لا يسخر منه ، أو يقوم ببعض الأعمال التي تحطّ من قدر أستاذه .

٨ - أن لا يجمع في دراسته بين علمين في وقت واحد ، فإنّ ذلك ممّا يوجب انشغال فكره . يقول ابن خلدون : « وأن لا يخلط علمين معاً ، فأنّه حينئذ قلّ أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال ، وانصرافه عن كلّ واحد منهما إلى تفهّم الآخر » .

٩ - عليه أن لا يعاشر غير اخوانه المجدّين من أهل العلم ، فإنّه يتأثر بسلوكهم ، وقد قيل إنّ الحياة الاجتماعية حياة تأثير وتأثر ، فكلّ إنسان يتأثر فيمن حوله ، ويؤثر فيمن حوله ، فإذا كان صاحبه مصاباً بالكسل والخمول فإنّ ذلك يؤثر فيه حتماً .

١٠ - أن لا يفتش في بداية دراسته عن اختلافات العلماء وأقوالهم الغامضة ، خصوصاً في المباحث العقلية ، فإنّ ذلك ممّا يفسد ذهنه وطبعه .

١١ - أن لا ينتقل من درس إلى آخر بعمل إلّا بعد اتقان الدرس الأول ، وليس له إهماله ، فإنّه يؤدي إلى التأخر وعدم الاتقان .

ازدهار الحياة العلميّة

وأوجد الإسلام انقلاباً تامّاً على جميع المفاهيم السائدة في العصور الجاهليّة من الجهل والخرافات ، والانقياد وراء الأضاليل والأوهام ، فأوجد وعياً أصيلاً وتطوراً هائلاً في المجالات الفكرية والعلمية ، وقد وجّه جميع أجهزته لبلورة الفكر ، ونشر العلم ، والقضاء على جميع التقاليد الاجتماعية التي لا تحمل هدياً ولا وعياً .

وقد عمّت الثقافة الإسلامية جميع المناطق التي دخلها نور الإسلام ، فعن ابن حزم قال : « مات رسول الله ﷺ والإسلام قد انتشر وظهر في جميع الجزيرة العربية

من منقطع البحر المعروف ببحر (القلزم) ماراً إلى سواحل اليمن كلها، إلى بحر فارس إلى منقطعه، ماراً إلى الفرات، ثم على ضفة الفرات إلى منقطع الشام إلى بحر (القلزم)، وفي هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده إلا الله، كاليمن والبحرين وعمان ونجد، وجبلي طي وربة، وقضاة والطائف ومكة، وكلهم قد أسلموا، وبنوا المساجد، ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب إلا قد قرئ فيها القرآن في الصلوات، وعلمه الصبيان والرجال والنساء».

وأضاف يقول:

«ثم مات أبو بكر، وولي عمر ففتحت بلاد الفرس طولاً وعرضاً وفتحت الشام كلها، والجزيرة ومصر كلها، ولم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد، ونسخت فيه المصاحف، وقرأ الأئمة القرآن، وعلمه الصبيان في المكاتب شرقاً وغرباً»^(١).

وقد هيأت الامبراطورية الإسلامية العظمى جميع الفرص المتكافئة للتعليم حتى لم يكن هناك شيء أبذل من العلم، فقد فتحت المساجد والمعاهد ودور العلم والحكمة أبوابها أمام الجميع، وقدمت الدولة الإسلامية جميع ما يحتاج إليه الطلاب من النفقات لتمكينهم من التفريغ لطلب العلم^(٢).

ولم يقتصر الوعي الثقافي والعلمي - في العصور الإسلامية الأولى - على الأساتذة والطلاب وأصحاب المكتبات، وإنما كان عاماً بين المسلمين، فقد روى المؤرخون أن شاباً هاجر إلى بغداد لطلب العلم، وبعد أن نال بغيته من العلم أراد السفر إلى وطنه، فاستأجر دابة لتبلغه إلى أهله، وقبل أن يسافر سمع نقاشاً علمياً يدور بين اثنين من أصحاب الحوانيت القريبة منه، فأعجب بذلك، وتأثر منه، وطلب من صاحب الدابة أن يعيده إلى محل إقامته ببغداد، وقال له: إنّ بلدأ باعت بهذه المنزلة

(١) التربية في الإسلام: ٢٦٣ و ٢٦٤.

(٢) التربية الإسلامية: ٣ و ٤.

من العلم لا ينبغي أن يُرحل عنه .

وعكفوا على مطالعة الكتب ، وهاموا بها ، حتّى كانوا في أثناء مطالعتهم لا يستجيبون لمن دعاهم ، فقد أرسل أحد الخلفاء خادمه ليطلب له عالماً يسامره ، ويتحدّث معه ، فلمّا جاء الخادم وجده جالساً وحوله كتب كثيرة يقرأها فقال له :

- إنّ أمير المؤمنين يستدعيك .

- قل له : إنّ عندي قوماً من الحكماء أحادثهم ، فإذا فرغت منهم حضرت إليه .

فعاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك فقال له :

- ويحك ! من هؤلاء الحكماء الذين عنده ؟ !

- والله يا أمير المؤمنين ما عنده أحد .

- احضره الساعة كيف كان .

وانطلق الخادم فأحضره في الوقت فقال له الخليفة :

- من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟

- يا أمير المؤمنين :

هُمُ جُلَسَاءُ مَا نَمْلُ حَدِيثَهُمْ	أَمِينُونَ مَأْمُونُونَ غَنِيَاءُ وَمَشْهُدَا
إِذَا مَا خَلَوْنَا كَانَ خَيْرُ حَدِيثِهِمْ	مُعِينَا عَلَى نَفْيِ الْهَمومِ مُؤَبَّدَا
يُفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ مَا مَضَى	وَعَقْلًا وَتَأْدِيًا وَرَأْيًا وَسُودَا
فَلَارِيئَةٌ نَخْشَى وَلَا سَوْءَ عِشْرَةٍ	وَلَا نَتَّقِي مِنْهُمْ لِسَانًا وَلَا يَدَا
فَإِنْ قُلْتُ أَمْرَاتًا فَلَسْتُ بِكَاذِبٍ	وَإِنْ قُلْتُ أَحْيَاءَ فَلَسْتُ مُفْتَدَا

فعلم الخليفة أنّه يشير إلى الكتب فأعجبه ذلك ، ولم ينكر عليه تأخّره .

وبلغ من إقبالهم على العلم أنّهم كانوا ضنينين بكتبهم لا يبيعونها إلّا عند العسر

الشديد ، فقد حدث المؤرخون أنَّ الشريف المرتضى اشترى من أبي الحسن علي بن أحمد الفالي نسخة من الجمهرة لابن دريد ، فتصفّحها فوجد بها أبياتاً بخط بائعها وهي :

لَقَدْ طَالَ وَجْدِي بَعْدَهَا وَحَنِينِي	أَنْسَتْ بِهَا عِشْرِينَ حَوْلًا وَبِعْتُهَا
وَلَوْ خَلَدْتَنِي فِي السُّجُونِ دُبُونِي	وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنَّنِي سَأْبِيئُهَا
صِغَارٍ عَلَيْهِمْ تَسْتَهْلُ شُؤُونِي	وَلَكِنْ لِيَضْعَفٍ وَافْتِقَارٍ وَصِيبِي
مَقَالَةَ مَكْوِي الْقَوَادِ حَزِينِ	فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَابِقَ عِبْرَةٍ
كَرَائِمَ مِنْ رَبِّ بِهِنَّ ضَمِينِ	وَقَدْ تُخْرِجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكِ

فأرجع السيّد إليه النسخة ، وترك ثمنها ^(١) ، وكانوا يرون أنَّ مجالسة السوق مذمومة إلا عند باعة الكتب ، وفي ذلك يقول بعض شعرائهم :

مِنْهَا مَجَالِسٌ قَدْ تُحْتَسَبُ	مَجَالِسَةُ السُّوقِ مَذْمُومَةٌ
وَسُوقِ السِّلَاحِ وَسُوقِ الْكُتُبِ	فَلَا تُقَرِّبَنَّ غَيْرَ سُوقِ الْحَيَادِ
وَهَاتِيكَ أَلَّةَ أَهْلِ الْأَدَبِ	فَهَاتِيكَ أَلَّةَ أَهْلِ الْوَعْيِ

وعلى أي حال ، فإنَّ الحياة العلميّة قد ازدهرت في العصور الإسلاميّة ونشطت الحركات الفكرية ، وأخذت النوادي ودور الخلفاء والمحلات العامّة تعجّ بالمسائل العلميّة ، ومذاهب الكلام والفلسفة ، وغيرها من ألوان الثقافة العالية .

مراكز الثقافة الإسلاميّة

وكانت يثرب دار هجرة النبي ﷺ المركز العام للثقافة الإسلاميّة ، فمنها امتدّت

الحركة العلمية والثقافية إلى سائر أنحاء العالم العربي والإسلامي ، وكان جامع النبي ﷺ هو المعهد الأعلى الذي يتلقى فيه المسلمون شؤونهم الدينية والعلمية ، كما كان مركزاً لإدارة شؤون الدولة ، والنظر في قضاياها السياسية والعسكرية .. وقد اتخذ المسلمون هذا الجامع العظيم معهداً لهم في كثير من فترات تاريخهم ، فكان أئمة أهل البيت عليه السلام يلقون فيه محاضراتهم القيمة التي تناولت كثيراً من العلوم والمعارف ، وقد جعله الإمام الصادق عليه السلام مركزاً لجامعته الكبرى التي ضمت أربعة آلاف طالب ، وفيهم من أئمة المذاهب الإسلامية كأبي حنيفة ، ومالك ، وسفيان بن عيينة ..

وكذلك كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يلقي في بهوه دروسه العلمية ، وإلى جانب المسجد النبوي كان جامع قبا ، فقد كان منتدى للوفود ومركزاً للحلقات الدراسية ، وفيه فقه النبي ﷺ أصحابه ، وأرسلهم إلى مختلف أنحاء الجزيرة لينشروا دينهم العظيم ويدعوا الناس إلى فعل الخير والنهي عن المنكر.

لقد كانت الجوامع هي المعاهد العامة للتعليم ، وقد انتشرت في معظم المدن الإسلامية ، وكان من أهمها جامع الكوفة ، فقد التحق به كبار المتخرجين من مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ، وكان عددهم تسعمائة عالم كما حدثنا بذلك الحسن بن علي الوشّاء ، قال : « أدركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ ، كل يقول : حدثني جعفر بن محمد .. »^(١).

وأحصى المقدسي في المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة مجالس من مجالس العلم^(٢) ، وكان جامع المنصور ببغداد أشهر مركز للتعليم في المملكة الإسلامية ، وقد جلس فيه إبراهيم بن محمد المعروف بنفطويه خمسين

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر : ٨١/١.

(٢) المقدسي : ٢٠٥.

سنة يلقي فيه دروسه^(١).

وتعتبر أول مؤسسة علمية في الإسلام « دار القرآن » ، فقد أسست لتعليم القرآن الكريم ، وكان بعض القراء يسكنون فيها لأجل التعليم .

يقول المستشرق « دنيس » :

« ويظهر أنه قد وجدت منذ فجر الإسلام أمكنة كانوا يجتمعون فيها لاستظهار القرآن وتدارسه ، ولا شك في أن هذه المواضع كانت كالمدارس الأولية يتعلمون فيها مبادئ القراءة وأصول الكتابة العربية ، كما يحدثنا الواحدي ، ويذكر أن عبداً بن أم مكتوم كان يسكن دار القرآن بالمدينة »^(٢).

إن موضوع الدين لم يكن وحده موضع الدراسة في تلك الجوامع ، وإنما كان للندوات الأدبية والموضوعات اللغوية والشعرية نصيب كبير فيها^(٣) ، كما كان لسائر العلوم العقلية نصيب فيها كعلم الكلام والفلسفة وعلم الطب والنبات وغيرها .

ولما اتسعت الحركة العلمية في جميع أنحاء العالم الإسلامي أنشأت الحكومات الإسلامية المعاهد والمدارس في كثير من المناطق الإسلامية ، وقد اتخذ الشريف الرضي داراً أسماها « دار العلم » وفتحها لطلبة العلوم وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه^(٤) ، وكان كل جامع أو معهد علمي مزوداً بمكتبة كبيرة تضم جميع أنواع العلوم ، وكانت عادة العلماء أنهم يوقفون كتبهم على الجوامع^(٥) ، وعمل القاضي ابن حبان

(١) الإرشاد / ياقوت : ٣٠٨/١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : ٤٠١/٣ .

(٣) تعليم الكبار والتربية الأساسية : ١٢ .

(٤) دبران الشريف الرضي : ٣ .

(٥) وفيات الأعيان : ٥٥/١ .

في مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانة كتب ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الأرزاق^(١).

هذه بعض معاهد التعليم ، ومراكز الثقافة في الإسلام - تحدثنا عنها بإيجاز - وقد عملت على إشاعة العلوم ، وبلورة الفكر ، وتقدم الإنسان المسلم .

الهجرة لطلب العلم

ودعا الإسلام إلى الهجرة والنفر لطلب العلم .

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾^(٢) .

وقد استجاب المسلمون في جميع عصورهم إلى هذه الدعوة الأصيلة ، فقد نزحت طوائف كبيرة من مختلف الأقاليم الإسلامية عن أوطانها إلى معاهد التعليم ، وقضوا شطراً كبيراً من حياتهم في طلب العلم صابرين على ألم الغربة وعناء السفر لا لشيء إلا لذات العلم والتقرب به إلى الله ، ولما فتح الإمام جعفر الصادق عليه السلام جامعته الكبرى أسرع إلى الانتماء إليها جميع رواد العلم والفضيلة من شتى الأقطار الإسلامية .

يقول الأستاذ السيّد عبدالعزيز الأهل : « وأرسلت الكوفة والبصرة وواسط والحجاز إلى جعفر بن محمد أفلاذ أكباده من كل قبيلة من بني أسد ، ومن غني ، ومخارق ، وطيء ، وسليم ، وغطفان ، وغفار ، والأزد ، وخزاعة ، وختعم ، ومخزوم ، وبني ضبة ، ومن قريش ، ولا سيما بني الحارث بن عبدالمطلب ، وبني الحسن بن علي .. ورحل إليه جمهور من الأحرار ، وأبناء الموالى من أعيان هذه الأمة من

(١) الحضارة الإسلامية : ٣١١/١ .

(٢) التوبة ٩ : ١٢٢ .

العرب ، وفارس ، ولا سيّما مدينة قم .. » .

لقد اشتركت البلاد الإسلاميّة في إرسال أفلاذ أكبادها إلى جامعة الإمام للانتهال من نمير علومه ، وأخذ أحكام الدين من سبط النبيّ العظيم ..
وقد حقّق المجتمع الإسلامي نهضة علميّة امتدّت موجاتها المشرقة إلى سائر العصور .

إنّ أفذاذ المسلمين قد هبّوا إلى طلب العلم غير حافلين بما يعانونه من جهد السفر وعناثه .

يقول ابن إسحاق : « سمعت مكحولاً يقول : طفت الأرض في طلب العلم » .
وقال مكحول : « أعتقت بمصر فلم أراع بها علماً إلّا حويته ، ثمّ أتيت الشام فغربلتها » .

وقال سعيد بن المسيّب : « كنت أسير الليليّ والأيام في طلب الحديث الواحد » ^(١) .

وجاء في ترجمة النسائي أنّه سمع الحديث بخراسان والعراق والحجاز ومصر والشام والجزيرة ، وأراد أبو الطيّب الطبري الهجرة لأخذ الحديث والعلم من محمّد بن أيّوب الرازي فمنعه أهله ، فلمّا وافاه النّبأ بموته صرخ ومزّق قميصه ، ووضع التراب على رأسه فقال له أهله :
ما خبرك ؟

= نعي إليّ محمّد بن أيّوب ، ومنعتموني من الارتحال إليه .
فأخذ أهله في تسلّيته ، وأذن له أهله في الهجرة لطلب العلم ^(٢) .

(١) جامع بيان العلم : ٩٤/١ .

(٢) تذكرة الحفاظ : ١٥١/٣ .

وقال عبد الله بن المبارك: «دوّخت العلماء، وعاينت الرجال بالشامات والعراقين والحجاز، فلم أجد الأدب إلّا مع ثلاثة: ابن عون، غريزته الأدب، وعبد العزيز بن رواد متكلف الأدب، ووهب المكي كأنه ولد مع أدب»^(١).

فقال أقوم وأطلب العلم^(٢)، وهذه الروح العالية إنّما هي نفحة من نفحات الإسلام، وقبس من نوره وهديه.

إنّ هذه البوادر قد دلّت على مدى إقبال المسلمين في تلك العصور على طلب العلم.. ومما ساعد على الهجرة لطلب العلم وجود مملكة إسلامية متّسعة الأطراف، وتوحد اللغة الرسميّة - وهي العربيّة - وعدم وجود لغة أجنبيّة ولا وجود كتب أجنبيّة، كلّ ذلك كان من المحفّزات لطلب العلم ونشره.

الاختصاص بالعلوم

والشيء الذي هو جدير بالاهتمام هو أنّ المسلمين - في عصورهم الأولى - قد تسابقوا إلى الاختصاص بالعلوم العقليّة والنقليّة، وقد نبغت فيهم طائفة كبيرة، منهم هشام بن الحكم، وهشام بن سالم، ومؤمن الطاق، ومحمّد بن عبد الله الطيّار، وقيس الماصر، فقد تخصّص هؤلاء الأعلام - الذين هم من خيرة ما أنتجته جامعة الإمام الصادق عليه السلام - في علم الفلسفة، ومباحث الكلام، وتخصّص في علم الفقه وأصوله: زرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، وجميل بن درّاج، ويزيد بن معاوية، وإسحاق بن عمّار، وعبيد الله الحلبي، وأبو بصير، وأبان بن تغلب، والفضل بن يسار، وأبو حنيفة، ومالك بن أنس، ومحمّد بن الحسن الشيباني، وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد، وسفيان الثوري، وتخصّص في حكمة الوجود وأسرار

(١) أدب الإملاء: ٢.

(٢) تاريخ التربية الإسلامية: ٧٤.

الخلقة: المفضل بن عمر، وتخصّص في علم الكيمياء: جابر بن حيّان الكوفي، وهو أشهر كيميائي في العالم العربي - كما قال فاندريك^(١)، وقد اخترع جابر أموراً مذهلة ذكرها المعنيون بترجمته، فقد ذكروا أنه أوجد قرطاساً لا يحترق، وقرطاساً يضيء في الليل، أملى فيهما أحاديث أستاذه الإمام العظيم جعفر الصادق عليه السلام.

يقول عبدالرحمن بدوي:

« لن يستطع الباحث في تاريخ الفكر الإسلامي أن يجد شخصية أغرب وأخصب من شخصية جابر بن حيّان، فهي شخصية أمّعت في الغموض، واكتنفها السرّ حتى كادت أن تكون أسطورة، وتسامت في التفكير حتى ليقف المرء اليوم ذاهلاً أمام ما تقدّمه من نظرات علمية فلسفية كلّها عمق، وكلّها حياة، وأمام هذه الروح العامّة التي تسودها روح التنوير والنزعة الإنسانية التي تصبو إلى اكتناه كلّ الأسرار... ».

وأضاف يقول:

« لن يستطيع البحث العلمي والفيزيولوجي والحضاري أن يفرغ منها تماماً، مهما أنفق من جهد في هذا السبيل، بل ستمضي في البعد كلّما توغل في الطريق إليها، وسيزداد مقدارها كلّما تلمس المرء نواحيها، ونحن اليوم أبعد ما نكون عن إدراكها إجمالاً فضلاً عن الإحاطة بخطوطها الرئيسية وتياراتها التوجيهية... »^(٢).

وعلى أي حال، فإنّ الإسلام قد سبق المعاهد الحديثة في تأسيس الاختصاص بالدراسات العلمية.

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: ٨٣/١.

(٢) الإلهاد في الإسلام: ١٨٩.

حرية الدراسة

ويتمتع طالب العلم الديني وغيره - في الإسلام - بحرية تامة في اختيار المواد التي يرغب في دراستها ، فلم تفرض عليه قيود خاصة بالنسبة إلى سنّه ، أو شروط أخرى تحدّد صلاحيّته لاتباع نوع خاصّ من أنواع العلوم . فإنّ الأساس الوحيد الذي يدفعه لطلب العلم إنّما هو الرغبة لطلب العلم لوجه الله وابتغاء الدار الآخرة .

ومن خصائص الدراسة الدينيّة في جامعة النجف الأشرف وقم المقدّسة وغيرها منح الطالب الحرية الكاملة في مناقشته لأستاذه ، ويعتبر انطلاقه في ذلك دليلاً على تفوّقه وفهمه .

التدوين والتأليف

والشيء المحقّق أنّ الإسلام منذ فجر تاريخه قد تبنّى الدعوة إلى تدوين العلوم ، ونقلها لما في ذلك من أثر مهمّ في تطوير الحياة العلميّة والثقافيّة ، فقد روي عن النبي ﷺ أنّه قال : « قَيِّدُوا الْعِلْمَ » .

فانبرت إليه طائفة من أصحابه فقالوا له :

ما تقييده ؟

« كِتَابَتُهُ »^(١) .

وحدّث الرواة أنّ رجلاً من الأنصار كان يجلس إلى النبي ﷺ فيسمع منه الحديث فيعجبه ، ولكنه لا يحفظه ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال له :

« اسْتَعِنْ بِيَمِينِكَ » ، وأوماً بيده - أي خطّ بها -^(٢) ، وحثّ الإمام الصادق عليه السلام طلابه

(١) بحار الأنوار : ١/ ١٠٨ .

(٢) سنن الترمذي : ١/ ١٣٤ .

على تدوين دروسه ومحاضراته التي خاض بها أغلب العلوم والفنون ، وقد أكد ذلك في غير موطن ، فقد روى أبو بصير ، قال : « دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقال لي : ما يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْكِتَابَةِ ، إِنَّكُمْ لَنْ تَحْفَظُوا حَتَّى تَكْتُبُوا ، إِنَّهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِي رَهْطٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَشْيَاءَ كَتَبُوهَا » .

وروى أبو بصير ، قال : « سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : اَكْتُبُوا فَإِنَّكُمْ لَا تَحْفَظُونَ حَتَّى تَكْتُبُوا... »^(١) .

واستجاب طلابه إلى هذه الدعوة النيرة التي تحمل في أعماقها إشاعة العلم وبسطه بين الناس ، فتسابقوا إلى تدوين العلوم ، فقد ألف أبان بن تغلب من أعلام تلاميذه ما يلي :

١ - كتاب معاني القرآن .

٢ - كتاب القراءات .

٣ - كتاب الفضائل .

٤ - كتاب الأصول في الرواية .

٥ - غريب القرآن^(٢) .

وألّف محمّد بن عليّ الكوفي الشهير بمؤمن الطاق ما يلي :

١ - كتاب الإمامة .

٢ - كتاب المعرفة .

٣ - كتاب إثبات الوصيّة .

(١) وسائل الشيعة : ٣٢١/٢٧ ، كتاب الشهادات - الباب الثامن .

(٢) فهرست ابن النديم : ٣٠٨ .

٤ - كتاب الردّ على المعتزلة في إمامة المفضول .

٥ - كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة .

٦ - كتاب افعل ولا تفعل .

٧ - المناظرة مع أبي حنيفة^(١) .

وألف المفضّل بن عمر كتاب « التوحيد » ، وهو من أجل الكتب الإسلاميّة ، بحث فيه عن خلق الإنسان وتكوينه ، وما في أعضائه وأجزائه من الأسرار والغرائب ، كما عرض إلى كثير من البحوث الطبيّة^(٢) .

وألف هشام بن الحكم ، وهو من أجل تلاميذ الإمام سبعة عشر مؤلفاً تناولت مختلف العلوم والفنون .

وألف جابر بن حيّان كتاباً في علم الكيمياء يقع في ألف ورقة تضمّنت رسائل الإمام التي بلغت خمسمائة رسالة^(٣) ، وكانت هذه الرسائل مصدراً خصباً لعلم الكيمياء ، وقد أثنى على جابر جميع رجال العلم والفكر من المسلمين والمستشرقين ؛ لأنه جهّز المجتمع الإسلامي بأصخم ثروة علميّة تلقّاها من أستاذه الإمام رائد الحركة الفكرية والعلمية في الإسلام ، وهناك كوكبة كبيرة من نوابغ تلاميذه قد ألفوا في مختلف العلوم والفنون ، كزرارة ، وأبي بصير وإسماعيل بن أبي خالد وغيرهم ، وقد ترجم فقيه الإسلام الكبير الشيخ آغا بزرك نصر الله مئواه مائتي رجل من مصنّفي تلامذة الإمام^(٤) .

وبلغ من اهتمام العلماء بالتدوين والتأليف أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

(١) فهرست الشيخ الطوسي : ١٢١ .

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : ٨٥/١ .

(٣) الأعلام / الزركلي : ١٨٦/١ . مرآة الجنان : ٣٠٤/١ .

(٤) الذريعة : ٣٠١/٦ - ٣٧٤ .

قد احتفّ به العلماء والرواة ، وكان في أكمّامهم ألواح أبّوس وأمّيال ، فإذا نطق بكلمة أو أفْتى بِنازلة بادروا إلى تسجيلها^(١) ، وقد انتشرت بذلك الحركة العلميّة في جميع الحواضر الإسلاميّة ، وأصبح التراث الإسلامي تتناقله العلماء جيلاً بعد جيل .

أقول نجم التعليم

وخبا ضوء التعليم ، وأفل نجمه في العالم الإسلامي حينما احتلّ الطاغية هولاءكو التتار بغداد عاصمة الخلافة الإسلاميّة عام (٧٦٥) ، فقد جلب هذا الاحتلال آلاماً فظيعة للشعوب الإسلاميّة يفوق ما جلبته أي كارثة في تاريخ العالم كلّ .

وبعد أن مرّق الغرب الدولة الإسلاميّة إلى عدّة دويلات بدأت الحياة العلميّة والفكريّة تضمحلّ تدريجياً حتّى تلاشت ، وساد الجمود العقلي ، والركود الذهني جميع أنحاء الحواضر الإسلاميّة .. وأقبل الغرب يخطّط سياسته الرهيبة التي لا تنتج تفتحاً ذهنياً ، ولا انطلاقاً فكرياً ، وإنّما تهدف إلى إمّاة الوعي والخلود إلى الدعة والجهل .

يقول بعض المعنّيين في شؤون التربية العربيّة :

« كانت المدرسة في أوائل القرن العشرين جامدة تحتوي طلاباً قد جهلوا ما حولهم ، وجهلوا أنفسهم ، قد صبّوا في قالب واحد ، تكويناً وثقيفاً وانتاجاً .. وكان هذا نتيجة التحكّم من الخارج في العلم ، فلا غرو أن وصل بنا التعليم إلى ما وصلنا إليه من انهيار هدّد كلّ نواحي حياتنا .. وما ذلك إلّا لأنّ المتحكّم في التعليم كان نفراً خارجاً عن بناء الوطن ، وكان هدفه خلق جيل يخلد للدعة والاطمئنان ، ويقنع بالقليل ، لا حرّية له في الرأي ، ولا قدرة له على مغالبة الحياة وحلّ مشاكلها ، وما كان

التعليم لبحث هذه النواحي أو يمسه من قريب أو بعيد ..»^(١).

وفي هذا العصر بدأت البقطة الفكرية تدب في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وأخذ المسلمون ينفضون عنهم غبار الجهل والتأخر ، وينطلقون إلى مسامرة الأمم المتطورة التي سايرت مواكب الحياة والنور.. فعلى الحكومات القائمة في بلادهم أن تستغل هذه الظاهرة ، وأن تقوم قبل كل شيء بتوفير الخبرات التعليمية في المدارس والمعاهد ، وأن تنمي في نفوس الشباب روح المعنوية والاعتماد على النفس ، وحب النظام ، والاهتمام بشؤون الوطن ، والذود عن حمايته واستقلاله .. وأن تقوي فيهم روح الكراهية والعداء للاستعمار والصهيونية ، وتدلل على مواقع خطرهما وكيدهما للعالم العربي والإسلامي ، فإن ذلك من أهم المسؤوليات الاجتماعية التي يجب أن تعنى بها الحكومات القائمة في بلاد المسلمين .

إن المجتمع الإسلامي قد عانى من الاستعمار وعملائه جميع ألوان الكوارث والخطوب ، فأوجد فيه أسباب الفرقة والعداء ، وبث فيه روح الاستهتار والأنانية والسلبية ، وسعى بكل الوسائل إلى حجب عن تراث دينه العظيم ، وحرمانه من النظر فيما ينشده لهم من العزة والكرامة .. فيجب أن ينشأ التعليم على معاداة الاستعمار وكراهيته ، والتخلص من جميع أنظمتة التربوية التي تعرقل مسيرتنا نحو التقدم والازدهار ، واستثمار مواردنا الاقتصادية .. كما يجب إبراز ما في الإسلام من طاقات عظيمة ، سواء في المجالات التربوية أو السياسية أو الاجتماعية ، وغيرها مما عالجت به جميع حقول الحياة وشؤونها ، فإن جعل ذلك من برامج التعليم من أفضل الطرق لنهضة المسلمين ورفيهم ..

ونكتفي بهذا العرض الموجز من حديثنا عن التخطيط الثقافي في التربية الإسلامية .

التربية
الفكرية والنفسية
في الإسلام



واتخذ الإسلام ضمير الإنسان وقواه النفسية والعقلية القاعدة الأولى في بناء كيانه التربوي ، فأرصد لها الطاقات الكبيرة من الإصلاح ، إصلاحاً للغرائز ، وتنمية للملكات الشريفة ، وتخذيراً للنزعات الشريرة ، حتى يكون الإنسان بحكم مكتسباته التربوية خليفة الله في أرضه ، مقيماً للحق ، آمراً بالعدل ، منطلقاً وراء الخير .

لقد ركّز الإسلام اهتمامه بالاطار النفسي ليجعله بمنجاة من الانحلال والانهيار والضعف ، ومشبعاً بروح الإيمان ، وقوة الإرادة ، وقوة العزم والتصميم .. وقد حقّق الإسلام هذه التربية الرائعة على مسرح الحياة - منذ فجر تاريخه - فأوجد شيوخنا يتسابقون إلى ساحات الحروب ، ويعانقون السيوف والرماح في سبيل الذبّ عن مبادئ دينهم العظيم ، كما أوجد شباباً مسلّحاً بقوى العقيدة والنضال متفانين في سبيل الحقّ حتى بلغ من عظيم إيمانهم أنّهم هجروا آبائهم واخوانهم لتخلّفهم عن غزوة تبوك ولم يقربوا منهم حتى سمح لهم النبي ﷺ بمواصلتهم .

لقد فاضت التربية الإسلامية بطاقات روحية هائلة في قلوب المسلمين - في صدرهم الأول - حتى امتلكت مشاعرهم وعواطفهم ، وصاروا جميعاً بمنزلة جسد واحد تربطهم العاطفة الدينية ، وتوحّد كلمتهم واتّجاههم قوة الإيمان التي ثبت أنّها أقوى بكثير من أي رابطة أخرى .

ونعرض - بإيجاز - إلى بعض ما أثر عن الإسلام في الميادين التربوية ، سواء في المجالات الفكرية أو النفسية .

التربية الفكرية

وتسعى التربية الإسلامية بجميع أجهزتها وطاقاتها إلى تنمية الفكر الإنساني وانطلاقه ، وتحريره من ريقه الجهل والتقليد ، وتنويره بالعبر والأحداث ، وبعثه على التأمل في دقة الكون وأنظمته ليخلص بذلك إلى الإيمان بالله خالق الكون وواهب الحياة .. إيمان عن تدبر ، واعتقاد عن حجة ، ويقين عن دليل ، لتشرق بذلك في عوالم النفس أضواء العقيدة الواعية التي تدفع الإنسان إلى التسابق في ميادين البرِّ ومجالات الخير .

لقد عني الإسلام أي عناية بالعقل ، فدعا إلى انطلاقه وتفتح آفاقه ، وألزم باستخدامه واللجوء إلى حكمه .. وقد تضافرت الأخبار التي أثرت عن أئمة الهدى عليهم السلام بأنه الحجة الباطنية ، وأنه ممّا يعبد به الرحمن ، ويكتسب به الجنان ، وأنّ الحكم المستكشف به إنّما هو حكم بلّغه الرسول الباطني .

وعند الشيعة الإمامية أنّ حكمه من الأدلة الأربعة التي يستنبط منها الفقيه الحكم الشرعي ، كما أنّ المرجع الأعلى للأخبار المتعارضة فما وافق حكمه فهو حقّ ، وما شذّ عنه فهو زخرف .

ونعى القرآن الكريم على الذين يهملون مواهبهم العقلية .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ^(٢) .

وجعل تعالى السبب في عذاب الكفار إنّما هو حجبهم لعقولهم عن النظر والتأمل

(١) الأنفال ٨ : ٢٢ .

(٢) الفرقان ٢٥ : ٤٤ .

فيما أمر الله .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

لقد أشاد الإسلام بالعقل لأنه الركيزة الأولى للإيمان واكتساب الجنان ، ونعرض إلى بعض ألوان التربية الفكرية التي أثرت عن الإسلام :

التأمل في نظام الكون

أن التدبر الصادق والنظرات العميقة في ظواهر هذا الكون وأسراره مما يملأ القلب إشراقاً وإيماناً بالله ، وقد حث الإسلام على هذه الظاهرة .

قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٢) .

إن استعراض بدائع هذا الكون والتأمل في عجائبه مما يحكم صلة الإنسان بربه ، ويستشّف منه دقائق الحكمة والعظمة والابداع في هذا الخلق ، والإسلام يدعو إلى تنبيه الفكر وتوجيهه إلى النظر في هذه الآيات .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) .

إن الإمعان في خلق السموات والأرض ، والتأمل في اختلاف الليل والنهار ،

(١) الملك ٦٧ : ١٠ .

(٢) ق ٥٠ : ٦ - ٨ .

(٣) آل عمران ٣ : ١٩٠ و ١٩١ .

كُلُّ ذلك ممَّا يملأ النفس إيماناً ووثوقاً بالله ، ولكن لا يفكر بذلك إلا أولو الأبواب الذين يستخدمون قواهم العقلية الواعية إلى التفكير الجاد في عجائب مخلوقات الله فهم عن إيمان ووعي يذكرون الله قياماً وقعوداً ، ويقولون بنبرات اليقين والرجاء :

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

إن التدبر في ملكوت الله هو المنهج الكامل للتربية الفكرية ، فإنه يطهر النفس من كل زيف ، وينفي عنها الريب والشكوك ، ويدفعها إلى حظيرة الإيمان والعقيدة بالله ..

إن الإنسان لو أمعن في الأنظمة الرائعة والدقة المذهلة التي بني عليها هذا الكون لآمن بالله إيماناً لا يخامرهُ أدنى شك ، فإنه من المستحيل أن تكون وليدة المصادفة التي ثبت في لغة العلم أنها من أسخف الأفكار .

يقول «لابلاس» :

«إن النظام المحير للعقول ، المشاهد في حركات الأجرام التي تتألف منها المجموعة الشمسية لا يمكن أن يحمل على التصادف ، بل التصادف كلمة لا يصح النطق بها في لغة العلم .. إن التصادف معدوم ومحال في هذا العالم الذي نرى فيه كل شيء خاضعاً لقوانين الموازنة ، وقوانين الحساب التي عينتها إرادة غيبية ، وحكمة بالغة ، وما الشيء الذي ندعوه بالتصادف إلا محصل القوى الغيبية التي لا نعلم عن صورة تأثيرها شيئاً ، بل لا نعلم عن وجودها شيئاً في حين أنها تحفل حولنا .. وبناءً عليه ليس من الممكن حمل هذا النظام الذي نراه في المجموعة الشمسية على التصادف ولا بد من الاعتراف بوجود مسبب أصلي عام منظم لهذا النظام»^(١) .

ويقول «أكريسي موريسون» :

«إنَّ وجود الخالق تدلّ عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة ، وأنَّ وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون»^(١).

إنَّ الإسلام يدفع الطاقات العقلية إلى التفكير والامعان في أسرار هذا الكون ليخلص الإنسان بذلك إلى الإيمان بالله ، فيقيم حياته على أساس من التوازن في سلوكه مع نفسه ومع غيره .

التأمل في خلق الإنسان

وحثَّ الإسلام على التدبّر في خلق الإنسان ، وكيفية تكوينه .

قال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾^(٢).

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾^(٣).

إنَّ معرفة الإنسان لنفسه ، والنظر بما تنطوي عليه ذاته من العوالم والأسرار ممّا تدعو إلى حتمية الإيمان بالله .

(١) العلم يدعو للإيمان / كريسي موريسون: ٤٣ و ٤٤ .

(٢) الطارق ٨٦ : ٥ - ١٠ .

(٣) الحجّ ٢٢ : ٥ .

يقول الأستاذ عفيف عبدالفتاح: «أما الدلائل على وجود الله في الأنفس فهي أكثر من أن تحصى، وكلما اتسع نطاق العلم تظافرت الأدلة على أن لهذا الإنسان البديع الصنع إلهاً حكيماً، أي ناحية من نواحي الإنسان ليست مثار دهشة وعجب؟ أليست أطواره في الرحم آية من آيات الله؟!

أليس نظام طعامه وشرابه، وتحليل الطعام إلى عناصر مختلفة بموازن يذهب كل عنصر إلى حيث يؤدى وظيفته عدا العنصر الذي لا يفيد، فيطرد إلى الخارج؟! أليس هذا كله آية من آياته؟

أليس نظام توزيع الدم من مكانه الرئيسي وهو القلب إلى جميع أنحاء الجسم بواسطة الشرايين التي لا يحصى عددها إلا الله، ثم عودته إلى القلب بواسطة الدورة الدموية، ومرور الهواء الذي جلبه التنفس ليصلح الدم بعد الفساد، ويفيد منه الجسم؟

أليس ذلك آية من آياته؟

دع سمع الإنسان وبصره ونطقه وإحساسه، بل دع ما يعرض له من ذكر ونسيان، وحزن وسرور، وعلم وجهل، فإنها آيات كبرى على وجود الخالق...»^(١).

إن الأجهزة الدقيقة في جسم الإنسان التي لم يصل العلم الحديث بما يملك من وسائل الأجهزة والمعدات والمختبرات إلى معرفة الشيء اليسير منها كل ذلك يدل على عظمة الصانع وقدرته.

التأمل في الكائنات الحيّة

ويحثّ الإسلام على الامعان في الكائنات الحيّة، كالنباتات، فقد وهب تعالى

كلّ نبات من الخصائص ما لم يهبه لغيره ، وأعدّه إعداداً مرتّباً يأخذ من الأرض ما ينمو فيه خاصّته ، ويؤهّله للغاية التي خلّق من أجلها .

قال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

ولو أمعن الإنسان في خلق الحيوانات وأنواعها ، وعجائب صنعها لقاده ذلك إلى الإيمان بالله .

يقول « نيوتن » :

« كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ، ولأيّ المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟

هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه ،

(١) عبس ٨٠ : ٢٤ - ٣٢ .

(٢) يس ٣٦ : ٣٣ - ٣٥ .

(٣) النحل ١٦ : ١٠ و ١١ .

والأذن بدون إمام بقوانين الصوت ؟

كيف أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام
الفطري في نفوس الحيوانات ؟

إن هذه الكائنات كلها في قيامها على أبداع الأشكال وأكملها ، تدل على
وجود إله منزّه عن الجسمانيّة ، حيّ حكيم ، موجود في كلّ مكان يرى
حقيقة كلّ شيء ويدركه ^(١).

لقد دعا القرآن الكريم إلى الإمعان في خلق الحيوانات ، والنظر في بديع صنعتها .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٢).

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ^(٣).

وخلق تعالى الحيوانات من أجل صالح الإنسان ، وسخرها له لينتفع بها .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ
وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ^(٤).

وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاءًا وَمَتَاعًا

(١) الإنسان ليس وحيداً : ١٢٠ .

(٢) النحل ١٦ : ٧٩ .

(٣) الغاشية ٨٨ : ١٧ .

(٤) النحل ١٦ : ٦٨ و ٦٩ .

إِلَى حِينٍ ﴿١﴾.

إنَّ التفكير في مخلوقات الله يبعث على الإيمان ، ويصقل النفس من الأوهام والشكوك ، وهو من أفضل الطاعات .

ففي الحديث : « تَفَكُّيرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً » (٢) .

التدبّر في أحوال الأمم

ومما يدعو إلى إيقاظ العقل ، وتنمية إدراكاته التدبّر في أحوال الأمم والشعوب ، والنظر في تاريخهم وشؤونهم ، فهناك طائفة من الأمم سلكت الطريق النير ، وابتعدت عن جميع ألوان الشذوذ والانحراف ، وقد ظفرت بالحياة الكريمة التي تسودها الدعة والأمن والاستقرار ، وهناك طائفة من الأمم انحرفت عن الطريق القويم ، وشذّت عن طريق الحقّ والعدل ، فتدمّرت وهلكت وخبا ذكرها وأفل نجمها .

ومن الطبيعي أنّ في ذلك درساً وعظة وعبرة لكلّ إنسان يملك وعيه واختياره فيجتنب عوامل التدمير والسقوط ويسير في حياته بسيرة تتسم بالتوازن ، وعدم الانحراف .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ . فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَخْوَالَهُمْ ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ . »

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالِهِمْ - أي من السعادة والشفاء - ، فَالزَّمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتْ

(١) النحل ١٦ : ٨٠ .

(٢) بحار الأنوار : ٢٩٣ / ٦٩ .

الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنُهُمْ، وَزَاوَتْ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَاقِبَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النُّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلُهُمْ مِنَ الْأَجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْأَلْفَةِ، وَالتَّحَاضُّ عَلَيْهِمَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا، وَاجْتَنَبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُتْنَهُمْ؛ مِنْ تَضَاعُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي.

وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْجِيسِ وَالْبَلَاءِ. أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالًا. اتَّخَذَتْهُمْ الْفَرَاغَةُ عَيْدًا فَسَامَوْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمْ الْمَرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الْغَلْبَةِ، لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ، وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعٍ. حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالِاخْتِمَالِ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ الْبَلَاءِ فَرْجًا، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكًا حُكَّامًا، وَأَيَّامَةً أَعْلَامًا، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ»^(١).

ويستمر الإمام عليه السلام في إعطاء صورة حيّة للأُمم الناهضة التي سائرت موكب الحق والعدل، وحققت أهم ما تصبو إليه من العزة والكرامة، والشرف والمنعة.. أما القرآن الكريم فقد حفل بالدعوات المتكررة إلى النظر في عاقبة المتقين الذين استخلفهم في الأرض، ومكّن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم، كما حفل القرآن بالامعان في عواقب الطغاة والمكذّبين الذين حادوا عن طريق الحق فجعل نصرهم هباءً، وذكرهم جفاءً، ونعرض - بإيجاز - إلى ذلك.

عاقبة المتقين

أعلن كتاب الله العظيم أنّ العاقبة الكريمة للمتقين والصالحين من عباده.

قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

وقد منح تعالى المتقين من عباده هذه المنزلة الكريمة في الدنيا ، كما منّ عليهم فجعل ذكرهم خالداً وحياتهم قدوة ، وفي الدار الآخرة بؤءهم الفردوس والنعيم الدائم .

عاقبة الطغاة

وقضى الله وأعطى عهداً على نفسه بتحطيم الطغاة والمتجبرين الذين لا يؤمنون بحق المجتمع ، ولا يحفلون بأرواح الناس وأموالهم وكرامتهم ، وقد حكى تعالى في غير موضع من كتابه الكريم قصة فرعون حينما طغى وتجبر فأخذه أخذ عزيز ذي انتقام .

قال تعالى : ﴿إِن فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذِيعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُفَصِّلَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٢).

لقد كانت نهاية فرعون الخزي والعذاب ؛ لأنه كفر بأنعم الله ، وحاد عن الطريق القويم ، وتجبر وعلا في الأرض .

ودعا القرآن الكريم إلى المسير في الأرض للنظر في أحوال الذين ظلموا أو

(١) النور ٢٤ : ٥٥ .

(٢) القصص ٢٨ : ٤ - ٦ .

استبدّوا كيف أخذهم تعالى بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من وافي .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ولعن تعالى الظالمين وأعدّ لهم في دار الآخرة العذاب الأليم .

قال تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ (٣) .

إنّ الله تعالى حكم بالانتقام من الظالمين في جميع مراحل تاريخ هذا الإنسان ، وأنّ الظالمين إذا حلّت بهم نقمة الله وعذابه فلا ينقذهم ، ولا ينجهم ما يتمتعون به من القوى العسكرية والاقتصادية ، وأنّه تعالى يجعلها هباءً لا تغني عنهم شيئاً .

وفي حكاية القرآن الكريم للتدبّر بأحوال الظالمين ، وما نزل بهم من العذاب والهوان ، إنّما هو درس وموعظة للإنسان في أن يقلع عن نفسه الصفات الشريرة

(١) غافر ٤٠ : ٢١ .

(٢) يونس ١٠ : ١٣ و ١٤ .

(٣) هود ١١ : ١٨ - ٢٠ .

من الاعتداء على الناس والاستهانة بهم .

تحرير الفكر من التقليد

ودعا الإسلام إلى تحرير العقل وانطلاقه من رقة التقليد الذي لا ينبعث إلا من الجهل والتعصب ، وقد نعى القرآن على المقلّدين الذين يقولون :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾ ^(١) .

وندد بالذين : ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ^(٢) .

ونقّر الشعوب من تقليد الرؤساء والقادة الذين لا يتبعون الهدى ، وجعل الجميع يتساوون في العذاب الأليم .

قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ ^(٣) .

إنّ الإسلام يناهض جميع الاتجاهات التي لم تقم على الدليل والبرهان ، وإنّما قامت على مجرّد التقليد الذي لا يمتّ إلى الواقع بصلة ، وفي ذلك دعوة إلى تحرير الأفكار وتهذيب النفوس من رقة التقليد .

التثبّت في الأمور

من مناهج التربية الفكرية في الإسلام التثبّت في الأمور ، وعدم الإسراع بالحكم

(١) الزخرف ٤٣ : ٢٢ .

(٢) البقرة ٢ : ١٧٠ .

(٣) البقرة ٢ : ١٦٦ .

فيها ، إلا بعد العلم والوقوف عليها .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ^(١) .

ومن هنا حرّم التعويل على الظنّ ، والأخذ به .

قال تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ^(٢) .
وندد بالذين يعتمدون على الظنّ .

قال تعالى : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ^(٣) .

إنّ الظنّ الذي لا يستند إلى دليل يؤدّي بصاحبه إلى الوهم الباطل ، ويوقعه كثيراً في المحاذر والمهالك ، وقد اعتمد عليه الدهريّون فأنكروا الله ، وأنكروا البعث والنشور :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ^(٤) .

ولم ينجرّف الدهريّون إلى هذه المجاهل السحيقة إلا لتعويلهم على الظن والأخذ به في مجالاتهم العقائديّة .

ومما عنى به الإسلام عدم الأخذ بأخبار الفاسق خشية الوقوع في الفتنة والجهالة .

(١) الإسراء : ١٧ : ٣٦ .

(٢) يونس : ١٠ : ٣٦ .

(٣) يونس : ١٠ : ٦٦ .

(٤) الجاثية : ٤٥ : ٢٤ .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١).

إنّ الثبّت في الأمور والتروّي فيها من العناصر الأساسيّة التي يعنى بها الإسلام في مجالاته التربويّة .

الأخذ بالأحسن

وحثّ الإسلام على عدم الجمود على رأي محدود ، وأنّ اللازم الأخذ بأحسن الآراء ؛ لأنّ في ذلك إخلاصاً للحقّ ، وتهذيباً للفكر .

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢).

لقد أمر الله تعالى المسلمين أن يستعرضوا كلّ مذهب ، وأن لا يحملهم التعصّب للرأي على أن يرفضوا أي رأي دون تفهّم وفحص ، وأن يأخذوا من بينها بما هو أحسن ، ووصف تعالى الذين يفعلون ذلك بأنّهم المهتدون ومن أهل العقول الراجحة والبصائر النيرة .

وهكذا نرى الإسلام قرّر لأهله من الأصول ما توصّلت إليه أرقى الفلسفات (٣).

التربية النفسيّة

وتحقّق التربية الإسلاميّة في المجالات النفسيّة قوّة كافية في دخائر النفس

(١) الحجرات ٤٩: ٦.

(٢) الزمر ٣٩: ١٨.

(٣) روح الدين الإسلامي: ٢٩.

تصدّها عن جميع ألوان الشذوذ والانحراف ، وتنمّي فيها النزعات الخيّرة ، والعادات الطيّبة ، وتوجد فيها تماسكاً ، وصموداً أمام الأحداث ، وتحدث فيها توازناً يشمل جميع آفاق النفس ، حتّى يتحقّق للإنسان كيان فريد في سلوكه واتّجاهاته ، وميوله وعواطفه ، فلا يطغى أي جانب من الدوافع النفسيّة على جوانب الروح ، ولا تستعبده أي نزعات الهوى والشرور ، وإنّما تتحقّق للإنسان قيادة رشيدة على نفسه وضبط كامل لنزعاته وشهواته ، ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة للتحدّث عن مظاهر التربية النفسيّة في الإسلام .

رقابة الضمير

وتسعى التربية الإسلاميّة بجميع طاقاتها إلى تكوين الوازع الديني في أعماق النفس ودخائل الذات ، بحيث يغالب الدوافع النفسيّة ، ويتولّى هو قيادة التسيير والتوجيه لهذا الإنسان .

إنّ العاصم الوحيد الذي يمكنه أن يحجز الإنسان من الانحراف ، ويصدّه عن الطغيان ، إنّما هو الضمير الواعي المترع بروح العقيدة والإيمان ، وهو أعظم وازع من الوقوع في حمأة الرذائل والحرام ، ويجهد الإسلام على تكوينه وتقويمه ليكبح جماح الشهوات ، ويوجّه الإنسان في ميدان مشرق يسوده رضاء الله ، ورضاء الضمير ، وهذا هو السّرّ في أصالة التربية الإسلاميّة ونجاحها في معطياتها التربويّة ، وقد اعترف بهذه الظاهرة الفدّة بعض الجنرالات الفرنسيّين من خصوم الإسلام ، فقال بحقد وخبث :

« لا ينبغي أن نستعين بالإسلام ، إذا استهنا بالمسلمين لأنّ الإسلام عقيدة عجيبة بقيت إلى الآن في الأرض .. إنّنا حاولنا كلّ النظم الاقتصادية ، حاولنا النظم الرأسماليّة ، وحاولنا النظم الإداريّة ، وفشلنا ، ومن أهمّ ما فشلنا فيه عدالة التوزيع والرقابة .. إنّ الرقابة في الإسلام

لا تأتي من شخص على شخص ، ولا من هيئة على هيئة ، وإنما هي رقابة الإنسان لربه ، ونضج الضمير الديني ، وهذا وحده قوة كامنة في الإسلام ، وأن من حسن الحظ أن المسلمين لا يفهمون هذا ، ولا يقدرون دينهم مع أنه حفظهم وأبقاهم إلى الآن .. وما علينا إلا أن نطمس معالم هذا الدين بتجويعهم وبفقرهم وإبادتهم وبحرمانهم من العلم والثروة ..^(١)

إن الإنسان فيه نفحة من روح الله ، وفيه نزعات قوية وحادة من نزعات الشيطان ، ففيه إغراء عنيف ، ودفع قوي إلى عالم من الشهوات لا ضبط ولا حصر لها ، وقد نظر الإسلام إلى ذلك كله بعمق وشمول ، فأخذ بدقة بالغة يحدّر نشاطات الغرائز الشريرة ، ويستأصل جذورها ، ويحدّد فعالياتها ، ويدفع القوى الخيرة للسيطرة على النفس ، فأخذ يعد الإنسان بالنعيم الدائم إن تاب إلى الحق ، فهناك ألوان رائعة في سور القرآن الكريم من الثواب والجزاء للمتقين .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاعِنَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾^(٣) .

ووصف ذلك النعيم الخالد فقال :

(١) تجربة التربية الإسلامية : ٤٥ و ٤٦ .

(٢) المطففين ٨٣ : ٢٢ - ٢٤ .

(٣) الغاشية ٨٨ : ٨ - ١٦ .

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ *
بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاقِهِمَا مِمَّا
يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءِ مِمَّا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا
* خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾^(٢).

ومن الطبيعي أن هذا الجزاء العظيم يحزّر النفس من جميع أفاعيل الشذوذ والانحراف، ويمدّها بطاقات كبيرة من الفضيلة والنور.
ووصف تعالى العذاب المفزع الشديد الذي ينصب على من يتبع قيادة هواه ويعرض عن ذكر الله والدار الآخرة.

قال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ
الْحَمِيمُ * يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ
يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿ خَذُوهُ فَتْلُوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ
ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ *
فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾^(٤).

(١) الواقعة ٥٦: ١٥ - ٢٤.

(٢) الكهف ١٨: ١٠٧ و ١٠٨.

(٣) الحج ٢٢: ١٩ - ٢٢.

(٤) الحاقة ٦٩: ٣٠ - ٣٧.

وقال تعالى: ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا كَيْلُونَ مِنْهَا فَمَالُؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ (١).

لقد تناثرت في القرآن الكريم آيات كثيرة وهي ترغّب النفس وتملأها ذعراً وخوفاً من عقاب الله الشديد ، ومما لا شبهة فيه أنّ ذلك يقيم الحواجز عن معاصي الله ، ويصدّ النفس من ارتكاب المنكر والإثم .

إنّه ليس هناك شيء أملك لقيادة النفس ، ولا أكثر سيطرة عليها من عالم الخوف والرجاء ، اللذين يملكان زمام النفس ، وقد حقّق الإسلام بهذا الأسلوب الرائع رقابة الضمير ، وجعل له حكومة على سائر الغرائز النفسية يكبت نزواتها ، ويكبح من جماحها .

الفضائل النفسية

وعني الإسلام عناية بالغة بالفضائل النفسية ، فأرصد لها منهجاً خاصاً يؤدّي إلى تماسك الشخصية وصلابتها ، وتحليلها بكلّ نزعة شريفة وصفة فاضلة ، ونشير - بإيجاز - إلى بعضها :

العفة

وفسّر علماء الأخلاق العفة بضبط النفس ، واعتدال ميلها إلى اللذة ، سواء في ذلك اللذائذ الجسميّة من المأكّل وغيره ، واللذائذ النفسيّة من الانفعالات والعواطف ، فلا يسمّى الشخص عفيفاً ما لم يعتدل في جميع ذلك ، وتهدف هذه

الفضيلة إلى أن يكون الإنسان سيِّداً لنفسه لا عبداً لشهوته وميوله .. وقد تضافرت الأخبار الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في فضل هذه الصفة .

فقد أثار عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْعَفَاءُ »^(١) .

وقال الإمام الباقر عليه السلام : « مَا مِنْ عِبَادَةٍ أَفْضَلَ مِنْ عِقَّةِ بَطْنٍ وَفَرْجٍ »^(٢) .

وقال عليه السلام : « مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ عِقَّةِ بَطْنٍ وَفَرْجٍ »^(٣) .

وإذا نمت هذه النزعة الخيرة في النفس فإنَّ الإنسان يسلم من كثير من الأمراض النفسيَّة والجسميَّة ، ويكون بئامن من الشراهة والدعارة والطمع والإسراف والغضب والسخط والثرة وغيرها .

إنَّ العِفَّةَ تدفع الإنسان إلى الاستقامة في كلِّ شيء ، استقامة في الطعام بحيث لا يسرف فيه ، فإنَّ الإسراف في ذلك يجزِّله كثيراً من الأمراض ، ويجعله دوماً في عيادة الأطباء ، وقد حثَّ القرآن الكريم على الاتصاف بهذه النزعة الشريفة .

قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾^(٤) .

كما أنه ليس من العِفَّة في شيء أن يبالغ في الزهد ويمتنع عمَّا أحلَّه الله من الطَّيِّبَات .

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾^(٥) .

(١) أصول الكافي : ٧٩/٢ ، الحديث ٣ .

(٢) أصول الكافي : ٨٠/٢ ، الحديث ٧ .

(٣) أصول الكافي : ٧٩/٢ ، الحديث ١ .

(٤) الأعراف ٧ : ٣١ .

(٥) الأعراف ٧ : ٣٢ .

وتتطلب العفة ضبط النفس عن الاسترسال في جميع الشهوات النفسية ، فإن الإفراط فيها يفسد حياة الإنسان ، ويضعف روحانيته ، ويؤدي به إلى السقوط ، وقد قال علماء الأخلاق : « إنَّ شهوات النفس غير متناهية ، فإذا أعطاها المراد من شهوات وقتها تعدّتها إلى شهوات قد استحدثتها ، فيصير الإنسان أسير شهوات لا تنقضي ، وعبد هوى لا ينتهي ، ومن كان بهذه الحال لم يُرج له صلاح ، ولم يوجد فيه فضل »^(١).

إنَّ العفة تستلزم سيطرة الإنسان على ميوله وشهواته ، فلا يكون الشخص عفيفاً إلا إذا ضبط نفسه واعتدل في مأكله ومشربه ، واعتدل في انفعالاته فلا يفرط في الحزن إذا ألمّت به إحدى مصائب الدهر .

وسائل تنميتها

أمّا الوسائل المؤدية إلى نموّ العفة فهي - حسب ما ذكره علماء الأخلاق - تتلخّص بما يلي :

- ١ - الاعتدال في الميل إلى الشهوات .
- ٢ - اجتناب مرافقة الأشرار الذين يزيّنون له الرذائل والانهماك في اللذات .
- ٣ - مجالسة الأخيار والمتحرّجين في دينهم الذين يدفعونه إلى عمل الخير واجتناب المنكر .
- ٤ - عدم قراءة الكتب الخلاعية التي تهدم صرح الفضيلة والكمال ، واجتناب أماكن اللهو ودور الفسق .
- ٥ - ضبط النفس عن الغضب الذي هو جنون قصير .
- ٦ - الابتعاد عن الصفات المرذولة ، كالكبر والإعجاب بالنفس ، فإنّها تحمل

صاحبها على أن يثور لأقل شيء يتوهم فيه الخطأ من كرامته .

٧- عدم التفكير في الشرّ والرذيلة ، فإنّ الفكر قائد الإرادة والعمل ، وإذا استرسل مع خياله الفاسد وهواجسه الشريرة قاده ذلك إلى الوقوع في حماة الرذيلة .

٨- عدم السخط والانتقاض من الحياة ، فلا يكن من الذين ينفرون منها ، وقالوا :
تعب كلّها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد .

ولا يكن من الذين يزهّدون من الاجتماع بالناس ، وقد قالوا :

عَوَى الذُّنْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذُّنْبِ إِذْ عَوَى وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

٩- أن لا ينسى نصيبه من الدنيا ، وعليه أن يتمتّع بما خلقه الله له من طيّبات الرزق شريطة أن لا يخرج بذلك عن حدود العقل والدين .

قال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ^(١) .
هذه بعض الأمور التي تؤدّي إلى نموّ العفّة حسب ما ذكره الأخلاقيون ^(٢) .

قوة الإرادة

أمّا قوة الإرادة وقوة العزم والتصميم ، فإنّها من أوّلّيات المقاصد في التربية النفسيّة في الإسلام ، فقد عنى - قبل كلّ شيء - في أن يوجد في الإنسان إرادة صلبة ، وعزماً ثابتاً ، ونفساً قويّة لا تنجرف مع تيّارات الحوادث ، ولا تتصدّع أمام زوابع الفتن والأحداث ، وقد بالغ في الاستهانة بمن ضعفت نفوسهم ، فشبههم بالموتى .

قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ ^(٣) .

(١) القصص ٢٨ : ٧٧ .

(٢) الخلق الكامل : ٢٠٢/٤ و ٢٠٣ .

(٣) النمل ٢٧ : ٨٠ .

إنَّ الإسلام يمنح الإنسان طاقات كبيرة من العزم والإرادة ، ويجعله بمنجاة من جميع عوامل الضعف والفرع والخوف ، وقد كان الرسول الأعظم ﷺ المثل الأعلى لقوة الإرادة والعزم الجبار ، فقد وقف صامداً وهو يناضل ويقاوم في سبيل مبادئه وأهدافه ، ويفعل ما يمليه عليه ربه ، غير حافل بما يعانیه من المشاق والعقوبات ، وما يواجهه من المشاكل والخطوب ، قد رفع بإحدى يديه علم التوحيد ، وباليـد الأخرى معول الهدم والتخريب على أفكار الجاهلية وعاداتها وتقاليدها ، وهو يهتف بكرامة الإنسان وإعلان حقوقه .

وقد تضافرت على مناجزته جميع قوى الشرك والإلحاد في حين لم يجد له ناصرأ ، ولم يكن يأوي إلى ركن شديد سوى عمه أبي طالب مؤمن قريش ، وحامي الإسلام ، وقد انبرت زعماء قريش إلى أبي طالب يهدّدونه ويتوعّدونه إن لم تنه الرسول عن دعوته ، فانطلق أبو طالب إلى النبي ﷺ وعرض عليه ذلك ، فأجابه بهذه الكلمات التي سارت مع الفلك وارتسمت فيه قائلاً :

« يَا عَمَّ ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ بِيَمِينِي وَالْقَمَرَ بِيَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى أَمُوتَ دُونَهُ ، أَوْ يُظْهِرَهُ اللَّهُ » .

وبهذه الإرادة العملاقة ، وبهذا التصميم الجبار قد تغلب على جميع الأحداث ، فحطم الأصنام ، وأباد قوى الشرك ، ونسف خلايا الجاهلية ، ورفع كلمة الله عالية في الأرض ، وبنى حياة جديدة للإنسان تميّزت بالصلافة للحق ، والصرامة في العدل .

وطعم ﷺ أصحابه بهذه النزعة العظيمة ، فكانوا على قلّة عددهم كالجبال عزة ومنعة ، فقاوموا الأحزاب ، وهزموا جيوش الشرك ، وعانقوا السيوف والرماح ، وكانوا لا يولّون الأدبار في حروبهم ، حتّى فتحوا الأمصار ، ورفعوا علم الإسلام خفّاقاً على أغلب أنحاء هذه الأرض .

وتمثّلت هذه الإرادة العظيمة عند قائد الإسلام الأعلى ، باب مدينة علم النبي ،

وأبي سبطيه ، الإمام أمير المؤمنين ، صاحب الفتوحات العظيمة ، الذي حصد رؤوس المشركين ، وفلّل قواعدهم ، وفهر اليهود وأذلّهم ، وهو قائل :

«لَوْ تَظَافَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا فَرَزْتُ مِنْهَا» .

إنّ هذه الإرادة الجبّارة إنّما هي نفحة من إرادة الله ، فإنّها إرادة تأبى الخضوع ، وتأبى الضيم ، وتأبى العبوديّة ، وتأبى الاستسلام ، وقد تمثّلت بأروع صورها ومعانيها عند سبط الرسول الأعظم ﷺ أبي الأحرار الإمام الحسين عليه السلام ، فقد وقف على صعيد كربلاء مع قلّة الناصر يخاطب جيوش الشرك والضلال ويملي عليهم إرادته قائلاً :

«لَا وَاللَّهِ ، لَا أُعْطِيكُمْ بِيَدِي إِعْطَاءَ الدَّلِيلِ ، وَلَا أَقِرُّ لَكُمْ إِفْرَارَ الْعَبِيدِ ، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً ، وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا...»^(١) .

وترجّل إلى ساحة الموت مع الفتية الطيّبة من أهل بيته ليعطي للعالم بأسره دروساً عن قوّة الإرادة ، وصلابة العقيدة ، والتضحية في سبيل الله .

إنّ قيمة الإنسان إنّما هي في إرادته ، وإذا تجرّد عنها فهو ليس بإنسان .

يقول «ديكارت» : «ليس في الإنسان ما هو لاصق بشخصيّته أكثر من الإرادة» .

إنّ قوّة الإرادة لها الأثر التامّ في تكوين الشخص وفي خلوده ، وأنّ الشخص الذي هو ضعيف الإرادة يستحيل أن يحقق أي هدف لنفسه أو لمجتمعه .

يقول «امرسن» :

«إنّ قوّة الإرادة سرّ النجاح ، والنجاح غاية الوجود ، فإنّ قوّة إرادة

نابليون وكرنث والاسكندر وغيرهم من رجال التاريخ هي التي خلّدت

أسماءهم ، وإنّا لنرى عدداً كبيراً من رجال التاريخ لم ينتج انخذاً لهم على

ما اشتهروا به من الشجاعة والحنكة والذكاء إلا عن ترددهم ، وضعف إرادتهم ، وأن من المحال أن ندخل معترك الحياة ، ونرجوا الفوز فيها دون أن تكون لدينا إرادة قوية ^(١) .

إن قوة الإرادة من مظاهر الشخصية المستقلة التي تصنع التاريخ الإنساني ، ولا تعرف شيئاً مستحيلاً في الحياة ، وقد قيل لنابليون : إن جبال الب ستقف في طريق جيشك ، فقال : سوف لا تكون ألـب ، وكانت أثقل الألفاظ على سمعه كلمة « مستحيل » ، و« لا أستطيع » .

بقي هنا شيء وهو : أن الإسلام يحرص كل الحرص على أن يكون القائم بأمر المسلمين ، والحاكم لشؤونهم ذا إرادة قوية ، وعزم جبّار ، وإذا كان ضعيف الإرادة فإنه يمنع من قيادة الأمة ؛ لأنه يعرضها للأخطار ، ويذهب بهيبة الحكم ومعنويته ، ويغري ذوي القوة بالتمرد والخروج عن الطاعة .

ضعف الإرادة

وإذا مُني الشخص بضعف الإرادة فقد فقد شخصيته ، وتغلبت عليه الأهواء ، ومن المحتم أنه يستسلم لقيادة شهواته ، وينطلق في ميادين سحيقة من الرذائل كشرب الخمر والمقامرة واقتراف جميع أنواع الإثم ، كما يستسلم للكسل والخمول ، ويجرّ نفسه كثيراً من الويلات والخطوب .

تنمية الإرادة

وإذا أصيبت الإرادة بالضعف والخمول ، فإنّ علاجها يكون بإلزام النفس في الدخول في الأعمال الشاقة التي تتطلب جهداً وعناءً ، فإنّ ذلك يقوّيها ويعوّدها على التغلب على المصاعب ، وبذلك تكتسب الإرادة قوة حسب ما يقوله علماء

(١) قوة الإرادة / اوريسون سويت ماردن .

الأخلاق، ومما يقوّي الإرادة أننا إذا عزمنا على شيء يجب أن نحاول بقدر ما نستطيع تنفيذه من دون أن نسمح لأنفسنا بتركه، وقد دعا الإسلام إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(١)، كما أنّ من بواعث تقوية الإرادة النظر في سيرة العظماء الذين غيَّروا مجرى التاريخ وصنعوا المجد لأمتهم، فإنَّهم لم يصلوا إلى ذلك إلا بإرادتهم الدافعة إلى ذلك الخير.

حرية الإرادة

ومنح الإسلام حرية الإرادة لكل شخص، وجعلها من الحقوق الذاتية له، فله الحق أن يحقق جميع رغباته وأمنيته، وليس لأي أحد أن يقف حاجزاً دونها، ولن شريطة أن لا تكون في الإثم والحرام، أو تكون مضرّة بالغير، فإنَّه يحجر عليه، ويقاوم حفظاً على الصالح العام، وقد تحدّثنا في كتابنا «النظام السياسي في الإسلام» عن هذه الظاهرة، وأوليناها المزيد من التحقيق.

الشجاعة

الشجاعة من أهمّ العناصر التي تتكوّن منها الشخصية العظيمة، فإنَّها تحمل صاحبها على ضبط النفس وقت الخطر، ومقابلة الأحداث بالصبر، وعدم الانهيار عند مدهامة الكوارث والخطوب، وقد أولى الإسلام اهتمامه البالغ بغرس هذه الظاهرة في النفوس، وأكد على رعايتها في جميع مجالاته التربوية والنفسية، فدفع المسلمين إلى ساحات البطولات، وميادين التضحية والفداء في سبيل الحق، والذبّ عن مبادئهم وأهدافهم، فكانوا - في عصورهم الأولى - يتسابقون إلى اعتناق السيوف والرماح بعزم ثابت وإرادة جبّارة، حتّى استطاعوا على قلّتهم أن يهزموا

قوى الشرك ، ويفللوا قواعد الإلحاد .

لقد حفل تاريخ الإسلام بالبطولات الفذة النادرة ، وكان من أروعها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فليس في جميع فترات التاريخ الإنساني ، قديماً ولا حديثاً ، من هو أشجع قلباً ، ولا أثبت جناناً ، ولا أربط جأشاً منه ، فله المواقف المشهودة ، والمقامات المشهورة ، والأيام المذكورة يوم بدر والأحزاب وأحد وخيبر ، ولم يحفل بتلك المواقف الرهيبة ، ولم يحجم فيها ، فقد جاهد في الله حق جهاده ، وأبدى صفحته في دار الشرك ، والأرض مشحونة ضلالة ، والأصنام تعبد جهرة .

وهو القائل : « لَا تَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلَا تَفَرِّقُهُمْ عَنِّي وَخَشَةً وَلَوْ أَسْلَمَنِي النَّاسُ جَمِيعاً لَمْ أَكُنْ مُتَضَرَّعاً »^(١) .

واستوعبت مواقفه البطولية جميع لغات الأرض ، فكان من ألمع صور الشجاعة والبطولات في العالم بأسره .. وارتقى إلى هذا الميدان المشرق ، وحلّق فيه الإمام الحسين عليه السلام أبو الأحرار ، وقائد الحركة التحررية والنضالية في الإسلام ، فكان عليه السلام نسخة لا ثاني لها في العالم - بعد أبيه - فقد استقبل السيوف والرماح في يوم كربلاء بثغر باسم ، ووقف كالطود الشامخ وهو يلقي على الأجيال دروساً عن الكرامة والإباء ونكران الذات ، غير حافل بما يعانیه من الكوارث التي تتصدّع من هولها القلوب أسى وحرناً من مصارع فتيته وأبنائه وأحبّته ، وما ألمّ به من أليم العطش وصراخ أطفاله ونسائه ، فلم توقفه هذه المحن الكبرى عن المضيّ في جهاده وكفاحه ، فقد بقي صامداً لم يضرع ، ولم يجزع ، حتّى لقي الله عزّ وجلّ وهو صابر محتسب ، وقد سجّل بمواقفه العظيمة أعظم الانتصارات للإسلام ، وبقي صورة حيّة تتجدّد وتنير ، وتفتح معالم الطريق لجميع الشعوب المكافحة عن حريّتها واستقلالها .

مظاهر الشجاعة

وأهمّ المظاهر الطبيعيّة للشجاعة هي ما يلي :

- ١ - الحفاظ على الحالة الطبيعيّة والتوازن وعدم الارتباك حين المناظرات وإبداء الرأي والدفاع عن العقيدة .
- ٢ - التغلب على الصعاب التي تعترض الإنسان في حياته ، والإقدام على إصلاح ما يراه من الأخطاء في حياة الناس ومعتقداتهم .
- ٣ - الجهر بالحق ، وعدم المبالاة بما يناله من الشرّ والخطوب في سبيل إعلاء كلمة الحق .

الشجاعة الأدبية

ونعني بها الجهر بالحقّ بشجاعة ونكران للذات ، وهذا ما يعني به الإسلام في مجالاته التربويّة ، فإنّه يريد من المسلم أن يكون قائلاً بالحقّ غير هيّاب ولا خائف . ففي الحديث : « قُلِ الْحَقُّ وَلَوْ كَانَ مُرًّا »^(١) .

وفي حديث آخر : « لَا تَخَفْ فِي الْحَدِيثِ لَوْمَةً لَا يَمُ »^(٢) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام : « وَخُصِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُمَا كَانَ »^(٣) .

وقال عليه السلام : « قُلِ الْحَقُّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ »^(٤) .

وأهاب عليه السلام بأمرته أن لا تقول الحقّ مع الظالمين والمعتدين ، فقال عليه السلام : « إِذَا

(١) مكارم الأخلاق : ٣٨٤/٢ ، وفيه : « وَإِنْ كَانَ مُرًّا » .

(٢) مكارم الأخلاق : ٣٨٤/٢ ، وفيه : « لَا تَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا يَمُ » .

(٣) نهج البلاغة : ٣٩/٣ .

(٤) بحار الأنوار : ١٥٧/٧٤ ، الحديث ٢ .

رَأَيْتَ أُمْتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ: إِنَّكَ ظَالِمٌ، فَقَدْ تَوَدَّعَ مِنْهَا»^(١).

وكان من أبرز رجال الإسلام الذين جاهرُوا بالحقِّ، وأنكروا المنكر الصحابي العظيم أبو ذرَّ الغفاري، فقد اندفع بوحى من عقيدته الإسلامية إلى شجب السياسة الأموية حينما انحرفت عن الطريق القويم، فكان يهدّد عثمان، ويدعو المسلمين إلى إعلان الثورة على حكمه.

إنَّ صبيحة أبي ذرَّ كانت صبيحة رجل يقظ وعى الإسلام، ووقف على أهدافه وواقعه، فأنكر على عثمان سياسته التي تدعو إلى التلاعب بمقدّرات الأمة، ونهب ثرواتها، ومنحها للوجوه والأعيان في حين قد عمّت المجاعة جميع أنحاء البلاد. يقول السيّد قطب:

«إنَّ صبيحة أبي ذرَّ كانت دفعة من دفعات الروح الإسلامي أنكرها الذين فسدت قلوبهم، ولا يزال ينكرها أمثالهم، من مطايا الاستغلال في هذه الأيام، لقد كانت هذه الصبيحة يقظة ضمير لم تخدّره الأطماع أمام تضخّم فاحش في الثروات يفرّق الجماعة الإسلامية طبقات، ويحطّم الأسس التي جاء بهذا الدين ليقيمها»^(٢).

وانطلق أبو ذرَّ بكلِّ بسالة يوالي إنكاره الشديد، ويبيدي سخطه البالغ على عثمان حتّى نفاه إلى الربذة فمات فيها جوعاً، وفي يد عثمان ذهب الأرض يصرفه بسخاء على بني أمية وآل أبي معيط، ويحرّمه على هذا الصحابي العظيم الذي هو شبيه المسيح عيسى بن مريم في هديه وسمته، كما يقول الرسول العظيم ﷺ في حقّه. وقد ملكت قادة الشيعة وأعلامها رصيداً كبيراً من الجرأة والإقدام، فلم يخضعوا

(١) ميزان الحكمة: ٣/١٩٥٢، وفيه: «منهم». مسند أحمد: ٢/١٦٣.

(٢) العدالة الاجتماعية: ٢١١.

لجور الحكم القائم آنذاك وقسوته ، فقد اندفعوا إلى إعلاء كلمة الله ، وشجب الفساد والمنكر ، فهذا عبدالله بن عفيف الأسدي صاحب الإمام عليّ عليه السلام قد ثار في وجه الطاغية المجرم عبيدالله بن زياد حينما خطب بعد مقتل ريحانة النبي ﷺ وسبطه الإمام الحسين عليه السلام ، فما أنهى كلماته حتّى انبرى إليه عبدالله راداً عليه بهذه الكلمات التي كان وقعها على الطاغية أشدّ من ضربات السيوف قائلاً له :

«إنّما الكذاب أنت وأبوك ، ومن استعملك وأبوه . يا عبد بني علاج ، أتقتلون أبناء النبيّين ، وتصعدون على منابر المسلمين ؟ ! أين أبناء المهاجرين والأنصار لينتقموا منك ومن طاغيتك اللعين ابن اللعين - مشيراً إلى يزيد وأبيه معاوية - على لسان النبيّ الأمين .»

وهذا الكميت بن زيد قابل بالهجاء المقذع ملوك الأمويّين ، وأشاد بفضل العلويّين فقال :

سَاسَةً لَا كَمَنْ يَرَى رَعِيَّةَ النَّاسِ سَوَاءَ وَرَعِيَّةِ الْأَغْنَامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ ، أَوْ كَوَلِيدِ أَوْ سُلَيْمَانَ بَعْدَ أَوْ كَهْشَامِ

وهجا الطاغية هشام فقال :

مُصِيبٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ يَوْمَ رُكُوبِهَا بِمَا قَالَ فِيهَا مُخْطِئٌ حِينَ يَنْزِلُ
كَلامُ النَّبِيِّينَ الْهُدَاةِ كَلَامُنَا وَأَفْعَالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَفْعُلُ

وخاطب الأمويّين بهذا الشعر الجريء :

فَقُلْ لِبَنِي أُمَيَّةَ حَيْثُ كَانُوا وَإِنْ خِفْتَ الْمُهَنْدَ وَالْقَاطِمَا
أَجَاعَ اللَّهُ مَنْ أَشْبَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعَ مَنْ بِجَوْرِكُمْ أَجِيماً

وبالغ الأمويّون في اضطهاده وإرهاقه ، ولكنّه ازداد تصلّباً لعقيدته وإيماناً بمبدئه .

وظهر على مسرح الحياة الشيعة شاعر آخر، وهو الفرزدق، فانتقد الأمويين وجاهر في ذمهم، وانتصر لأهل البيت عليهم السلام دعاة الحق والعدالة في الإسلام، وكان من أهم مواقفهم المشرقة مدحه للإمام زين العابدين عليه السلام وانتقاصه لهشام بن عبد الملك الذي أنكر معرفة الإمام، وتجاهله أمام أهل الشام، فقال يخاطبه أمام الجمع الحاشدة:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِفُهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هَذَا بِضَائِرِهِ الْعَرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

وتعرض بسبب هذه الجرأة لسخط الأمويين ونقمتهم، ولكنه لم يعن بذلك، فانطلق يذكر معائب الأمويين، وهجا هشام بن عبد الملك فقال:

يَقْلُبُ رَأْسًا لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ وَعَيْنٌ لَهُ حَوْلَاءٌ بَادٍ عِيُوبُهَا

وهذا دعبل الخزاعي شاعر المضطهدين والمعذبين قد جهر بالحق، ونقم على ملوك عصره الذين جاهدوا في ظلم الرعية وإرهاقها، فقد هجا الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم وإبراهيم بن المهدي، وكان من أروع هجائه، وأكثره صلابة ما قاله في المعتصم:

وَقَامَ إِمَامٌ لَمْ يَكُنْ ذَا هِدَايَةٍ فَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلَيْسَ لَهُ لُبٌ
مُلُوكُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ وَلَمْ يَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمْ كُتُبٌ
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ خِيَارٌ إِذَا عُدُّوا وَثَامِنُهُمْ كَلْبٌ
وَإِنِّي لِأُعْلِي كَلْبَهُمْ عَنْكَ رِفْعَةً لِأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبٌ

لقد اندفع هذا العملاق بوحي عظيم من دينه وعقيدته إلى مناهضة الظالمين

الذين ابتزوا أمر هذه الأمة ، وأمعنوا في إذلالها وقهرها ، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يجهر بكلمة الحق ، ويدافع عن مصالح البؤساء والمحرومين سوى دعبل وإخوانه المؤمنين الذين صمدوا في وجه الأعاصير ، وأعلنوا كلمة الله في أخرج الظروف وأكثرها محنة وعناء .

ولم تقتصر الشجاعة الأدبية على المناضلين الأحرار من رجال الشيعة ، فقد كان لنسائهم دور كبير في مناهضة الظلم الاجتماعي والغبن الاجتماعي ، ومناصرة الحق ، فهذه سودة بنت عمارة سيّدة نساء العراق وفدت على معاوية تشكو إليه من ظلم عامله وجوره ، فلمّا دخلت عليه عرفها فقال لها بنبرات تقطر غضباً :

ألسـت القائلـة يوم صفّين :

شَمَزَ كَفْعِلِ أَبِيكَ يَابْنَ عُمَارَةَ	يَوْمَ الطَّعَامِ وَمُلْتَقَى الْأَقْرَانِ
وَانْصُرْ عَلِيّاً وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ	وَأَقْصِدْ لِهَيْدٍ وَابْنِهَا بِهَوَانِ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخَا النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	عَلِمَ الْهَدَى وَمَنَارَةُ الْإِيمَانِ
فَقَدْ الْجَبُوشَ وَسِرَ أَمَامَ لَوَائِهِ	قَدْماً بِأَيْتِيضِ صَارِمٍ وَسِنَانِ

فانبرت وهي رابطة الجأش مستهينة بمعاوية قائلة له :

« إي والله ! ما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب » .

فبهر معاوية ، واندفع يقول :

- ما حملك على ذلك ؟

- حبّ عليّ وأتباع الحقّ .

- ما أرى عليك من أثر عليّ شيئاً ؟

- مات الرأس ، وبتر الذنب ، فذع عنك تذكّار ما قد نسي ، وإعادة ما مضى .

وعرضت عليه ما جرى عليها وعلى قومها من ظلم عامله ، وأنشأت تقول :

صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى جِسْمٍ نَضَمْنَهُ قَبَّرَ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَذْلُ مَذْفُونَا
قَدْ حَالَفَ الْحَقُّ لَا يَنْغِي بِهِ بَدَلًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونَا

فقال معاوية : من ذلك ؟

- علي بن أبي طالب .

- ما صنع حتى صار عندك كذلك ؟

- قدمت عليه في رجل ولأه صدقتنا ، فكان بيني وبينه ما بين الغث والسمين ، فأتيت علياً عليه السلام لأشكو إليه ما صنع ، فوجدته قائماً يصلي ، فلما نظر إليّ انفتل من صلاته ، ثم قال لي برأفة وتعطف :

أَلَكِ حَاجَةٌ ؟

فأخبرته الخبر .

فبكى ثم قال : «اللَّهُمَّ أَنْتَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ ، إِنِّي لَمْ أَمْرُهُمْ بِظُلْمِ خَلْقِكَ ، وَلَا بِتَرْكِ حَقِّكَ» .

ثم أخرج من جيبه قطعة جلد كهيفة طرف الجراب ، فكتب فيها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ^(١) .

(١) اقتباس من القرآن الكريم : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الأعراف ٧ : ٨٥ ﴿ أَوْفُوا ﴾

إِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَاحْتَفِظْ بِمَا فِي يَدَيْكَ مِنْ عَمَلِنَا حَتَّى يَأْتِيَ مَنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامُ»^(١).

وذهل معاوية ولم يملك صوابه ، واندفع يقول :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّاباً عَلَى بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لَهُمْدَانِ ادْخُلُوا بِسَلَامٍ^(٢)

لقد كان موقف هذه السيِّدة الكريمة نفحة من نفحات الروح الإسلامية التي تأبى الخضوع للذل والعبودية ، وتأبى أن تقر الظلم وتسالم الجور.

الصبر

ومما يدعو إلى تماسك الشخصية وتوازنها هو الصبر على الأحداث ، وعدم الانهيار أمام محن الأيام وخطوبها ، وقد أكد الإسلام على هذه الظاهرة بصورة خاصة ، وحثَّ المسلمين على التحلِّي بها وأنَّ من يتخلَّق بها فإنَّ الله يمنحه الأجر بغير حساب .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٣).

وقال تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٤).

وقال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ ﴾^(٥).

﴿ الْمَكِّيَّاتِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ هود ١١ و ٨٥ و ٨٦ .

(١) العقد الفريد ١ : ٢١٢ .

(٢) بلاغات النساء : ٣٠ . أعلام النساء : ٦٦٣/٢ .

(٣) الزمر ٣٩ : ١٠ .

(٤) النحل ١٦ : ٩٦ .

(٥) الإنسان ٧٦ : ١٢ .

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(١).

وقال تعالى في مدحه لنبيه أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٢).

إن الصبر نفحة من نفحات الله يعتصم به المؤمن ، فيتلقى المكاره والمصاعب بحزم ثابت ونفس مطمئنة ، ولولاه لانهارت نفسه ، وتحطمت قواه ، وأصبح عاجزاً عن السير في ركب الحياة ، وقد دعا الإسلام إلى الاعتصام به لأنه من أهم الفضائل الخلقية ، وقد ذكره القرآن الكريم في سبعين آية ، ولم يذكر فضيلة أخرى بهذا المقدار ، وما سبب ذلك إلا لعظم أمره ، ولأنه من مصادر النهوض الاجتماعي ، فالأمة التي لا صبر لها لا يمكن أن تصمد في وجه الأعاصير ، مضافاً لذلك أنه يربّي الخير في النفس ، فما من فضيلة إلا وهي محتاجة إليه ، وقد حثّ أئمة الهدى عليه السلام على التمسك به ، وقد أثر عنهم في ذلك الشيء الكثير من الأخبار .

فقد قال الإمام أبو جعفر عليه السلام: «الْبَحْتَةُ مَخْخُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ وَالصَّبْرُ ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا دَخَلَ الْبَحْتَةَ ، وَجَهَنَّمُ مَخْخُوفَةٌ بِاللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ ، فَمَنْ أَعْطَى نَفْسَهُ لَذَّتْهَا وَشَهَوَاتَهَا دَخَلَ النَّارَ»^(٣).

٢ - قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الرَّأْسُ ذَهَبَ الْجَسَدُ ، كَذَلِكَ إِذَا ذَهَبَ الصَّبْرُ ذَهَبَ الْإِيمَانُ»^(٤).

(١) السجدة ٣٢ : ٢٤ .

(٢) ص ٣٨ : ٤٤ .

(٣) الكافي : ٨٩ / ٢ .

(٤) الكافي : ٨٧ / ٢ .

إنَّ الصبر بلسم للقلوب المكلمة التي أكلها الخطب ، وجار عليها الزمان ، وهو عزاء للنفوس الحزينة التي هامت بتيار من الهواجس والهموم ، وهو تسلية للمعذَّبين الذين يعانون من محن الأثام وخطوبها ، ففي ظلاله يجدون الاطمئنان ، وتحت كنفه ينعمون بالراحة والاستقرار .

أنواعه

والصبر - حسب ما ذكره علماء الأخلاق - على أنواع ، وهي :

١ - الصبر على فعل الشرّ ، ودواعي الهوى والشهوات ، وكلّ ما يمسّ بكرامة الإنسان ويحطّ من قيمته .

٢ - الصبر على نوائب الزمن ، وتحمل الرزايا والآلام ، وما يفوت الإنسان من المصالح والمنافع الدنيويّة .

٣ - الصبر في مواطن الخوف والذعر ، ومنه الصبر في الدفاع عن الحقّ ووقاية العِرض ، وغير ذلك .

وليس من الصبر في شيء الاستسلام للمكروه ، والتقاعد عن دفعه بالوسائل المشروعة ، كما أنّه ليس منه الصبر على الفقر ، والخلود إلى الراحة وانتظار أسباب الرزق ، فإنّ الواجب السعي في الأرض لتحصيل العيش ولا تجوز البطالة ، فإنّها ضرب من ضروب الجهل والخمول ، وباب من أبواب الموبقات والردائل .

وعلى أي حال ، فإنّ الصبر الذي دعا إليه الإسلام هو من أبرز الفضائل النفسيّة ، وأكثرها عائدة بالخير والنفع على الفرد والمجتمع ، وقد قيل إنّ أعزّ الشعوب ، وأرفعها شأنًا ، وأعزّها سلطاناً هو الشعب الذي عرف من أخلاقه الصبر والثبات في مواطن الأخطار ، والصمود أمام الزواجر والأهوال ، حتّى يعدّ للأمر عدتها ، ويهيئ لها أسبابها ووسائلها حتّى ينجو ممّا ألمّ به .

الحلم

الحلم اسم من أسماء الله ، وصفة من صفاته ، فمن تحلّى به فقد فاز بأوفر الحظوظ ، واستمسك بكل سبب من أسباب الخير ، وقد خصّ الله تعالى به صفوة أوليائه ، ومنحه لأكرم أنبيائه ، فقال في إبراهيم : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (١) . وقال لرسوله محمد ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) . إنّ الحلم من أبرز الفضائل النفسية ، وأكثرها دلالة على سعة الصدر وعلو الهمة ، والتمسك بمكارم الأخلاق ، وقد تضافرت الأخبار الواردة عن الرسول الأعظم وأئمة أهل البيت عليه السلام في تعظيم هذه الصفة ، وإكبار المتّصفين بها ، وفيما يلي عرض لبعضها :

- ١ - قال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ اغْنِنِي بِالْعِلْمِ وَزَيِّنِي بِالْحِلْمِ » (٣) .
- ٢ - قال ﷺ : « مَا أَعَزَّ اللَّهُ بِجَهْلٍ قَطُّ ، وَلَا أَذَلَّ اللَّهُ بِحِلْمٍ قَطُّ » (٤) .
- ٣ - قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ ، وَلَكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ ، وَيَعْظَمَ حِلْمُكَ » (٥) .
- ٤ - قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام : « إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي الرَّجُلُ أَنْ يُذَرِكَهُ حِلْمُهُ عِنْدَ غَضَبِهِ » (٦) .

(١) هود ١١ : ٧٥ .

(٢) الأعراف ٧ : ١٩٩ .

(٣) بحار الأنوار : ٣٦٨ / ٩٧ .

(٤) أصول الكافي : ١٢٠ / ٢ .

(٥) نهج البلاغة : ٤٨٤ .

(٦) أصول الكافي : ١١٢ / ٢ .

٥ - قال الإمام الصادق عليه السلام: «كَفَى بِالْحِلْمِ نَاصِرًا»^(١).

وكانت هذه الظاهرة من أبرز صفات أئمة أهل البيت عليه السلام، فكان الإمام الحسن عليه السلام سبط النبي وريحانته مضرب المثل في حلمه حتى شهد له بذلك أعدائه مروان بن الحكم حينما بادر إلى حمل جنازته فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «أَتَحْمِلُ النُّوْمَ جَنَازَتَهُ، وَقَدْ كُنْتَ بِالْأَمْسِ تُجَرِّعُهُ الْغَيْظَ».

فقال مروان: كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال^(٢).

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من أكثر الناس حلمًا، وأوسعهم صدرًا حتى لُقِّبَ بالكاظم لكظمه الغيظ، وأثنى تعالى على المتّصفين بهذا الخلق الرفيع فقال تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

إنّ الحلم يقضي على كثير من المشاكل والتنافر، ويوجب نشر المحبة والمودة بين الناس، ويبعدهم عن الكراهية والحقد، فلذا اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً في تركيزه في نفوس المسلمين وتحليلهم به.

التواضع

إنّ التواضع من المزايا الكريمة التي تعنى التربية الإسلامية بغرسها في آفاق النفس، وهو أحد الأسباب المزيّلة للتكبر والمبيدة لدائه، وهو يرفع الإنسان في الدنيا، ويقربه من الله.

وتواترت الأخبار بالحث عليه، فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ

(١) أصول الكافي: ١٢٠/٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٥/٤.

(٣) آل عمران ٣: ١٣٤.

إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١).

وقال ﷺ لأصحابه: «ما لي لا أرى عَلَيْكُمْ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ؟

فانبروا قائلين: ما حلاوة العبادة؟

فقال ﷺ: التَّوَّاضُّعُ»^(٢).

وقال ﷺ: «أُزِيعَ لَا يُعْطِيَهُنَّ اللَّهُ إِلَّا مَنْ يُحِبُّهُ: الصَّنَتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ، وَالتَّوَّاضُّعُ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا».

وقد تجسّد التواضع بما له من معنى في أئمة أهل البيت ﷺ، فقد أعطوا دروساً رائعة في ذلك.

فقد روى المؤرّخون أنّ رجلاً استضاف مع ابنه عند الإمام أمير المؤمنين ﷺ، فأكرمهما وقدم لهما خواناً من الطعام وبعد فراغهما انبرى ﷺ فأخذ الابريق ليصب الماء على يد الرجل، فامتنع من ذلك، فقال ﷺ له:

«إِنَّ اللَّهَ يَرَانِي أَخَاكَ الَّذِي لَا يَتَمَيَّزُ مِنْكَ، وَلَا يَتَفَضَّلُ عَنْكَ، وَيَزِيدُنِي بِذَلِكَ مَنْزِلَةً فِي الْجَنَّةِ» يريد بذلك في خدمته الجنة، ثم أقسم عليه بحقه أن يستجيب له، فانصاع الرجل، فصب الإمام على يده الماء، فلمّا فرغ ناول الابريق إلى ولده محمد بن الحنفية، وأمره أن يصب الماء على يد ابن الرجل، وقال له:

«لَوْ كَانَ هَذَا الْإِبْنُ حَضَرَني دُونَ أَبِيهِ لَصَبَّيْتُ الْمَاءَ عَلَى يَدِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَأْبَى أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ الْإِبْنِ وَأَبِيهِ».

(١) الكافي: ١٢٢/٢، الحديث ٣، مثله. فيض القدير في شرح الجامع الصغير: ١٤١/٦، الحديث ٨٦٠٥.

(٢) ميزان الحكمة: ٣٥٥٤/٤. تنبيه الخواطر: ٢٠١/١.

فقام محمد وصب الماء على يد الابن^(١).. بهذه الروح العالية ساد الإسلام في تربيته، وسما في تعاليمه وأخلاقه.

وتحدث الإمام الصادق عليه السلام عن شرع التواضع، فقال عليه السلام:

«التَّوَّاضُّعُ أَضَلُّ كُلِّ شَرَفٍ نَفِيسٍ، وَمَرْتَبَةٌ رَفِيعَةٌ، وَلَوْ كَانَ التَّوَّاضُّعُ لُغَةً يَفْهَمُهَا الْخَلْقُ لَنَطَقَ عَنْ حَقَائِقِي فِي مَخْفِيَّاتِ الْعَوَاقِبِ، وَالتَّوَّاضُّعُ مَا يَكُونُ لِلَّهِ وَفِي اللَّهِ، وَمَا سِوَاهُ فَكَيْبَرٌ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ شَرَّفَهُ اللَّهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَلِأَهْلِ التَّوَّاضُّعِ سِيَمَاءٌ يَعْرِفُهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ مِنَ الْعَارِفِينَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾^(٢)»^(٣).

وأصل التواضع من إجلال الله وهيبته وعظمته، وليس لله عز وجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التواضع، ولا يعرف ما في معنى حقيقة التواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدايته. قال الله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٤).

وقد أمر الله عز وجل أعز خلقه وسيد بريته محمداً عليه السلام بالتواضع فقال عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع، والخشية والحياء وأنهن لا يأتين إلا منها وفيها، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلا للتواضع في ذات الله تعالى.

(١) المناقب: ٣٧٣/١.

(٢) الأعراف: ٤٦: ٧.

(٣) بحار الأنوار: ١٢١/٧٥، الحديث ١٢، باختلاف.

(٤) الفرقان ٢٥: ٦٣.

(٥) الشعراء ٢٦: ٢١٥.

وَأَلَّمَ حَدِيثَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِوَاقِعِ التَّوَاضُّعِ الَّذِي يَثَابُ عَلَيْهِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَيَسْتَحَقُّ بِهِ الْأَجْرَ ، وَذَلِكَ فِيمَا إِذَا تَجَرَّدَ عَنْ جَمِيعِ النِّزَعَاتِ الْمَادِيَّةِ ، وَقَصَدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى خَالِصاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

العفو والصفح

من الصفات الكريمة التي تعنى بها التربية الإسلامية ، العفو عن المعتدي والصفح عن المسيء ، وَحَثَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ كِتَابِهِ عَلَى التَّحَلِّيِ بِهَذَا الْخُلُقِ الرَّفِيعِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَغْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١) .

وَأَمَرَ تَعَالَى بِمُقَابَلَةِ الْمُسِيئِينَ بِالْإِحْسَانِ ، وَالدَّفْعِ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ^(٢) .

وحفلت كتب الحديث بكوكبة كبيرة من الأخبار التي أثرت عن الرسول الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَهِيَ تَحَثُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّخَلُّقِ بِهَذِهِ النِّزْعَةِ الْكَرِيمَةِ ، فَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ خَلَائِقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؟ الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتَصِلُ مِنْ قِطْعِكَ ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَكَ » ^(٣) .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَلَيْكُمْ بِالْعَفْوِ ، فَإِنَّ الْعَفْوَ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا عِزًّا ، فَتَعَاوَا يُعِزُّكُمْ اللَّهُ » ^(٤) .

(١) التغابن : ٦٤ : ١٤ .

(٢) فصلت : ٤١ : ٣٤ .

(٣) أصول الكافي : ١٠٧ / ٢ .

(٤) المصدر المتقدم : ١٠٨ .

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ثَلَاثٌ لَا يَزِيدُ اللَّهُ بِهِنَّ الْمُسْلِمَ إِلَّا عِزًّا: الصَّفْحُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَهُ، وَالصَّلَاةُ لِمَنْ قَطَعَهُ»^(١).

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ثَلَاثٌ مِنْ مَكَارِمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: تَغْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وَتَحْلُمُ إِذَا جَهِلَ عَلَيْكَ»^(٢).

وكانت هذه النزعة الشريفة من صفات الرسول ﷺ، فقد قابل جميع من أساء إليه بالعفو والإحسان، وقد عفا عن مشركي قريش الذين آذوه وسخروا منه، وأخرجوه من دياره، وألبوا عليه جميع قوى الشرك، ولما فتح ﷺ مكة قال لهم: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟».

فانبروا جميعاً بلسان واحد قائلين: «أخ كريم، وابن أخ كريم».

فقال ﷺ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ».

وروى أنس بن مالك، قال: «كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فجذبته أعرابي من رداءه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه، وقال له بنبرات تقطر غضباً: «يا محمد، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك، ولا من مال أبيك».

فسكت الرسول ﷺ برهة، ثم انطلق قائلاً: الْمَالُ مَالُ اللَّهِ، وَأَنَا عَبْدُهُ.

ثم قال للأعرابي: وَيَقَادُ مِنْكَ يَا أَعْرَابِي مَا فَعَلْتَ؟

- لا.

- لِمَ؟

(١) أصول الكافي: ١٠٧/٢ - ١٠٩.

(٢) أصول الكافي: ١٠٧/٢.

- لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة .

فتبسم ﷺ وأمر بأن يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر^(١) .

وقد قابل ﷺ كل من أساء إليه بالإحسان والمعروف ، والصفح الجميل ، وكانت هذه الظاهرة الفذة من نزعات أئمة أهل البيت ﷺ ، وقد امتازوا بها على سائر الناس ، فقد روى المؤرخون أنّ الإمام زين العابدين ﷺ خرج إلى المسجد فالتقى به رجل ، فأخذ يكيل السبّ والشتم للإمام ، فأراد غلمانه أن ينتقموا من الرجل ، فنهاهم الإمام وقال لهم : كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْهُ .

والتفت إلى الرجل فقال له : « يا هذا ، أنا أَكْثَرُ مِمَّا تَقُولُ ، وَمَا لَا تَعْرِفُهُ مِنِّي أَكْثَرُ مِمَّا عَرَفْتَهُ » .

فخجل الرجل واستحيا ، وقام الإمام فخلع عليه قميصه ، وأمر له بألف درهم ، فطفق الرجل يقول : أشهد أنّ هذا الشاب من ولد رسول الله ﷺ .

واجتاز شخص من أهل الشام على الإمام الزكيّ أبو محمّد الحسن ﷺ فأخذ يشتمه ، وبعد انتهائه قابله الإمام ببسمات فيّاضة بالبشر قائلاً له : « أَيُّهَا الشَّنِيعُ ، أَظَنُّكَ غَرِيباً ، لَوْ سَأَلْتَنَا أَعْطَيْنَاكَ ، وَلَوْ اسْتَرْشَدْتَنَا أَرْشَدْنَاكَ ، وَلَوْ اسْتَحْمَلْتَنَا حَمَلْنَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ جَائِعاً أَطْعَمْنَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ مُحْتَاجاً أَغْنَيْنَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ طَرِيداً أَوْيْنَاكَ » .

وما زال ﷺ يلاطف الشامي بهذا ومثله حتّى قلع روح الشرّ من نفسه ، وقد ذهل من معالي أخلاقه ، ولم يطق ردّ الكلام ، وانطلق يقول : الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء .

وهكذا إذا استعرضنا سيرة أئمة أهل البيت ﷺ نجدها طافحة بمثل هذه البوادر

التي تدلّ على نكران الذات ، والتجرد من نزعات الانتقام ، فكانوا من أبرز ممّن عناهم الله بقوله : ﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ^(١).

الإحسان

الإحسان أفضل مكرمة يكتسبها الإنسان في حياته ، وأطيب ثمرة يقننيها في وجوده ، فهو يكسبه مودة الناس ، وإجماعهم على تكريمه ، ويعود عليه بجمال الأحداث بعد وفاته ، وقد تبنى الإسلام بصورة إيجابية الإحسان ، ودعا إليه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ ^(٢).

كما جعله من أفضل الصفات التي يتحلّى بها الإنسان .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ^(٣).

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ ^(٤).

ورغب بإتيان الحسنة ، وجعل عوضها خيراً منها .

قال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ^(٥).

ووعد بأن عوضها عشر أمثالها .

(١) الرعد ١٣ : ٢٢ .

(٢) النحل ١٦ : ٩٠ .

(٣) النساء ٤ : ١٢٥ .

(٤) لقمان ٣١ : ٢٢ .

(٥) النمل ٢٧ : ٨٩ .

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(١).

كما وعد تعالى في غير آية من كتابه بأنه لا يضيع أجر المحسنين ، وأنه يمنحهم أجزل الأجر وأكثر الثواب .

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

الإحسان قاعدة أساسية في بناء المجتمع الإسلامي ، ومن أفضل الوسائل الهادفة إلى نشر المحبة والمودة بين الناس ، وقد خصّ بعض الفئات بالإحسان إليها ، وذلك لما لها من روابط القربى أو الجوار ، أو لأنها فقدت الكافل .

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٣).

وقد قرن تعالى البرّ بهذه الفئات بعبادته ؛ لأنّ بعضها في أمس الحاجة إلى العطف والإحسان ، وهذه الفئات هي :

١ - الوالدان ، فإنّ رعايتهما والبرّ بهما من أوثق الأسباب التي تؤدّي إلى تماسك الأسرة ، وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في البحوث المتقدمة .

٢ - ذوو القربى به وهم الاخوة والأعمام والأخوال ، وأبناءؤهم ، وسائر الأقربين ، فإنّ الإحسان إليهم يوجب شيوع المحبة بين أفراد الأسرة التي هي اللبنة الأولى للمجتمع .

٣ - اليتامى ، وهم الذين فقدوا آباءهم ، والأئمة مسؤولون عن رعايتهم وتربيتهم ،

(١) الأنعام ٦: ١٦٠ .

(٢) هود ١١: ١١٥ .

(٣) النساء ٤: ٣٦ .

وهو من موارد التكافل الاجتماعي الذي فرضه الإسلام على المسلمين ، وألزمهم بالإنفاق على العاجز والضعيف واليتيم .

٤ - **المساكين** ، وهم الفقراء الذين لا يجدون قوت سنتهم ، فعلى الأمة أن تنفق عليهم ، وقد خصّص الإسلام لهم كثيراً من المبرّات الاجتماعية ، كما جعل لهم قسماً من الزكاة المفروضة ، وذلك لاكتساح الفقر ، وإزالة شبحه من المجتمع الإسلامي .

٥ - **الجار** (ذي القربى) وهو المجاور القريب ، و(الجار ذي الجنب) أي البعيد في جواره ، وقد أمر تعالى بالإحسان إليهم حتّى تتوثق المحبة والمودة بين أهل الحي الواحد ، وهي من الأسباب المهمة في تماسك المجتمع وترابطه .

٦ - **ابن السبيل** : وهو الذي فقد ما عنده من أموال قبل أن يبلغ وطنه ، فإنّ الإسلام أمر بتعاهده ورعايته ، والإنفاق عليه حتّى يبلغ وطنه ، كما جعل له حصّة في الزكاة المفروضة .

٧ - **ملك اليمين** : وهو ما يملكه الانسان من الرقيق ، وقد حثّ الإسلام على الإحسان إليهم ، كتحريرهم وعتقهم ، والبرّ بهم ، وعدم تكليفهم بما لا يطيقون . إنّ الإحسان والبرّ إلى هذه الفئات ممّا يوجب شيوع المودة ، وقوّة الروابط الاجتماعية بين المسلمين ، ويجعلهم يدّاً واحدة على من سواهم .

السخاء

من كان ندّي الكفّ ، مبسوط اليدين بالعطاء ، متمسكاً بأهداب السخاء ، بعيداً عن البخل ، نائياً عن الشحّ ، فأعظم به من خير عميم ، كبير الثقة بالله ، عظيم النفس ، شريف الذات ، نبيل المقاصد .

إنّ التربية الإسلامية تعنى بغرس هذه الظاهرة ، وتنميتها في آفاق النفس ؛ لأنّها من أعظم النزعات الشريفة التي توجب تماسك المجتمع ، وشيوع المحبة والمودة

بين أفرادهِ ، وقد دعا النبي ﷺ أمته إلى التحلي به ، فقد أثر عنه أنه قال : « إِنَّ السَّخَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ مِنَ الْجَنَّةِ »^(١) .

وقال ﷺ : « قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : إِنَّ هَذَا الدِّينَ ارْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي ، وَلَنْ يُضْلِحَهُ إِلَّا السَّخَاءُ وَحَسَنُ الْخُلُقِ ، فَأَكْرَمُوهُ بِهِمَا مَا اسْتَطَعْتُمْ »^(٢) .

وقال ﷺ : « إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ »^(٣) .

وقال ﷺ : « إِصْنَعِ الْمَعْرُوفَ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُهُ وَإِلَى مَنْ لَيْسَ أَهْلُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ مِنْ أَهْلِهِ فَكُنْ أَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ »^(٤) .

وتواترت الأخبار الواردة عن أئمة أهل البيت ﷺ وهي تحفز المسلمين على التحلي بهذه الصفة الكريمة . قال الإمام موسى بن جعفر ﷺ : « السَّخِيُّ الْحَسَنُ الْخُلُقِ فِي كَنَفِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَسْتَخْلِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ حَتَّى يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا وَلَا وَصِيًّا إِلَّا سَخِيًّا ، وَمَا زَالَ أَبِي يَوْصِينِي بِالسَّخَاءِ حَتَّى مَضَى »^(٥) .

وكانت هذه النزعة الكريمة من الصفات البارزة في أئمة أهل البيت ﷺ ، فكانوا لا يعرفون للمال قيمة سوى ما يرد به جوع جائع ، أو إغاثة لمهوف ، أو وفاء دين غارم ، وقد أثر عن الإمام الحسن كريم أهل البيت ﷺ أنه ما قال لسائل « لا » قط ، وقيل له لأي شيء لا نراك تردّ سائلاً فأجاب :

(١) كنز العمال : ٣٩٣/٦ ، رقم ١٦٢١٧ .

(٢) تحف العقول : ٤٥ .

(٣) فروع الكافي : ٤٠/٤ ، الحديث ٩ . جامع الأحاديث : ٨٥ باختلاف .

(٤) فروع الكافي : ٢٧/٤ .

(٥) فروع الكافي : ٣٩/٤ .

«إِنِّي لِلَّهِ سَائِلٌ ، وَفِيهِ رَاغِبٌ ، وَأَنَا أَسْتَحْيِ أَنْ أَكُونَ سَائِلًا وَأُرَدَّ سَائِلًا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَوْدَنِي عَادَةً أَنْ يُفِيضَ نِعْمَهُ عَلَيَّ ، وَعَوْدَتُهُ أَنْ أُفِيضَ نِعْمَهُ عَلَى النَّاسِ ، فَأَخْشَى إِنْ قَطَعْتُ الْعَادَةَ أَنْ يَمْنَعَنِي الْعَادَةُ» ، وأنشأ يقول :

«إِذَا مَا أَتَانِي سَائِلٌ قُلْتُ مَرْحَبًا بِمَنْ فَضْلُهُ فَرَضَ عَلَيَّ مُعْجَلٌ
وَمَنْ فَضْلُهُ فَضَّلَ عَلَيَّ كُلِّ فَاضِلٍ وَأَفْضَلُ أَيَّامِ الْفَتَى حِينَ يُسْأَلُ»^(١)

وكانوا يغدقون ببرّهم ونعمهم على المحوجين والأيتام . يقول فيهم الكميّ :

وَالْقِيَوْتُ اللَّيْثُ إِنْ أَمَحَلَ النَّاسُ شُ فَمَأْوَى حَوَاضِنِ الْأَيْتَامِ

وقد حفلت سيرتهم بكثير من بوارد الكرم والمعروف ممّا يدلّ على أنّ ذلك كان من مقوماتهم وعناصرهم .

الإيثار

الإيثار من الصفات الكريمة التي تؤدّي إلى سموّ الإنسان وتكامل شخصيّته ، ونكراته لذاته ، وتفانيه في سبيل الحقّ والخير ، وقد عني به الإسلام عناية بالغة ، وأثنى على من يتخلّق به ، فقد مدح القرآن الكريم جماعة من نبلاء المسلمين وأفذاذهم ؛ لأنّهم آثروا اخوانهم على أنفسهم .

قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقْ شَحْنَفِهِ فَإِنَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٢) .

وسبب نزول هذه الآية - فيما يقول المفسّرون - أنّ سبعة أشخاص من المسلمين

(١) نور الأبصار: ١١١ .

(٢) الحشر ٥٩ : ٩ .

سقطوا جرحى في واقعة أحد ، وقد فتك بهم العطش ، وأضرّ بهم ، فبادر شخص من المسلمين فجاءهم بماء ، ولكنّه لم يكن يكفي إلّا واحداً منهم ، فناوله لشخص منهم ، فأبى أن يشرب ، وقال له : ناوله لأخي لعلّه أكثر ظمأً منّي ، فانبرى إليه وناولوه الماء ، فلمّا أراد أن يشرب سمع أنين صاحبه ، فامتنع من الشرب وآثره على نفسه ، وهكذا كان كلّ واحد منهم يؤثر أخاه في دين الله على نفسه ، وانعطف الرجل إلى الأخير منهم فوجده ميتاً ، فأقبل ليسيقي الآخر فوجده ميتاً ، وهكذا قد ماتوا جميعاً^(١).

لقد غذاهم الإسلام بهذه الروح العظيمة ، وطبعهم على هذه الأخلاق الرفيعة ، فكانوا أمثلة للتكامل الإنساني في جميع مراحل التاريخ .

ومن أروع صور الإيثار في الإسلام ، وأعطره ذكراً ، وأبقاه أثراً ، هو إيثار أهل البيت عليهم السلام ، فقد نزلت فيهم سورة من القرآن الكريم ، وهي سورة « الإنسان » ، وكان سبب ذلك فيما أجمع عليه المفسّرون أنّ الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما جدّهما الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله مع بعض الصحابة فقالوا للإمام : لو نذرت لله إن عافى ولديك ، فنذر عليه السلام صوم ثلاثة أيّام إن برئاً ، وتابعته الصديقة وجاريتها فضّة ، في ذلك ، ولمّا أبل الحسنان من المرض صاموا جميعاً ، ولم يكن عند الإمام في ذلك الوقت شيء من الطعام ، فاستقرض ثلاثة أصواع من الشعير ، فعمدت الصديقة في اليوم الأوّل إلى صاع فطحنته وخبزته ، فلمّا آن وقت الإفطار وإذا بمسكين يستميحهم من القوت شيئاً ، فتبرّع الإمام في إفطاره ، وتابعه الجميع في صنعه ، وقضوا ليلتهم ، ولم يذوقوا من الطعام شيئاً ، وأصبحوا صائمين .

وفي اليوم الثاني عمدت الصديقة إلى صاع آخر فطحنته وصنعتة طعاماً ، فلمّا حلّ وقت الإفطار وإذا بيتيم على الباب يشكو ألم الجوع ، فتبرّعوا جميعاً بقوتهم ،

وطووا ليلتهم ولم يذوقوا سوى الماء .

وفي اليوم الثالث قامت سيّدة نساء العالمين فطحنت ما فضل من الطعام وصنعتة خبزاً ، فلمّا حان وقت الإفطار وإذا بأسير يشكو الجوع ، فسحبوا أيديهم من الطعام وقَدّموه له ، وزارهم رسول الله ﷺ في اليوم الرابع فرأى الصفرة بادية على وجوههم وقد أخذ منهم الضعف مأخذاً عظيماً ، فتأثّر ﷺ وانطلق يقول : « وَاعْوَاثُهُ أَهْلُ بَيْتِ مُحَمَّدٍ يَمُوتُونَ جِيعاً » .

ولم ينته الرسول ﷺ من كلامه حتّى هبط عليه أمين الوحي وهو يرفع إليه سورة ﴿ هَلْ أَتَى ﴾ ، وفيها أجمل الثناء وعاطر الذكر ^(١) .

لقد شكر الله سعيهم على هذا الإيثار الذي لا نظير له في عالم المبرّات والإحسان ، وقد عوّضهم في الدار الآخرة الفردوس يتقلّبون في نعيمه ، كما جعل ذكرهم في دار الدنيا خالداً ، وجعلهم أئمة للمسلمين ، وقادة لهم حتّى يرث الله الأرض ومن عليها .

التعاون

ومن أبرز معالم التربية الإسلامية التعاون في ميادين الخير ومجالات الإصلاح . قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ^(٢) . هذا هو المنهج الإسلامي الهادف لتكوين الفرد والمجتمع على أساس وثيق من الترابط والتعاون في جميع شؤون الحياة ، تعاون على صعيد البرّ والتقوى لا في مجالات الإثم والعدوان ، ومن أبرز صور التعاون على الخير إنشاء المدارس

(١) تفسير الفخر الرازي : ٣٩٢/٨ . روح البيان : ٥٤٦/٦ . أسباب النزول / الواحدي : ٣٣١ .

ينابيع المودة : ٩٣/١ . الرياض النضرة : ٢٢٧/٢ .

(٢) المائدة ٥ : ٢ .

والمستشفيات ومعاهد العلم والمعامل ، وأمثال هذه الأمور التي توجب تطوّر المجتمع وتقدّمه ، وازدهار حياته الفكرية والاقتصادية .

وقد أدّت هذه النزعة الكريمة التي تبناها المسلمون - في عصورهم الأولى - إلى سيادتهم ورفقيهم ، وعلوّ شأنهم .. ولمّا ضعفت هذه الروح الخيرة في نفوس المسلمين ، وتنافروا فيما بينهم تشتّت أمرهم ، وتفرّقت كلمتهم ، وصاروا بأقصى مكان من الذلّ والهوان ، حتّى طمعت فيهم إسرائيل التي كانت من أذلّ الأمم ، وأحطها شأنًا ، فأسست في أوطانهم دويلة للصهاينة ، وهي جاهدة على إذلال العرب والمسلمين ، وإرغامهم على ما يكرهون ، ولو كان هناك تعاون صادق بين دول المسلمين لما استطاعت إسرائيل أن تحتلّ هذه البقعة الغالية من وطننا العزيز ، وتجلي أهلها ، وتبيدهم عنها ، وتبالغ في إذلالهم وإرهابهم .. والمسلمون جميعاً يسمعون ما يجري على إخوانهم الفلسطينيين من القتل والتشريد ، فلم تحرّكهم الحميّة الدينية لأن يهبّوا لإنقاذهم وإعادة حقّهم السليب إليهم .

الصدق

وأولى الإسلام اهتمامه البالغ بالصدق ، وحثّ على التعوّد عليه ، فهو من أوّليات النزعات الكريمة ، وأفضل الصفات الطيّبة ، وهو أحد الأركان الأربعة التي عليها مدار نظام المجتمع الإنساني ، كما هو عنوان لرقّيّ الأُمّة إن اتّصفت به ، ودليل على انحطاطها إن تخلّت عنه .. ونعرض فيما يلي لبعض شؤونه :

في ظلال القرآن

وعرض القرآن الكريم في كثير من آياته إلى أهميّة الصدق ، وعظيم منزلته عند الله ، فقد وصف تعالى به نفسه . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(١).

وأثنى به على نبيّه إسماعيل عليه السلام بقوله:

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾^(٢).

وجعله من أوصاف المؤمنين والمتحرّجين في دينهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٣).

وجعله منطق الفصل في يوم حشر الإنسان وحسابه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾^(٥).

كما أمر باتّباع الصادقين في هذه الحياة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٦).

إلى غير ذلك من الآيات التي دعت الناس إلى التمسك بالصدق والتخلّق به.

في ظلال السنّة

وأثرت عن الرسول الأعظم ﷺ وأئمّة أهل البيت عليه السلام كوكبة كبيرة من الأخبار،

(١) الأنعام ٦: ١٤٦. يوسف ١٢: ٨٢. الحجر ١٥: ٦٤. النمل ٢٧: ٤٩.

(٢) مريم ١٩: ٥٤.

(٣) الحجرات ٤٩: ١٥.

(٤) المائدة ٥: ١١٩.

(٥) الأحزاب ٣٣: ٢٤.

(٦) التوبة ٩: ١١٩.

وهي تحثّ المسلمين على الصدق ، والتجنب عن الكذب ، ونعرض لبعضها :

قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى صِدْقًا ، وَإِبْرًا ، وَالْكَذِبُ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا »^(١) .

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « لَا تَنْظُرُوا إِلَى طُولِ رُكُوعِ الرَّجُلِ وَسُجُودِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ اعْتَادَهُ ، فَلَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ لِذَلِكَ ، وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ وَأَدَاءِ أَمَانَتِهِ »^(٢) .

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْنِ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبِرِّ وَالْفَاجِرِ »^(٣) .

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام يوصي شيعة : « كُونُوا دُعَاءَ لِلنَّاسِ بِالْخَيْرِ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ لِيَرَوْا مِنْكُمْ الْإِجْتِهَادَ وَالصِّدْقَ وَالْوَرَعَ »^(٤) .

وهناك طائفة كبيرة من الأخبار وهي تلزم المسلمين على الاتصاف بهذه النزعة الكريمة التي توجب انتشار الثقة ، وشيوع الاستقرار بين الناس .

ضرورته

الصدق من المقومات الذاتية للإنسان ، وشأن أصيل من شؤونهِ ، يتوقّف عليه

(١) نهج الفصاحة : ٥٥٠/٢ .

(٢) أصول الكافي : ١٠٥/٢ ، الحديث ١٢ .

(٣) الكافي : ١٠٤/٢ ، الحديث ١ . مجموعة ورام : ١٨٨/٢ .

(٤) أصول الكافي : ١٠٥/٢ ، الحديث ١٠ .

نظامه وتوازنه في حياته الاقتصادية والثقافية وغيرهما ، فالاقتصاد في العالم إنما يديره الصدق في المعاملة ، فرأس المال الوطني أو الفردي ، والبنوك والتجارات ، وسائر الحرف والصناعات ، إنما تسير على ضوء الصدق والواقعية التي هي من العناصر الذاتية في سير المعاملات وترتيب الآثار من النقل والانتقال عليها ، فالصدق هو لولب الحركة الاقتصادية في جميع أنحاء العالم ، ومن المستحيل أن تنمو أي حركة اقتصادية تعتمد على الاختلاس والتزوير ، وغيرهما من ألوان الكذب .

والصدق عنصر أساسي في الحياة الثقافية ، فإنها إنما تقوم على منهج الواقعية والصدق ، فلو كذب الطلبة في امتحاناتهم وفي سائر مناهجهم الدراسية ، وكذب عليهم مدرّسهم فيما يلقونه عليهم من دروس لاستحالت الثقافة ، وما اخضرّ لها عود ، وما أثمرت في إيجاد الوعي ، وانتشار الحركة الثقافية وازدهارها .

وكذلك الحياة السياسية إنما تقوم وتستمرّ في فعاليتها ، وسائر معطياتها على الصدق ، فلو تخلّت عنه لا بدّ أن تفشل إن عاجلاً أو آجلاً ، ولعلّ أروع صورة للصدق تمثّلت في الحياة السياسية في الإسلام هو ما قام به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رائد الحقّ والعدالة في الأرض ، حينما هبّت قوى الخوارج بعد ما تبين لها زيف معاوية في دعواه للتحكيم ، فأصرت عليه أن يعترف بالذنب ، ويعلن التوبة على قبول التحكيم الذي فرضوه عليه ، فأصرّ عليه على الامتناع لأنّه لم يقترف ذنباً حتّى يعلن التوبة عنه ، وإنّما هم الذين اقترفوه ، ولو جاراهم الإمام فيما يقولون لاستراح من التمرد الذي مُني به جيشه ، ولكنّه سلام الله عليه لم يؤمن بالحياة السياسية التي بنيت على الكذب والخداع والتضليل ، وإنّما سار على الطريق الواضح الذي لا التواء فيه ، وكذا لو سائر عبدالرحمن بن عوف حينما شرط عليه بعد مقتل عمر بن الخطاب أن يبايعه على كتاب الله وسنة نبيّه وسيرة الشيخين لما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفّان عميد الأسرة الأموية الحاكمة على الإسلام ، ولكنّه عليه السلام أبى وأصرّ على التمسك بالصدق

مهما جرّ له من المصاعب والمشاكل ، وأثر رضا الله على كلّ شيء ، فرفض أن يسير على سيرة الشيخين ومنهجهما ، وأصرّ على أن تكون سياسة الأمة وإدارة شؤونها مستمدّة من كتاب الله الكريم ، وسنّة نبيّه العظيم ﷺ . وعلى أيّ حال ، فإنّ الصدق ضرورة من ضروريّات الحياة ، وشأن أصيل من شؤونها .

أنواعه

وأنواع الصدق من أرفع الصفات وأشرفها ، وهي :

١ - الأمانة

الأمانة من أقوى الدعائم الوثيقة التي يقوم عليها المجتمع السليم ، وهي عنوان لجميع الفضائل والمكارم ، وتشمل رعاية حقوق الله التي أوّتمن عليها الإنسان من الفرائض والواجبات ، وترك المحرّمات ، كما تشمل رعاية حقوق النّاس ، فلا يطمع الإنسان في مال أوّتمن عليه ، ولا يستعمل الغشّ ولا التطفيف في الوزن والكيل ، ولا يتتبع عورات النّاس ، ويرشد إذا كان عالماً ، ويقول الحقّ إذا كان شاهداً ، ويؤدّي الرسالة على وجهها .. وقد أمر الله بأداء الأمانة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ ^(١) .

وجعلها تعالى من صفات المؤمنين الأخيار .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ ^(٢) .

ويقول الرسول الأعظم ﷺ : « لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ » ^(٣) .

(١) النساء ٤ : ٥٨ .

(٢) المؤمنون ٢٣ : ٨ .

(٣) جامع الأحاديث : ١٣٥ .

وقال ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(١).

وقال ﷺ: «الْأَمَانَةُ غِنَى»^(٢).

وقال ﷺ: «الْأَمَانَةُ تَجْلِبُ الرِّزْقَ، وَالْخِيَانَةُ تَجْلِبُ الْفَقْرَ»^(٣).

ومن ضروب الأمانة الاستشارة، فالمستشير في استشارته قد استأمن المشير في أن ينصحه ولا يغشه، وقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ، فَإِذَا اسْتَشِيرَ أَحَدُكُمْ فَلْيَشِرْ بِمَا هُوَ صَانِعٌ لِنَفْسِهِ».

وفي حديث آخر: «مَنْ أَسَارَ إِلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَ»^(٤).

ومن أنواع الأمانة عدم إفشاء أحاديث الناس في مجالسهم فهم في اجتماعهم كأنهم تعاهدوا على أن يؤمن بعضهم بعضاً دون خوف ولا حذر، ووجب على كل منهم أن لا يخون صاحبه في نقل حديثه.

وقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا يَتَجَالَسُ الْمُتَجَالِسَانِ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِهِمَا أَنْ يَفْشِيَ عَلَى صَاحِبِهِ مَا يَخَافُ»^(٥).

وقد أكد النبي ﷺ في غير موقف أن سلامة أئمة، وبقاء أصالتها وصلاحها، فيما إذا روعيت الأمانة، وطُبِّقَتْها على واقع حياتها ولم ترها مغنماً، فقال ﷺ: «لَا تَرَأُلُ أَمْتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرَ الْأَمَانَةَ مَغْنَمًا، وَالصَّدَقَةَ مَغْرَمًا»^(٦).

(١) تهذيب الأكم: ٣٤٨/٦، الحديث ٩٨١. الاستبصار: ١٧٢/٥٢/٣ (ذيل الحديث ١).

(٢) مكارم الأخلاق / ابن أبي الدنيا: ٩٢. الجامع الصغير: ٤٧٦/١، الحديث ٣٠٨٠.

(٣) الجامع الصغير: ٤٧٦/١، الحديث ٣٠٨١.

(٤) سنن أبي داود: ١٧٨/٢، الحديث ٣٦٥٧، وفيها: «المستشار مؤتمن» فقط.

(٥) الجامع الصغير: ٣٩٤/١، الحديث ٢٥٧٦. كنز العمال: ١٤٠/٩، الرقم ٢٥٤٠٨.

(٦) الخلق الكامل: ١٥٨/٤.

٢ - الوفاء بالعهد

ومن أبرز معالم التربية الإسلامية الوفاء بالوعد ، وقد دعا الإسلام إلى هذه الصفة ، فقال تعالى يمدح نبيه إسماعيل عليه السلام : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ ^(١).

إن من يقطع على نفسه وعداً أو عهداً ، فقد سجل عليه وثيقة بذلك ووجب عليه تنفيذها ، وليس له أن يخيس بها .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ^(٢).

قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ ^(٣).

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ ^(٤).

وأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ - وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ - : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ » ^(٥).

وسأله بعض أصحابه عن صفات المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ » ^(٦).

إن الوفاء بالعهد والوعد ضرورة اجتماعية يتوقف عليها سير الحياة ونظامها ،

(١) مريم ١٩ : ٥٤ .

(٢) الصَّف ٦١ : ٢ و ٣ .

(٣) النحل ١٦ : ٩١ .

(٤) الإسراء ١٧ : ٣٤ .

(٥) الجامع الصغير : ٢ / ٢٢٥ ، الحديث ٥٩٣٩ . كنز العمال : ١ / ١٦٧ ، الرقم ٨٤٢ .

(٦) مستدرک الوسائل : ١١ / ٤٧ ، الحديث ١٢٣٩٨ .

وقد أكد الإسلام على ضرورته ، وألزم المسلمين بالوفاء به حتى لو قطعوه مع أعدائهم .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشر:

«وَأِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عَقْدَةً ، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً ، فَحُطَّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ ، وَازْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيَ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً ، مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ ، وَتَشْتَّتِ آرَائِهِمْ ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ . وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ ؛ فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ ، وَلَا تَخِيْسَنَّ بَعْهْدِكَ ، وَلَا تَخْتَلِنَنَّ عَدُوَّكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِيءُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ ، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنْعَتِهِ ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ»^(١).

هذا هو موقف الإسلام تجاه العهد والوعد ، فقد ألزم بالوفاء بهما حتى مع أعداء الإسلام وخصومه .

الكلم الطيب

وتجهد التربية الإسلامية على تعويد الناس على الكلام الطيب ، والقول الحسن ، واجتناب هجر الكلام ومزّه .

قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٢).

إنَّ الكلام الطيب يصعد إلى الله ، ويجازي عليه ، وبارك لصاحبه فيه ، وقد أكد الإسلام على ذلك كثيراً ، وقد أمر الله عباده أن يقولوا أحسن القول .

(١) نهج البلاغة : ٤٤٢ .

(٢) فاطر ٣٥ : ١٠ .

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾^(١).
وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٢).

إنَّ الكلام الطيب يجعل الإنسان محموداً في سيرته ، ومرضياً في سلوكه ،
كما يجنبه الكثير من المشاكل والمصاعب التي تترتب على الكلام السيء ، فإنه في
كثير من الأحيان يثير الأحقاد ، ويلقي الناس في شرٍ عظيم .

كما أنَّ آداب الكلام - في الإسلام - أن يغضَّ الرجل صوته ولا يجهر به .

قال تعالى: ﴿وَغَضُّضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(٣).

وقد روى الإمام موسى عليه السلام أنَّ رسول الله ﷺ كان يعجبه أن يكون الرجل خفيف
الصوت ، ويكره أن يكون جهير الصوت^(٤).

إنَّ لهجة الخطاب إذا كانت بصوت عالٍ فإنها تنم عن سوء الأخلاق وانحطاط
السلوك والآداب .

هذه بعض النزعات الكريمة التي تنهج التربية الإسلامية إلى غرسها في أعماق
النفوس ودخائلها ، وهي قبس من نور الله ، ونفحة من نفحات رحمته ، تدفع الإنسان
إلى السلوك الطيب ، وتوحي له فعل الخيرات ، وتصدّه عن الشذوذ والانحراف .

(١) الإسراء ١٧ : ٥٣ .

(٢) البقرة ٢ : ٨٣ .

(٣) لقمان ٣١ : ١٩ .

(٤) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : ٣٣١/٢ .

النزعات الشريرة

إنَّ النزعات الشريرة الكامنة في آفاق النفس تدفع إلى المنكر والإثم ، وتصدّ عن الطريق القويم ، فإذا تركت وشأنها طغت على الإنسان ، وسلبت منه المثل الكريمة ، وجردته من الصفات الرفيعة التي يمتاز بها عن الحيوان السائم ، وقد وضع الإسلام الأسس السليمة لقلع جذورها ، وإخماد نارها ، وتجميد فعّاليّاتها ليكون الإنسان بمأمن من شرورها وآثامها ، وقد تصدّى علماء الأخلاق من المسلمين إلى البحث عنها على ضوء ما أثر عن الإسلام فيها كتاباً وسنة ، ونعرض - بإيجاز - إلى بعضها :

الغضب

الغضب من أخطر الأمراض النفسية التي تؤدي إلى انحراف الإنسان وشدوذه في سلوكه ، ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة للبحث عنه .

تعريفه

وعرّفه الأخلاقيون فقالوا : « الغضب حركة نفسية يهتاج لها الدم في القلب ، فيثور وينتشر في العروق ، ويرتفع إلى أعالي البدن ، كما ترتفع النار إذا شبت ، والماء في القدر إذا غلى ، ويحكى الدماغ إذ ذاك كهفاً اضطربت فيه النار ، فأظلمت نواحيه ، وتكاثف دخّانه ، وفيه مصباح ضئيل يضيئه فانطفأ ، فيحمرّ الوجه والعينان .. »^(١) .

وقالوا : « إنّه إذا اشتدّ يوجب حركة عنيفة ، ويمتلئ الدماغ ، وسائر الأعصاب بالدخان المظلم ، فيستتر نور العقل ، ويضعف فعله ، ولا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة ، وإنّما تزيده - في بعض الأحيان - غلظة وشدّة » .

وقال فيه بعض العلماء الأخلاق : « الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة ،

إِلَّا أَنَّهُ لَا تَطَّلِعُ إِلَّا عَلَى الْأَفْتَدَةِ ، وَأَنَّهَا لِمُسْتَكْنَةٍ فِي طَيِّ الْفُؤَادِ اسْتَكْنَانِ الْجَمْرِ تَحْتَ الرَّمَادِ ، وَتُسْتَخْرَجُهَا حَمِيَّةُ الدِّينِ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْكِبَرِ الدِّفِينِ فِي قُلُوبِ الْجَبَّارِينَ الَّتِي لَهَا عَرَقٌ إِلَى الشَّيْطَانِ حَيْثُ قَالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ^(١) .

إِنَّ التَّحْدِيدَ الَّذِي ذَكَرْ لَهُ هَذِهِ النَّزْعَةُ الْكَرِيهَةُ يَكْشِفُ عَنْ وَاقِعِهِ السَّيِّءِ الَّذِي يَسْلُبُ الْإِنْسَانَ أَتْرَانَهُ وَمَقُومَاتِهِ الْفَكْرِيَّةَ .

أسبابه

- ١ - ضعف النفس ، وارتخاؤها بسبب إغراقها بالنعم والترف حتى صارت تتأثر من أقل مؤثر .
- ٢ - تأثر النفس من شعورها بالإهانة ، والأخذ بظواهر الأمور من دون تفكير أو تروؤ .
- ٣ - المرض ، وإنهاك الجسم الذي يضعف قواه العقلية .
- ٤ - الانهماك في العمل ، ومداومة السهر ، واشتغال الذهن بالمطامع التي تهيج في الجسم بذور هذا الداء الخبيث .

آثاره السيئة

وللغضب كثير من المضاعفات السيئة التي تلقي الناس في شرٍ عظيم ، فهو من أقوى عوامل الإجرام والانتقام ، فكم من مصيبة حلّت بالإنسان كانت ناجمة منه ؟ وكم فتح أبواباً للسجون ، ونصب أعواداً للمشائق ، وأضرّم ناراً للحرب ، وكم قطع أواصر القربى ، وفصم عرى الابوة والبنوة ، ومن آثاره السيئة انطلاق اللسان بالشتم والسباب ، وإظهار السوء والشماتة ، وتوثب الأعضاء بالضرب والجرح ، وتألم النفس بالحقْد والعداوة .

يقول بعض الأخلاقين: «لو نظرت إلى الغضبان وهو في اختلاط عقله، واختباط جسمه، وتقلص شفثيه، وبيحة صوته، وازدحام أنفاسه، واحتدام وجهه، وانتفاخ أوداجه، وارتعاش يده، واضطراب أعصابه، وخفقان قلبه، وغليان دمه، وقذف فمه بالزبد، وعينه بالشر، لحكمت قطعاً بأن المجنون أسلم عقبي، وأقرب منه إلى الحسنى. ولو أبصر الغضبان وجهه في المرأة وهو على هذه الصورة المنكرة التي تقضى العيون بالنظر إليها لاستحيا من نفسه، ولخجل ممن يراه».

وعلى أي حال، فإن الغضب من أسوء الرذائل، وأكثرها ضرراً على الإنسان، فإنه يجلب له كثيراً من الرزايا والخطوب، ويوقعه بأعظم المحن والمشاكل.

التحذير منه

وحذر الإسلام من هذه النزعة السيئة، وجعلها من المرديات والموبقات، وقد تضافرت الأخبار في ذلك.

فقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْخُلُقَ السَّيِّئَ يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلَّ الْعَسَلُ»^(١).

وعد النبي ﷺ مجاهدة النفس وامتلاكها عند الغضب من أمارات البطولات، فقال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٢).

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «الْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ، لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكِمٌ»^(٣).

(١) كنز العمال: ٤٤٣/٣.

(٢) تحف العقول: ٤٧. مشكاة الأنوار: ٥٣٠.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٦٦/١٩.

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «كَانَ أَبِي يَقُولُ: أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنَ الْغَضَبِ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ فَيَقْتُلُ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَيَقْذِفُ الْمُخَصَّنَةَ»^(١).

ومن كلماته القصار في ذلك:

«مَنْ لَمْ يَمْلِكْ غَضَبَهُ لَمْ يَمْلِكْ عَقْلَهُ»^(٢).

«الْغَضَبُ مَمْحَقَةٌ لِقَلْبِ الْحَكِيمِ»^(٣).

وجعل الإسلام من صفات المؤمنين العفو عند الغضب. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾^(٤).

إنَّ الإسلام أهّأ بالمسلمين أن لا يتقادوا لهذه الصفة التي توجب انحطاطهم وهلاكهم في الدنيا والآخرة.

الطرق الوقائية

وأدلى علماء الأخلاق بعدة رسائل تقي الإنسان من الاتصاف بهذه النزعة الشريرة، وأهمّها:

- ١- أن يتذكّر قبحه، وسوء عاقبته، وما يجرّ له من الويلات والخطوب.
 - ٢- أن يضع أمامه فوائد الحلم، وآثاره الجميلة من حسن السمعة وجميل الذكر، وأنّ الدّ أعدائه يجلب ودّه وصداقته بالحلم والعفو.
- قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة: ٣٠٣/١٩.

(٢) و (٣) جامع السعادات: ٢٩٠/١.

(٤) الشورى: ٤٢: ٣٧.

(٥) فصلت: ٤١: ٤٣.

٣- أن يضع نصب عينيه قدرة الله ، وأنها أشد من قدرته على من يغضب عليه ، خصوصاً إذا كان المغضوب عليه ضعيفاً ، فإن الانتقام منه من موجبات الهلكة والابتعاد عن رحمة الله .

٤- أن يتصور أن الغضب دليل على نقصان العقل ، ومرض النفس ، وأنه يشابه المعتهين والساقطين عن أعين الناس ، فإن ذلك يدفعه إلى الاتصاف بهذا النقص ؛ لأن حب الإنسان لنفسه ، ومحافظة على كيانه وسمعته من الأمور الذاتية له .

٥- أن يضع أمامه الأمراض التي تترتب على حدته وغضبه من انهيار أعصابه ، واضطراب نفسه ، وغير ذلك من الأمور التي توجب انحطاط قواه ، وتعرضه للإصابة بالأمراض الخطيرة .

٦- أن يتصور نفسه عند غضبه كيف يبدو بشكل قبيح ، وما يخرج منه من الألفاظ البذيئة التي يمجها كل إنسان شريف .

٧- أن لا يكون شديد التطلع ، كثير السؤال ، وأذناً لكل ناقل وقائل .

٨- أن يغضي عما يسمعه من قول السوء ، ولا يرتب عليه أي أثر .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾^(١) .

٩- أن يحافظ على صحة جسمه ، وأن يدمن على النظافة ، ورياضة الأعضاء ، فإن الغضب أكثر ما يصدر من المصابين بالأمراض .

هذه بعض الطرق الوقائية التي ذكرها علماء الأخلاق من المسلمين^(٢) .

الخوف

وتسعى التربية الإسلامية بجميع أجهزتها إلى إزالة شبح الخوف عن دخائل

(١) الفرقان ٢٥ : ٧٢ .

(٢) الخلق الكامل : ٤ / ٣٩٧ - ٤٠١ . جامع السعادات : ١ / ٢٩١ - ٢٩٦ .

النفس ليكون الإنسان بمنجاة منه حتى تطمئن بذلك حياته ، ويعيش في دعة واستقرار ، ونعرض - بإيجاز - إلى البحث عنه :

أسبابه

وللخوف أسبابه وعوامله الطبيعية التي ينشأ منها ، وقد ناهضها الإسلام ودعا إلى التحرر من ربقتها ، وهي :

١ - الخوف من الموت

إنَّ الخوف من الموت ظاهرة طبيعية في الإنسان ، وهو في جميع مراحل حياته يتحاشى كلَّ عمل يعرضه للخطر ، ويسعى جاهداً إلى اتّخاذ جميع الوسائل التي تضمن له حياته ، وتبعده عن الفناء .. إنَّ حبَّ الحياة قد يؤدّي بالإنسان إلى أن يعيش ذليلاً مهان الجانب ، قانعاً بالضعة والهوان ، وقد ناهض الإسلام ذلك ، واعتبره ناشئاً من ضعف النفس وخورها ، فإنَّ الخوف من الموت لا يؤخّر أجلاً ولا يغيّر ما كتبه الله على الإنسان ، فإنّه يساق حتماً إلى حتفه في الوقت المقرّر له .

قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾ ^(١) .

إنَّ الإنسان مهما حاول وسعى جاهداً أن يدفع عنه الحتف فإنّه لن يجد إلى ذلك سبيلاً .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ ^(٣) .

(١) المنافقون ٦٣ : ١١ .

(٢) آل عمران ٣ : ١٨٥ . الأنبياء ٢١ : ٣٥ .

(٣) النساء ٤ : ٧٨ .

إنَّ ما يرهق الإنسان من المخاوف في سبيل الحفاظ على حياته وعدم قيامه بما هو واجب عليه تجاه أمته ووطنه حذراً من بطش الحكام ونقماتهم ، كل ذلك لا يغيّر شيئاً من واقع الموت الذي فرض عليه .

٢ - الخوف على الرزق

وأناط تعالى رزق الإنسان بمشيئته وإرادته تعالى فهو الذي يهب الرزق لمن يشاء من عباده .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يُنْصِتُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۖ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ ﴾ (٣) .

لقد أكد القرآن الحكيم هذه الحقيقة في كثير من الآيات حتى يتحرر الإنسان من الأوهام السقيمة التي تربط رزقه ومعاشه بغير الله من المخلوقين فيتخذهم أرباباً له يعبدهم من دون الله .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ۖ ﴾ (٤) .

وقد نفى الإسلام بهذه التربية الخلاقة جميع المخاوف التي تعترض الإنسان في حياته من ناحية رزقه التي هي أشكل ما يواجهه في هذه الحياة ، فأناط الأرزاق بقدرته تعالى ، ولا دخل لأي مخلوق فيها وبذلك فقد شقّ للناس طريق الكرامة والحرية والشرف ، وأهاب بهم أن يسلكوا أي مسلك فيه العبودية والذلّ لهم .

(١) العنكبوت ٢٩ : ٦٢ .

(٢) الذاريات ٥١ : ٥٨ .

(٣) و (٤) العنكبوت ٢٩ : ١٧ .

٣ - الخوف من الأحداث

والخوف من الأحداث ظاهرة طبيعيّة للإنسان ، وقد دعا الإسلام إلى التحرّر من غائلتها ، وربط ما يصيب الإنسان بالله .

قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(٢) .

وإذا أمعن الإنسان بأنّ ما يصيبه ، وما يجري عليه قد كُتب عليه بطبيعة الحال يعيش عيشة هائلة مطمئنة بعيدة عن الهمّ والقلق والاضطراب وبعيدة عن الخنوع والذلّ .

إنّ الإسلام يحارب جميع عوامل الخوف ، ويناهض جميع بواعثه لينطلق الإنسان في آفاق هذه الحياة بقوى متماسكة عزيزاً لا عهد له بالوجل والذعر .

بواعثه الحقيقيّة

أمّا البواعث الحقيقيّة للخوف في الإسلام فهي كما يلي :

١ - الخوف من الله تعالى

وأكد الإسلام على أنّ الخوف إنّما ينبغي أن يكون من الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ^(٤) .

(١) التوبة ٩ : ٥١ .

(٢) الأعراف ٧ : ١٨٨ .

(٣) آل عمران ٣ : ١٧٥ .

(٤) المائدة ٥ : ٩٤ .

إِنَّ الخوف من الله إذا استقرَّ في أعماق النفس فإنَّه يصدِّ الإنسان عن ارتكاب الموبقات والآثام ، ويدفعه إلى عمل الخير والتسابق في ميادين الفضيلة .

٢ - الخوف من المعصية

إِنَّ الخوف من ارتكاب المعصية واقتراف الإثم هو الخوف الواقعي ؛ لأنه يوجب البعد عن الوقوع في ارتكاب الحرام ، والحذر من العقاب عليه في دار الآخرة ، وقد حكى تعالى عن أوليائه المؤمنين الذين يخافونه ويحذرون من معصيته .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(١) .
وورد في الحديث الشريف : « لَا يَخَافَنَّ أَحَدٌ إِلَّا ذَنْبَهُ » ^(٢) .

إِنَّ اقتراف الذنوب هي التي توجب الحذر والخوف من عذاب الله وبطشه في دار الدنيا والآخرة .

٣ - الخوف من يوم الآخرة

إِنَّ أهوال يوم القيامة ، وشدة ما فيها من الخطوب هي التي يجب أن يخاف الإنسان منها ، فيبتعد في سلوكه عن جميع ما حرّمه الله ، ويأتي بجميع ما فرضه عليه ، وقد تحدّث القرآن عن الأهوال المفزعة التي يشاهدها الإنسان في دار الحق .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ^(٣) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا

(١) الأنعام ٦ : ١٥ . الزمر ٣٩ : ١٣ .

(٢) بحار الأنوار : ٣٧٦ / ٦٩ و ٣٧٧ .

(٣) عبس ٨٠ : ٣٤ - ٣٧ .

أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١﴾.

وتحدث القرآن الكريم عما يلاقيه الطغاة والمجرمون من أليم العذاب في يوم حشر الناس ونشرهم .

قال تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيُؤْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (٢).

فيجب على كل من يملك فكره واختياره أن يبتعد عن جميع ألوان المآثم والمحرمات ، وأن يتقي الله ويحذر منه .. ومن الطبيعي أن الإنسان إذا تربى بهذه التربية الرفيعة أشرق نفسه ، وصفت ذاته ، وصار قدوة في سيرته وسلوكه .

الحسد

الحسد داء خبيث مُمَي به النَّاس في جميع مراحل تاريخهم ، وقد أعقب لهم كثيراً من المحن والمشاق ، وقد حذر منه الإسلام ، ومقت صاحبه ، ودعا إلى تنزيه النفوس منه ، ونعرض فيما يلي - بإيجاز - للبحث عنه .

١ - حقيقة

إنَّ حقيقة الحسد المذموم أن يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسود ، وذهابها عنه ، فهو في الحقيقة يتمنى تدميره وهلاكه ، وأمَّا التمني والرغبة في أن يكون له من النعمة مثل ما للمغبوط فإنه ليس من الحسد في شيء ، بل هو من الغبطة التي

(١) الحج ٢٢ : ١ و ٢ .

(٢) الحاقفة ٦٩ : ٣٠ - ٣٧ .

لا دليل على ذمّها، بل ربّما تكون - في كثير من الأحيان - من الأمور الحسنة الباعثة لفعل الخير.

وفي الحديث: «الْمُؤْمِنُ يَغْبِطُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ»^(١)، كما أنّه غير «المنافسة»؛ لأنها محاكاة الغير في أعماله وطلب التشبّه به، وهي من أقوى الأسباب في تقدّم الصناعة والتجارة، وقد حثّ الإسلام على التنافس في طلب الخير وفعل البرّ. قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(٢).

٢ - التحذير منه

واهتمّ الإسلام اهتماماً بالغاً في حماية المسلمين من هذا الداء الويل المؤدّي إلى تفكّك المجتمع، ونشر العداء والأحقاد بين الناس، وقد عرض بالذمّ والتحقير والاستهانة للمبتلين به، ونشير إلى بعض النصوص الواردة في الكتاب والسنة في ذلك.

أمّا ما ورد في القرآن الكريم فعده آيات، وهي في معرض الإنكار والتشهير بالحاسدين.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤).

وتحدّث القرآن عن طبيعة الحاسدين.

(١) الكافي: ٣٠٧/٢، الحديث ٧.

(٢) المطففين ٨٣: ٢٦.

(٣) البقرة ٢: ١٠٩.

(٤) النساء ٤: ٥٤.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾^(١).

وهناك كوكبة أخرى من الآيات وهي تنهى عن الحسد وتحذّر منه.

وأما ما ورد في السنة من الأخبار، فطائفة كبيرة تعرض لبعضها.

قال ﷺ: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا، وَكَادَ الْحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدْرَ»^(٢).

قال ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأَمِّ مِنْ قَبْلِكُمْ: الْبَغْضَاءُ وَالْحَسَدُ هِيَ الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ

الَّذِينَ وَلَا حَالِقَةَ الشَّعْرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَمْرٍ

إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ: أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٣).

قال الإمام أبو جعفر الباقر ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي بِأَيِّ بَادِرَةٍ فَيَكْفُرُ، وَإِنَّ الْحَسَدَ

لَيَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(٤).

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق ﷺ: «أَفَةُ الدِّينِ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالْفَخْرُ»^(٥).

إلى غير ذلك من الأخبار، وهي تحذّر من هذا الداء الوبيل الذي ينخر في كيان

الحاسد فيريده صريع آلامه وهمومه.

٣ - بواعثه

ونصّ علماء الأخلاق على الأسباب التي يتولّد منها الحسد، وأهمّها ما يلي:

١ - إنّه ينشأ من خبث النفس، وابتلائها بالشحّ، حتّى تصل إلى قرار سحيق

(١) آل عمران ٣: ١٢٠.

(٢) الكافي: ٣٠٧/٢، الحديث ٤. الخصال: ٤٠/١١. أمالي الصدوق: ٣٧١.

(٣) وسائل الشيعة: ٣٦٨/١٥، الحديث ٢٠٧٦٨ (مثله). مسند أحمد: ١٦٧/١، الحديث ٤٦٥.

(٤) الكافي: ٣٠٦/٢، الحديث ١. بحار الأنوار: ٢٣٧/٧٠، الحديث ١.

(٥) الكافي: ٣٠٧/٢، الحديث ٥.

فيزعجها أن تشهد نعم الله وألطافه مبسوطة على عباده ، كما أنها تطير فرحاً وسروراً حينما تشهد منكوباً أو مبتلى ، وهذا من أقبح أنواع الحسد وأفحشه .

قال ﷺ : « إِنْ لِنِعَمِ اللَّهِ أُعْدَاءٌ .

فقيل : ومن هم ؟

قال : الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » (١) .

٢- إنه ينشأ من العداوة والبغضاء ، فيسره أن يرى عدوه مبتلى كما يشقيه أن تتوفّر عليه النعم .

٣- إنه يتولّد من حبه للتفوّق على الغير فيسوّه أن يتفوّق غيره عليه ويحسب أنّه ينعم إذا تفوّق على غيره .

٤- إنه ينبعث من الخوف على فوات مقاصده ومكاسبه ، وهو كثيراً ما يكون بين أرباب المهنة الواحدة ، ويشتدّ هذا الحسد كلّما ضاقت البلد كما في القرى ، وبعض المدن الصغيرة ، ويضعف أثره في المدن الكبيرة ، وذلك لقلّة التعارف فيها وكثرة الأعمال الموجبة لانصراف كلّ واحد إلى عمله وعدم التفكير في غيره .

٥- إنه ينبعث من الكبرياء ، فإذا نال غيره بعض النعم فإنّه يخشى أن يتفوّق عليه ، ولا يحتمل كبرياءه .

٦- أنّه ينشأ من احتقار الحاسد للمحسود ، فإذا ظفر المحسود بنعمة وافرة يتمنى زوالها ، ومن هذا القبيل حسد الكفّار للأنبياء على ما وهبهم الله من النبوة والكرامة فقد قالوا لهم على ما حكاه عنهم القرآن الكريم : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ (٢) .

ويدفعهم الحسد إلى إصااق الطعون والتهم الكاذبة بهم ، ويكون ذلك سبباً لإذاعة فضلهم ، وعلوّ مكانتهم ، وفي ذلك يقول أبو تمام :

(١) شرح نهج البلاغة : ٣١٥/١ . بحار الأنوار : ٢٥٥/٧٠ ، الحديث ٢٦ .

(٢) يس ٣٦ : ١٥ .

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طَوَيْتُ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طَيْبُ عَرَفِ الْعُودِ
لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْمَوَاقِبِ لَمْ يَزَلْ لِلْحَاسِدِ النِّعْمَى عَلَى الْمَحْسُودِ

هذه بعض الأسباب التي ينشأ منها الحسد ، وقد تجتمع أكثرها في شخص واحد فيعظم بلاؤه .

بوائقه

للحسد بوائق وآهات ، ولعل من أهمها أنَّ الحاسد لا يخلو لحظة من الحزن والأسى ، فهو يتألم من كلِّ نعمة يفيضها الله على عباده ، ونعم الله لا تنقطع عن خلقه ، فهو دوماً في حسرة وألم ، ومن الطبيعي أنَّ في ذلك أثراً على صحته وجسمه . قال ابن المعتز: « الحسد داء الجسد » .

وقال بعض العارفين : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم أنه يرى النعمة عليك نقمة عليه » .

ومضافاً لذلك أنه يكون ساعطاً على قضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض ، وقد يؤدي ذلك - في كثير من الأحيان - إلى الكفر والخروج عن حظيرة الإيمان ، ولهذا قال النبي ﷺ : « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » ^(١) . ومن بوائقه انحطاط درجة الحاسد ، وانصراف الناس عنه لإصابته بهذا الداء الويل ، ومن آهاته أنه سبب لكلِّ قطيعة وسبب لكثير من الموبقات كالكذب والغيبة والنميمة والغدر والخيانة والسعاية والقتل والسرقة ، إلى غير ذلك من الشرور والآثام .

علاجه

وذكر المعنويون بهذه البحوث بعض العلاجات الحاسمة لهذا الداء ، وأهمها هي :
١ - أن يأخذ بأداب الإسلام ، ويراقب الله في كل ما يفعله ، فإن في ذلك زجراً للنفس ، وتمريناً لها على ترك هذه النزعة الشريرة .

٢ - أن يعلم الحاسد أن هذه الصفة الخبيثة من الأمراض المهلكة التي توجب سقوطه في الدنيا ، وهلاكه في الآخرة ، فإنه إذا تمعّن في ذلك فإنه حتماً سوف ينصرف عنه ؛ لأن حب الإنسان لذاته من الأمور الذاتية التي لا يمكن أن تنفك عنه ، فلا يقدم على هلاك نفسه وإتلاف ذاته ، لا سيما إذا فكّر الحاسد أن المحسود لا يضرّه حسده ، ولا يسلبه من نعمته ، وإذا أطال التفكير في ذلك فإنه حتماً سيزول عنه هذا الداء .

٣ - ومما يقلع هذه النزعة السيئة من النفس النظر إلى من هو دونه شأناً ليدرك لطف الله وفضله عليه .

وفي الحديث الشريف : « إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ »^(١) .

٤ - أن يفكر في نتائج الحسد وما يجلبه له من الاتّصاف بالأخلاق السيئة ، وما يجلبه لنفسه وأهله من الآفات والشُرور ، فإنه إذا تمعّن في ذلك فإنه سوف ينجو من هذا الداء الخبيث .

الحرص

الحرص من الرذائل النفسية ، وقد تصدّت التربية الإسلامية إلى قلع جذوره ، ومحو آثاره من أفق النفس ، وهو ينشأ من الإفراط في حب الدنيا ، والتهالك على

اقتناء المال ، حتى ينسى واقعه ، ويغفل عن الموت الذي لا يبقى أحداً ، وقد أشار النبي ﷺ إلى ظاهرة الحرص بقوله : «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِينِ مِنْ مَالٍ لَتَمَتَّى وَادِيًا ثَالِثًا ، وَلَا يَمَلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ ، وَيَتَوَبُّ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^(١).

وقال ﷺ : «لَيْسَ الْغِنَى مِنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»^(٢).

ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب ، فقال ﷺ : «أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَلَنْ يَذْهَبَ حُبُّكَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ مَا كُتِبَ لَهُ»^(٣).

وقال الإمام الحسن عليه السلام : «الْحِرْصُ عَدُوُّ النَّفْسِ ، وَبِهِ أُخْرِجَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ»^(٤).

إنَّ الحرص يدفع الإنسان بغير وعي إلى السعي المتواصل نحو تحصيل المادة ، وهو غافل عن أنَّ الأرزاق بيد الله يهبها لمن يشاء ، ويمنعها ممن يشاء ، وما مجاهدة الإنسان توصله إلى ذلك .

يقول ابن زريق في رائعته :

وَمَا مُجَاهِدَةُ الْإِنْسَانِ تَوْصِلُهُ	رِزْقاً وَلَا دَعَا الْإِنْسَانِ تَقْطَعُهُ
وَاللَّهُ قَسَمَ بَيْنَ الْخَلْقِ رِزْقَهُمْ	لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ مَخْلوقاً يُضَيِّعُهُ
لَكِنَّمْهُمْ مُلِنُوا حِرْصاً فَلَسَتْ تَرَى	مُسْتَرْزِقاً وَسِوَى الْغَايَاتِ يُفْتِنُهُ
وَالسَّعْيُ فِي الرِّزْقِ وَالْأَرْزَاقُ قَدْ قُسِمَتْ	أَلَا إِنَّ بَغْيِي الْمَرْءِ يَضْرَعُهُ

(١) روضة الواعظين : ٤٢٩ . الإيضاح : ٢١٩ . عوالي اللئالي : ١٣٢ ، الحديث ١٥ .

(٢) تحف العقول : ٥٧ . روضة الواعظين : ٤٥٦ .

(٣) شرح نهج البلاغة : ١٦٣/١٩ .

(٤) بحار الأنوار : ١١١/٧٥ ، الحديث ٦ .

إنَّ الحرص يجزّ للإنسان العناء والمتاعب ، ويحمّله على الجهد والكّد ، ويحرّمه من الراحة والاستقرار ، ويبعث له الهمّ والآلام ، وأحسن طريق لاستئصال جذوره من النفس القناعة بما كتب الله له ، وإدامة التفكير في أنّ الأموال التي يحرص على جمعها لا بدّ أن تنتقل إلى غيره ، فإذا كان اقتناؤه لها بغير وجه مشروع فيكون الوزر عليه والهناء لغيره .

البخل

البخل من رذائل الصفات ، ومساوئ الأخلاق ، وهو من ثمرات حبّ الدنيا - كما يقول علماء الأخلاق - ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة للبحث عنه .

حقيقته

إنّ حقيقة البخل - عند الأخلاقيين - هي الإمساك ، حيث ينبغي البذل وإيثار الشحّ في كلّ الوجوه . وسئل الإمام الحسن (عليه السلام) عن معناه ، فقال (عليه السلام) : «هُوَ أَنْ يَرَى الرَّجُلُ مَا أَنْفَقَهُ تَلَفًا»^(١) . وهذا أدقّ تحديد ذكر له .

التحذير منه

وعني الإسلام في مكافحة هذه الظاهرة والتحذير منها ، وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة ، أمّا ما ورد في الكتاب فعده آيات منها :

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ

(١) بحار الأنوار : ١١٣/٧٥ .

(٢) النساء : ٤ : ٣٧ .

هُوَ شَرُّ لَهُمْ سَيَطَوِّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾.

وأما ما ورد في السنة ، فطائفة كبيرة من الأخبار ، منها :

١ - قال رسول الله ﷺ : « الْبَخِيلُ بَعِيدٌ عَنِ اللَّهِ ، بَعِيدٌ عَنِ الْجَنَّةِ » (٢).

٢ - قال ﷺ : « الْبُخْلُ شَجَرَةٌ تُنْبِتُ فِي النَّارِ ، فَلَا يُلْجُ النَّارَ إِلَّا بِخِيلٍ » (٣).

٣ - قال ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَدَعَاهُمْ فَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ ، وَدَعَاهُمْ فَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ » (٤).

٤ - قال ﷺ : « لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ » (٥).

٥ - قال الإمام الحسن عليه السلام : « الْبُخْلُ جَامِعٌ لِلْمَسَاوِي وَالْغُيُوبِ ، وَقَاطِعٌ لِلْمَوَدَّاتِ مِنَ الْقُلُوبِ ».

وهناك كوكبة من الأخبار وهي تحذّر المسلمين من الاتّصاف بهذه النزعة الشريرة التي هي عنوان لكلّ رذيلة ومنقصة .

الوقاية منه

وأحسن طريق للوقاية من هذا الداء إدامة النظر والتفكير فيما يصير إليه أمره من الرحيل عن هذه الدنيا ، وأنّ ما يتركه من الأموال سوف يحاسب عليها ، فإن كان قد ظفر بها بغير وجه مشروع فإنّه سيعاقب عليها ، وإن كان قد حصل عليها بوجه مشروع فإنّه يعاقب على جمعها ، ويلازم على حرصه عليها ، ويضاف إلى ذلك

(١) آل عمران ٣ : ١٨٠ .

(٢) العهود المحمّدية : ٨٢٩ (مثله) .

(٣) كنز العمال : ٣٩١/٦ ، الحديث ١٦٢٠٧ .

(٤) الخصال : ١٧٦ . وسائل الشيعة : ٤٢/٩ ، الحديث ١١٤٧٧ .

(٥) الخصال : ١١٨/٧٥ . روضة الواعظين : ٣٨٣ ، وفيه : « في قلب عبد أبداً » .

التفكير في أنَّ هذه الصفة موجبة لسقوطه اجتماعياً ، وكرهه الناس له .

قال الشيخ النراقي : « ثمَّ العمدة في علاجه - أي علاج البخل - أن يقطع سببه ، وسببه حبُّ المال ، وسبب حبِّ المال إمَّا حبُّ الشهوات التي يتوقَّف الوصول إليها على المال مع طول الأمل ؛ إذ لو لم يكن له طول الأمل ، وعلم أنَّه يموت بعد أيام قلائل ربَّما لم يبخل بماله ، أو ادَّخاره وإبقاؤه لأولاده »^(١).

الحقد

الحقد من النزعات الخبيثة ، فهو غضب مخبوء في أعماق النفس إذا انفجر خرب ودمر ، ويعنى الإسلام بتطهير النفس من آثامه وشروعه ، فقد أثر عن النبي ﷺ أنَّه قال : « الْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقَّودٍ »^(٢).

إنَّ الحقد ينشأ من الحسد ، ويؤدِّي إلى التقاطع والتنافر ، ويلقي الناس في شرٍّ عظيم ، فمن آفاته هتك ستر الغير ، وإظهار عيوبه ، والشماتة بما يصيبه ، والاستهزاء والسخرية به ، إلى غير ذلك من المحرِّمات التي تؤدِّي إلى هتك الحرمات ، وفساد الدين ، وهو يجلب إلى نفس الحاقد الاضطراب والقلق ، فالحقود دائماً في حزن وألم وخصام مع الغير لا يهدأ ولا يستقرّ.

الوقاية منه

١ - أن يتصوّر الحاقد أنَّ عداءه الباطني لأخيه المسلم يبعده عن حظيرة الإيمان ويدرجه في زمرة المنحرفين عن الدين .

٢ - أن يمعن النظر في أنَّ الحقد يجلب له الألم والشقاء من غير فائدة يجنيها

(١) جامع السعادات : ٩٤/٢ .

(٢) منية المريد : ٣٢١ .

من ذلك .

٣ - أن ينظر في سيرة العظماء من المسلمين ، وما أثر عنهم من حسن السلوك وكرم الأخلاق .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ » ^(١) .

وسرقت دراهم الصحابي الكبير عبدالله بن مسعود فجعل الناس يدعون على من أخذها ، فقال لهم عبدالله : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ حَمَلْتُهُ عَلَى أَخْذِهَا حَاجَةً فَبَارِكْ اللَّهُ لَهُ فِيهَا ، وَإِنْ كَانَ قَدْ حَمَلْتُهُ عَلَى سَرَقَتِهَا جَرَاءً عَلَى الذَّنْبِ فَاجْعَلْهُ آخِرَ ذُنُوبِهِ .

وقال بعض الحكماء : « إِذَا قَالُوا لَكَ : إِنَّ فُلَانًا ثَلْبِكَ وَانْتَقَصَكَ ، فَقُلْ لَهُمْ : إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ جَمِيعَ نِقَائِصِي وَإِلَّا مَا اقْتَصَرَ عَلَى مَا قَالَ » .

العُجْب

العجب بالنفس واستعظامها يورث التكبر ، وينشر الطغيان ، وهو دليل على الجهل والغرور ، وقد نهى الإسلام عنه ، وحذّر منه .

قال تعالى : ﴿ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئِنْ شِئْتُمْ لَتَنْتَفِرْنَ ﴾ ^(٣) .

وأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شَحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » ^(٤) .

(١) نهج البلاغة : ٤/٤ ، الحديث ١١ . وسائل الشيعة : ١٧١/١٢ ، الحديث ١٥٩٩٠ .

(٢) النجم ٥٣ : ٣٢ .

(٣) النحل ١٦ : ٢٩ .

(٤) المحاسن : ٣/١ ، الحديث ٣ .

وقال عليه السلام: «إِنَّ الْمُعْجَبَ لَيَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(١).

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «مَنْ دَخَلَ الْمُعْجَبُ هَلَكَ»^(٢).

لقد حارب الإسلام هذه النزعة الشريرة التي تنشأ عن الجهل والغرور والطيش.

آفاته

وللعجب آفات نفسية خطيرة، وأهمها ما يلي:

١ - إنه يدعو للكبرياء والعظمة والتفوق على الغير.

٢ - إنه موجب لنسيان الذنوب، والإعراض عن الله واليوم الآخر.

٣ - إنه مفسد للأعمال القربية، وقد سأل علي بن سويد أبا الحسن موسى عليه السلام

عن العجب الذي يفسد العمل فقال عليه السلام: «الْمُعْجَبُ دَرَجَاتٌ، مِنْهَا أَنْ يُزَيَّنَ لِلْعَبْدِ سُوءُ عَمَلِهِ فَيَرَاهُ حَسَنًا فَيُعْجِبُهُ، وَيَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا، وَمِنْهَا أَنْ يُؤْمِنَ الْعَبْدُ بِرَبِّهِ فَيَمُنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ الْمَنُّ»^(٣).

٤ - إنه موجب للاغترار بالنفس، فيظن المعجب بنفسه أنه بمأمن من مكر الله وعذابه، وأن له عليه حقاً بما يعمل به من بعض العبادات.

٥ - التفاخر على الغير، والتطاول على الناس.

٦ - الاستبداد بالرأي، وعدم الخضوع للحق.

هذه بعض آفات العجب، وهي تزج الإنسان في مستوى سحيق من الجهل ما له من قرار.

(١) بحار الأنوار: ٢٦١/٧٠، الحديث ٣٢، وفيه: «الحسد» بدل «العجب».

(٢) الكافي: ٣١٣/٢، الحديث ٢.

(٣) الكافي: ٣١٣/٢، الحديث ٣.

أنواعه

والعجب على أنواع ، وهي :

١ - الاعجاب بما عنده من النعم والأموال .

قال تعالى في إخباره عن صاحب الجنّتين : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ^(١) .

ورأى النبي ﷺ رجلاً غنياً قد جلس فقير إلى جنبه ، وجمع ثيابه ، فقال ﷺ له : « خَشِيتُ أَنْ يَغْدُو إِلَيْكَ فَقْرُهُ » .

٢ - الاعجاب بكثرة الأموال والأسرة ، وقد حكى القرآن الكريم هذه الظاهرة عن الكفار بقوله : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ ^(٢) .

٣ - العجب بالقوّة ، وقد حكى القرآن الكريم عن قوم عاد حيث قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ^(٣) ، وهذا العجب هو السبب في إثارة الحروب وبطش بعض الدول ببعض ، فإنّ سبب ذلك إعجابها بما تملك من وسائل القوّة ، وأدوات الحروب والتدمير .

٤ - العجب بالأنساب والقوميّات ، فيقول لغيره : من أنت ؟ من أبوك ؟ ما هو عنصرك ؟ وقد حارب الإسلام هذه النزعة الشريرة ، وحكم بأنّ من يدعو لها أن يُعلَى وجهه بالسيوف ؛ لأنّها تفرّق وحدة المسلمين وتوجب شيوع النزعات المختلفة فيهم ، فهم جميعاً - في منطق الإسلام - جسد واحد لا تفاضل لبعض أجزائه على بعض .

٥ - العجب بالرأي الفاسد .

(١) الكهف ١٨ : ٣٤ .

(٢) سبأ ٣٤ : ٣٥ .

(٣) فصلت ٤١ : ١٥ .

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (٢).

ويعبر عن هذا العجب بالجهل المركب .

٦- العجب بالعلم ، ولازمه أن يستعظم طالب العلم نفسه ، ويستحققر الناس ، وهو من أعظم الآفات المدمرة له ، والموجبة لبعده عن الله ، وفي الحديث : « أَفَّةُ الْعِلْمِ الْخِيَلَاءُ » (٣).

٧- العجب بالعمل والعبادة ، فإن ذلك ممّا يفسد العبادة ، وإصابته بداء التكبر على الناس .

هذه بعض أنواع العجب التي تدفع الإنسان إلى مستوى سحيق من الجهل والانحطاط .

الوقاية منه

وأحسن طريق للوقاية من هذا الداء الخبيث أن يتمعن الإنسان في نفسه فهو في حياته عرضة للإصابة بمختلف الكوارث والويلات ، لا يعلم ماذا سيجري عليه في غده المجهول من خطوب وآفات ، وبعد وفاته سيكون شبحاً مبهماً ، وكتلة من التراب المهين .. فبأي شيء يعجب ؟ إنه إذا حاسب نفسه ، وعرض واقع أمره على شاشة فكره زال عنه هذا الداء الخبيث ، ورجع إلى حظيرة الحق .

الرياء

الرياء من أعظم الكبائر ، وهو يدلّ على خبث السريرة ، وأن صاحبه لا علاقة له

(١) فاطر ٣٥: ٨.

(٢) الكهف ١٨: ١٠٤.

(٣) بحار الأنوار: ١٩٦/٧٠.

بالله ، وقد حذر الإسلام منه ، وألزم المسلمين بتطهير نفوسهم من جرائمه ، وقد عرض كتاب الله العظيم إلى ذمّه والتحذير منه .

قال تعالى : ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

وقال تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢).

وقال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(٣).

وتواترت الأخبار في ذمّه ، ولزوم تهذيب النفس منه ، ونعرض لبعضها :

١ - قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ .

فانبروا قائلين :

وما الشرك الأصغر ؟

قال : الرِّيَاءُ . يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُرَائِينَ : أَنَا أَجَازِي الْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمْ ، اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنتُمْ تُرَاوُونَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمُ الْجَزَاءَ ؟»^(٤).

٢ - قال ﷺ : «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلًا فِيهِ مُثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِيَاءٍ»^(٥).

٣ - قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «اخشوا الله خشيةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ ، وَاعْمَلُوا اللَّهَ فِي

(١) النساء ٤ : ١٤٢ .

(٢) الكهف ١٨ : ١١٠ .

(٣) الماعون ١٠٧ : ٤ - ٧ .

(٤) بحار الأنوار : ٢٦٦/٦٩ .

(٥) مستدرک الوسائل : ١١١/١ ، الحديث ١١٩ .

غَيْرِ سُنْعَةٍ، فَإِنَّ مَنْ عَمِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى عَمَلِهِ»^(١).

٤ - قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «اجْعَلُوا أَمْرَكُمْ هَذَا لِلَّهِ، وَلَا تَجْعَلُوهُ لِلنَّاسِ، فَإِنَّ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ لِلَّهِ، وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ فَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ»^(٢).

٥ - قال الإمام الرضا عليه السلام لمحمد بن عرفة: «وَيْحَكَ يَا بَنَ عَرَفَةَ! اْعْمَلُوا لِغَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا سُنْعَةٍ، فَإِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى مَا عَمِلَ»^(٣).

هذه بعض الأخبار وهي صريحة في تحريم الرياء، وأنه لون من ألوان الشرك، وأن العمل المشفوع به لا يصعد إلى الله.

بواعث الرياء

أما بواعث الرياء فأهمها ما يلي:

- ١ - أن يظهر التقوى والصالح ليظفر بالتكريم والتمجيد من قبل الناس.
 - ٢ - الحصول على بعض المناصب الدينية التي يشترط فيها توفر التقوى والحريجة في الدين، كالقضاء وإمامة الجماعة وغيرهما.
 - ٣ - الحصول على ثقة الناس حتى يكون مؤتمناً عندهم على أموالهم فيختلسها ويأخذها بغير حق.
- هذه بعض دوافع الرياء التي يسلكها من باع آخرته بدينه، فيعتمد إلى الإشراف بالله والتزين بلباس التقوى لجعل ذلك وسيلة له إلى مآربه الضيقة التي يؤول أمرها إلى التراب.

(١) الكافي: ٢/٢٩٧، الحديث ١٧.

(٢) الكافي: ١/١٦٦، الحديث ٣.

(٣) الكافي: ٢/٢٩٤، الحديث ٥.

إبطاله للعبادة

وأجمع فقهاء المسلمين على أنَّ الرياء مبطل للعبادة ، سواء أوقع في ابتدائها أم في أثنائها ، وسواء أكان في تمام الأجزاء الواجبة أم في بعضها ، بل حتى لو وقع في بعض القبول والحالات الخارجية عن حقيقة العبادة ، كما إذا رآني المصلي في صلاته جماعة أو في مسجد أو في الصفِّ الأوَّل ، أو خلف الإمام الفلاني أو في أوَّل الوقت ، ونحو ذلك ^(١).

إنَّ العبادة منوطة بالإخلاص لله تعالى ، فإذا داخلها الرياء ذهب أثرها ووجب إعادتها خالصة لوجه الله .

علاجه

وذكر علماء الأخلاق عدَّة أمور تقضي على هذا الداء الويل ، وهي :

- ١ - أن يزيل عن نفسه الأسباب الداعية للرياء من حبِّ المدح ، والطمع بما في أيدي الناس .
- ٢ - أن يتصوَّر الآفات والأضرار التي تترتب على الرياء من فساد العمل ومقت الله له .
- ٣ - أن يلحظ أنَّ مدح الناس وثقتهم به لا يزيد في رزقه ، فإنَّه لا رازق إلاَّ الله ، ومن طمع في غيره لم ينل منه شيئاً ، بل لا ينال إلاَّ الذلَّة والمهانة .
- ٤ - أن يتصوَّر ما هو فيه من الهمِّ ، وتشتَّت الفكر بسبب ملاحظته لعواطف الناس وميولهم ، وأنَّ كلَّ ما يرضي طائفة يسخط أخرى . ومن الطبيعي أنَّ ذلك يجرِّله أعظم الجهد والعناء من دون أن تترتب عليه أي فائدة .
- ٥ - أن يلحظ أنَّ الله تعالى لا بدَّ أن يفضح نواياه ، ويكشف واقعه وحقيقته إلى

الناس، أمّا في الدنيا أو الآخرة، وبذلك لا تترتب الفائدة من دجله ونفاقه .
هذه بعض العلاجات التي ذكرها الأخلاقيون ، ولو تمعّن فيها المرائي لزال
غفلته ، وذهب عنه غيّه .

الغرور

الغرور من الأمراض النفسية التي عني الإسلام في علاجها ، وتطهير النفس من
جرائيمه ، ونعرض فيما يلي للبحث عنه :

حقيقته

وذكر علماء الأخلاق أنّ حقيقة الغرور هي سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ،
ويميل إلى الطبع عن شبهة ، وخدعة من الشيطان ، فمن اعتقد أنّه على خير إن في
العاجل أو في الآجل فهو مغرور ، وذكروا أنّ ذلك مؤلف من أمرين :
الأول : اعتقاد النفس بأنّ هذا خير له مع كونه خلاف الواقع .
الثاني : حبّ النفس لمقتضيات الشهوة أو الغضب^(١) .

التحذير منه

وحذّر الإسلام من الغرور لأنّه يؤدّي إلى هلاك النفس وشقائها وارتكابها لما حرّم
الله ، وقد ورد النهي عنه في الكتاب العزيز .

قال تعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾^(٢) .

قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ

(١) جامع السعادات : ٣/٣ و ٤ .

(٢) لقمان ٣١ : ٣٣ . فاطر ٣٥ : ٥ .

أَمَرَ اللَّهُ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١﴾.

وتواترت الأخبار في التحذير منه ، فقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حَبِذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَفِطْرُهُمْ كَيْفَ يَغْنَبُونَ سَهَرَ الْحَمَقَى وَاجْتِهَادَهُمْ وَلِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَى وَيَقِينٍ أَفْضَلُ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُغْتَرِّينَ » (٢).

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « الْمَغْرُورُ فِي الدُّنْيَا مِسْكِينٌ ، وَفِي الْآخِرَةِ مَغْنُونٌ ؛ لِأَنَّهُ بَاعَ الْأَفْضَلَ بِالْأَذْنَى ، وَلَا تَعْجَبْ مِنْ نَفْسِكَ .

فَرُبَّمَا اغْتَرَزْتَ بِمَالِكَ وَصِحَّةِ جَسَدِكَ أَنْ لَعَلَّكَ تَبْقَى .

وَرُبَّمَا اغْتَرَزْتَ بِطَوْلِ عُمُرِكَ وَأَوْلَادِكَ وَأَصْحَابِكَ لَعَلَّكَ تَنْجُو بِهِمْ .

وَرُبَّمَا اغْتَرَزْتَ بِجَمَالِكَ وَمُنِيِّكَ وَإِصَابَتِكَ مَأْمُولِكَ وَهَوَاكَ فَظَنَنْتَ أَنَّكَ صَادِقٌ وَمُصِيبٌ .

وَرُبَّمَا اغْتَرَزْتَ بِمَا تَرَى مِنَ النَّدَمِ عَلَى تَقْصِيرِكَ فِي الْعِبَادَةِ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مِنْ قَلْبِكَ بِخِلَافِ ذَلِكَ .

وَرُبَّمَا أَقَمْتَ نَفْسَكَ عَلَى الْعِبَادَةِ مُتَكَلِّفًا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْإِخْلَاصَ .

وَرُبَّمَا افْتَحَرْتَ بِعِلْمِكَ وَنَسَبِكَ وَأَنْتَ غَافِلٌ مِنْ مُضِرَّاتِ مَا فِي غَيْبِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَرُبَّمَا تَوَهَّمتَ أَنَّكَ تَدْعُو اللَّهَ ، وَأَنْتَ تَدْعُو سِوَاهُ .

وَرُبَّمَا حَسِبْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ لِلْخَلْقِ وَأَنْتَ تُرِيدُ لِنَفْسِكَ أَنْ يَمِيلُوا إِلَيْكَ .

وَرُبَّمَا ذَمَمْتَ نَفْسَكَ وَأَنْتَ تَمْدَحُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ » (٣).

(١) الحديد ٥٧ : ١٤ .

(٢) المحجبة البيضاء : ٢٩١/٦ . ميزان الحكمة : ٢٢٣٥/٣ .

(٣) بحار الأنوار : ٣١٩/٦٩ ، الحديث ٣٣ .

لقد أدلى الإمام عليه السلام بحديثه إلى بواعث الغرور وأسبابه ، وحذّر من كلّ جانب منها ، ودعا إلى صفاء النفس وطهارتها من زيغه وآثامه .

الوقاية منه

وأحسن طريق للوقاية من الغرور أن يزيل الإنسان من نفسه حبّ الشهوات ، ويبتعد عن بواعث الهوى ، ويعرف أنّه سوف ينتقل من هذه الدنيا إلى دار الحقّ ، فإذا أمعن في ذلك زال عنه الطيش ورجع إلى الطريق المستقيم .

الكذب

الكذب أساس كلّ رذيلة ، ومنتهى كلّ نقص ، وهو من أقذر الصفات وأخسّها ، لا يتّصف به إلّا من فقد الشرف ، وضيع المروءة .. وقد أعلن الإسلام مقاومته له ، ودعا إلى الصدّ عنه والنفور منه ، ونعرض - بإيجاز - للبحث عنه .

ذمّه

وحذّر الإسلام من هذه الصفة الشريفة ، وورد ذمّها في كتاب الله العزيز .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ^(٢) .

كما تواترت الأخبار في ذمّه ، وهذه بعضها :

١ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ،

(١) النحل ١٦ : ١٠٥ .

(٢) التوبة ٩ : ٧٧ .

وَالْفُجُورُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ»^(١).

٢ - قال عليه السلام: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَايِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزَّوْرِ»^(٢).

٣ - قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا يَجِدُ الْعَبْدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتْرَكَ الْكَذِبَ، هَزَلَهُ وَجِدَّهُ»^(٣).

٤ - قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «اتَّقُوا الْكَذِبَ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ فِي كُلِّ جِدٍّ وَهَزَلٍ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَذَبَ فِي الصَّغِيرِ اجْتَرَأَ عَلَى الْكَبِيرِ»^(٤).

٥ - قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِلشَّرِّ أَقْفَالًا، وَجَعَلَ مِفَاتِيحَ تِلْكَ الْأَقْفَالِ الشَّرَابَ، وَالْكَذِبُ شَرٌّ مِنَ الشَّرَابِ»^(٥).

٦ - قال الإمام العسكري عليه السلام: «جُعِلَتِ الْخَبَائِثُ كُلُّهَا فِي بَيْتٍ، وَجُعِلَ مِفْتَاحُهَا الْكَذِبُ»^(٦).

وهناك طائفة أخرى من الأخبار وهي تحرّم هذه الصفة الخبيثة، وتعلن عذاب الله وعقابه لمن يقتربها.

أسبابه

وهناك أسباب ناشئة عن ضعف النفس، وعدم إيمانها بالله تدفع الإنسان إلى

(١) مستدرك الوسائل: ٨٦/٩، الحديث ١٠٢٩٠.

(٢) سنن الترمذي: ٣٧٥/٣، الحديث ٢٤٠١.

(٣) الكافي: ٣٤٠/٢، الحديث ١١.

(٤) الكافي: ٢٥٣/٢، الحديث ٢.

(٥) أصول الكافي: ٣٢٥/٢ و ٣٢٦.

(٦) بحار الأنوار: ٢٦٣/٦٩، الحديث ٤٨ (ذيل الحديث).

اقتراف الكذب ، وهي :

١ - الكذب لأجل نفع متوهم ، أو دفع ضرر متوقع ، حسب ما تمليه النفس الأُمارة بالسوء .

٢ - الكذب لاحتياال كسب الرزق أو التزلف لذوي الثراء ممن يأمل منفعته وهو ناشئ عن انحطاط النفس ومهانته ، ومن هذا السنخ الممقوت الكذب لأجل أن يضحك أصحابه ، فأنه يجزّ إلى نفسه الحرام من غير أن يجني بذلك أي فائدة ولو وهمية .

٣ - الكذب لأجل التشفي من عدوّه والنكاية به فيصفه بكلّ قبيح ، ويلصق به التهم والطعون ، وهو يعلم ببراءته منها .

٤ - ومن أهمّ أسباب الكذب عدم التورّع وعدم الحريجة في الدين ؛ إذ لو كان عنده رصيد من خوف الله لما اقترف هذا الإثم .

هذه بعض الأسباب الداعية إلى الكذب ، وهو إذا استحكم في النفس صار عادة لها ، ويصعب عليها مفارقتها ، وقد قيل : « من استحلّى رضاع الكذب عسر فطامه » ، وإذا عرف الشخص بهذه الصفة ، فإنّه يسقط اجتماعياً وكلّ كذبة تحدث تنسب إليه ، وقد قيل :

فَإِذَا سَمِعْتَ بِكَذِبَةٍ مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ

أنواعه

أمّا أنواع الكذب فهي :

١ - الكذب على الله ورسوله ، بأن يحدث عن الله ورسوله حديثاً كاذباً ومفتعلاً ، وقد تعمّد ذلك بعض الصحابة من الذين تاجروا بدينهم ، وباعوا آخرتهم على معاوية ، أمثال سمرة بن جندب ، وأبي هريرة ، وعمرو بن العاص ، فقد أغدق عليهم

معاوية الأموال والذهب ، ومَنّاهم بسلطانه ، فزوّروا الأحاديث المنكرة في ذمّ العترة الطاهرة والنيل منها ، ومدح بعض الصحابة ، وكان ذلك من أعظم ما مني به الإسلام من الكوارث والنكبات ، فقد أفسدت تلك الأخبار المفتعلة الحياة العقائدية عند المسلمين ، كما شوّهت معالم الدين وأحكامه .

وأثر هذا الكذب الوضعي أنّه يوجب فساد الصوم في شهر رمضان كما أفتى بذلك فقهاء الشيعة .

٢ - الكذب في الشهادة ، وهو المعبر عنه بقول الزور ، وهو ما تعلق بضياح أموال الناس وأعراضهم وأنفسهم ، وهو من أفحش الجرائم التي تقضي على العدل والنظام ، وقد قال ﷺ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ : الإِشْرَاقُ بِاللّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » . ثمّ قعد ﷺ فقال : « وَقَوْلُ الزُّورِ »^(١) .

ولا فرق بين أن يكون قول الزور في الأمور الصغيرة أو الكبيرة ، وإذا تبين لقضاة العدل ذلك من الشاهد فإنّه يجب عليهم تعزيره ، وعدم قبول شهادته وسلب الثقة منه .

٣ - الكذب لأجل السخرية بخلق الله ، وهذا من أفحش المحرّمات ؛ لأنّ فيه اعتداءً على الناس ، وقد صان الإسلام كرامتهم ، وحزّم مهانة الناس والسخرية منهم . هذه بعض أنواع الكذب الموجبة لغضب الله ومقته ، والموجبة للحكم بفسق من يقرّفها ، وسقوط عدالته ووثاقته .

مسوّغاته

وأباح الإسلام الكذب فيما إذا ترتّب عليه بعض المصالح الاجتماعية المهمّة

التي لا يمكن التوصل إليها بالصدق ، وهي :

١ - إنقاذ المسلم من الظالم الذي يريد سفك دمه أو نهب ماله ، أو استباحة عرضه بغير حق ، وانحصرت وسيلة إنقاذه بالكذب ، فإنه - في هذه الصورة - يخرج من الإباحة ويكون واجباً ، فإن مفسدته تتلاشى ، وتكون مصلحة الإنقاذ بلا مزاحم ، فيكون واجباً - حسب ما يقول علماء الأصول - .

٢ - إصلاح ذات البين فيما إذا توقف على الكذب ، فله أن يفعل ما يستميل به القلوب ، وينزع به روح التخاصم والعداء من النفوس ، وقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال : «لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَمَى^(١) خَيْرًا»^(٢) .

وروي عن أبي كاهل قال : « وقع بين اثنين من أصحاب النبي ﷺ كلام حتى تصارما ، فلقيت أحدهما فقلت : ما لك ولفلان ، فقد سمعته يحسن عليك الثناء ؟ ثم لقيت الآخر ، فقلت له : مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكت نفسي ، وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبي ﷺ فقال : « يا أبا كاهل ، أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ وَلَوْ^(٣) » أي بالكذب .

إن أهم ما يعنى به الإسلام إصلاح ذات البين ، فإنه أفضل من عامة الصلاة والصوم - كما في الحديث - فإن بقاء التخاصم يفتح أبواب الشر ، ويفرق الكلمة ، ويشيع روح العداء والتنافر بين المسلمين .

٣ - الغلبة على العدو في الحرب ، فإن الحرب خديعة ، فإذا توقف انتصار المسلمين وهزيمة عدوهم على الكذب فإنه يكون واجباً ، وقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال : « كُلُّ الْكَذِبِ مَكْتُوبٌ لَا مَحَالَةَ ، إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ ، فَإِنَّ

(١) أنمى : أذاع .

(٢) مسند أحمد بن حنبل : ٤٠٤/٦ . سنن الترمذي : ٣٣١/٤ ، الحديث ١٩٣٨ .

(٣) بحار الأنوار : ٢٥٤/٦٩ ، وفيه : « ولو بالكذب » .

الحَرْبُ خِدْعَةٌ^(١)

٤- الإصلاح بين الضرّات من النساء ، فللزوج أن يظهر كلّ واحدة منهنّ أنّها أحبّ إليه من ضرّتها ليطيب بذلك خاطرها ، ويسلم من خصومتها ونزاعها .

هذه بعض مسوّغات الكذب - حسب ما نصّ عليها الفقهاء - ولكنّ النّاس قد فتحوا بابه على مصراعيه ، ولم يتأثّموا منه حتّى صار عادة وخلقاً من أخلاقهم ، فالمصانع التي هي لون من ألوان الكذب قد اعتادوا عليها ، فترى بعض النّاس إذا أراد أن يتخلّص من عتاب صديق في ترك زيارته أو عدم تلبية دعوته اعتذر بداعي المرض مع أنّه لم يكن مريضاً ، أو قوله لولده عند زيارة أحد يكره مقابلته ، قل له إنّهُ ليس في الدار ، أو يتجاهل عن أمر يعرفه ، إلى غير ذلك من ضروب النفاق الاجتماعي التي سادت في هذا العصر ، واعتبرها بعض الشعراء ظاهرة في ظواهر التقدّم ، فأوصى بها بعض أقرابه يقول :

يَابْنَ عَمِّي يَابْنَ خَالِي كَلَّمَ النَّاسَ يَابْنَ عَمِّ الْكَلَامِ

إنّ هذه المصانعة إنّما هي من الأمراض الاجتماعيّة الناشئة عن الجبن والإثرة وعدم التهذيب النفسي .

والشيء الغريب أنّ بعض المؤلّفين ، وخصوصاً المستشرقين قد تعمّدوا الكذب في كثير ممّا ألفوه ، فدائرة المعارف الإسلاميّة البريطانيّة - مثلاً - إذا استعرضت بحوثها عن الإسلام وقادته تجدها مليئة بالدسّ والكذب والافتراء ، وقد دلّلنا على ذلك في بعض مؤلّفاتنا ، وذكرنا نماذجاً من كذبهم وافتراءهم الذي لم يكن القصد منه إلّا الكيد للإسلام ، والبغي على أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وهكذا استعرضنا ما كتبه الدكتور أحمد أمين ، والدكتور شبلي على الشيعة ،

وتصوير بعض جوانب حياتها العقائدية ، فإننا نجد الكذب ماثلاً في جميع ما كتبوه عنها ، غير متأثمين من ذلك . وعلى أي حال ، فقد استساغ كثير من الناس الكذب ، وصار عادة لهم ، ومما لا شك فيه أن هذا الداء الويل يهدم جميع الفضائل الخلقية ، والأمة التي تعتاده مصيرها السقوط والانهيار .

الوقاية منه

أما طرق الوقاية من الكذب فهي :

- ١ - أن يتمعن الإنسان فيما توعده الله عليه من العذاب الدائم ، والخلود في نار جهنم ، في حين أنه لم يكن بذلك أي فائدة له .
- ٢ - أن يفكر فيما يجزله من الويلات والمصاعب ، وأهمها سقوطه من أعين الناس ، وفقدان الثقة به .

٣ - أن يبتعد عن مجالسة الأشرار الذين لا يتأثمون من الكذب ، ويجالس الأخيار والمتحرجين في دينهم ، فإنه يتأثر بأخلاقهم وعاداتهم ، ويقلع عن نفسه هذه الصفة الشريرة .

هذه بعض الطرق الوقائية من الكذب ، والواجب على رجال التربية أن يقوموا بدورهم في مكافحة هذا الداء الخبيث ، وأن ينقذوا الجيل الجديد من شره ، وأن يضعوا أمام الناشئة في المعاهد أضراره البالغة التي توجب انحطاط الأمة وهلاكها .

الغيبة

الغيبة من أخطر الأمراض ، وأفحش السيئات ، وهي تكشف عن الحسد والبغي ونقصان الإيمان ، وقد مني بها أكثر الناس فصارت عادة لهم ، وخلقاً من أخلاقهم ، وفاكهة يتسلون بها في أوقات فراغهم ، فيضع بعضهم بعضاً على طاولة التشريح فيكشف عيوب صاحبه ونقائصه ، ويهتك ستره وسريته ، من دون أن يتحرج

أو يتأثم في ذلك ، ونعرض - بإيجاز - لبعض شؤونها :

حقيقتها

إنَّ حقيقة الغيبة أن يذكر الإنسان أخاه المسلم في غيبته بما يكرهه ، سواء أكان الذكر صراحة أم كناية أم إشارة أم رمزاً أم كتابة ، وسواء أكان ذلك في دينه بأن يقول : « إنَّه سارق أو خائن أو متهاون في صلاته أو ليس بارّاً بوالديه » ، وغير ذلك ، أم في دنياه بأن يقول : « إنَّه قليل الأدب ، متهاون بالناس ، كثير الكلام ، أو أنّه واسع الكمّ ، طويل الذيل ، وسخ الثياب » ، وغير ذلك .

حرماتها

وحَرَّمَ الإسلام الغيبة لأنها توجب إثارة الحقد والبغضاء بين الناس ، وقد حَرَّمها القرآن .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبَ بَغْضُكُمْ بَغْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ^(١) .

وقد جعل تعالى المؤمن المغتاب أخاً ، وعرضه كلحمه ، والتفكّه به أكلاً ، وعدم شعوره بذلك بمنزلة موته ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ^(٣) .

وقد تواترت الأخبار في تحريم هذه الصفة الخبيثة ، وهذه بعضها :

١ - قال النبي ﷺ : « إِنَّ الْغَيْبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزُّنَا ، وَأَنَّ الرَّجُلَ لَيَزْنِي فَيَتُوبُ وَيَتُوبُ اللَّهُ

(١) الحجرات ٤٩ : ١٢ .

(٢) مكاسب الشيخ الأنصاري : ٣١٥ / ١ .

(٣) النور ٢٤ : ١٩ .

عَلَيْهِ، وَإِنَّ صَاحِبَ الْغَيْبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ»^(١).

٢ - قال ﷺ: «مَنْ مَشَى فِي غَيْبَةِ أَخِيهِ وَكَشَفَ عَوْرَتِهِ كَانَ أَوَّلَ خُطْوَةٍ خَطَاَهَا وَضَعَهَا فِي جَهَنَّمَ، فَكَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ»^(٢).

٣ - قال ﷺ: «مَا عُمِّرَ مَجْلِسٌ بِالْغَيْبَةِ إِلَّا خُرِبَ بِالْذِّينِ، فَتَزَّهَوْا أَسْمَاعَكُمْ مِنْ اسْتِمَاعِ الْغَيْبَةِ، فَإِنَّ الْقَائِلَ وَالْمُسْتَمِعَ لَهَا شَرِيكَانِ فِي الْإِنِّمِ»^(٣).

٤ - قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهُ وَسَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»^(٤).

هذه بعض الأخبار التي أثمرت عن النبي ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام، وهي تدل على أنها من كبائر الذنوب التي يعاقب عليها، ويسأل عنها الإنسان يوم حشره ونشره.

بواعثها

أمّا بواعث الغيبة حسب ما ذكرها علماء الأخلاق، فهي:

١ - السخرية والاستهزاء بالمغتتاب.

٢ - الهزل والعبث.

٣ - الافتخار والمباهاة بنقص الغير وتزكية النفس.

٤ - موافقة الأصحاب والأخلاء الذين اعتادوا على إظهار عيوب الناس، فيشترك

(١) علل الشرائع: ٥٥٧/٢، الباب ٣٤٥، الحديث ١.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٨٨.

(٣) مستدرک الوسائل: ١٢١/٩، الحديث ١٠٤٢٠.

(٤) أصول الكافي: ٢٦٦/٢.

معهم في هذه الرذيلة مجاملة منه في الصحبة لئلا ينفروا منه .

٥ - استشعاره بأن المغتاب يريد أن يذكر مساوئه فيبادره بإظهار عيوبه .

هذه بعض بواعث الغيبة ، وهي تنم عن نفس لا صلة لها بالفضيلة والأخلاق .

كفارتها

وكفارة الغيبة رضاء المغتاب ، وإبرائه لذمة المستغيب له ، وقد دلت على ذلك الأخبار المستفيضة ، فقد جاء فيها : « إِنَّ الغيبة لا تغفر حتى يغفر صاحبها » .

وأثر عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ كَانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عَرَضٍ أَوْ مَالٍ فَلْيَسْتَحِلِّهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَيْسَ هُنَاكَ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ ، فَيُؤْخَذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ »^(١) .

وقد ذهب فقهاء المسلمين إلى أن التوبة التي توجب مغفرة الله وعفوه عما ارتكبه الإنسان من المآثم لا توجب سقوط العقاب عن الغيبة ؛ لأنها من حقوق الناس وليس من حقوق الله حتى يعفو عنها .

الوقاية منها

أما طرق الوقاية من هذا الداء الخبيث فهي :

- ١ - أن يتمنَّ الإنسان فيما يترتب عليها من العقاب والويلات في دار الآخرة ، وأنه سيحاسب أمام الله على هتكه لكرامة أخيه المؤمن ، وانتهاكه لحرمة وظلمه له .
- ٢ - أن يفكر فيما تجرُّ له من المفاسد في دار الدنيا ، فإنها قد تصل إلى من اغتابه فيوجد بذلك عدوًّا له ، أو يزيد في عداوته ، ويدفعه إلى العمل على إيذائه وإهانته ، أو الاعتداء عليه .

٣- أن يزِيل عن دخائل نفسه الأسباب التي تؤدِّي إلى الغيبة ، ويعالجها ليحسم بذلك هذا الداء الوبيل .

هذه بعض الطرق الوقائيَّة التي ذكرت لصيانة النفس ومناعتها من الإصابة بهذا الداء^(١).

النميمة

النميمة إحدى عناصر الشرِّ ، وباب من أبواب الفتن بين الناس ، وهي تكشف عن خسَّة الطبع ، ولوِّم الذات .. ونتحدَّث - بإيجاز - عن بعض شؤونها .

حقيقتها

وهي أن يوصل قول الغير إلى المقول فيه ، كأن يقول له : « فلان قال فيك كذا وكذا » ، وهي نوع خاص من إفشاء السرِّ وهتك الستر ، وشاملة لما كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً على المنقول عنه أو لم يكن .. فكلُّ ما يرى من أحوال الناس ، ولم يرضوا بإفشائه فإذا عته نميمة .

ذمُّها

وأعلن القرآن الكريم الذمَّ لهذه الصفة الخبيثة . قال تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾^(٢) .
وقال تعالى : ﴿ وَيَلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴾^(٣) .

(١) جامع السعادات : ٢/ ٢٨٨ - ٣٠٥ . بحار الأنوار : ١٥/ ١٨٤ . إحياء العلوم : ٣/ ١٢٣ . مستدرک

الوسائل : ٢/ ١٠٦ .

(٢) القلم ٦٨ : ١١ - ١٣ .

(٣) الهمزة ١٠٤ : ١ .

ووردت طائفة كبيرة من الأخبار في ذمها ، منها :

١ - قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَى اللَّهِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا ، الْمَوْطُونُ أَكْثَفًا ، الَّذِينَ يَالْفُونَ وَيُؤَلَّفُونَ ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللَّهِ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، الْمَفْرَقُونَ بَيْنَ الْأَحَبَّةِ ، الْمُتَمِيسُونَ لِلْبِرَاءِ الْعَثَرَاتِ »^(١).

٢ - قال ﷺ : « مَنْ أَشَارَ عَلَى مُسْلِمٍ كَلِمَةً لِيُشْنَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا يَغْيِرَ حَقُّ شَأْنِهِ اللَّهُ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٢).

٣ - قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام : « الْجَنَّةُ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْمُغْتَابِينَ الْمَشَائِينَ بِالنَّمِيمَةِ »^(٣).

٤ - قال الإمام الصادق عليه السلام : « مَنْ رَوَى عَلَى مُؤْمِنٍ رِوَايَةً يُرِيدُ بِهَا شَيْنَهُ وَهَدَمَ مُرُوءَتَهُ لِيَسْقُطَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ وَلَايَتِهِ إِلَى وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ وَلَا يَقْبَلُهُ الشَّيْطَانُ »^(٤).

وهناك كوكبة أخرى من الأخبار ، وهي تحرم هذه الصفة ، وتحذر المسلمين من الاتصاف بها .

بواعثها

أمّا بواعث هذه الرذيلة فهي :

١ - إرادة الوقعة والسوء بالمنقول عنه ، وإثارة الحقد عليه .

(١) المعجم الصغير : ٢٥/٢ .

(٢) كنز العمال : ٥٩٤/٣ ، الحديث ٨٠٦٦ .

(٣) وسائل الشيعة : ٣٠٦/١٢ ، الحديث ١٦٣٧٠ .

(٤) أصول الكافي : ٣٥٨/٢ ، الحديث ١ . ثواب الأعمال : ٢٤١ .

- ٢ - التقرب وإظهار المودة إلى الذي قيلت فيه ليحرز بذلك عطفه وثقته .
- ٣ - فصم عرى الاتصال ، وإلقاء الفتنة ما بين المنقول عنه والذي قيلت فيه .
- هذه بعض بواعث النميمة ، وهي تنم عن نفس لا عهد لها بالشرف ولا صلة لها بالأخلاق .

الوقاية منها

- أمّا طرق الوقاية من هذا الداء الخبيث ، فهي :
- ١ - أن يتمعن النّمام بما يجلبه من الفتنة والشر بين الناس ، فيكون أداة تخريب وفساد ، ولا يصدر ذلك ممّن يملك أي رصيد من الإيمان بالله .
- ٢ - أن يفكر بأنّه يستحقّ بعمله العقاب والعذاب في الدار الآخرة ، وهو لا يجني بذلك أي فائدة له .
- ٣ - إنّ هذه الصفة توجب سقوطه ، وفقدان الثقة به ، وعدم تصديق قوله .

السخرية والاستهزاء

- وممّا يهدف إليه الإسلام في مجالاته التربويّة احترام الغير ، وعدم الاستهانة بأي إنسان ، فلا يجوز لأي مسلم أن يستهزئ بغيره أو يحتقره بأي لون من ألوان الاحتقار ، قولاً كان أو فعلاً أو إشارة ، فإنّ ذلك من أسباب الفرقة والعداوة بين الناس .
- قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(١) .
- إنّ السخرية واللمز والتنازع بالألقاب ممّا تورث البغضاء في القلوب ، وتقطع

روابط الألفة والمودة بين الناس ، وتوجب سحق الله ، والخروج عن طاعته ، وأن من يقتربها فقد ظلم نفسه ، وعرضها لعذاب الله وانتقامه .

الشماتة

وهي أن يظهر الإنسان الفرح والسرور بما يصيب أخاه من كوارث الدنيا وخطوبها ، وهي تنم عن لؤم الطبع وخبث الذات ، وقد دلت التجارب على أن كل من يشمت بمسلم نزلت به مصيبة لا يخرج من الدنيا حتى يصاب بمثلها .

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « لَا تُبْدِي الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَحِلَّهَا بِكَ »^(١) .

وقال عليه السلام : « مَنْ شَمِتَ بِمُصِيبَةٍ نَزَلَتْ بِأَخِيهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُفْتَنَ »^(٢) .

وهي مما توجب إثارة الأحقاد ، وشيوع التقاطع والتنافر بين الناس .

اللغو

ودعا الإسلام إلى عدم الاتصاف والتخلق بالثرثرة والكلام الفاحش ، وكل ما لا يعتد به من كلام وغيره ؛ لأن في ذلك تضييعاً للوقت ، وإفناءً للعمر ، من غير أن يجني بذلك أي ثمرة أو فائدة تعود عليه وعلى المجتمع ، وقد تكرر في القرآن الكريم النهي عن اللغو .

قال تعالى في وصف عباده المقربين : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾^(٣) .

(١) الكافي: ٣٥٩/٢ ، الحديث ١ . وسائل الشيعة: ٢٦٦/٣ ، الحديث ٣٦٠٥ .

(٢) الكافي: ٣٥٩/٢ ، الحديث ١ (ذيل الحديث) .

(٣) القصص ٢٨ : ٥٥ .

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^(١).

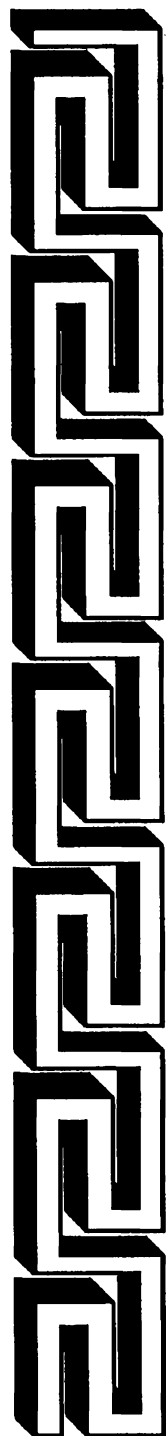
ويشمل اللغو جميع صنوف الكلام الفاحش الذي يثير الشهوات ، ويفسد الأخلاق .. وبهذا ينتهي بنا المطاف عن بعض النزعات والصفات الشريرة التي ناهضها الإسلام ، وسعى في مجالاته التربوية على تهذيب النفوس وتطهيرها من الجرائم والبوائق ، ليكون الإنسان بمنجى من الأمراض النفسية والخُلُقِيَّة التي توجب الشذوذ والانحراف وتصده عن الطريق القويم .

إنَّ التربية النفسية التي وضع مناهجها الإسلام تنقذ الإنسان من العوامل النفسية المتناقضة المثيرة لأخطر أنواع الصراع النفسي ، كما تؤثر بشكل إيجابي على السلوك العام مما يجعل الإنسان في مستوى عالٍ من الثقافة الإنسانية والوعي السليم الذي يدفعه بإيمان إلى كل عمل منتج تتطوّر به الحياة الاجتماعية ، فإنه لم تكن تلك المثل الإسلامية التي عنيت بتهذيب النفس وإصلاحها مقتصرة على هذا الإطار الخاص ، وإنما تستهدف الإصلاح الاجتماعي ، والتوجيه الشامل لجميع مناحي الحياة .

ومن الطبيعي أن هذه التربية الفذة إنما تحقّق أثرها الفعّال في الإصلاح والتهذيب ، ونموّ الأمة وتكوينها فيما إذا نفذت إلى أعماق النفس ، ومارسها الإنسان ممارسة فعلية في جميع ميادين سلوكه .



التربية
الصحيّة والرياضيّة
في الإسلام



والشيء المحقق أنّ الإسلام قد تبنّى - بصورة إيجابية - أسس الصحة العامة وركزها في مجالاته التشريعية ، فما من فرض أو واجب شرّعه للناس إلّا ويعود عليهم بثمرات طيبة تحفظ صحتهم ، وتقيهم من الإصابة بكثير من الأمراض ، وقد آمن بذلك بعض أطباء الغرب الذين اختصّوا بالبحث عن شؤون الطب العربي والإسلامي .

يقول الدكتور: « جورجيو دار بلانو »:

« إنّ الفروض والواجبات وغيرها من السنن والمستحبات الإسلامية تتصل بالصحة ، وهي ترمي إلى إصابة هدفين ، وتحقيق غايتين في آن واحد ، غاية دينية ، وغاية صحّية »^(١).

وقال الدكتور « روند ساندج »:

« إنّ تعاليم الإسلام الدينية تتمثّل بالصحة ، فهي تدعو إلى القناعة وعدم الإسراف في الأكل والشرب والاهتمام بالنظافة والغتسال بالماء الطاهر خمس مرّات في اليوم ، وقبل كلّ صلاة .
وإنّ الصلاة مجموعة من حركات رياضية ، وإنّ الإسلام يأمر بتجريد المرضى المصابين بأمراض معدية .

وإن العلوم الإسلامية خصّصت جزءاً كبيراً من أبحاثها بحفظ الصحة^(١).

لقد بهر أطباء الغرب بالتعاليم الصحيّة الرائعة التي وضع برامجها الإسلام، فذهبوا إلى أنّ الرسول الأعظم ﷺ من أعظم أطباء العالم وأنبلهم، وممن ذهب إلى ذلك الدكتور «جورجيو دار بلانو» والدكتور «رونان».

يقول «سان جورجيو»:

«إنّ الأمر الذي لا شك فيه، هو أنّ المعالجة والصحة كانا من الموضوعات الرئيسيّة التي عالجها الرسول، وأنه هو نفسه كان واسع الاطلاع في الطب^(٢)».

وعلى أي حال، فإنّ الرسول الأعظم ﷺ قد اهتمّ بالصحة اهتماماً بالغاً إيماناً منه بأنّ الإنسان لا يمكن أن تتوفّر فيه عناصر الحياة السليمة، والطاقات الحيويّة، إلّا إذا سادت معالم التربية الصحيّة، وطبّقت مناهجها على واقع الحياة، وقد بلغ من اهتمامه البالغ بالصحة أنّه كان يقول لأصحابه: «سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ، فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْراً مِنَ الْمُعَافَاةِ»^(٣).

كما أشاد ﷺ بعلم الطبّ، ودعا إلى التخصّص به، ففي الحديث المشهور: «الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمُ الْأَبْدَانِ وَعِلْمُ الْأَذْيَانِ»^(٤).

وأمر بالتداوي، وألمح إلى أنّ لكلّ داء دواءً، قال ﷺ: «تَدَاوُوا فَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً

(١) الوجيز: ٣/١.

(٢) الوجيز: ٢/٢ و ٣.

(٣) ميزان الحكمة: ٢٠٢٤/٣.

(٤) كنز الفوائد: ٢٣٩.

إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ الدَّوَاءَ إِلَّا السَّامَ^(١)، فَإِنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهُ^(٢).

ووضع ﷺ برنامجاً عاماً للطب عرف (بالطب النبوي) تحدّث فيه عن بعض الأمراض، ووصف أدويتها، كما احتوى على بيان شامل لبعض الأغذية من الفواكه والأطعمة واللحوم والخضروات، وذكر خواصّها وفوائدها الطّبيّة.

وعرض الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض المناهج الصحيّة في كثير من وصاياه ونصائحه، ومن بينها هذه الوصيّة الرائعة التي زوّد بها ولده الإمام الحسن عليه السلام فقد قال له:

يَا بُنَيَّ، أَلَا أَعْلَمُكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ تَسْتَعْنِي بِهَا عَنِ الطَّبِّ؟
بلى.

لَا تَجْلِسَ عَلَى الطَّعَامِ إِلَّا وَأَنْتَ جَائِعٌ، وَلَا تَقُمْ عَنِ الطَّعَامِ إِلَّا وَأَنْتَ تَشْتَهِيهِ، وَجُودِ الْمَضْغَ، وَإِذَا نُمْتَ فَأَعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى الْخَلَاءِ، فَإِذَا اسْتَعْمَلْتَ هَذِهِ اسْتَعْنَيْتَ عَنِ الطَّبِّ^(٣).

وحفلت هذه الوصيّة بأروع النصائح الصحيّة التي أقرّها الطب الحديث فإنّ النّهمة في الطعام وعدم مضغه ممّا يسبّب إصابة الجهاز الهضمي بكثير من الأمراض.. وتصدّى الإمام الصادق عليه السلام إلى البحث عن علم الصحّة والطب، فألقى محاضراته القيّمة التي تناولت الكشف عن دقائق هذا الفنّ كما عرض فيها إلى وظائف الأعضاء، ودوران الدورة الدمويّة والجراثيم المسبّبة للأمراض، وذكر كثيراً من خواصّ الأغذية كالفواكه والخضروات واللحوم وغيرها، وقد دوّنت بحوثه الصحيّة

(١) السام: الموت.

(٢) دعائم الإسلام: ١٤٣/٢، الحديث ٤٩٩.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٤/٢٤٥، الحديث ٣٠٤٥١. الكنى والألقاب: ٢٤/١.

فى كتاب سَمَّى بـ «طَبَّ الإمام الصادق» ، وقد ناظر كبار علماء الطب - فى عصره - وخاض معهم أدقَّ البحوث الطبَّية وأعمَقها ، وقد اعترفوا بعجزهم عن مجاراته ، وعدم درايتهم بما عرضه عليهم من خفايا مسائل هذا الفنّ ، ودوّنت تلك المناظرات فى كثير من الكتب التى عرضت لسيرته عليه السلام .

ولعلَّ من أروع ما أثر عنه فى هذا الفنّ كتابه المسمّى بـ «أمالى الإمام الصادق» ، فقد عرض فى بعض فصوله إلى وظائف الأعضاء ، واكتشف خواصّها ودقائقها به ما لم يصل إلى معرفة بعضها الطب الحديث بما يملك من المختبرات ، وأجهزة التحليل .

ومن الطبيعى أنّ لهذه البحوث أثراً كبيراً فى تطوّر علوم الصحّة وازدهارها ، ولعلَّ من أروع البحوث الصحّية التى أثرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام - فيما نحسب - طَبَّ الإمام الرضا عليه السلام المسمّى بالرسالة الذهبية ، فقد ألّفها الإمام الرضا عليه السلام بطلب من المأمون الخليفة العبّاسى ، وقد عني بها عناية خاصّة ، فأمر بأن تكتب بالذهب - فيما يقول المؤرّخون - واتّخذها منهجاً لشؤون حياته الصحّية ، وقرضها تقريضاً عاطراً دلَّ على مدى إكباره لها ، وقد جاء فيه :

«وسمّيتها «المذهبة» وخزنتها فى خزانة الحكمة ، وذلك بعد أن نسخها آل هاشم فتیان الدولة ؛ لأنّ بتدبير الأغذية تصلح الأبدان ، وبصحّة الأبدان تدفع الأمراض ، وبدفع الأمراض تكون الحياة ، وبالحياة تنال الحكمة ، وبالحكمة تنال الجنّة .

وكانت أهلاً للصيانة والادّخار ، وموضعاً للتأهيل والاعتبار ، وحكيماً يعوّل عليه ، ومشيراً يرجع إليه ، ومن معادن العلم أمراً وناهياً ينقاد له ، ولأنّها خرجت من بيوت الذين يوردون حكم الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ، وبلاغات الأنبياء ، ودلائل الأوصياء ، وآداب العلماء ، وشفاء للصدور والمرضى .»

وأضاف يقول: « فعرضتها على خاصّتي وصفوتي من أهل الحكمة والطبّ وأصحاب التأليف والكتب المعدودين في أهل الدراية ، والمذكورين بالحكمة ، وكلّ مدحها وأعلاها ، ورفع قدرها وأطراها ، إنصافاً لمصنّفها ، وإذعاناً لمؤلّفها ، وتصديقاً له فيما حكاها فيها »^(١).

وناظر ﷺ جماعة من كبار أطباء عصره من الذين جلبهم المأمون لمناظرته ريثما يعجز الإمام - فيما يحسب - فيتخذ من ذلك وسيلة للتشهير به والخطّ من شأنه ، إلّا أنّهم عجزوا عن مجاراته ، فاعترفوا له بالفضل ، والتضلّع في هذا العلم .
وعلى أي حال ، فإنّ الإسلام قد وضع أسساً عامّة للمناهج الصحيّة تقي الإنسان من الإصابة بكثير من الأمراض ، ونعرض - بإيجاز - لبعضها .

النظافة

النظافة إحدى العناصر المهمّة في تكوين الحياة الصحيّة وازدهارها ، وجعلها بمأمن من التلوّث بالأمراض السارية والأوبئة الفتّاة ، وقد تبنّاها الإسلام - بصورة إيجابية - ورّتب عليها بعض أحكامه وواجباته ، ومنح الله تعالى وسام حبّه لمن يتّصف بها .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾^(٢).

وقال تعالى : ﴿ لَمَسْجِدَ أُسَسِّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾^(٣).

وأثرت عن الرسول ﷺ وأهل بيته عليه السلام طائفة من الأخبار ، وهي تحت المسلمين

(١) طبّ الإمام الرضا عليه السلام : ٣١ .

(٢) البقرة ٢ : ٢٢٢ .

(٣) التوبة ٩ : ١٠٨ .

عليها كقاعدة أساسية في حياتهم الفردية والاجتماعية ، منها :

١ - « النَّظَافَةُ مِنَ الْإِيمَانِ » ^(١) .

٢ - « بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ » ^(٢) .

٣ - « إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ » ^(٣) .

٤ - « الطَّهْوَرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » .

وتشمل النظافة التي دعا إليها الإسلام ما يلي :

١ - نظافة الجسم ، وإزالة ما عليه من الأوساخ ، وتقليم الأظافر ، وقص الشعر ، وذلك الأسنان .

٢ - نظافة اللباس ، وإزالة ما عليه من الحشرات الناقلة للأمراض .

٣ - نظافة المسكن مع مرافقه الصحية .

٤ - نظافة المأكّل ومياه الشرب .

أمّا إذا أهمل ذلك ، وأصيب ببعض الأمراض ، فإنّه يقترب بذلك محرّماً ، وإنّما لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ^(٤) .

وقد كره الإسلام الفذارة وحذّر منها ، ففي الحديث : « بِئْسَ الْعَبْدُ الْفَاذُورَةُ » ^(٥) .

ومن ألوان الفذارة وساخة الجسم والثياب ، والمسكن ، والجلوس في الأماكن القذرة والبصق في المحلّات العامة ، والجوامع .

(١) مستدرک سفینه البحار : ٦٠٥/٦ .

(٢) تذکرة الموضوعات : ٣١ .

(٣) سنن الترمذی : ١٩٨/٤ ، الحديث ٢٩٥١ . الجامع الصغير : ٦٧/١ ، الحديث ١٧٤٨ .

(٤) البقرة ٢ : ١٩٥ .

(٥) الکافی : ٤٣٩/٦ ، الحديث ٦ .

ويُتّضح مدى اهتمام الإسلام البالغ بالنظافة بتشريعها لما يلي :

الغُسل

وألزم الإسلام بغسل جميع البدن ، واستيعاب بشرته بالماء عقيب الاتّصال الجنسي أو الاحتلام ، سواء في ذلك الرجل أو المرأة .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ ^(١) .

وقد ثبت في الطّب الحديث أنّ الجسم الإنساني يفقد شيئاً من حيويّته ونشاطه بعد الانتهاء من الاتّصال الجنسي ، ولا يعيدهما إلّا غسل الجسم كلّه ودلكه بالماء ، كما أنّه يجب على المرأة بعد أن تطهر من دم الحيض أن تغسل بدنّها ، وتزيل ما عليه من قاذورات الدم ، وهو يردّ لها حيويّتها ونشاطها . وذكر فقهاء المسلمين أنواعاً أخرى من الأغسال الواجبة والمندوبة ، وهي ممّا تجعل المسلم - في أكثر أحواله - نظيفاً عن القذارة والأوساخ .

الوضوء

ويجب في مقدّمة الصلاة اليوميّة البالغة خمس صلوات ، وغيرها من الصلوات الواجبة ، عدا صلاة الجنائز ، فإنّه لا يعتبر فيها ، ويجب فيه غسل الوجه ، واليدين ، ومسح الرأس والرجلين - عند الشيعة - وسننه غسل الكفّين عند ابتداء الوضوء ، والمضمضة بالماء ، والاستنشاق بالماء وغيرها ممّا نصّ عليه فقهاء المسلمين ، وذكر الأطباء الاختصاصيّون له فوائد مهمّة منها :

١ - إنّ الماء الذي يراق على الوجه واليدين ممّا يقبض العروق الشعريّة السطحيّة الجلديّة ، وعودها منبسطة إلى حالتها الأولى ، وبذلك تزداد حركة القلب وتنشط

المبادلات في الجسم ، وتقوي الحركات التنفسية ، ويزيد في استنشاق الأوكسجين ودفع ثاني اوكسيد الكاربون ، وبذلك يحصل تنبه الأعصاب المدركة المحركة ، ثم يسري هذا التنبيه إلى جميع الأعصاب القلبية والرئوية والمعدية ، ومنها إلى جميع الأعضاء والغدد .

٢ - وقاية العين من الإصابة بالرمد ؛ لأنها تغسل بالماء النظيف عدة مرات في اليوم .

٣ - تطهير مجاري الأنف من الجراثيم التي تتجمع فيه ، وذلك فيما إذا أتى المصلي بالاستنشاق .

٤ - وقاية الجلد من الإصابة بالأمراض الجلدية ، فإن الوجه واليدين من الأجزاء المكشوفة ، وهي عرضة للإصابة بالميكروبات الوافدة عليها ، فإذا غسلت في اليوم عدة مرات توفرت فيها المناعة من الإصابة .

٥ - وقاية الجوف من الجراثيم التي تدخل عن طريق الفم ، فإنها لا تدخل إلا من طريق تلوث الأيدي ، فإذا كانت مغسولة نظيفة على الدوام فإنها لا تحمل أي جرثومة تصل إلى الجوف ، أما الأمراض التي تلج الجسم من طريق الأيدي الملوثة فهي :

١ - الطفيليات الهضمية .

٢ - التيفوئيد .

٣ - الشلل .

إنّ الوضوء من أهمّ العمليات الوقائية لجسم الإنسان من الإصابة بهذه الأمراض الخطيرة .

٦ - تخفيف حدّة توتر الأعصاب والغضب ، حسب ما يقول الأطباء ، وقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال : « الْغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ

بِالْمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ»^(١).

هذه بعض الثمرات المهمة التي تترتب على الوضوء^(٢).

السواك

ونذب الإسلام إلى السواك وحث عليه ، فقد قال ﷺ : «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ»^(٣).

والسواك : عود من شجر الأراك فيه ألياف دقيقة يستعمل لتنظيف الأسنان .

وقد أدلى الدكتور حامد البدري ببعض فوائده الصحية ، قال :

« هذا النبات - أي الأراك - يتكوّن كيميائياً من ألياف السيليلوز ، وبعض

الزيوت الطيارة ، وبه راتنج عطري ، وأملاح معدنية ، أهمها كلوريد

الصوديوم ، وهو ملح الطعام ، وكلوريد البوتاسيوم ، واوكسالات الجير .

فالسواك فرشاة طبيعية زوّدت بأملاح معدنية ، ومواد عطرية تساعد

على تنظيف الأسنان ، فرى النبي ﷺ وأصحابه قد استعملوا فرشاة

الأسنان الطبيعية منذ قرون حينما استعمل الغرب الفرشاة لتنظيف

أسنانهم لأول مرة حوالي سنة ١٨٠٠م .

هذا وإنّ الإنسان إذا أهمل أسنانه سرى فيها الفساد والتسوس ، وأفرزت

السموم التي يمتصّها الجسم ، وتسبّب أمراضاً كثيرة»^(٤).

هذه بعض الثمرات المهمة في تشريع الإسلام للسواك بهذا النبت الخاص .

(١) بحار الأنوار : ٢٧٢/٧٠ . مسند أحمد بن حنبل : ٢٢٦/٤ .

(٢) مصادر البحث : روح الدين الإسلامي : ٤٠٠ . روح الصلاة في الإسلام : ٨٢ و ٨٣ .

(٣) الكافي : ٢٢/٣ ، الحديث ١ .

(٤) روح الدين الإسلامي : ٤٠١ .

الاستنجاء

ومما شرّعه الإسلام للنظافة الاستنجاء بتطهير مخرج البول بالماء مرّتين ، والأفضل ثلاث مرّات ، وأمّا مخرج الغائط فيختبّر المكلف بين غسله بالماء وهو الأفضل ، وبين مسحه بما يقلع النجاسة - حسب ما نصّ عليه الفقهاء - وهذا التشريع العظيم ممّا يستلزم نظافة الجسم ، ووقايته ممّا يحمله البول والغائط من الميكروبات والقذارة .

نظافة الثياب

وأجمع الفقهاء على لزوم طهارة الثياب حال الصلاة ، وإنّ المصلّي إذا صلّى بالثوب النجس اختياراً مع علمه بالنجاسة بطلت صلاته ، ووجب عليه إعادتها بثوب طاهر .

ومن الطبيعي أنّ طهارة الثياب لها الأثر الكبير في تكوين الصّحة الفرديّة والاجتماعيّة ووقاية الإنسان من الإصابة ببعض الأمراض .

الحلق وتقليم الأظافر

وندب الإسلام إلى نظافة أجزاء البدن ، فقد حثّ على الحلاقة ، وتقليم الأظافر ، فقد جاء في الحديث : « حَمَسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ : الْإِسْتِحْدَادُ ^(١) ، وَالْخِثَانُ ، وَقَصُّ الشَّارِبِ ، وَتَنْفُ الْأَبْطِ ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ » ^(٢) .

ويتطابق هذه المناهج الصحيّة ممّا يوجب توفّر الصّحة ، وسلامة الجسم ، ووقايته من الأمراض الانتقاليّة .

(١) الاستحداد : حلق الشعر من الأعضاء التناسليّة .

(٢) الخصال : ٣١٠ ، الحديث ٨٦ .

وعلى أي حال ، فإنّ النظافة في الإسلام ممّا توجب ازدهار الصحة العامة وتطويرها ، كما تساهم في جعل الطب وقائياً ، وهو ممّا تجهد الدول المتحضّرة ومنظّمات الصحة العالميّة على إشاعته بين جميع الشعوب ، وبالإضافة إلى ذلك فإنّها تعمل على صيانة الإنسان من الشذوذ والانحراف .

يقول « بنتام » الانجليزي : « إنّ من واطب على الطهارة الشرعيّة في الدين الإسلامي خلا ظاهره من الذنوب ، وبرئت نفسه من العيوب ، ولقد استقرت المجرمين الذين جمعتهم السجون فلم أرَ فيهم إلّا قذر الجسم ، ووسخ الثياب » .
وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض برامج النظافة التي شرّعها الإسلام ، وهي ممّا تدلّ على مدى اهتمام الإسلام البالغ في شؤون الصحة العامة .

منهج التغذية

ووضع الإسلام منهجاً خاصّاً للتغذية ، وأمر المسلمين بتطبيقه على واقع حياتهم ، ونلّمح فيما يلي إلى بعضه :

الاعتدال في الطعام

وأكد الإسلام على ضرورة الاعتدال في الطعام ، وعدم الإسراف فيه .
قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ^(١) .

وجمعت هذه الآية الكريمة أسس الصحة العامة ، وأعطت قاعدة مطّردة لسلامة الجسم ، وهو عدم الإفراط في الأكل والشرب ، فإنّ النهم تفتك بالأجسام ، وتسبّب إصابتها بكثير من الأمراض .

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْ اقْتَصَدَ النَّاسُ فِي الْمَطْعَمِ لَاسْتَقَامَتْ أَبْدَانُهُمْ»^(١).

ويقول الإمام الرضا عليه السلام في رسالته الذهبية التي أَلْفَهَا بطلب من المأمون: «فَانْظُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا يُؤَافِقُكَ، وَيُؤَافِقُ مِعْدَتَكَ، وَيَقْوَى عَلَيْهِ بَدَنُكَ، وَيَسْتَمْرِ بِهِ مِنَ الطَّعَامِ فَقَدَرُهُ لِنَفْسِكَ، وَاجْعَلْهُ غِذَاءَكَ»^(٢).

وقال عليه السلام: «مَنْ أَخَذَ مِنَ الطَّعَامِ زِيَادَةً لَمْ يُغِذْهُ، وَمَنْ أَخَذَ بِقَدَرٍ لَا زِيَادَةَ عَلَيْهِ وَلَا نَقْصَ نَفْعِهِ، وَكَذَلِكَ مَا سَبِيلُكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنَ الطَّعَامِ كِفَايَتَكَ فِي إِبَانِهِ، وَازْفَعْ يَدَيْكَ مِنْهُ، وَعِنْدَكَ إِلَهٌ مِثْلُ، فَإِنَّهُ أَصْلَحَ لِمِعْدَتِكَ وَلِبَدَنِكَ، وَأَذْكَى لِمَقْلِكَ، وَأَخْفَ عَلَى جَسْمِكَ»^(٣).

لقد أكد الإسلام على ضرورة الاعتدال في الأكل، وإنه مما يوجب صحة الإنسان، وإبعاده عن الأمراض.

يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كُلْ وَأَنْتَ تَشْتَهِي، وَأَمْسِكْ وَأَنْتَ تَشْتَهِي»^(٤).

وقال عليه السلام: «الْمِعْدَةُ بَيْنَ كُلِّ دَاءٍ، وَالْحِمِيَّةُ رَأْسُ كُلِّ دَوَاءٍ، وَأَعْطِ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَوَّدَتْهَا»^(٥).

إن الإِسْرَافَ في الطعام له مضاعفاته السيئة، التي تجرّ للإنسان كثيراً من الأخطار والمصاعب، وهذه بعضها:

١ - التعرض للبدانة والسمنة، وهي من أخطر الأعراض التي يمتنى بها الإنسان،

(١) دعائم الإسلام: ١٤٥/٢، الحديث ٥٠٨.

(٢) و (٣) طب الإمام الرضا عليه السلام: ٤٨.

(٤) بحار الأنوار: ٢٩٠/٥٩.

(٥) علل الشرائع: ٩٩/١، الباب ٨٧، الحديث ١.

فإنَّها تعرّضه للإصابة بأمراض القلب ، وارتفاع الضغط ، وأمراض الكلى ، ومرض السكر .

٢ - تعرّض الجهاز الهضمي للإصابة بالأمراض من تمدّد المعدة واتّساعها ، وحدوث القرحة وغيرها .

٣ - يؤدّي الإفراط في الطعام إلى قلة النسل ، فقد ثبت في الطب الحديث أنّ الإسراف في تناول الأطعمة الدسمة المغذية يؤثّر على نشاط الغدد وعلى قدرة الإنسان على الفيض التناسلي ، كما يؤدّي - في بعض الأحيان - إلى العقم^(١) .

٤ - ومن ويلات الإسراف في الطعام تبدّل الفكر ، وسدّ آفاقه ، وإصابة الإنسان بالغباوة وعدم الذكاء .

هذه بعض الأضرار الفظيعة الناجمة من الشراهة ، والإفراط في تناول الطعام .

مضغ الطعام

وحثّ الإسلام على مضغ الطعام ، وندب إليه ، وجعله من جملة مناهجه الصحيّة التي يستغنى بها عن الأطباء ، وقد أيدت البحوث الطبيّة الحديثة ذلك ، وأكدت على أنّ عدم مضغ الطعام ممّا يعرّض الجهاز الهضمي للإصابة بكثير من الأمراض .

برودة الطعام

ومنع الإسلام من تناول الطعام الحارّ ، وأكّد على ضرورة تبريده ، فقد أثر عن الرسول الأعظم ﷺ أنّه قال : «بَرِّدِ الطَّعَامَ فَإِنَّ الْحَارَّ لَا بَرَكَةَ فِيهِ»^(٢) .

وقد أجمع الأطباء على أنّ تناول الطعام الحارّ يسبّب أمراض الأسنان وغيرها .

(١) طبيبك معك : ٣١ .

(٢) بحار الأنوار : ٢٩١/٥٩ .

الأغذية المحرّمة

وحَرَّمَ الإسلام تناول بعض الأغذية التي توجب انهيار الصّحة ، وفساد الأبدان ، وألزم بتناول الأغذية التي تحتوي على العناصر الأساسيّة للطعام .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴿^(١)

وقال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفِقَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ ﴿^(٢)

ونلمح إلى بعض الأسرار الخفيّة التي تترتب على هذه المحرّمات .

الميتة

الميتة من الحيوان هي التي تفارقها الحياة من دون ذبح ، فإن كانت عن مرض فقد ذكر الأطباء في أضرارها ما نصّه : « الحيوان الميّت ميتة طبيعيّة لا يموت إلّا لسبب ، فإن كان لمرض فممّا لا شكّ فيه أنّه لا تزال في الجسم نتيجة التسمّم مواد غير طبيعيّة وضارّة للإنسان حتّى بعد أن يعقّم من الجراثيم بطريق النار ، فالجسم الميّت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمّر الذي مهما طهّر من الجراثيم بالحرارة يظلّ مضرّاً بالإنسان ، وربّما أدّى الأكل منه إلى الوفاة » ﴿^(٣)

وقال بعض الأطباء :

« إنّ الميتة تنعدم فيها جميع خواصّها الطبيعيّة للبدن ، وتزول كلّ موادّها

(١) البقرة ٢: ١٧٢ و ١٧٣ .

(٢) المائدة ٥: ٣ .

(٣) الإسلام والطب الحديث : ١٧ .

الحيوية ، فإذا أكلها الإنسان عقب موت الحيوان مباشرة أحدثت له مفساً في المعدة ، ونزلات معوية حادة ، أما إذا مضت على موته مدة حتى تعفن فقد صار سمّاً زعافاً ، وأضرّ في البدن ضرراً كاد أن لا يتدارك مثل الفالج والسكتة وموت الفجأة ، وأحياناً بالمداومة قد يحدث العقم في النسل»^(١).

أما إذا كانت الميتة تستند إلى الشيخوخة ، فإنّ ضررها كضرر الميتة بالمرض ، فإنّ الشيخوخة توجب انحلال الأنسجة بأسرها ، وهو ممّا يحدث تغييراً في لحوم الحيوان يقلّل من قيمتها الغذائية ، وقابليتها للهضم ، وهو ممّا يؤدّي إلى الأمراض المعدية .

الدم

وحرم الإسلام تناول الدم لأنّه مرتع للجراثيم ، فمنه تتولّد ، ومنه تنتشر ، وهو يحمل إفرازات وسمومات ، فإذا تناوله الشخص فإنّه يحدث فيه تهيجاً في الأغشية المعدية ، ويسبّب الأمراض الخطيرة ، أمّا إذا أخذ الدم من الحيوان المريض ، فإنّه يحدث ارتفاعاً عالياً في درجة الحرارة وضغط الدم .

لحم الخنزير

أما لحم الخنزير ، فإنّه يحدث الداء المسمّى « تريشينوز » ، وهو داء خطير يصحبه إسهال شديد ، وأحياناً يحدث إسهالاً دموياً مع مغمص وحمى قويّة ، وانحطاط في القوى ، وأوجاع مؤلمة في المفاصل ، وجفاف في الحنجرة ، وأعضاء التنفّس ، وانتفاخ ظاهر في الوجه ، وخاصّة حول العينين ، كما يوجب الضعف العام في الجسم ، وتشتدّ فيه العوارض ، وربما يؤدّي إلى الموت .

وقد اكتشف الطبيب الانجليزي (باجت) في (١٨٣٥م) هذا الداء الخطير عند تشريحه جثة إنسان كان يكثر من أكل لحم الخنزير، وبعد التجارب المتعاقبة ظهر لديه أنَّ هذا الداء ينشأ من دودة تسمى « تريشينا » تعيش في أمعاء بعض الحيوانات ذوات الثدي، كالقثران والجردان والكلاب والخنازير، غير أنَّها فيها أرى وأكثر تولدًا، خصوصاً وهي تأكل الجيف من كل حيوان يموت، وفيه الطفيلية، فإذا أكل الإنسان لحم الخنزير المصاب بها فلا بدَّ وأن يدخل في جوفه قسم كبير من أكياسها الحية المخزونة في لحم الخنزير المصاب، وبعد مدة وجيزة تذوب تلك الأغشية في أمعاء الإنسان، فتخرج منها الديدان، وتنتشر في جميع أنحاء البدن فتسبب الأمراض السالفة الذكر^(١).

وهذه الإصابة توجد بكثرة في بلاد الغرب التي استباححت أكله.

يقول « ويني وديكسون » :

« إنَّ الإصابة بهذا المرض تكاد تكون عامّة في جهات خارجة من فرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا، ولكنّها تكاد تكون نادرة الوجود في البلاد الشرقية لتحريم دين أهلها أكل لحم الخنزير ».

وأدلى بعض الأطباء بالأُمور التالية :

١ - إنّه ليس من الممكن أن يقرّر أن خنزيراً ما غير مصاب بهذه الديدان، إلّا إذا فحص كلّ جزء من عضلاته تحت المجهر، وهذا غير ممكن؛ لأنّه إذا فعل ذلك نفد لحم الحيوان.

٢ - الأنثى الواحدة من هذه الديدان تضع نحو (١٥٠٠) بيضة في الغشاء المخاطي المبطن لأمعاء المصاب، فتتوزّع الملايين المولودة من الإناث جميعاً

بطريق الدورة الدموية إلى جميع أنحاء الجسم فتتجمع الأجنة في العضلات الإرادية ، حيث تسبب آلاماً شديدة والتهابات عضلية تدعو إلى انتفاخ النسيج العضلي وصلابته ، وتكون نتيجة الأورام التي تمتد بطول العضلات .

٣ - إنه لا يوجد علاج لهذا المرض ، ولأسباب فنية لا يجدي معه دواء ، وبجانب آخر ينقل لحم الخنزير للإنسان بعض الجراثيم العفنة والباراتيفويد التي تسبب للإنسان تسمماً حاداً مصحوباً بالتهابات شديدة في الجهاز الهضمي قد تسبب الوفاة في بضع ساعات»^(١).

إن هذه الأضرار الفظيعة التي تترتب على أكل لحم الخنزير تكشف عن مدى عمق التشريع الإسلامي ، وأصالته في تحريمه .

المنخقة

وحرم الإسلام لحم الحيوان الذي يموت بالاختناق ، وذكر الأطباء أن الاختناق يجعل لحم الحيوان سريع التعفن ، كما يتغير شكله ، ويميل إلى الكآبة والسواد ويكون ذا رائحة كريهة .

الموقوذة

الموقوذة: هي المضروبة حتى تشرف على الموت من أثر الضرب ، وتشارك المنخقة في تعفن لحمها ، وعدم صلاحيتها للأكل .

المرتدية

هي التي تسقط من مكان مرتفع فتموت ، ولا تصلح للأكل لتعفن لحمها واسوداده .

(١) روح الدين الإسلامي : ٤٠٥ .

النطيحة

هي التي تموت من أثر عراكها مع مثيلاتها من الحيوانات ، ولا تصلح للأكل نظراً لتعفن لحمها واسوداده ، وقد قرّر « علم فحص اللحوم » ترتب ذلك على جميع الأصناف السابقة .

ما أكل السبع

وحرم الإسلام أكل لحم الحيوان الذي يفترسه السبع ، والحكمة في ذلك أن الحيوانات المفترسة تأكل الجيف عادة ، وهي تحمل الجراثيم القاتلة ، وهي تنتقل منها إلى فريستها فيتلوّث بذلك جميع لحمها ، وهو ممّا يؤدّي إلى الإضرار بالصحة . هذه بعض أنواع اللحوم التي حرّمها القرآن الكريم ، وذكر فقهاء المسلمين مواد أخرى عرضتها بالتفصيل كتبهم الفقهيّة ، وهي - من دون شك - لم تحرم إلا لاشتمالها على أضرار جسيمة تؤدّي إلى انهيار الصحة ، وإصابة الإنسان بأمراض خطيرة .

الخمّر

الخمّر أساس كلّ جريمة ومصدر كلّ موبقة ، وهو ممّا يمسخ الإنسان ويسلبه جميع مقوماته ، ويلقيه في شرّ عظيم ، ونعرض - بإيجاز - للبحث عنه .

حرّمته

وحرم الإسلام الخمّر تحريماً باتّاً ، جعلها من الكبائر والموبقات ، وأمر القرآن الكريم بلزوم اجتنابه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) .

وتظافرت الأخبار بتحريمه ، وهذه بعضها :

١ - قال رسول الله ﷺ : « لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا ، وَبَائِعَهَا ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ لَهُ » ^(١) .

٢ - قال ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : مُدْمِنٌ خَمْرٍ ، وَمُدْمِنٌ سِخْرِ ، وَقَاطِعٌ رَحِمٍ » ^(٢) .

٣ - قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « مُدْمِنٌ الْخَمْرِ كَعَابِدٍ وَثْنٍ ، وَإِنَّ الْخَمْرَ رَأْسُ كُلِّ إِثْمٍ ، وَشَارِبُهَا مُكْذِبٌ بِكِتَابِ اللَّهِ ، لَوْ صَدَّقَ كِتَابُ اللَّهِ حَرَّمَ حَرَامَهُ » ^(٣) .

٤ - وقال الإمام الصادق عليه السلام أيضاً : « مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ حَتَّى يَفْنَى عُمُرُهُ كَانَ كَمَنْ عَبَدَ الْأَوْثَانَ ، وَمَنْ تَرَكَ مُسْكِرًا مَخَافَةَ اللَّهِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ وَسَقَاهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُمِ » ^(٤) .

وعرضت كتب الحديث لكوكبة أخرى من الأخبار ، وهي تعلن ارتداد شارب الخمر ومروقه من الدين .

أضراره الفظيعة

الإدمان على شرب الخمر مما يوجب انهيار الصحة ، وتدمير الحياة ، وقد حفلت كتب الطب الحديثة بذكر أضراره الفظيعة ، وفيما يلي بعضها :

١ - ضرره على النسل

إن تأثير المسكر ينتقل بالوراثة إلى النسل ، فمن يولد من أبوين مدمنين فإنه

(١) مستدرك الوسائل : ١٨٣/١٣ ، الحديث ١٥٠٤٥ . مكارم الأخلاق : ٤٢٦ . عوالي اللئالي : ١٦٦/١ ، الحديث ١٧٦ .

(٢) الخصال : ١٧٩ ، الحديث ٢٤٣ . معاني الأخبار : ٣٣٠ ، الحديث ١ .

(٣) الكافي : ٤٠٣/٦ ، الحديث ٤ .

(٤) الكافي : ٤٠٤/٦ ، الحديث ١ .

يحمل آثار الضعف البدني ، ويكون عرضه للإصابة باضطرابات خطيرة تنتهي بالعتة أو الشلل العام أو العمق ، وقد يؤدي إلى موت الطفل بعد ولادته ، وزيادة على ذلك فإن ذرية المدمنين قد تصاب بتشوهات مؤلمة كعدم تساوي الجمجمة أو قصر القامة أو الاستسقاء في الدماغ ، أو بتأخير في نمو القوى العقلية كضعف الذاكرة أو البله وغيرها ، وقد نصّ على ذلك الدكتور « بوجونوس »^(١) ، والدكتور « شاوان » و« ستوكار » « وفبرة دينكو » ، وغيرهم^(٢) .

٢ - ضرره على الدم والقلب

ذهب المحللون للخمرة إلى أنّ العنصر الفعّال في الخمرة هي الكحول أو السبيرتو ، وهي تتسرّب إلى الدم بكل سهولة من غير أن تنحلّ ، وقد ينحلّ ما دخل معها في المعدة إلى (الدهيد) ويتوزّع بواسطته إلى جميع الأنسجة والأعضاء ، وقليل منه يكون حامضاً كربونياً ، وحامضاً خليّاً ، واستدلّوا على ذلك أنّك لو أخذت قدراً من دم سكران وأدنيته إلى النار لالتهب كما يلتهب الخمر والسبيرتو .

وأما تأثيره على القلب ، فإنّ نبضه يشتدّ ويسرع ، وأنّ ذلك مسبّب عن نشاط العضلات القلبية ، وبعدها تنقص تلك الحركة الحماسية في القلب يصيبه الذبول والخمول والانحطاط ، كما أنّه يسبّب ضغط الدم على جدران الأوعية الدموية ، وينتج ذلك نضح الجلد عرقاً ، وذكر بعض الأطباء أنّ الإدمان على الخمر هو أحد العوامل الثلاثة المسببة لتصلّب الشرايين ، وهو مرض خطير يسبّب عطباً في القلب ، كما يسبّب الانفجار في شرايين الدماغ ، ويحدث بذلك فالجاً أو شللاً لا براء له .

(١) العمل وحقوق العامل في الإسلام : ١٩ .

(٢) أسس الصحة والحياة : ٢٨٧ .

٣ - خطره على الكبد والكليتين

إنَّ الجسمَ بعد أن يمتصَّ من الكحول يمرَّ في الكبد من طريق التَّيار الدموي ، وبذلك يخرب الخلايا الكبديَّة ، ويحدث التهاباً فيها ، وإذا أدمن عليها فيزمن هذا الالتهاب ، ويحدث تضخُّماً في الكبد ، كما يسبِّب تشمَّعاً فيه ، وقد نصَّ على ذلك كلُّ من الدكتور « هيل هوات » و« دوث هوات » .

وأما تأثيره على الكليتين فإنَّه يسبب قلَّة في إدرار البول ، وذلك بسبب تمدُّد الأوعية الدموية الكلويَّة ، ويخرج جانب كبير من الكحول عن طريق الكليتين فيفضي ذلك إلى التهاب خطير فيهما .

٤ - تأثيره على المعدة

وذكر أعلام الأطباء أنَّ الخمر متى امتزج بمحتويات المعدة ينحلُّ بعضه إلى الدهيد والحامض الخلِّي ، ويرسب الببسين ومختلفات البرثون والبرتايد ، ومن أهمِّ العناصر الموجبة لهضم الطعام هو الببسين ، فمتى ترسَّب تعذَّر الهضم كما أنَّه يهيج غشاء المعدة المخاطي حتَّى يوجب تمدُّداً في الأوعية الدموية ، ويسبِّب تدفُّق غدد العصارة المعدية ، والإدمان عليه يتلف فاعليَّة العصارة المعدية ، كما يسبِّب الابتلاء بسوء الهضم ، فالعاكفون على شرب الخمر يشكون آلاماً موجعة من المعدة .

هذه بعض الأضرار الفظيعة التي ذكرتها أهمُّ مصادر الكتب الطبيَّة الحديثة ، وقد ذهب معظم الأطباء إلى أنَّ الإدمان عليها يسبِّب ما يلي :

- ١ - تضخُّم في الكبد يؤدِّي بالنهاية إلى الاستسقاء .
- ٢ - التهاب الكليتين ، وهو يحدث تسمُّماً عاماً في الجسم .
- ٣ - الفالج .
- ٤ - الهستريا .

٥ - اضطراب عصبي عام.

٦ - ضعف الرئتين ، ويعرضها لداء السل الويل .

٧ - عدم استطاعة المدمن لمقاومة الأمراض الفتاكة كالتيفو ، وذات السحايا ، فإنّ المدمن إذا انتابته إحدى هذه الأمراض قضت عليه لا محالة ، ولا تنفع معه الاسعافات والأدوية الحديثة كالبنسلين وأمثاله من المضادات الحيائية .

هذه بعض الأخطار الصحيّة الناجمة من الإدمان على شرب الخمر ويضاف إليها الأضرار الاقتصادية ، فإنّ السكّير مهما كان بخيلاً لا بدّ أن ينجرّ إلى الإسراف والتبذير ، كما لا بدّ أن ينجرف في ميادين الرذائل والموبقات ، كالقمار والدعارة والمجون ، وغيرها من المخلّلات بالشرف .

وسائل لمكافحته

أمّا الوسائل المكافحة لهذا الداء الويل الذي هو من أقوى عوامل التدمير والإبادة للصحة والحياة ، فهي :

١ - تحريم السلطة له تحريماً باتاً ، وإبادة معاملته ، وأجهزة تقطيره ، وإنزال العقوبات الصارمة بمن يتجرّبه ، ويرتزق منه .

٢ - استخدام أجهزة الإعلام من الإذاعة والتلفزيون بعرض أضراره الفظيعة .

٣ - قيام رجال الدين والتربية ، ومنظمات الصحة بمكافحته ، وبيان أضراره إلى المواطنين .

٤ - فتح النوادي الرياضيّة ، ومزاولة الشباب لأنواع الرياضة والنشاطات المفيدة .

٥ - منع الإعلانات والدعاية التي تحبّب استعماله والترغيب فيه ^(١) .

هذه بعض الطرق التي يجب أن تستخدم لمكافحة هذه الآفة الفتاكة القاضية على العقل والأخلاق .

الشذوذ الجنسي

وحرم الإسلام جميع الانحرافات الجنسية ؛ لأنها تسبب انهيار الصحة العامة ، وإصابة الناس بأمراض خطيرة - وبإيجاز - نعرض لبعضها :

الزنا

وحرم الإسلام الزنا وجعله من أفحش المحرمات . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ^(١) .

جعله تعالى في مصاف الشوك وقتل النفس التي صانها الله .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ ^(٢) .

ولا بد لنا من وقفة قصيرة للبحث عنه :

أضراره

إن أعظم ما يمتنى به الإنسان من الأضرار والأخطار في اقترافه لهذه الجريمة هو انهيار الصحة ، وتدمير أسس الحياة ، ولعل من أقطع الأضرار ما يلي :

١ - الأمراض الزهرية

إن من آثار جريمة الزنا الإصابة بالأمراض الزهرية ، ويصيب هذا الداء جميع

(١) الإسراء ١٧ : ٣٢ .

(٢) الفرقان ٢٥ : ٦٨ و ٦٩ .

أجهزة الجسم ، كالجهاز العصبي والتنفسي واللمفاوي والهضمي والتناسلي ، ويصيب العظام والمفاصل وجميع غدد الجسم القنوية واللاقنوية ، والجلد والعين والأذن بإصابات خطيرة لا يستريح منها المصاب إلا بعد الموت ، ويعاني من ويلاته ومن أوجاعه ما لا سبيل لتصوره ، وقد عنت كتب الطب بإسهاب في تفصيل ذلك^(١).

٢ - السيلان

وهو من الأمراض الفتاكة التي تصيب المجاري البولية ، وهو من نتائج الزنا ، ويؤدي إلى إصابة أبناء من يقترب هذه الجريمة بالعمى أثناء الولادة ، وله كثير من المضاعفات السيئة حفلت كتب الطب بذكرها .

٣ - السفلس

وهو من أخطر الأمراض وأفتكها ، ويسمى بقرد الأمراض ، وهو يصيب أي عضو في البدن ، أو أي نسيج فيه ، وفي الدور الأول منه تتكوّن في الجسم قرحة صلبة تسمى بـ «لشكر» .

والدور الثاني إصابة جميع أجزاء الجسم ببقع حمراء ، والدور الثالث إصابة إحدى الأجهزة الرئيسية في الإنسان ، فقد يصيب الدماغ فتحدث أمراض عقلية ، كالجنون ، وقد يصيب النخاع الشوكي فيؤثر الشلل ، وقد يصيب القلب والأوعية الدموية فيؤدي إلى أمراض القلب .

ومن آثاره السيئة أنّ المرأة الحامل إذا كانت مصابة به فإنه يؤثر على حملها تأثيراً مباشراً ، فإنه يصاب بتشوهات خلقية ، وفي بعض الأحوال تلده ميتاً^(٢).

(١) روح الدين الإسلامي : ٤٤٥ .

(٢) أسس الصحة والحياة : ٢١٨ - ٢٢٠ .

٤ - القرحة الرخوة

وتتكوّن من قرحة ليّنة حمراء غير قابلة للشفاء ، وتؤثّر على الجسم تأثيراً سيّئاً ، وقد عنت كتب الطب بالبحث عنها تفصيلاً .

هذه بعض الأمراض الفتّاكة التي يمتنى بها من يرتكب هذه الجريمة ، ومضافاً لذلك تضييع النسل ، والاخلال بالشرف ، وهدم كيان الأسرة ، وغيرها من الأضرار الاجتماعية .

العقاب الصارم

وحكم الإسلام بأقصى العقوبات على من يقترب هذه الجريمة ، فإن كان محصناً فيرجم بالحجارة ، واستقرّب بعض الفقهاء الجمع بين الجلد والرمي ويسري هذا الحكم على المسلم والمسلمة ، والكافر والكافرة .

أمّا غير المحصن فيجلد بمائة جلدة لقوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

ونصّ بعض الفقهاء على وجوب إحضار طائفة من الناس وقت الرجم ليعتبروا بذلك ، وينزجروا عن ارتكاب هذه الجريمة .

إنّ هذا الإجراء الحاسم ممّا يقضي به على الفساد ، فإنّه يضع السدود والحواجز أمام من تسوّّل له نفسه بارتكابه ، ولعلّ من أهزل ما شرّع في هذا المجال ما قنّنه المشرّع الفرنسي ، فإنّه اعتبر الزنا جريمة من المحصن ولكن الزوجين لا يتساويان في الجزاء الجنائي ، أمّا الزوج فلا يعاقب إلّا إذا ارتكب الجريمة في منزل زوجته ،

ولا تزيد عقوبته على الغرامة ، وأمّا الزوجة فتعاقب بالحبس ^(١) .

ومن الطبيعي أنّ هذا الإجراء لا تحسم به هذه الجريمة ، التي تفتك بالأرواح .

اللواط

وهو من أفحش الجرائم الخُلقيّة ، وأفظع ألوان الشذوذ والانحراف ، وإنّ من يمتنّى به يصاب بالأمراض الزهريّة المدمّرة للصحة والحياة ، وبالإضافة للأخطار الاجتماعيّة التي من أهمّها تضاول نسبة الزواج ، والانصراف عنه إلى هذه الرذيلة التي توجب قلة النسل أو انعدامه .. وقد حكم الإسلام بالعقاب الصارم على من يقترب هذه الجريمة ، فجزأؤه أحد الأمور التالية :

١ - القتل بالسيف .

٢ - الإحراق بالنار .

٣ - إلقاء جدار عليه .

٤ - إلقاؤه من شاهق .

ويقتل المفعول به إن كان بالغاً عاقلاً مختاراً ، وإن كان صبيّاً فإنّه يعزّر ، فاعلاً كان أو مفعولاً ^(٢) .

وهذا الحكم الصارم جاء لاستئصال هذه الجريمة وزجر الناس عنها ، وقد كان هذا الشذوذ الجنسي ممنوعاً في بريطانيا ، ويعاقب عليه القانون ، إلّا أنّ المشرّع البريطاني قد أجازه بالحاح من مجلس الأمّة ، وبذلك فقد ألقت الحكومة شعبها في شرّ عظيم ، ومكنته من اقتراف هذه الجريمة المدمّرة للأسرة وللحياة الاجتماعيّة .

(١) القانون الجنائي الفرنسي : المواد ٣٣٧ - ٣٣٩ .

(٢) الروضة - كتاب الحدود : ١٠ / ١٤٤ .

العادة السرية

وحَرَّمَ الإسلام العادة السرية التي تسمّى بالاستمناء ، وهي من أفحش الوسائل لإشباع الغريزة الجنسية ، فإنَّ من يقترفها يصاب بأمراض نفسية وهزال وكآبة ملازمة له .

الطرق الوقائية

أمَّا الطرق الوقائية من هذه العادة الخبيثة فهي كما يلي :

١ - الزواج المبكر ، فإنه يقضي على جميع ألوان الشذوذ الجنسي ، فإنَّها - على الأكثر - مسببة عن العزوبة التي هي مصدر هذه الرذائل ، وفي الحديث الشريف : « مَنْ تَزَوَّجَ حَفِظَ ثُلُثِي دِينِهِ ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي الثُّلُثِ الْأَخِيرِ »^(١) .

وفي حديث آخر : « رُدَّ أَلْ مَوْتَاكُمُ الْعَرَابُ »^(٢) .

وفي حديث ثالث : « أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ الْعَرَابُ »^(٣) .

إنَّ الزواج يعصم الإنسان من الوقوع في هذه الآثام ، ويقيه من السقوط في حماة الرذائل .

٢ - التثقيف الجنسي ، وإظهار مساوئ هذه العادة المستهجنة .

٣ - الابتعاد عن أفلام الجنس ، ووسائل الإغراء الأخرى ، كالمجلات والكتب الخلاعية ، وكل ما يثير الغرائز الجنسية .

٤ - ممارسة الرياضة ، والأعمال الفنية ، والإقبال على مطالعة الكتب المفيدة

(١) الكافي : ٣٢٩/٥ ، الحديث ٢ . من لا يحضره الفقيه : ٣/٣٨٣ ، الحديث ٤٣٤٢ .

(٢) الكافي : ٣٢٩/٥ ، الحديث ٣ .

(٣) وسيلة النجاة : ٢/٢٩٨ و ٢٩٩ .

والمهذبة للأخلاق .

٥ - اتباع الوسائل كالنظافة العامة ، وترك الفراش حالاً عند النهوض من النوم ، والاستغال بالأمر المفيدة^(١) .

هذه بعض الوسائل التي ذكرت للوقاية من هذه العادة المضرة والتخلص منها .

حرمة وطء الحائض

ومما حرّمه الإسلام للوقاية من المرض وطء الحائض ، فقد حرّم في الكتاب العظيم :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾^(٢) .

وقد أثبتت البحوث الطبيّة الحديثة أنّ مقاربة المرأة أيام حيضها ممّا يضرّ بصحة الزوج والزوجة ؛ لأنّ دم الحيض يحوي ميكروبات عديدة ، وجراثيم متنوعة ، لا تلبث أن تصيب الرجل فتحدث له التهابات ، كما أنّه في الحيض تحتقن أغشية المرأة الداخليّة ، وفي المقاربة قد يحدث لها التمزيق فتنتشر العدوى من الميكروبات الموجودة ، وتنتقل من مكان الرحم إلى أمكنة أبعد ممّا يؤثّر في صحة المرأة ، كما أنّ الاختلاط في كثير من الأحيان يسبّب الاضطرابات العصبيّة^(٣) .

إنّ تحريم الإسلام مقاربة الحائض يعود بأروع الثمرات الصحيّة على الرجل وزوجته وبقية من الإصابة بكثير من الأمراض .

(١) أسس الصحة والحياة : ٣١٩ .

(٢) البقرة ٢ : ٢٢٢ .

(٣) روح الدين الإسلامي : ٤١٢ .

الراحة

ومن برامج التربية الصحيّة في الإسلام راحة الإنسان لبدنه عند إجهاده وعنائه ، فليس له أن يرهق نفسه وجسمه ؛ لأنّ في ذلك إلقاءً لنفسه في التهلكة وهو ممّا حرّمه الإسلام ، وعليه أن يخلد إلى الراحة والاستقرار .

ففي الحديث : « إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِبَاسِدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِرِزْوَجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا »^(١) .

وفي حديث آخر : « نَفْسُكَ مَطِيَّةٌ فَارْفَقْ بِهَا » .

يعني أن لا تحمّلها فوق طاقتها ، ولا تجهدّها ، فإذا أصابها ضعف أو مرض فعالجها ، وليس لك إهمالها .

وجاء في الحديث : « رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ »^(٢) .

إنّ الراحة تقي الإنسان من الإصابة بكثير من الأمراض ، فإنّها - على الأكثر - ناشئة عن الجهد والإرهاق ، وعدم التوازن في السلوك ، وهي من موجبات المرض وأسبابه .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن التربية الصحيّة في الإسلام ، وقد أوجزنا القول فيها ؛ لأنّ تفصيل الكلام يستدعي وضع مجلّد خاصّ لها .

التربية الرياضيّة

ووجّه الإسلام عنايته بالتربية الرياضيّة ؛ لأنّها عنصر مهمّ في تكوين حيويّة الجسم ونشاطه ، وقد شرع لذلك كثيراً من المناهج ، وفيما يلي بعضها :

(١) السنن الكبرى : ١٧٦/٢ ، الحديث ٢٩٢٣ .

(٢) الكافي : ٦/٤٨ . وسائل الشيعة : ٤٩٣/١١ ، الحديث ١٥٣٥٢ .

السبق

وهو عقد شرع لفائدة التمرّن على مباشرة النضال ، والاستعداد لممارسة القتال ، وقد أثار عن الرسول ﷺ أنّه قال : « لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَضَلٍ أَوْ خِفٍّ أَوْ حَافِرٍ »^(١).

وهو ممّا يوجب تقوية الجسم ونشاط العضلات ، وقد عني فقهاء المسلمين به وأفردوا له كتاباً خاصّاً وذكروا فيه أحكامه وآثاره .

الرماية

ويقصد بها التمرين على عمليّات الحروب ، وحمل السلاح ، ومن الطبيعي أنّ هذا التمرين يبعث على توفير القوى الجسميّة ، وزيادة نشاط العضلات ، ونموّ الحركة الحيويّة في الجسم ، كما يقوّي الإرادة والاعتماد على النفس .

الصيد

وهو ممّا يوجب تنبه الأعضاء ، وتحريك العضلات ، وفور النشاط وتقوية الجسم ؛ لأنّه يستلزم الحركة والسير ، وغيرهما من موجبات الرياضة البدنيّة ، وقد ولع به ملوك المسلمين في عصورهم الأولى ، وأثرت عنهم بوادر كثيرة في ذلك ، ولم يكن مبعثه إلّا اللهو واللعب ، وقد عرضت كتب الفقه الإسلامي بصورة مفصّلة إلى بيان محلّل الصيد ومحرمه ، وما يشترط فيه من الأمور التي تبيحه .

الفوائد الرياضيّة في العبادات

وتهدف العبادات التي شرّعها الإسلام إلى سموّ الأخلاق ، وتهذيب النفوس ، وأتصالها بالله خالق الكون وواهب الحياة ، وكذلك تهدف إلى صحّة الإنسان ورياضة جسمه ، وتنشيط عضلاته ، وتقوية إرادته .. ونلمح فيما يلي إلى بعضها :

(١) الروضة : ٤/٢١١ من منشورات جامعة النجف الأشرف الدينيّة .

١- الصلاة

«الصَّلَاةُ مِغْرَاجُ الْمُؤْمِنِ»^(١)، و«قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ»^(٢) - كما في الحديث الشريف - والمنفزع الوحيد للنفس حينما تطاردها الأفكار، وتنازعها الهموم، وتصارعها الآلام فتلجأ إلى الله، وتتصل بخالقها اتصالاً مباشراً، معرضة عن جميع الروابط المادية والمصالح الشخصية، وهي بذلك تكون بمنجاة من القلق المدمر، والاضطراب المبيد.

إنَّ جوهر الصلاة يعني أنَّ توجَّه القلب، وإقبال النفس إلى الله، فإذا خلت عن ذلك فهي فاقدة لروحها وواقعها.. وقد توعدَّ تعالى الذين يأتون بصورة الصلاة، وهم غافلون عن حقيقتها ومغزاها.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٣).

إنَّ النفس إذا أقبلت في الصلاة على الله، وخضعت إليه، واطمأنت بقدرته، فإنَّها تكون بمنجى من آلام الحياة التي تزجُّ الأبدان بالأمراض والآفات، وقد ورد في بعض الأخبار أنَّ الصلاة مصحَّحة للأبدان.

وبالإضافة لما تحتوي عليه من المصالح الدنيوية والأخروية التي لا تحصى، فإنَّها تحتوي على طاقات كبيرة من الفوائد الرياضية.

يقول الإمام المغفور له الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في حديثه عن فوائد الطيبة والرياضية:

«فالمطلوب في حركاتها - أي حركات الصلاة - وسكناتها أجمع، القرار

(١) بحار الأنوار: ٣٠٣/٧٩، الحديث ٢.

(٢) الكافي: ٢٦٥/٣، الحديث ٦. من لا يحضره الفقيه: ٢١٠/١، الحديث ٦٣٧.

(٣) الماعون ١٠٤: ٤ و ٥.

والسكينة ، فإذا قام أو جلس يكون بحيث يستقر كل عضو في موضعه مع الإتيان بحركاتها التي لا تترك مفصلاً من مفاصل الجسم أو عضواً من الأعضاء إلا أعطته حركة جديدة ، قيام وقعود ، وانحناء وسجود ، بهيئات متنوعة من رفع اليدين ، وضّم الجناحين ، يتخلّلها أذكار وقراءة وتسبيح في أوقات معينة ، لها خصوصية كونية ، كطلوع الفجر أو زوال الشمس أو غروبها ، ممّا هو محلّ للعبرة ، وآية على عظيم الصنعة ، وعظمة الصانع ، وفيها مجال للتفكير ، ولكلّ واحدة من تلك الحركات منافع جسميّة ، فالركوع - مثلاً - بتقليصه عضلات البطن يقوّي هذا الجدار ، ويمنعه من الاسترخاء ، وينبّه الأحشاء والأمعاء للنبضات المستقيمة ، فيخلص الجسم من ربة القبض الشديدة إلى كثير من الفوائد ممّا لا مجال لاستيفائه ، ومثله السجود يقلّص عضلات وعظام الصدر تقليصاً أعمّ وأشدّ ، ويحرّك الحجاب الحاجز ، وينبّه المعدة فيدفع ما بها ، ويخلصها من الوقوع في أعراض التمدّد المزعج ، بل كلّ تلك الأعمال المنسّقة المرتبة بذلك الترتيب الخاصّ والأوضاع المعيّنة حركات رياضية لها أعظم الأثر في نشاط الأعضاء وتقلّص العضلات وقوّتها وتماسكها ، وتنبيه الأعصاب الحسّاسة وتحريك الدورة الدموية ، وإيقاد الحرارة الغريزيّة التي تهَيّئ بيئة داخلية ثابتة ، وتنشّط القوى لإعمال الفكر الصحيح ، ومعلوم أنّ وظيفة العضلات لا تقف عند حركة انتقال الجسم من مكان إلى آخر ، بل لها وظائف أهمّ وأعمّ ، وهو تأثيرها النافع في جميع مقدّمات البدن ومكائن التحليل والتبديل ، وتنبيه الجهاز الهضمي والعمود الفقري ، فتلك الحركات تمارين صحيّة ورياضيّة طبيعيّة ، لها في كلّ عضو أثر خاصّ عميق ، منظّمة أبداع تنظيم في أوقات معيّنة كلّ يوم ، بل هي مع ذلك وصفة طبيّة ، وطرّاز بديع في تحصيل المناعة للمفاصل والعظام والأعصاب والقلب والرئة والمعدة ،

بل والرئيس الأعلى وهو الدماغ» .

وقال بعد ذلك :

«إن الصلاة رياضة بدنية، ورياضة روحية، رياضة معتدلة، رياضة هادئة، وإنها تمنح الإنسان بالمواظبة على أدائها في أوقاتها الخاصة قوة الإرادة، وضبط الوقت، وحفظ النظام، ورسوخ ملكة الوفاء بالعهد، وصدق الوعد إلى كثير من أمثال هذه السجايا والمزايا الرفيعة .

فأين هذه الرياضة من الألعاب الصبيانية والوثبة والنزوات ممّا هو بالأطفال أليق، وهي بهم ألق، وهل الصلاة إلا نظافة وتطهير، وعبرة وتفكير، وحركات رياضية، وجهود عقلية، ومكاشفات روحية، وأيسر أثر من آثارها أنها إذا أقيمت بشرائطها، وأدّيت بوظائفها المعتبرة فيها وسنتها المرعية بها ضمنت لفاعلها النهي عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله فيها أكبر...»^(١) .

وسأل الأستاذ عفيف عبدالفتاح طيارة الدكتور مصطفى الحفّار الاختصاصي في أمراض الجهاز الهضمي عن فوائد الركوع والسجود في الصلاة، فأدلى بما يلي :

«إن الركوع يفيد في تقوية عضلات جدار البطن، ثم إنّه يساعد المعدة على تقلصها، ومن ثم على قيامها بوظيفتها الهضمية، كذلك الأمعاء يسهل لها أن تدفع بالفضلات الهضمية بصورة طبيعية .

وأما السجود فيدفع بالهواء من جوف المعدة إلى الفم فيريحها من وطأة التمدّد، وما ينتج عنه من مضايقات هضمية وانعكاسات قلبية» .

وتحدّث الدكتور فارس عازوري الاختصاصي في الأمراض العصبية والمفاصل

عن الفوائد الطبية المترتبة على الصلاة فقال :

«إن الصلاة عند المسلمين ، وما تحتويه من الركوع والسجود تقوي عضلات الظهر ، وتلين حركات فقرات السلسلة الظهرية ، وخصوصاً إذا قام الإنسان بالصلاة في سن مبكرة ، و يترتب على ذلك مناعة ضد الأمراض التي تنتج عن ضعف في العضلات التي تجاور العمود الفقري ، والتي ينشأ من ضعفها أنواع من الأمراض العصبية تسبب الآلام الشديدة والتشنج في العضلات »^(١).

٢ - الصيام

الصوم جنة من النار - كما في الحديث - ووقاية من العذاب ، وهو من أقوى الوسائل في رياضة النفس ، وتقوية الإرادة ، وتعويد النفس على الصبر ، كما أنه من أعظم الوسائل الصحية في إصلاح الجهاز الهضمي ، وأدلى الدكتور عبدالعزيز إسماعيل بأن الصوم العلاج الوحيد للوقاية من الإصابة بأمراض كثيرة ، وأنه أحسن وصفة للأمراض التالية :

١ - اضطرابات الأمعاء المزمنة ، والمصحوبة بتخمّر في المواد الزلالية والنشوية ، وهنا ينجح الصيام ، وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ، ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمّر ، وهذه الطريقة أنجح طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ - زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء ، وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجح من كل علاج ، مع الاعتدال وقت الافطار في الطعام ، والاكتفاء بالماء في السحور .

٣ - زيادة الضغط الذاتي ، وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن

الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ - البول السكري ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون في مدّته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً إذ أنّ السكر يهبط مع قلة السمّنة ، ويهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقلّ من الحدّ الطبيعي في حالات البول السكري الخفيف ، وبعد عشر ساعات إلى أقلّ من الحدّ الطبيعي بكثير ، ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهمّ علاج في هذا المرض حتّى بعد ظهور (الانسولين) ، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد على الوزن الطبيعي ، ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل (الانسولين) غير الصيام .

٥ - التهاب الكلى الحادّ والمزمن المصحوب بارتشاح وتورّم .

٦ - أمراض القلب المصحوبة بتورّم .

٧ - التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمّن كما يحصل عند السيّدات بعد سنّ الأربعين ، وقد شوهدت حالات تتمشّى في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر ممّا تتمشّى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية ، وكلّ الطب الحديث .

وربّ سائل يقول : ولكنّ الصيام في كلّ هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب في كلّ مرض على حدّته ، والصيام الذي كُتب على المسلمين إنّما كتب على الأصحاء ، وهذا صحيح ولكن فائدة الصيام هي الوقاية من هذه الأمراض^(١) .

هذه بعض الفوائد الصحيّة التي تترتّب على الصوم ، وفي الحديث : «صوموا تصحّوا»^(٢) ، فالصوم وقاية للأبدان من الإصابة بكثير من الأمراض ، كما أنّه تهذيب للنفوس ، وتعويد لها على مكارم الأخلاق .

(١) الإسلام والطب الحديث : ٣٣ - ٣٦ .

(٢) عوالي اللثالي : ٢٦٨/١ ، الحديث ٧٠ . بحار الأنوار : ٢٦٧/٥٩ ، الحديث ٤٥ .

٣- الحجّ

والحجّ بطوافه وسائر أعماله ومقدّماته من أعظم الرياضات البدنيّة الموجبة لتقوية العضلات ، وتنشيط حركات الجسم ، وتنبيه الأعضاء ، كما أنّه أعظم مؤتمر إسلامي لو استغلّه المسلمون لاستفادوا منه خيراً عميماً ، ولو عرضوا فيه ما ألّمّ بهم من شؤون سياسيّة واقتصاديّة ، لنجحوا في كثير من أمورهم ، ولكنّهم لم يعنوا بذلك ، فاقترضوا على مجرّد أداء طقوس الحجّ وواجباته من دون أن يعرضوا فيه إلى أي شأن من شؤونهم .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن التربية الصحيّة والرياضيّة في الإسلام .



التربية الوطنية
والعسكرية والمهنية



وتميّزت التربية الإسلامية بأصالتها ، وعمق منهجها ، واتّساع موضوعها ، فهي لم تكن خاصّة بشأن من شؤون الحياة ، وإنّما هي شاملة لجميع شؤونها ومناهجها ، وهي تستهدف تكوين مجتمع سليم يستقبل مواكب الحياة والنور بكلّ ثقة ووعي .. وقد عرضنا - فيما تقدّم من تلك البحوث - بعض صورها الحيّة ، ونحدّث في هذه الجولة الأخيرة عن جوانب أخرى منها ، من دون أن نزعم أنّا قد أَلَمْنَا بجميع جهاتها ، فذاك أمر لا تسعه أمثال هذه البحوث الموجزة ، وفيما يلي ذلك :

التربية الوطنيّة والاجتماعيّة

ليست التربية الوطنيّة في الإسلام عبارة عن الهتافات العالية ، والأناشيد الحماسيّة ، وغير ذلك من ألوان المظاهر الفارغة التي لا تعود على المجتمع بأيّ نفع ، إنّما التربية الوطنيّة الحقّة - في الإسلام - هو أن ينطلق الفرد بكلّ وعي وإيمان ، إلى الخدمة الخالصة لأُمّته ، وأنّ يضحيّ بنفسه وأمواله في سبيل استقلال وطنه ، والذود عنه ، والقيام بما يتطوّر به ثقافيّاً واقتصاديّاً .. ونلمح - بإيجاز - إلى بعض مظاهر التربية الوطنيّة والاجتماعيّة .

الوحدة الاجتماعيّة

إنّ مهمّة التربية الوطنيّة في الإسلام العمل على إشعار الفرد وإيمانه بأنّه والمجتمع شيء واحد ، وأنّه لا بدّ أن يندفع بوعي وإخلاص إلى العمل على إسعاد

غيره كما يعمل لإسعاد نفسه ، وأن يجنّب غيره المكاره كما يجنبها عن نفسه ، وإلى ذلك يشير الحديث الشريف : « أَخْبِثْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَاکْزِرْ لِغَيْرِكَ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ »^(١).

إنّ المجتمع الذي يعمل فيه الفرد لحساب نفسه ، ولا يتفاعل مع غيره للنهوض بأُمته إنّما هو مجتمع خائر القوى ، محطّم الكيان ، لا يستحقّ الكرامة والحياة ، وقد جهد الإسلام على تربية المجتمع بالتربية المشرقة ، فألغى الفوارق ، وحطّم الامتيازات ، وجعل المسلمين بمنزلة جسد واحد إذا حلّت بجزء منه مصيبة أو كارثة تداعى لها سائر الجسد بالسهر والحمى .

ومن المؤكّد أنّه ليس شيء أدعى لسعادة الأُمّة ، ولا أضمن لكرامتها ومصالحها من العمل على وحدة صفوفها واتّفاق كلمتها .

لقد أقام الإسلام الوحدة الإسلاميّة على الاخوة فيما بين المسلمين ، وهي تشمل على طاقات هائلة من القوّة تمدّد المجتمع الإسلامي بالتفاهم والإيثار والتعاون ، وتخلق له أنموذجاً فريداً من التكافل الاجتماعي ، كما تسدّ الطريق أمام أعدائه وخصومه من أفاعي الجشع والاستعمار .

إنّ الاخوة الإسلاميّة ليست مجرد عاطفة ظاهرة ، وإنّما هي علاقة وثيقة تنفذ إلى أعماق القلوب ، ودخائل النفوس ، فتحتمّ على المسلمين أن يشتركوا في البأساء والضراء ، وقد أعلن ذلك الرسول الأعظم ﷺ في غير موقف من مواقفه ، فقد أثر عنه أنّه بعث رجلاً في حاجة فأبطأ عليه ، فلمّا مثل عنده قال له :

مَا أَبْطَأَكَ ؟

قال الرجل : العربي .

قال ﷺ: «أَمَا كَانَ لَكَ جَارٌ لَهُ نَزَبَانِ يُعِيرُكَ أَحَدَهُمَا؟

قال الرجل: بلى يا رسول الله .

فتألم ﷺ واندفع يقول:

- ما هذا لك بأخ^(١).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، هُوَ عَيْنُهُ وَمِرَاتُهُ وَدَلِيلُهُ، لَا يَخُونُهُ، وَلَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْدَعُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَغْتَابُهُ».

ويقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَخُو الْمُؤْمِنِ، لَا يَشْتِمُهُ، وَلَا يُخْرِنُهُ، وَلَا يُسِيئُ الظَّنَّ بِهِ»^(٢).

لقد بنى الإسلام الاخوة الدينية على أسس عميقة، فجعلها كالاخوة النسبية في قوتها ومكانتها، وقد شرع أروع المناهج المؤدية إلى تلاحم تلك القوى، كما نهى عن عوامل التفرقة والتفكك، ونشير فيما يلي إلى ذلك.

وسائل الوحدة الاجتماعية

ووضع الإسلام المناهج القويمة المؤدية إلى حتمية الترابط الاجتماعي، وشيوع المحبة والإخاء بين المسلمين، ونشير - باختصار - إلى بعضها:

١ - التراحم والتعاطف

وحث الإسلام على التراحم والتعاطف، وأكد على ضرورتهما؛ لأنهما من أهم الوسائل في وحدة المسلمين واتفاقهم، وفيما يلي بعض ما أثير عن أئمة أهل البيت عليه السلام في ذلك:

(١) وسائل الشيعة: ٢٧/١٢، الحديث ١٥٥٥٣.

(٢) بحار الأنوار: ١٧٦/٧٥، الحديث ٣٥.

١ - قال الإمام الصادق عليه السلام: «اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا إِخْوَةً بَرَّةً، مُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ، مُتَوَاصِلِينَ مُتَرَاحِمِينَ، تَزَاوَرُوا وَتَلَاقُوا وَتَذَاكَرُوا أَمْرًا وَأَخِيوَهُ»^(١).

٢ - وقال الصادق عليه السلام أيضاً: «يَحِقُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْإِجْتِهَادُ فِي التَّوَاصُلِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى التَّعَاطُفِ وَالْمُوَاسَاةِ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ، وَتَعَاطُفٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى تَكُونُوا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ، مُتَرَاحِمِينَ لِمَا غَابَ عَنْكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ، عَلَى مَا مَضَى عَلَيْهِ مَغْشَرُ الْأَنْصَارِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٢).

٣ - وقال عليه السلام أيضاً: «تَوَاصَلُوا وَتَبَارَزُوا وَتَرَاحَمُوا وَتَعَاطَفُوا»^(٣).

إنَّ هذه التعاليم الحيّة لو طبّقها المسلمون على واقع حياتهم لكانوا يدّاً واحدة على من سواهم، وانسدّ الطريق أمام أعدائهم وخصومهم، وما وجد في مجتمعهم مجال للفقر والحرمان، فإنّ التعاون والتواصل من أوثق الأسباب المكوّنة للتكافل الاجتماعي الذي يقي المسلمين من البؤس والحاجة.

٢ - التزاور

وندب الإسلام إلى تزاور المسلمين بعضهم لبعض؛ لأنّه قاعدة أساسيّة للتعاون والتآلف، والاتّصال فيما بينهم.. وهذه بعض الأخبار التي نذبت إلى ذلك:

١ - قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لِقَاءُ الْإِخْوَانِ مَغْنَمٌ جَسِيمٌ، وَإِنْ قَلَّوا»^(٤).

٢ - عهد الإمام محمّد الباقر عليه السلام إلى خيثة أن يبلغ شيعته بما يلي من النصائح

(١) بحار الأنوار: ٣٥١/٧١، الحديث ٢٠. مشكاة الأنوار: ٣٢٠.

(٢) أصول الكافي: ١٧٥/٢، الحديث ٤. وسائل الشيعة: ٢١٥/١٢، الحديث ١٦١١٩.

(٣) الكافي: ١٧٥/٢، الحديث ٣. وسائل الشيعة: ٢١٦/١٢، الحديث ١٦١٢١.

(٤) الكافي: ١٧٩/٢، الحديث ١٦. وسائل الشيعة: ٥٨٦/١٤، الحديث ١٩٨٧١.

الرفيعة ، وأكد في آخرها على ضرورة التزاور .

قال ﷺ : « أَبْلَغُ مَنْ تَرَى مِنْ مَوَالِينَا ، وَأَوْصِهِمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَأَنْ يَعُودَ غَيْبُهُمْ عَلَى فَقِيرِهِمْ ، وَقَوِيَّهُمْ عَلَى ضَعِيفِهِمْ ، وَأَنْ يَشْهَدَ حَيْثُهم جَنَازَةً مَيِّتِهِمْ ، وَأَنْ يَتَلَقَوْا فِي بُيُوتِهِمْ ، فَإِنَّ لُقْيَا بَعْضِهِمْ بَعْضاً حَيَاةٌ لَأَمْرِنَا .. رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَخِيَا أَمْرَنَا »^(١) .

٣ - قال الإمام جعفر الصادق ﷺ : « تَزَاوَرُوا ، فَإِنَّ فِي زِيَارَتِكُمْ إِخْيَاءَ لِقُلُوبِكُمْ ، وَذِكْرًا لِأَحَادِيثِنَا ، وَأَحَادِيثُنَا تَغْطِي بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَإِنْ أَخَذْتُمْ بِهَا رَشْدْتُمْ وَنَجَوْتُمْ ، وَإِنْ تَرَكْتُمُوهَا ضَلَلْتُمْ وَهَلَكْتُمْ ، فَخُذُوا بِهَا وَأَنَا بِنَجَاتِكُمْ زَعِيمٌ »^(٢) .

وحفلت مصادر الحديث الإسلامي بجمهرة كبيرة من الأخبار ، وهي تحث المسلمين على هذه الظاهرة التي هي من العناصر الأساسية في التربية الوطنية والاجتماعية .

٣ - السعي في حوائج الناس

ومن العوامل المهمة في ربط الهيئة الاجتماعية ، واتصال بعضها ببعض : السعي في قضاء الحوائج ، وقد أكد الإسلام على ضرورته ، وندب إليه في جميع المجالات ، وأثرت عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام طائفة كبيرة من الأخبار ، وهي تحث المسلمين على هذه الظاهرة الفذة ، وهذه بعضها :

١ - قال النبي ﷺ : « مَنْ مَشَى فِي قِضَاءِ حَاجَةِ أَخِيهِ سَاعَةً فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، قَضَاهَا أَوْ لَمْ يَقْضِهَا ، كَانَ خَيْرًا مِنْ اغْتِكَافٍ شَهْرٍ »^(٣) .

(١) الكافي : ١٧٥/٢ ، الحديث ٢ . وسائل الشيعة : ٥٨٧/١٤ ، الحديث ١٩٨٧٢ .

(٢) الكافي : ١٨٦/٢ ، الحديث ٢ . وسائل الشيعة : ٣٤٦/١٦ ، الحديث ٢١٧٢٤ .

(٣) العهود المحمدية : ٢٠١ .

٢- قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «تَنَافَسُوا فِي الْمَعْرُوفِ لِإِخْوَانِكُمْ، وَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ، فَإِنَّ لِلْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الْمَعْرُوفُ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا مَنْ اضْطَنَعَ الْمَعْرُوفَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَمُشِي فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ فَيُوكِّلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مَلَكَئِينَ: وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِهِ، وَآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ يَسْتَغْفِرَانِ لَهُ رَبَّهُ، وَيَذْعَوَانِ لَهُ بِقَضَاءِ حَاجَتِهِ»^(١).

٣- وَحَدَّثَ صَفْوَانُ الْجَمَّالِ، وَهُوَ مِنَ أَلَمَعَ أَصْحَابِ أَيْمَةِ الْهَدْيِ عليه السلام، قَالَ: «كَنتُ جَالِساً مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُقَالُ لَهُ مَيْمُونٌ، فَشَكَا تَعَذُّرَ الْكَرَاءِ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: قُمْ فَأَعِنْ أَخَاكَ.

فَقُمْتُ مَعَهُ فَيَسَّرَ اللَّهُ كِرَاهَهُ، فَرَجَعْتُ إِلَى مَجْلِسِي، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: مَا صَنَعْتَ فِي حَاجَةِ أَخِيكَ؟

فَقُلْتُ: قَضَاها اللَّهُ - بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي -.

فَقَالَ: أَمَا إِنَّكَ إِنْ تُعِينَ أَخَاكَ الْمُسْلِمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَوَافِ اسْبُوعٍ مُبْتَدَأً.

ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَجُلًا أَتَى الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَعْنِي عَلَى قَضَاءِ حَاجَةٍ، فَاتَّقَلَ وَقَامَ مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى الْحُسَيْنِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ كُنْتَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، تَسْتَعِينُهُ عَلَى حَاجَتِكَ؟

قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ - بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي -، فَذَكَرَ^(٢) أَنَّهُ مُعْتَكِفٌ، فَقَالَ لَهُ: أَمَا إِنَّهُ لَوْ أَعَانَكَ كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ اعْتِكَافِهِ شَهْرًا^(٣).

إِنَّ قَضَاءَ حَوَائِجِ النَّاسِ مِنْ أَوْثِقِ الْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى اتِّصَالِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ

(١) الكافي: ١٩٥/٢، الحديث ١٠. وسائل الشيعة: ٣٥٩/١٦، الحديث ٢١٧٥٨.

(٢) فذكر مبني للمجهول.

(٣) أصول الكافي: ١٩٨/٢.

ببعض ، وشيوع المودة والمحبة فيما بينهم .

٤ - الإغاثة والمواساة

ومما يبعث على الوحدة الاجتماعية بين المسلمين إغاثة بعضهم لبعض ، والمواساة فيما بينهم ، فإنهما من أهم الأسباب الوثيقة في جمع كلمتهم ، واتحاد أمرهم ، ونشير إلى ما أثر عن النبي ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام في ذلك :

١ - قال النبي ﷺ : « مَنْ نَفَسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ »^(١) .

٢ - قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام : « مَنْ نَفَسَ عَنِ الْمُؤْمِنِ كُرْبَةً نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الْآخِرَةِ ، وَخَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ وَهُوَ ثَلَجُ الْفُؤَادِ ، وَمَنْ أَطْعَمَهُ مِنْ جَوْعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ سَقَاهُ شُرْبَةً سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ »^(٢) .

٣ - قال الإمام الصادق عليه السلام : « أَيُّمَا مُؤْمِنٍ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً وَهُوَ مُعْسِرٌ يَسِّرَ اللَّهُ لَهُ حَوَائِجَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُؤْمِنٍ عَوْرَةً يَخَافُهَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَبْعِينَ عَوْرَةً مِنْ عَوْرَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْمُؤْمِنِ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، فَانْتَفِعُوا بِالْعِظَةِ ، وَارْغَبُوا فِي الْخَيْرِ »^(٣) .

٤ - قال الإمام الباقر عليه السلام : « لَا يَرَى أَحَدُكُمْ إِذَا أَدْخَلَ عَلَى مُؤْمِنٍ سُوراً أَنَّهُ عَلَيْهِ أَدْخَلَهُ فَقَطْ ، بَلْ وَاللَّهِ عَلَيْنَا ، بَلْ وَاللَّهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ »^(٤) .

(١) سنن الترمذي : ٤٣٩/٢ ، الحديث ١٤٤٩ .

(٢) الكافي : ١٩٩/٢ ، الحديث ٣ . ثواب الأعمال : ١٤٩ .

(٣) الكافي : ٢٠٠/٢ ، الحديث ٥ . ثواب الأعمال : ١٣٥ .

(٤) مصادقة الإخوان : ٦٠ ، الحديث ١ .

٥ - قال الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ إِذْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» ^(١).

٦ - قال الإمام الرضا عليه السلام: «مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ فَرَجَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(٢).

هذه بعض الأخبار التي أثرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وهي تحت المسلمين على الإحسان والمواساة فيما بينهم من أجل أن تسود الأخوة الإسلامية ، ويتضامن المسلمون بعضهم مع بعض حتى لا تحدث أي ثغرة فيما بينهم يلج منها خصومهم وأعداؤهم .

٥ - حقوق الأخوة الإسلامية

ووضع الإسلام منهجاً فذاً للأخوة الإسلامية ألزم المسلمين بمراعاته ، وهو مما يوجب تماسكهم واتحادهم ، وقد تضافرت الأخبار في بيانه ، ونذكر بعضها :

١ - قال الإمام أمير المؤمنين : «لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ ثَلَاثُونَ حَقًّا لَا بَرَاءَ لَهُ مِنْهَا إِلَّا بِأَدَائِهَا أَوْ الْعَفْوِ عَنْهَا: يَغْفِرُ زَلَّتُهُ ، وَيَرْحَمُ عَثَرَتَهُ ، وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ، وَيَقْبِلُ عَثَرَتَهُ ، وَيَقْبَلُ مَعْدِرَتَهُ ، وَيَرُدُّ غَيْبَتَهُ ، وَيُدِيمُ نَصِيحَتَهُ ، وَيَحْفَظُ خُلَّتَهُ ، وَيَزْعِي ذِمَّتَهُ ، وَيَعُودُ مَرَضَهُ ، وَيَشْهَدُ مِيتَتَهُ ، وَيَجِيبُ دَعْوَتَهُ ، وَيَقْبَلُ هَدِيَّتَهُ ، وَيُكَافِي صِلَتَهُ ، وَيَشْكُرُ نِعْمَتَهُ ، وَيُحْسِنُ نُصْرَتَهُ ، وَيَحْفَظُ حَلِيلَتَهُ ، وَيَقْضِي حَاجَتَهُ ، وَيُنْجِحُ مَسْأَلَتَهُ ، وَيَسْمَتُ عَطْسَتَهُ ، وَيُرْشِدُ ضَالَّتَهُ ، وَيُرْدُّ سَلَامَهُ ، وَيَطِيبُ كَلَامَهُ ، وَيَبْرِئُ إِنْعَامَهُ ، وَيَصَدِّقُ أَقْسَامَهُ وَيُؤَالِي وَلِيَّهُ ، وَلَا يُعَادِيهِ ، وَيَنْصُرُهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ، فَأَمَّا نُصْرَتُهُ ظَالِمًا فَبِرْدُهُ عَنْ ظُلْمِهِ ، وَأَمَّا نُصْرَتُهُ مَظْلُومًا فَبِعَيْنَتِهِ عَلَى أَخْذِ حَقِّهِ ، وَلَا يَسْلِمُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، وَيُحِبُّ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مَا يُحِبُّهُ

(١) الكافي: ١٨٩/٢ ، الحديث ٧.

(٢) الكافي: ٢٠٠/٢ ، الحديث ٤. وسائل الشيعة: ٣٧٢/١٦ ، الحديث ٢١٧٩٤.

لِنَفْسِهِ ، وَيَكْرَهُ لَهُ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ .

ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام :

« سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَدْعُ مِنْ حُقُوقِ أَخِيهِ شَيْنًا فَيُطَالِيَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقْضَى لَهُ عَلَيْهِ » ^(١) .

ولو رعى المسلمون فيما بينهم هذه الحقوق وطبقوها على واقع حياتهم لكانوا من أرقى أمم العالم تكاملاً وتهذيباً واتحاداً .

٢ - قال معلّى بن خنيس للإمام الصادق عليه السلام : « ما حقّ المسلم على المسلم ؟

فقال عليه السلام : « سَبْعُ حُقُوقٍ وَاجِبَاتٌ ، مَا مِنْهُمْ إِلَّا هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ .

جعلت فداك ، ما هي ؟ .

يَا مُعَلَّى ، إِنِّي عَلَيْكَ شَفِيقٌ ، أَخَافُ أَنْ تُضَيِّعَ وَلَا تَحْفَظَهَا وَتَعْلَمَ وَلَا تَعْمَلَ .

فأكّد له المعلّى على رعايتها وحفظها .

فقال عليه السلام له : « أَيْسَرُ حَقٍّ مِنْهَا أَنْ تُحِبَّ لَهُ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَتَكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ

لِنَفْسِكَ ، وَالْحَقُّ الثَّانِي : أَنْ تَجْتَنِبَ سَخَطَهُ ، وَتَتَّبِعَ مَرْضَاتَهُ ، وَتُطِيعَ أَمْرَهُ .

وَالْحَقُّ الثَّالِثُ : أَنْ تُعِينَهُ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ وَلِسَانِكَ وَيَدِكَ وَرِجْلِكَ .

وَالْحَقُّ الرَّابِعُ : أَنْ تَكُونَ عَيْنَهُ وَدَلِيلَهُ وَمِرْآةَهُ .

وَالْحَقُّ الْخَامِسُ : أَنْ لَا تَشْبَعَ وَيَجُوعُ ، وَلَا تَزُورَ وَيَظْمَأُ ، وَلَا تَلْبَسَ وَيَعْرَى .

وَالْحَقُّ السَّادِسُ : أَنْ يَكُونَ لَكَ خَادِمٌ وَلَيْسَ لِأَخِيكَ خَادِمٌ ، فَوَاجِبٌ أَنْ تَبْعَثَهُ فَيُغْسِلَ

ثِيَابَهُ، وَيُضْلِحَ طَعَامَهُ، وَيُمَهِّدَ فِرَاشَهُ.

وَالْحَقُّ السَّابِقُ: أَنَّ تَبَرَّ قَسَمَهُ، وَتُجِيبَ دَعْوَتَهُ، وَتَعُودَ مَرِيضَهُ، وَتَشْهَدَ جَنَازَتَهُ، وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ لَهُ حَاجَةٌ تُبَادِرُهُ إِلَى قَضَائِهَا، وَلَا تُلْجِئُهُ إِلَى أَنْ يَسْأَلَكَهَا، وَلَكِنْ تُبَادِرُهُ. فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ وَصَلْتَ وَلَا يَتَكَ بِوَلَايَتِهِ، وَوَلَا يَتَهُ بِوَلَايَتِكَ»^(١).

٣ - قال الإمام الصادق عليه السلام: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَشْبَعَ وَيَجُوعَ أَخُوهُ، وَلَا يَزُورَ وَيَعْتَطِشَ أَخُوهُ، وَلَا يَكْتَسِي وَيَعْرِى أَخُوهُ، فَمَا أَعْظَمَ حَقَّ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ».

أَحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَإِذَا اخْتَجْتَ فَسَلُهُ، وَإِنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، كُنْ لَهُ ظَهْرًا فَإِنَّهُ لَكَ ظَهْرٌ، إِذَا غَابَ فَاحْفَظْهُ فِي غَيْبَتِهِ، وَإِذَا شَهِدَ فَرُزُهُ وَأَجَلُهُ وَأَكْرَمُهُ فَإِنَّهُ مِنْكَ، وَأَنْتَ مِنْهُ، فَإِنْ كَانَ عَلَيْكَ عَاتِبًا فَلَا تُفَارِقْهُ حَتَّى تَسْأَلَ سَمِيحَتَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ فَاحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى، وَإِنْ ابْتَلَى فَاعْصُدْهُ، وَإِنْ تَمَحَّلَ فَأَعِنْتَهُ»^(٢).

وأعطت هذه الوثيقة منهجاً حياً للرابطة الإسلامية التي تجمع ما بين المشاعر والعواطف، وتوجب اشتراك المسلمين في السراء والضراء.

٤ - سأل أبو المأمون الحارثي الإمام الصادق عليه السلام عن حقِّ المؤمن على المؤمن فقال عليه السلام:

«إِنَّ مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْمَوَدَّةُ لَهُ فِي صَدْرِهِ وَالْمُوَاسَاةُ لَهُ فِي مَالِهِ، وَالْخَلْفُ لَهُ فِي أَهْلِهِ، وَالنُّصْرَةُ لَهُ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، وَإِنْ كَانَ نَافِلَةً»^(٣) فِي الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ

(١) أصول الكافي: ١٦٩/٢، الحديث ٢.

(٢) أصول الكافي: ١٧٠/٢، الحديث ٥.

(٣) النافلة: الغنيمة.

غَائِباً أَخَذَ لَهُ بِنَصِيحِهِ، وَإِذَا مَاتَ فَالزَّيَارَةُ لِقَبْرِهِ، وَأَنْ لَا يَظْلِمَهُ، وَلَا يَغْشَهُ، وَأَنْ لَا يَخُونَهُ، وَأَنْ لَا يَخْذُلَهُ، وَأَنْ لَا يَكْذِبَهُ، وَأَنْ لَا يَقُولَ لَهُ أَفٌّ»^(١).

٥ - ووفد رجل من الشيعة على الإمام الصادق عليه السلام فسأله الإمام عن إخوانه فأحسن الرجل الثناء عليهم وبالغ في تركبتهم، فقال له الإمام:

«كَيْفَ عِبَادَةُ أَغْنِيَانِهِمْ لِفَقَرَانِهِمْ؟

فقال الرجل: قليلة.

فقال عليه السلام: كَيْفَ مُشَاهَدَةُ أَغْنِيَانِهِمْ لِفَقَرَانِهِمْ؟

قال الرجل: قليلة.

فقال عليه السلام: كَيْفَ صَلَاةُ أَغْنِيَانِهِمْ لِفَقَرَانِهِمْ فِي ذَاتِ أَيْدِيهِمْ؟

قال الرجل: إنك لتذكر أخلاقاً قل ما هي عندنا.

فقال عليه السلام أخيراً: كَيْفَ تَزْعُمُ هَؤُلَاءِ شِيعَةً؟»^(٢).

(١) أصول الكافي: ١٧١/٢، الحديث ٧.

(٢) أصول الكافي: ١٧٣/٢، الحديث ١٠.

عوامل التفرقة والتخريب

ونهى الإسلام عن جميع الأسباب التي تؤدي إلى تباعد المسلمين واختلاف كلمتهم ، وتشنت شملهم ، وفيما يلي بعضها :

١ - التقاطع

وحذر الإسلام من التباعد والتقاطع ، وكره ذلك لأنه موجب إلى انتشار العداوة والكراهية فيما بين المسلمين ، وتظافرت الأخبار في النهي عن ذلك ، وهذه بعضها :

١ - قال رسول الله ﷺ : « أَيُّمَا مُسْلِمَيْنِ تَهَاجَرَا فَمَكَّنَّا ثَلَاثًا لَا يَصْطَلِحَانِ إِلَّا كَانَا خَارِجَيْنِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا وَلَايَةٌ ، فَأَيُّهُمَا سَبَقَ الْكَلَامَ لِأَخِيهِ كَانَ السَّابِقُ إِلَى الْجَنَّةِ يَوْمَ الْحِسَابِ »^(١).

٢ - قال ﷺ : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ »^(٢).

٣ - قال الإمام الصادق عليه السلام : « لَا يَفْتَرِقُ رَجُلَانِ عَلَى الْهَجْرَانِ إِلَّا اسْتَوْجَبَ أَحَدُهُمَا الْبَرَاءَةَ وَاللَّعْنَةَ ، وَرُبَّمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ كِلَاهُمَا .

فقال له معتب : جعلني الله فداك ، هذا للظالم ، فما بال المظلوم ؟

فقال عليه السلام : « لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو أَخَاهُ إِلَى صِلَتِهِ ، وَلَا يَتَغَامَسُ لَهُ عَنْ كَلَامِهِ ، سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : إِذَا تَنَارَعَ اثْنَانِ فَسَبَّ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فَلْيَرْجِعِ الْمَظْلُومُ إِلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَقُولَ لَهُ : أَيْ أَخِي ، أَنَا الظَّالِمُ حَتَّى يَقْطَعَ الْهَجْرَانِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَكَمَ

(١) أصول الكافي: ٣٤٥/٢ ، الحديث ٥ .

(٢) أصول الكافي: ٣٣١/٢ .

عَدَلْ يَأْخُذْ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ»^(١).

وهنا كوكبة أخرى من الأخبار وهي تشجب التقاطع ، وتحزّم التباعد ، وتدعو إلى الألفة والمودة وسيادة المحبة والاخوة بين المسلمين .

٢ - عدم التعاون

ونهى الإسلام بشدة عن عدم التعاون ، وكره ذلك لأنه يوجب التباعد والتقاطع فيما بين المسلمين ، وقد تظافرت الأخبار في ذلك ، وهذه بعضها :

١ - قال الإمام الباقر عليه السلام : « مَنْ بَخِلَ بِمَعُونَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ وَالْقِيَامِ فِي حَاجَتِهِ إِلَّا ابْتُلِيَ بِالْقِيَامِ بِمَعُونَةٍ مَنْ يَأْتُمُّ عَلَيْهِ وَلَا يُوجِرُ » .

٢ - قال الإمام أبو الحسن موسى عليه السلام : « مَنْ قَصَدَهُ رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِهِ مُسْتَجِيرًا فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ فَلَمْ يُجِزْهُ ، بَعْدَ أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ فَقَدْ قَطَعَ وَلَايَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »^(٢) .

٣ - قال الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه : « مَا لَكُمْ تَسْتَخْفُونَ بِنَا ؟

فانبرى إليه رجل خراساني من شيعته فقال له : معاذ الله أن نستخفّ بك أو بشيء من أمرك .

فقال عليه السلام : إِنَّكَ أَحَدُ مَنْ اسْتَخَفَّ بِنَا .

فقال الرجل : معاذ الله أن أستخفّ بك .

فقال عليه السلام : « وَيَحَكَ ! أَلَمْ تَسْمَعْ قُلَانَا وَنَحْنُ بِقُرْبِ الْجُحْفَةِ يَقُولُ لَكَ : اخْمِلْنِي قَدَرِ مِيلٍ فَقَدْ وَاللَّهِ أُعْيِئْتُ ، فَمَا رَفَعْتَ لَهُ رَأْسًا ، لَقَدْ اسْتَخَفَفْتَ بِهِ ، وَمَنْ اسْتَخَفَّ بِمُؤْمِنٍ فَبِنَا

(١) أصول الكافي : ٣٤٤/٢ ، الحديث ١ .

(٢) المصدر المتقدم : ٢٤٧ .

اسْتَحَفَّ، وَضَيَّعَ حُرْمَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وتواترت الأخبار بهذا الصدد، وهي تحذّر المسلمين وتنهاهم عن عدم التعاون؛ لأنه موجب لانقطاع المودة والألفة فيما بينهم.

٣- الإيذاء والتحقير

وحَرَّمَ الإسلام إيذاء المسلم وتحقيره؛ لأنه موجب لتصديع شمل المسلمين وتفريق كلمتهم، وهما من أنواع الظلم والاعتداء اللذين حَرَّمهما الإسلام، وقد أعلن القرآن الكريم حرمة الإيذاء.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ نَابَذَنِي مَنْ أَذَلَ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «لَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَخِيهِ بِنَظَرَةٍ تُؤْذِيهِ»^(٤).

وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «مَنْ اسْتَذَلَّ مُؤْمِنًا وَاحْتَقَرَهُ لِقَلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ وَلِفَقْرِهِ شَهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ»^(٥).

وقال عليه السلام أيضاً: «مَنْ حَقَرَ مُؤْمِنًا مُسْكِينًا أَوْ غَيْرَ مُسْكِينٍ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَاقِرًا لَهُ مَا قَاتَا حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ مَحَقَرَتِهِ إِثْبَاهً»^(٦).

(١) وسائل الشيعة - كتاب الحج: ٢٧٢/١٢. الكافي: ١٠٢/٨.

(٢) الأحزاب ٣٣: ٥٨.

(٣) أصول الكافي: ٣٥١/٢ - ٣٥٢، الحديث ٦.

(٤) الجامع الصغير: ٥٧٣/٢.

(٥) أصول الكافي: ٣٥٣/٢، الحديث ٩.

(٦) أصول الكافي: ٣٥١/٢، الحديث ٤.

إِنَّ احْتِقَارَ النَّاسِ وَإِذْءَاهَهُمْ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنَ النُّفُوسِ الْأَثِيمَةِ الَّتِي لَا إِيمَانَ لَهَا بِالْقِيمِ
الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَا بِالْمَثَلِ الْعَلِيِّ ، وَالْإِسْلَامُ بِدَوْرِهِ يَنَاهِضُ هَذِهِ الصِّفَةَ الَّتِي تَقْضِي عَلَى
أَوَاصِرِ الْمَحَبَّةِ وَالْإِخَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ .

٤ - الارهاب والتخويف

وَحَرَّمَ الْإِسْلَامُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَخِيفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ
وَقَطَعَ عَرَى الْإِتِّصَالِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَوَاتَرَتْ الْأَخْبَارُ فِي تَحْرِيمِ ذَلِكَ .
يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ نَظَرَ إِلَى مُسْلِمٍ نَظْرَةً يُخِيفُهُ بِهَا مِنْ غَيْرِ حَقٍّ أَخَافَهُ اللَّهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ »^(١) .

وَقَالَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام : « مَنْ رَوَّعَ مُؤْمِنًا بِسُلْطَانٍ لِيُصِيبَهُ مِنْهُ مَكْرُوهٌ فَلَمْ يُصِبهْ فَهُوَ
فِي النَّارِ ، وَمَنْ رَوَّعَ مُؤْمِنًا بِسُلْطَانٍ لِيُصِيبَهُ مِنْهُ مَكْرُوهٌ فَأَصَابَهُ فَهُوَ مَعَ فِرْعَوْنَ وَآلِ فِرْعَوْنَ
فِي النَّارِ »^(٢) .

وَتَظَاهَرَتْ الْأَخْبَارُ بِهَذَا الْمَضْمُونِ لِأَجْلِ الْحِفَافِ عَلَى تَضَامُنِ الْمُسْلِمِينَ وَشِيعَةِ
الْمَحَبَّةِ وَالْوَثَامِ فِيمَا بَيْنَهُمْ .

٥ - السباب

وَمِنْ عَوَامِلِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَابُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وَقَدْ نَهَى الْإِسْلَامُ عَنْ
ذَلِكَ حَتَّى مَعَ أَعْدَائِهِمْ فِي الدِّينِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾^(٣) .

(١) الإسلام منهج مشرق للحياة : ٢١ .

(٢) أصول الكافي : ٣٦٨/٢ .

(٣) الأنعام : ١٠٨ .

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ طَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: أَوْصِنِي، فَكَانَ مِمَّا أَوْصَاهُ أَنْ قَالَ لَهُ: لَا تَسُبُّوا النَّاسَ فَتَكْسِبُوا الْعَدَاوَةَ»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «سَبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ، وَفِتْنَالُهُ كُفْرٌ، وَأَكْلُ لَحْمِهِ - بِعَنِي غَيْبَتِهِ - مَعْصِيَةٌ، وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ»^(٢).

وقال الإمام أبو جعفر عليه السلام: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَطْعَنُ فِي عَيْنِ مُؤْمِنٍ إِلَّا مَاتَ شَرًّا مِيتَةً، وَكَانَ قَمِينًا أَنْ لَا يَرْجِعَ إِلَى خَيْرٍ»^(٣).

إنَّ السباب والشتم والقذف من الصفات الممقوتة التي توجب نشر العداوة وذيوع الكراهية والبغضاء بين المسلمين.

٦- تَتَبُّعُ الْعَثَرَاتِ وَالْعُيُوبِ

وأحاط الإسلام الوحدة الاجتماعية بسياجٍ وافيٍّ، فحرَّم جميع ما يوجب تصديعها، فنهى عن تتبُّعِ عثرات الناس، ونشر عيوبهم؛ لأنَّه ممَّا يسبِّبُ التفرقة ويثير الكراهية في صفوف المسلمين، وقد حرَّم القرآن الكريم ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

وقال الرسول الأعظم ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُسَلِّمْ بِقَلْبِهِ، لَا تَتَّبِعُوا عَثَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَثَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَثَرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ

(١) أصول الكافي: ٣٦٠/٢، الحديث ٣.

(٢) أصول الكافي: ٣٥٩/٢ - ٣٦٠.

(٣) أصول الكافي: ٣٦١/٢، الحديث ٩.

(٤) النور: ٢٤: ١٩.

عَثَرَتْهُ فَصَحَّهُ»^(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ أَسْرَعَ الْخَيْرِ ثَوَاباً الْبِرُّ، وَإِنَّ أَسْرَعَ الشَّرِّ عِقَابُهُ الْبَغْيُ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ عَيْباً أَنْ يَنْصُرَ مِنَ النَّاسِ مَا يَغْمَى عَنْهُ، وَأَنْ يُعَيِّرَ النَّاسَ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ تَرْكُهُ، وَأَنْ يُؤْذِيَ جَلِيسَهُ بِمَا لَا يُغْنِيهِ»^(٢).

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى الْكُفْرِ أَنْ يُوَاجِهُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ عَلَى الدِّينِ فَيُحْصِي عَلَيْهِ زَلَّاتِهِ لِيَعْبِرَهُ بِهَا يَوْماً مَا»^(٣).

لقد حذّر الإسلام المسلمين من الاتّصاف بهذه الصفة الشريرة التي تؤدي إلى انهيار المجتمع وتفلّل وحدته.

٧ - الانتقاص

ومن عوامل التفرقة والانحطاط أن يذمّ المسلم أخاه أو ينتقصه ويحقّره، فقد أُرث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَذَاعَ فَاحِشَةً كَانَ كَمُبْتَدِلِهَا، وَمَنْ عَيَّرَ مُؤْمِناً بِشَيْءٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَرْكَبَهُ»^(٤).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ بِمَا يُؤْتِبُهُ أَبَتُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٥).

لقد حرّم الإسلام ذلك حفظاً على وحدة المسلمين وتضامنهم.

(١) أصول الكافي: ٣٥٥/٢.

(٢) أصول الكافي: ٤٦٠/٢.

(٣) أصول الكافي: ٣٥٥/٢، الحديث ٦.

(٤) أصول الكافي: ٣٥٦/٢، الحديث ٣.

(٥) أصول الكافي: ٣٥٦/٢، الحديث ٤.

٨ - التفاخر

ونهى الإسلام عن التفاخر بالأنساب وغيرها؛ لأنه موجب لتصدع الاخوة الإسلامية. إنَّ النَّاسَ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ ، لَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشر:

«فَانْتَهُمُ (النَّاسَ) صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ ، أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ»^(١).

وقد وفد عقبة بن بشير الأسدي - وهو من شخصيات العرب - على الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام فأخذ يعرّفه بنفسه قائلاً: أنا عقبة بن بشير الأسدي ، وأنا في الحساب الخضم من قومي ، فانبرى إليه الإمام فردّ عليه هذا المنطق الرخيص قائلاً:

« مَا تَمُنُّ عَلَيْنَا بِحَسَبِكَ إِنْ اللَّهَ رَفَعَ بِالْإِيمَانِ مَنْ كَانَ فِي النَّاسِ يُسَمَّوْهُ وَضِعاً إِذَا كَانَ مُؤْمِناً وَوَضَعَ بِالْكَفْرِ مَنْ كَانَ النَّاسُ يُسَمَّوْهُ شَرِيفاً إِذَا كَانَ كَافِراً فَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى »^(٢).

إنَّ الإسلام - بكلِّ اعتزاز وفخر - قد ناهض جميع الوسائل التي توجب تصدع الوحدة الاجتماعية وتشتت شمل المسلمين ، وحرّم كلّ ما يوجب فرقتهم كالغيبة والنميمة والسخرية والسعاية ، وقد عرضنا إلى ذلك بالتفصيل في بحثنا عن التربية النفسية .

بلورة الوعي السياسي

وتعنى التربية الوطنية في الإسلام ببلورة الوعي السياسي ، وفتح الذهنية العامة

(١) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(٢) أصول الكافي: ٣٢٨/٢ ، الحديث ٣.

أمام الأحداث الاجتماعية ، فقد فرض الإسلام على المسلمين التدخل الإيجابي في جميع الشؤون الوطنية ، وألزمهم بالسهر على مصالحهم ، ورعاية شؤونهم ، فليس لأي أحد أن يقف موقفاً سلبياً أمام مصلحة البلاد العامة ، أو يهمل شأناً من شؤونها ، أو يقف موقف المتفرج أمام ما تمنى به الأمة من أحداث وخطوب .

فقد أثر عن الرسول الأعظم ﷺ أنه قال : «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١) .

وقال ﷺ : «مَنْ أَصْبَحَ وَهُوَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ»^(٢) .

وفي هذا الحديث أروع الدلالة على ضرورة نشر الوعي السياسي بين المسلمين ، وربط نهضتهم الفكرية والاجتماعية بهذا الواقع المشرق .

ومن أهمّ برامج الوعي الوطني والاجتماعي في الإسلام قيام المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه يصون كرامتهم ، ويحميهم من عنف الباغين ، ويعيشون في ظلال إبطاره وادعين آمنين لا يضام منهم أحد ولا تهدر فيه كرامتهم ، ويكونون في أعلى مستويات النهوض الاجتماعي ..

وقد عرضنا بصورة مفصلة إلى ذلك في كتابنا «النظام السياسي في الإسلام» ، ودلّلنا على ارتباط السياسة بالإسلام ، وأنها جزء من واقعه وجوهره ، وبدونها يفقد فعالياته وذاتيّاته .

(١) عوالي اللثالي: ١/١٢٩ ، الحديث ٣ . بحار الأنوار: ٣٨/٧٢ ، الحديث ٣٦ .

(٢) الكافي: ٢/١٦٣ ، الحديث ١ و: ٥/١٦٤ . وسائل الشيعة: ١٦/٣٣٦ ، الحديث ٢١٧٠١ .

الواجبات الوطنية

وللوطن واجبات وحقوق يجب مراعاتها والقيام بها ، ونستعرض - بإيجاز - بعضها .

١ - الدفاع عن الوطن وحمايته من الغزو الخارجي ، وهو واجب مقدس قد فرض على جميع المسلمين ، فيجب عليهم أن يهتّبوا للجهاد ، ويقوموا بدور إيجابي لمكافحة الغزو ، وحماية وطنهم من الاحتلال ، ويتأكد وجوب الدفاع على الأقرب فالأقرب للبلد التي تتعرض للاحتلال ، ولو كانت هذه الروح المشرفة سائدة عند المسلمين لما تمكّنت العصابة اليهودية من احتلال فلسطين ، وإقامة دويلة لهم في قلب الوطن الإسلامي ، وهي تعمل على إبادة جميع معالم الحياة الإسلامية في المناطق المحتلة ، كما تسوم أهلها سوء العذاب قتلاً وتشريداً وسجناً ، وأمريكا تمدها بأحدث الأسلحة ، وتقدّم لها جميع المعونات الاقتصادية والعسكرية ، وتعزّز جميع إجراءاتها التي تنتهك فيها حقوق الإنسان .. فمتى يستقيظ العرب والمسلمون إلى التضامن فيما بينهم لإزالة هذا الخطر الذي يهدّد حياتهم بالفناء والدمار .

٢ - أن يقف حياته على خدمة الوطن ، وأن يتفهّم بعمق الأحداث التي يمني بها ، والمسؤولية في هذه الجهة تقع بالدرجة الأولى على السلك الدبلوماسي والسياسيين ، فإنّهم مسؤولون عن ذلك ، وعمّا تتطوّر به البلاد اقتصادياً واجتماعياً .

٣ - تأدية الواجب الذي عليه تجاه أمته ووطنه على أكمل وجه .

٤ - تشجيع المصنوعات الوطنية وتفضيلها على غيرها من المصنوعات الأجنبية .

٥ - مقاطعة جميع السلع والمنتجات التي ترد من الدول المعادية ، فإنّه خير وسيلة لكبح جماح المعتدين والطامعين .

٦ - العمل بجِد في القضايا المصيرية للوطن ، والإيمان بها من عدم ربطه بالتحالف الاستعماري ، أو التلاعب في مقدّراته الاقتصادية ، وكلّ ما يمسّ استقلال

الوطن وأمنه وحرّيته .

هذه بعض الحقوق والواجبات التي ينبغي للمسلمين القيام بها تجاه وطنهم .

معالم التربية الاجتماعية

والشيء الذي يعيننا - ونحن في نهاية المطاف - أن نعطي صورة موجزة عن معالم التربية الاجتماعية في الإسلام ، وإن أشرنا إلى بعض مظاهرها في البحوث السابقة ، إلاّ أنّها لم تكن ملّمة بها ، وفيما يلي ذلك :

١ - نبذ الخلافات الفكرية ، وإزالة التعصّب البغيض بين صفوف المسلمين ، فإنّ ذلك من أهمّ الواجبات المقدّسة ، خصوصاً في هذا العصر الذي يجتاز فيه العالم الإسلامي أهمّ مرحلة حاسمة في تاريخه ، فيجب العمل على وحدة الصفّ أمام هذه الزوابع المذهلة والفتن الجارفة .

إنّ الإسلام - بكلّ اعتزاز وفخر - يناهض التعصّب ، ويدعو إلى التسامح والتساهل مع أهل الأديان السماوية .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ^(٢) .

وقد وضع الرسول الأعظم ﷺ أصول هذا التسامح وقواعده فقال ﷺ : « مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ بِغَيْرِ طِبِّ نَفْسِهِ ، فَأَنَا حَاجِبُهُ »

(١) آل عمران ٣ : ٦٤ .

(٢) الممتحنة ٦٠ : ٨ .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وأمر ﷺ أن لا يجبر أحد من النصارى واليهود على ترك دينه ، وقد كتب إلى عامله على اليمن بذلك .. وقد اعترف كبار علماء النصارى بهذه الروح الأصلية والخلق العظيم الذي قابلهم به الإسلام.

يقول البطريك « عسو يمشو ميايه » : « إنَّ العرب الذين مكَّنهم الربُّ من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون ، إنَّهم ليسوا أعداءً للنصرانية ، بل يمتدحون ملَّتنا ، ويوقِّرون قدسيَّتنا ، ويمدِّون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا »^(٢).

ويقول السير « توماس آرنولد » : « لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأوَّل للهجرة ، واستمرَّ هذا التسامح في القرون المتعاقبة ، ونستطيع بحقُّ أن نحكم أنَّ القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنَّما اعتنقته عن اختيار وإرادة حرَّة ، وأنَّ العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح »^(٣).

إنَّه ليس شيء أبعد عن منطق الإسلام وهديه من التعصُّب والتنافر بين أهل الأديان . يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ورائد نهضته في عهده لمالك الأستر :

« فَإِنَّهُمْ (النَّاسُ) صِنْفَانِ : إِمَّا أَحَبَّ لَكَ فِي الدِّينِ ، أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ »^(٤).

ومن قال بأنَّ الإسلام يدعو إلى الكراهية والبغض لأهل الأديان فقد ظلم الإسلام وجافى الواقع ، وابتعد عن القصد .

(١) سنن أبي داود : ٤٥/٢ ، الحديث ٣٠٥٢ . السنن الكبرى : ٢٠٥/٩ .

(٢) أهل الذمَّة في الإسلام .

(٣) الدعوة إلى الإسلام / السير توماس آرنولد : ٥١ .

(٤) نهج البلاغة : ٤٢٧ .

يقول المصلح الكبير الإمام المغفور له الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء :

يَقُولُونَ إِنَّ الدِّينَ فَرَقَ بَيْنَنَا فَيَا لَكَ مِنْ حَيْفٍ وَيَا لَكَ مِنْ ظُلْمٍ
إِلَيْكُمْ بَنِي الْأَدْيَانِ دَعْوَةٌ مُخْلِصٌ دَعَوْتُكُمْ فِيهَا إِلَى الشَّرِّ الْجَمِّ
إِلَى السَّلَامِ فَبَيْنَكُمْ وَالتَّسَامُحِ بَيْنَكُمْ فَيَا حَبَّذَا شَرُّ التَّسَامُحِ وَالسَّلَامِ^(١)

إن خير وسيلة لنهضة المسلمين وارتقاءهم دعوتهم إلى التآلف ، ورجوعهم إلى هدي القرآن الكريم ، الذي عقد أواصر المحبة والإخاء .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(٢) .

وقد جعل الإسلام هذه الرابطة أقوى وأعز من رابطة النسب والدم ، وألزم برعايتها والحفاظ عليها صيانة لمجد المسلمين وكرامتهم .

٢ - أن يتغذى المسلم بأخلاق دينه العظيم ، ويتعود عليها لتشرق بها نفسه ، وتسمو ذاته ، وهي في رحابها تشمل الصلاح ، والتقوى ، والصدق ، والأمانة ، والعفة ، والوفاء ، والسلوك الطيب ، والكلام الحسن ، والنشاط في العمل ، وقوة الإرادة ، والاعتماد على النفس ، واحترام الناس والاعتراف بحقوقهم ، وتقدير جهود العاملين والمخلصين ، والعمل على إصلاح الفاسد من أحوال الناس ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، ومشاركة الناس في أحزانهم وأفراحهم ، والعطف على الضعيف والفقير ، إلى غير ذلك من معالي الأخلاق التي جاء بها الإسلام ، والتي لو سار عليها المسلمون وطبقوها على واقع حياتهم لكانوا قادة الأمم وهداة الشعوب .

٣ - أن يعرف المسلم ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات ليسعى في الحصول على حقوقه والقيام بأداء ما عليه من الواجبات الاجتماعية ، وبهذا يقضي

(١) الدين والإسلام : ١/٢ .

(٢) الحجرات : ٤٩ : ١٠ .

على السلوك المنحرف ، ويجعل الفرد مندمجاً في مجتمعه ، ومؤمناً بأهداف أمته وقيمها .

إنّ الأصل في التربية الاجتماعية الحقّة أن تعدّ الفرد للحياة في مجتمعه بما له ، وما فيه من قواعد ونظم وتقاليد ، وأن تمكّنه من أن يتكيّف مع مجتمعه في إطار هذه القواعد حتّى يعمل معهم ويكون عضواً منتجاً في الهيئة الاجتماعية ، وهذا ما ينشده الإسلام في تربيته الاجتماعية .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن التربية الوطنية والاجتماعية .

التربية العسكرية

وعالج الإسلام بدقة وعمق موضوع التربية العسكرية ، فوضع أرقى المناهج ، وأكثرها أصالة ووعياً في تربية الجيش ، وتنمية قدراته ، ومهارة تدريبه ، وقد أولاه أعظم العناية ومزيد الاهتمام ؛ لأنه حصن الأمة ، ودرعها الواقى ، وسياجها المنيع الذي تحتمي به عند الكوارث والخطوب ، وقد وصفه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأروع وصف وأبلغه .

يقول عليه السلام : « فَالْجُتُوذُ ، يَأْذِنُ اللَّهُ ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ ، وَزَيْنُ الْوَلَاةِ ، وَعِزُّ الدِّينِ ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ »^(١).

وقد أناط الإمام عليه السلام حياة الأمة ، وجميع مقوماتها بقوتها الدفاعية ، فعليها يبنى مجد الأمة وعزتها ، ويشاد استقلالها .

يقول الأستاذ الفكيكي معلقاً على هذه الجمل الرائعة من كلمات الإمام عليه السلام :

« انظر رعاك الله إلى هذه الجمل الأربع كم حوت من أسرار بليغة ، ومقاصد عجيبة ، ولا يدهشك قلبي إذا قلت لك : إنها جمعت فأوعت جميع فصول كتاب (المشير فولوندر وف) الألمانى ، وهو (الأمة في الحرب) ، بل جميع فصول مدونات الموسوعة الحربية الأوربية من ألمانية وإيطالية وانكليزية وفرنسية في هذا العصر ، والوضع الدولي الحالي في الغرب والشرق ، ونضال الحكومات في يومنا أكبر دليل وشاهد على ما نقول »^(٢).

وعلى أي حال ، فإنَّ أهمَّ ما يعنى به الإسلام تربية الجيش تربية فذة تجعله فريداً في سلوكه ووعيه ، ويندفع بإيمان وإخلاص في الذبِّ عن وطنه ، وقد استطاع

(١) نهج البلاغة : ٩٠/٣ . بحار الأنوار : ٦٠٣/٣٣ .

(٢) الراعي والرعية : ٩٣ .

الجيش الإسلامي - في العصور الإسلامية الأولى - بحكم تربيته أن يحقق أروع الانتصارات ، ويفلل قواعد الشرك والإلحاد ، ويحقق المعجزة مع قلة عدده وندرة جهازه الحربي ، فقد كان سلاح الجيش الإسلامي في واقعة بدر جريد النخل في حين أن جيوش الشرك كانت تملك أحدث الأسلحة الحربية في ذلك الوقت ، وقد انهزمت تلك القوى الغادرة وولّت الأدبار ، لقد كان صمود المسلمين ، وتسليحهم بقوة الإيمان هو السبب في انتصارهم في تلك الواقعة الخالدة في دنيا الإسلام .

أمّا الصور الحية من برامج التربية الإسلامية للجيش فهي :

١ - الصومود في الحرب

إنّ أهمّ ما يعنى به الإسلام أن يتمتع الجيش بروح عالية من الصومود وقوة الإيمان ، ووحدة الصفّ ، واتحاد الكلمة ، وعدم الاختلاف الذي هو السبب في الفشل والاندحار .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ﴿٢﴾ .

وأوصى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولده محمد بن الحنفية يوم الجمل بالصمود والثبات ، وقد جاء في وصيته :

(١) الأنفال : ٨ و ٤٥ و ٤٦ .

(٢) الصفّ : ٦١ .

« تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلْ! عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ ^(١). أَعْرِ اللَّهَ جُمُجْمَتَكَ. تَذ ^(٢) فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ. اِزْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ ^(٣)، وَغَضَّ بِبَصَرِكَ ^(٤)، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّضْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ^(٥) ».

٢- الإيمان ونكران الذات

والتربية العسكرية في الإسلام تغرس الإيمان ونكران الذات في نفس الجيش قادة وجنوداً، وقد كانت هذه الظاهرة العظيمة هي السمة للجيش الإسلامي في عصوره الأولى، فكان الجندي إذا استشهد يرى وهو جذلان مسروراً وهو يقول: « هذا يوم الفرح والسرور »، ويرجع من لم يستشهد وهو كئيب مثقل بالهموم والآلام، وبلغ من عظيم إيمانهم أنهم كانوا يتهافون على الموت في سبيل الله، فقد روى المؤرخون أن أنس بن النضر مرَّ يوم أحد على جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وقد كفوا أيديهم عن القتال؛ لأنهم ظنوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، فقال لهم متعجباً: « فما تصنعون بالحياة بعده، فقوموا على ما مات عليه »، ثم اندفع ببسالة إلى ساحة الحرب يقاتل حتى قُتل، ووجدوا فيه سبعين ضربة وطعنة، وما عرفته أخته إلا بحسن بنانه ^(٦).

(١) الناجذ: أقصى الأضراس.

(٢) تذ: أمر من وتد قدمه في الأرض، أي: ثبتها.

(٣) أمره بأن يحدق ببصره أقصى القوم فعل الشجاع المقدم غير المكتثر والمبالي؛ لأنَّ الجبان تضعف نفسه، ويخفق قلبه، فيقصر بصره، ولا يرتفع طرفه، ويكون ناكس الرأس، غضيض الطرف.

(٤) أمره أن يغض بصره عن بريق السيوف ولمعان الدروع لئلا يدهش من ذلك.

(٥) نهج البلاغة: ٢٤١/١.

(٦) الكامل في التاريخ / ابن الأثير: ٦٤/٢.

وروى المؤرخون أنَّ جندياً من المسلمين في عهد القائد مسلمة بن عبد الملك بات يحرس نقباً أحدثه المسلمون في سور العدو، فما أصبح الناس إلّا وقد أتمّ ذلك الجندي ذلك النقب، فتمكّن الجيش الإسلامي من النفوذ منه، ولمّا تمّ النصر للمسلمين نادى القائد على صاحب هذا العمل العظيم ليجازيه ويجزل له الصلة، فلم يخرج إليه أحد، وجاء ذات ليلة ذلك الجندي فقال له: «أنا أعرف صاحب النقب، وهو يشترط عليك ألا تذكروا اسمه في صحيفة إلى الخليفة ولا إلى أحد سواه، وأن لا تسألوا عن اسم أبيه أو اسم قبيلته وأن لا تأمروا له بمكافأة».

فأجابه القائد إلى ذلك فقال له: «أنا صاحب النقب»، ثم ودّعه وانصرف عنه.

بهذه الروح العالية، وبهذا الإيمان العظيم استطاع الجيش الإسلامي أن يحقق أروع الانتصارات، فأقام في العالم امبراطورية إسلامية عظمى لم يشاهد التاريخ في جميع مراحلها مثله في عزّتها وقوّتها ومنعتها، وقد سرى الإسلام إلى تلك الأمم بسرعة الضوء، فبادرت إلى اعتناقه عن إيمان ووعي لأنّها وجدت في ظلاله العزة والكرامة والحماية من الاستغلال والاثرة.

٣- عدم الرغبة في الدنيا

ومن برامج التربية العسكرية في الإسلام تغذية الجيش بالزهد في الدنيا، والتماس الأجر والثواب من الله، فقد روى المؤرخون أنّه لمّا أقبل الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص إلى فتح مصر أرسل (المقوقس) حاكم مصر رسلاً إلى المعسكر الإسلامي ليصفوا له حالته، فمكثوا فيه يومين ثمّ عادوا إليه فقال لهم:

كيف رأيتموهم؟

فانبروا يحدثونه بإعجاب وإكبار عن هدي ذلك الجيش وإيمانه قائلين:

رأينا قوماً الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحبّ إليهم من الرفعة

ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم .

فذهل المقوقس ، ومشت الردعة بأوصاله ، وانطلق يقول :

لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد .

وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يطلب منه أن يوفد له جماعة يفاوضهم في أمر الصلح فأوفد إليهم كوكبة من أصحابه على رأسهم عبادة بن الصامت ، وكان فاحم اللون ، فلمّا مثلوا عنده قال لهم :

نحّوا عنيّ هذا الأسود ، وقدّموا غيره يكلمني !

فانبروا جميعاً بلسان واحد ، وهم يشيدون بفضل عبادة ويفخرون به قائلين :

إنّ هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيّدنا وخيرنا والمقدّم علينا ، وإنما نرجع إلى قوله ورأيه .

واستولت الحيرة عليه ، فانطلق يقول لهم :

كيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغي أن يكون دونكم ؟ !

فأجابوه جميعاً وهم مصرّون قائلين :

إنّه وإن كان أسوداً كما ترى فإنّه من أفضلنا موضعاً ، وأفضلنا سابقاً وعقلاً ورأياً ، وليس ينكر السواد فينا .

ولم يجد المقوقس بداً من أن يفتح حديثه مع عبادة فقال له :

تقدّم يا أسود وكلمني برفق .

فانبرى إليه عبادة قائلاً :

قد سمعت مقاتلتك ، وإنَّ فيمن خلّفت من أصحابي ألف رجل كلّهم مثلي وأشدّ سواداً مِنّي ، وأفطع منظرأً ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مِنّي وأنا قد وليت وأدبر شبابي ، وإنّي مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوّي ، لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنّما رغبتنا وهمّتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوّاً ممّن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا حاجة للاستكثار منها ، إلّا أنّ الله عزّ وجلّ قد أحلّ ذلك لنا ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلّا درهماً ؛ لأنّ غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسدّ بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وإنّ كان أحدنا لا يملك إلّا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذه ^(١) بيده ويبلغه ما كان في الدنيا ؛ لأنّ نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء ، إنّما النعيم والرخاء في الآخرة ، بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا ، وعهد إلينا ألا تكون همّة أحدنا في الدنيا إلّا ما يمسك جوعته ، ويستتر عورته ، وتكون همّته وشغله في رضاء ربّه وجهاد عدوّه .

وحفل هذا الكلام بأروع ألوان التربية العسكريّة التي يتنكّر فيها الجندي والقائد لجميع المصالح الماديّة الضيّقة ، فلم يقصدوا بجهادهم وتضحيتهم إلّا وجه الله والتماس الأجر في الدار الآخرة ، وما عدا ذلك فهو فضول لم يعنوا به ، كما أعرب عن اتّحاد الجيش بجميع فصائله وكتائبه ، وأنّهم على فكرة واحدة قد تبلورت بهدي الإسلام وروحه .. ولَمّا سمع المقوقس هذه الكلمات النيرة التي تحمل طابع الحقّ انبرى إليه قائلاً :

« أيّها الرجل الصالح ، قد سمعت مقاتلتك ، وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتم إلّا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتهم عليه إلّا لحبّهم الدنيا ،

(١) في المقرئ : « واقتصر على هذا الذي بيده » .

ورغبتهم فيها.. وقد توجّه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممّن لا يبالي أحدهم من لقي، ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقفوا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقتلكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم ورجالكم، ونحن نرقّ عليكم لضعفكم وقتلكم، وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار، ولخليفتم ألف دينار فتقبضونها، وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به..».

وانطلق القائد الملهم كالمارد الجبار غير حافل بتهديد المقوقس، ولا بقوى الروم التي توعده بها، وهو يؤكّد العزم والتصميم على مناجزته إذا لم يدخل في حظيرة الإسلام أو يؤدّي الجزية هو وقومه عن يد وهم صاغرون، وقد جرت له أحاديث رائعة مع خصمه حافلة بالبطولات والإقدام والتضحية في سبيل الله^(١).

وعلى أي حال، فإنّ هذه البادرة تكشف عن مدى عمق التربية العسكرية في الإسلام، وأنها فريدة في معطياتها، وبما تمدّد به القائد والجندي من الصلابة في الحقّ ونكران الذات.

٤ - الحذر من الأعداء

وتجهد التربية الإسلامية على تغذية الجيش باليقظة والحذر من تحركات العدو، وأن يكونوا دوماً على أهبة الاستعداد، وتحت الإنذار.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً﴾^(٢).

(١) النجوم الزاهرة: ١١/١ - ١٥.

(٢) النساء ٤: ٧١.

وقد حذرت الآية من الخمول والإهمال ؛ لأنّ في ذلك تمكيناً للعدو على الهجوم والاحتلال ، ولو كانت الجيوش العربيّة على يقظة واستعداد لما حدثت نكسة ٥ حزيران التي أذلت العرب والمسلمين .

إنّ أماننا في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا عدوّ ماكر خبيث يتحجّن الفرص للانقضاض على العالم العربي ، وإبادة جميع قواه ، وخلفه دولة البغي أميركا تعزّزه وتدفعه إلى المزيد من الاحتلال لإضعاف الأمة العربيّة والسيطرة على منابع ثرواتها واقتصادها ، فيجب على الجيوش العربيّة أن تكون يقظة وحذرة من المكيدة والغدر ، وأنّ تجاهد بإخلاص وإيمان لتمحوا عن شعوبها عار الهزيمة والذلّ .. وبهذا العرض السريع ينتهي بنا الحديث عن التربية العسكريّة ، وبقي علينا أن نشير إلى تربية الشرطة ، فإنّها تتصل اتصالاً وثيقاً بهذا الجهاز .

تربية الشرطة

الشرطة هي العصب الحساس في البلاد ، والأداة الخلقة لحفظ الأمن وصيانة الحقوق ، وعليها تقع المسؤوليّة في اتّخاذ التدابير الوقائيّة لمنع وقوع الجرائم والأحداث ، كما أنيط بها القبض على المجرمين وملاحقتهم ، وتسابق الأمم في الاهتمام بالشرطة ، والعمل على توفير التعليم الفنيّ ، والتدريب والمقدرة لها ، وتحصينها بالضمانات والرخاء حتّى تستطيع القيام بالتبعات الجسيمة الملقاة على عاتقها .. وقد ذكر المعنيّون بشؤون الشرطة التربيّة بعض المناهج بما تتفق مع الأسس الإسلاميّة ، وهي :

١ - حسن الأخلاق

إنّ حسن الأخلاق هي الدعامة لمجد الإنسان وعلى قدر ما يتمتّع بالأخلاق الحسنة تكون قيمته الذاتية ، ومركزه الاجتماعيّ ، فيجب على هذا السلك أن يتّصف

بالأخلاق الرفيعة لينال بذلك ثقة الناس وتقديرهم .

٢ - الشجاعة والإقدام

ومن أبرز الصفات التي يجب أن يتحلّى بها هذا السلك الشجاعة والإقدام ، فإنّهما زينة له ، وعليه أن يكون غير هباب ولا وجل عند القيام بواجبه مهما كان فيه من خطر ليحصل بذلك على رضا ضميره ، وتقدير المجتمع له .

٣ - بذل المساعدة للناس

ومن أهمّ الأمور التي يجب أن تعنى بها الشرطة مساعدة الناس ، وتلبية دعوتهم والقيام فوراً عند حدوث إحدى حالات الطوارئ المفاجئة من إسعاف المصاب بنقله إلى المستشفى حالاً ، وإنقاذ الغرقى ، وإطفاء الحريق وغيرها ، كما أنّ عليهم إرشاد الضالّ ، ومساعدة الضعيف والهرم ، وغير ذلك من الواجبات الاجتماعية .

٤ - حسن التصرف

ينبغي أن يتّصف هذا السلك بحسن التصرف في جميع الأحوال من الحزم في غير عنف ، واللين من غير ضعف ، فلا يشتدّ في المواقف التي يجب فيها اللين ، ولا يلين في موطن الشدّة ، بل يتصرّف في كلّ حال بما يناسبه ليؤدّي بذلك عمله على الوجه المطلوب .

٥ - التأدّب في الإجابة

وإنّ من أهمّ الأمور التي توجب احترام هذا السلك وتقديرهم عند الناس أن يدعّوا للإجابة عن أسئلة المراجعين في كثير من الحزم والحلم واليقظة والتأدّب معهم .

٦- التزام العدل والانصاف

ومن واجبات هذا السلك التزام العدل ، ومقاومة الظلم ، وردّ الحقّ المسلوب إلى صاحبه ، والضرب على أيدي الظالمين والعاثين ، وأن يكون دوماً في جانب المظلومين ؛ لأنه حارس القانون ، وحامي البلاد ، وينبغي أن يربى على أنه ليس هناك حجاب بين دعوة المظلوم وبين الله ، وأنه ليس شيء أحبّ إلى الله من إنصاف المظلوم ، والأخذ بحقه ، وأنّ العدل هو أساس الملك .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ^(١) .

٧- اكتساب ثقة الناس

وعلى هذا السلك أن يعمل على كسب ثقة الناس ، وأن يكون في خدمتهم لا سيّداً عليهم ، مع الاحتفاظ بكرامة منصبه ، والاقتصار على ما خوله القانون له من المسؤوليات والواجبات ، وأن يؤدّي ما عليه بكياسة ، وحسن تصرّف ليوطّد الثقة والتعاون بينه وبين الجمهور حتّى يكون صديقاً له ، وبذلك يعود على الأمن والبلاد بأحسن الثمرات والفوائد .

٨- النزاهة

وينبغي أن تكون النزاهة واسطة عقد الفضائل في جيد هذا السلك فهي صفة يجب أن يتحلّى بها ، ويجب أن يتنزّه عن كلّ ما يخلّ بوظيفته وأن لا يجعل للشيطان عليه سبيلاً .

٩ - الصدق

ومن أهم ما يجب أن تتّصف به الشرطة الصدق ، والاجتناب عن الكذب ، فإنّهما من أعظم الصفات أثراً في إرضاء الضمير وخدمة الناس ، كما أنّ الواجب عليها أداء الشهادة بصدق أمام المحاكم وغيرها ، فإنّ كتمان الشهادة من أعظم المحرّمات في الإسلام .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ ^(١) .

وليس المطلوب منه عند أداء الشهادة إدانة المتهّم بالحقّ والباطل ، فإنّ ذلك ممّا تقرّره المحاكم ، وإنّما المطلوب منه تقرير الوقائع على حالها .

١٠ - الإلمام بمسؤوليّاتهم

إنّ إلمام رجال الشرطة بما عليهم من المسؤوليّات والواجبات ممّا يسهّل عليهم حسن القيام بأعمالهم ، ويباعد بينهم وبين الوقوع في الخطأ ، ويمهّد لهم طريق النجاح في كلّ أعمالهم ، ويجعلهم محلّ الثقة والتقدير عند الجميع .

١١ - التمسك بالدين

ويجب عليهم أن يتمسكوا بالدين ، وأن يتحلّوا بأداب الإسلام وأخلاقه ، التي لو اتّبعها الناس لصلحت أحوالهم ، وما وقعت أي جريمة أو موبقة منهم .

١٢ - تنفيذ الواجب

ويجب عليهم باعتبارهم هم الأداة التنفيذيّة للقضاء أن يؤدّوا مهمّتهم على الوجه المطلوب دون منّ ، وأن يستعملوا الحكمة في تصرّفهم بالأمر ، وأن

لا يستخدموا سلطتهم فيما لا يتصل بعملهم ، وأن يتركوا الأثر الجميل في سلوكهم وأدائهم للواجب .

١٣ - مراقبة الله

ويجب على هذا السلك أن يراقب الله ، فإنه تعالى هو المطلع على الأعمال ، وهو الذي إليه مرجع أمر العباد ، وأن الإخلال بمصالح الناس مما يوجب سخط الله تعالى وعقابه .

١٤ - مكافأة العاملين

وعلى الحكومة أن تمنح الجوائز والمكافأة المالية لكل من يؤدي واجبه من هذا السلك على النحو الأكمل ، فإنّ لذلك الأثر التام في القيام بعملهم وأداء مهماتهم على الوجه المطلوب .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن تربية الشرطة وواجباتها حسب ما ذكره المعنيون بهذه البحوث^(١) .

(١) رعاية الشباب : ١٣٥ - ١٤٥ . نظام الحكم والإدارة في الإسلام : ١٣٧٦ . إدارة الشرطة في الدول الحديثة : ٥/١ .

التربية المهنية

وتهدف التربية المهنية في الإسلام إلى إشاعة التقوى ، والاحتياط في المكاسب بين ذوي المهن ، وتعويدهم على الفضائل والأخلاق الإسلامية ، كما تهدف إلى دفعهم إلى زيادة الانتاج وتنميته ، والمهارة في العمل وتطويره بما يتفق مع ارتقاء الأمة وتطورها في مجالاتها الاقتصادية ، وتحريرها من البؤس والفقر .

لقد قنن الإسلام أروع المناهج التربوية لذوي المهن والعمال ، ونعرض - بإيجاز - بعضها :

١ - النصح والإخلاص

وألزم الإسلام بالنصح والإخلاص في العمل والمهنة ، ففي الحديث : « خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ » ^(١) .

وقال النبي ﷺ : « إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقِنَهُ » ^(٢) .

أما إذا لم ينصح في عمله فإنه لم يظفر بالمال الحلال - الذي هو أئمن شيء - ويكون أكلاً للمال بالباطل ، وينظر إلى مقدار عمله الصحيح فيمنح عليه الأجر ، وبقية العمل الآخر لا أجر له فيه ، وإذا أوجب ضرراً على رب العمل فهو ضامن له ، ومسؤول عنه .

٢ - الاجتناب عن الغش

وحرم الإسلام الغش ، ومنعه منعاً باتاً ، وذلك لما يسببه من الأضرار الاجتماعية

(١) مجمع الزوائد : ٦١/٤ و ٩٨ . العهود المحمدية : ١٢٨ .

(٢) كنز العمال : ٩٠٧/٣ ، الرقم ٩١٢٨ . الجامع الصغير : ٢٨٤/١ ، الحديث ١٨٦١ .

والاقتصادية في البلاد ، وقد تواترت الأخبار في تحريمه ، وهذه بعضها :

- ١ - قال الرسول الأعظم ﷺ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ مُسْلِمًا أَوْ ضَرَّهُ أَوْ مَكَرَهُ »^(١).
- ٢ - قال ﷺ : « مَنْ غَشَّ مُسْلِمًا فِي بَيْعٍ أَوْ شِرَاءٍ فَلَيْسَ مِنَّا ، وَيُخْشَرُ مَعَ الْيَهُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ لِأَنَّ مَنْ غَشَّ النَّاسَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ ».

إلى أن قال :

« وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا (قالها ثلاثاً) ، وَمَنْ غَشَّ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ نَزَعَ اللَّهُ بَرَكَתَهُ رِزْقَهُ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْهِ مَعِيشَتَهُ ، وَوَكَّلَهُ إِلَى نَفْسِهِ ».

- ٣ - قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام لرجل يبيع الدقيق : « إِيَّاكَ وَالْغِشَّ ، فَمَنْ غَشَّ غُشَّ مَالُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَشَّ فِي أَهْلِهِ »^(٢).

- ٤ - قال الإمام أبو الحسن موسى عليه السلام لموسى بن بكير في دينار مغشوش : « أَلْقِهِ فِي الْبَالُوْعَةِ حَتَّى لَا يُبَاعَ بِشَيْءٍ فِيهِ غِشٌّ »^(٣).

إلى غير ذلك من الأخبار التي حرّمت الغشّ ، ونهت المسلمين عنه ، وقد حكم فقهاء المسلمين بثبوت الخيار في الفسخ والإمضاء لمن غشّ في معاملته ، أمّا لو كان الغشّ بإظهار الشيء على خلاف جنسه ونوعه كبيع المموّه على أنّه ذهب أو فضّة ونحو ذلك ، فقد حكموا بفساد المعاملة ، وعدم صحتها .

٣ - تأدية العمل

ويجب على العمّال تأدية العمل في الوقت المقرّر له ، كما يجب عليهم القيام

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ٣٢/١ ، الحديث ٢٦ . تحف العقول : ٤٢ .

(٢) الكافي : ١٦٠/٥ ، الحديث ٤ .

(٣) تهذيب الأحكام : ١٢/٧ ، الحديث ٥٠ .

بتأديته بأنفسهم ، وليس لهم استنابة الغير في تأديته ، فإنَّ العقد كان معهم ، وقد لا تكون عند من استنابوه عنهم المؤهلات الحرفية والمهنية ، فيوجب الإضرار بالعمل ، إلا أن يكون بينهم وبين رب العمل اتفاق على استنابة الغير في العمل أو مشاركته معهم ، فيجوز ذلك لقوله ﷺ : « الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ »^(١).

٤ - المحافظة على أدوات الانتاج

وعلى ذوي المهن والعمال المحافظة على آلات العمل وأدوات الانتاج وعدم تعريضها للتلف ؛ لأنها وديعة عندهم ، ويجب عليهم الحفاظ عليها ، بالإضافة إلى أن تعريضها لذلك ممّا يضرّ بالاقتصاد العام و برّب العمل .

٥ - تنمية مصادر الثروة

وعلى العمال وذوي المهن أن يعملوا بوعي وإخلاص على تنمية مصادر الثروة والحفاظ عليها ؛ لتوقّف الحياة الاقتصادية عليها ، ومن المستحيل أن تتطوّر أمة في مجالاتها الاقتصادية وغيرها ما لم يكن هناك وعي عامّ عند العمال بضرورة الحفاظ على مصادر ثروات الأمة وتنميتها .

٦ - التخصّص المهني

إنّ التخصّص المهني ممّا يدفع إلى تطوّر البلاد ، وزيادة الانتاج ، وازدهار الاقتصاد ، والدولة مسؤولة عن تشجيعه ، وبعث الراغبين في ذلك إلى المعاهد لتخصّص في المهن ، سواء أكان ذلك في داخل بلادها أم في خارجها ، وأن تقوم بالإتفاق على من يرغب في ذلك ، فإنّه من أهمّ مسؤولياتها الاجتماعية .

(١) تهذيب الأحكام : ٣٧١/٧ ، الحديث ١٥٠٣ . الاستبصار : ٢٣٢/٣ ، الحديث ٨٣٥ .

٧- النشاط والحزم

وتعنى التربية المهنية في الإسلام ببث روح النشاط والحزم في نفوس العمّال وذوي المهن ، وتحذيرهم من الكسل والخمول ، فإن ذلك موجب لشلّ الحركة الاقتصادية ، وتجميد طاقات الإنسان ، وقد ورد في الأدعية الماثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام التعوّد منه ، فقد جاء في بعض أدعيتهم :

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالسَّأَمِ وَالْفَقْرَةِ وَالْمَلَلِ»^(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام لبعض أصحابه : «إِيَّاكَ وَالْكَسَلَ وَالضُّجَرَ فَإِنَّهُمَا مِفْتَاحُ كُلِّ سُوءٍ ، إِنَّهُ مَنْ كَسَلَ لَمْ يُوَدِّ حَقًّا ، وَمَنْ ضَجَرَ لَمْ يَضْبِرْ عَلَى حَقٍّ»^(٢).

وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لبعض ولده : «إِيَّاكَ وَالْكَسَلَ وَالضُّجَرَ ، فَإِنَّهُمَا يَمْنَعَانِكَ مِنْ حَظِّكَ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٣).

إنّ الإسلام يكره الكسل ، ويحرّم البطالة ، ويمقت صاحبها لأنها تؤدّي إلى الفقر والبؤس وشيوع الحاجة بين الناس ، وكان المسلمون في عصورهم الأولى لا يألفون الراحة ، ولا يخلدون إلى السكون ، وقد أقبلوا على العمل .

وقد عرض الإمام الصادق عليه السلام سيرتهم المشرقة على أصحابه قائلاً لهم :

«لَا تَكْسَلُوا فِي طَلَبِ مَعَائِشِكُمْ ، فَإِنَّ آبَاءَنَا كَانُوا يَرْكُضُونَ فِيهَا وَيَطْلُبُونَهَا»^(٤).

(١) صحيح البخاري: ١٥٩/٧.

(٢) بحار الأنوار: ١٧٥/٧٥، الحديث ٣١. تحف العقول: ٢٩٥.

(٣) فروع الكافي: ٨٥/٥، الحديث ٢. وسائل الشيعية: ٥٩/١٧، الحديث ٢١٩٧٧.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ١٥٧/٣، الحديث ٣٥٧٦. وسائل الشيعية: ٦٠/١٧، الحديث

إنَّ الإسلام - بكلِّ اعتزاز وفخر - يدعو إلى الجدِّ والنشاط والانطلاق في ميادين العمل من أجل حياة تسودها الرفاهية ويعمُّها الرخاء .. وقد تحدّثنا عن هذه الظاهرة بالتفصيل في كتابنا « العمل وحقوق العامل في الإسلام » ، كما بحثنا فيه بدقّة وشمول عن منهج العمل ولزومه ، والحقوق الرائعة التي فرضها الإسلام للعمال والفلاحين .

٨ - الابتعاد عن الحرام

ومن أبرز برامج التربية المهنية في الإسلام غرس روح التقوى والصلاح في نفوس العمال وذوي المهن ، وإبعادهم عمّا حرّمه الله من المآثم والمفاسد ، فإنّ ما يظفرون به من الرواتب والأجور إنّما هو بعد العناء والجهد فيجب عليهم أن ينفقوه على نفوسهم وعوائلهم ، فإذا أنزلقوا في ميادين اللهو والدعارة فإنّه من المحتّم أنّهم ينفقون ما عندهم من نقود في الطرق المحرّمة ، وبذلك يتركون شبح الفقر جائماً على بيوتهم ، ويعرّضون عوائلهم وأطفالهم إلى البؤس والحرمان .

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن التربية المهنية في الإسلام ، وبها تكون نهاية المطاف من هذا الكتاب ، وقبل أن أطوي الحديث أودّ أن أنبّه على شيء من الخير أن لا يضيع ، وهو أنّ هذا الكتاب إنّما هو صورة موجزة عن النظام التربوي في الإسلام ، ولا أزعّم أنّي قد ألفت بجميع مناهجه ، أو أحطت بجميع شؤونه ، فذاك أمر لا تسعه هذه البحوث التي تعمّدت فيها الإيجاز .. إنّ النظام التربوي الإسلامي مبنيّ على أحدث الوسائل التي تنتهي إليها سير الحضارة الإنسانيّة ، وهو باستطاعته أن يغيّر السلوك العامّ ، ويوجد في النفوس مناعة ضدّ الأوبئة الأخلاقية ، وغيرها من مركّبات النقص ، وقد حقّق على مسرح الحياة في العصور الإسلاميّة الأولى أفضل المعطيات ، فخلق رجالاً من أفضل من عرفتهم الإنسانيّة في جميع مراحلها اندفاعاً نحو الحقّ ، وصلابة في العدل ، وثقة بالله ، وتفانياً في سبيل الله حتّى استطاعوا أن

ينقذوا شعوب الأرض من ظلمات الجهل إلى واحات المعرفة ، ومن الجمود والخمول إلى ميادين النشاط والانتاج .

وأني في ختام هذا الحديث أرى من الواجب أن أشيد بما أبداه سماحة العلامة الكبير أخي الشيخ هادي القرشي رحمه الله من الملاحظات في هذا الكتاب ، وما أولاني به سماحته من العطف واللفظ بما اعتز به ، فله الفضل عليّ في جميع ما كتبه وألفه ، فلولا رعايته لم أستطع أن أستمّر في هذا العمل الشاقّ المجهد ، فجزاه الله عني خير ما يجزي أخاً عن أخيه ، وأثابه على ذلك إنّه تعالى وليّ ذلك والقادر عليه .

وأني أرجو بكلّ إخلاص من الذين يجدون فيه من الهفوات والنقد أن يتفضلوا عليّ بذلك عسى أن نصل جميعاً إلى خدمة الحقّ ، إنّه تعالى وليّ القصد والتوفيق .



المَصَادِرُ



حرف الألف

- اتجاهات في التربية والتعليم جورج ا. فريلند
أثر الأسرة والمجتمع في الأحداث منظّمة اليونسكو
أحاديث عن التعليم في أمريكا هنري تشو
أحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين القابسي
إحياء العلوم الغزالي
آداب المريدين ابن عربي
آداب المعلّمين حسن حسني عبدالوهاب
الإدارة التربويّة
إدارة الشرطة في الدول الحديثة محمود السباعي
أدب الإملاء والاستملاء عبدالكريم بن محمّد السمعاني
أدب دنيا والدين الماوردي
آراء افلاطون وأرسطو
آراء وأحاديث ساطع الحصري
الإرشاد ياقوت
أرض السحر شفيق جبري

البيان والتبيين الجاحظ

البيت والمدرسة محمود الجومرد

حرف التاء

تاج العروس السيد محمد مرتضى الحسيني

تاريخ بغداد الخطيب البغدادي

تاريخ التربية عبدالله مشنوق

تاريخ التربية الإسلامية أحمد شبلي

تاريخ التعليم ميجر باسو

التبشير والاستعمار مصطفى الخالدي وعمر فروخ

تجربة التربية الإسلامية محمد سعيد رمضان

تحف العقول الحسن بن علي الحراني

التخطيط للتربية والتعليم محمد علي حافظ

تدريب الراوي النووي

تذكرة الحفاظ الذهبي

تذكرة السامع ابن جماعة

التربية الأخلاقية اميل دوركايم

التربية الأساسية المهاتما غاندي

التربية الإسلامية محمد عطية الأبراشي

تربية الإنسان فرويل

التربية الجنسية سير بين

التربية الحديثة صالح عبدالعزيز

التربية عند العرب خليل طوطح

التربية في الإسلام أحمد فؤاد الأهواني

التربية لعالم حائر سيررشتود لنحستون

التربية وسيكولوجية الطفل

التربية والصراع الاجتماعي ميريل كيرتي
 تطوّر النظريّة التربويّة صالح عبدالعزيز
 التعلّم

تعليقة على سفينة البحار الإمام محمد حسن آل كاف الغطاء
 التعليم عند القابسي الأهواني
 تعليم الكبار والتربية الأساسيّة عايف حبيب وجماعة
 التعليم ومعنى الحياة محمد أحمد بغوته
 التفكير فريضة إسلاميّة العقّاد
 التفكير الفلسفي الإسلامي روبرت ميلكان
 التكامل في الإسلام أحمد أمين
 التكيف النفسي مصطفى فهمي
 تهذيب الأحكام الشيخ الطوسي
 تهذيب الأخلاق ابن مسكويه

حرف الناء

ثروة شعوب آدم سميث

حرف الجيم

جامع الأخبار
 جامع بيان العلم ابن عبدالبرّ
 جامع السعادات محمد مهدي نراقي
 الجامع في التربية العامّة روينه
 الجامع الكبير الترمذي
 جريدة المؤيّد المصريّة
 جعفر بن محمد عبدالعزيز سيّد الأهل

الجمهورية افلاطون

حرف الحاء

الحضارة الإسلامية آدم متز

حق الناس في التربية والتعليم جان بياجه

حقوق الإنسان محمد الغزالي

حياة الإمام الحسن عليه السلام المؤلف

حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام المؤلف

حرف الخاء

خصال الصدوق الصدوق

الخلق الكامل محمد أحمد جاد المولى

حرف الدال

دائرة المعارف محمد فريد وجدي

دراسات مقارنة للمناهج وهيب سمعان

دراسة في تنظيم التعليم في مصر إسماعيل محمود القباني

الدر النضيد الغزي

الدعوة إلى الإسلام تومان آرنولد

الديمقراطية والتربية جون ديوي

الدين والإسلام الإمام محمد حسين آل كاشف الغطاء

ديوان أبونواس أبو نواس

ديوان الشريف الرضي الرضي

حرف الذال

الذريعة المحقق آغا بزرك الطهراني

حرف الراء

الراعي والرعية توفيق الفكيكي

رعاية الشباب	علي حلمي
روح تربية والتعليم	محمد عطية الأبراشي
روح الدين الإسلامي	عفيف عبدالفتاح طيارة
روح الصلاة في الإسلام	عفيف عبدالفتاح طيارة
الروضة	الشهيدان
رياض الصالحين	محيي الدين النووي
الرياض النضرة	المحب الطبري

حرف السين

سر انحلال الأمة الإسلامية	محمد سعيد العرفي
سنن ابن ماجة	ابن ماجة
سنن البيهقي	البيهقي

حرف الشين

شرح النهج	ابن أبي الحديد

حرف الصاد

صحيح البخاري	البخاري
صحيح الترمذي	الترمذي
صحيح مسلم	مسلم
الصحيفة السجادية	الإمام زين العابدين عليه السلام

حرف الضاد

ضرب الكلم	أكبرآبادي

حرف الطاء

طب الأئمة	عبدالله الزيات
طب الإمام الرضا	الإمام الرضا عليه السلام
طبقات الشافعية	السبكي

الطبقات الكبرى ابن سعد
 طب النبي
 الطفل بين الوراثة والتربية محمد تقي الفلسفي

حرف العين

العادة السرية
 العدالة الاجتماعية سيد قطب
 العفاف بين السلب والإيجاب محمد أمين زين الدين
 عقلي وعقلك سلامة موسى
 علم الاجتماع محمد عاطف
 علمتني نخبة أقلام من الشرق والغرب
 علم السياسة ارسطاطاليس
 علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية
 علم النفس التربوي زكي صالح
 علم النفس في الحياة ماندر
 العلم يدعو للإيمان كريس موريسون
 العمل وحقوق العامل في الإسلام المؤلف
 عوامل التربية علي عبد الواحد وافي
 عيون الأخبار ابن قتيبة

حرف الغين

الغارة على العالم الإسلامي ا.ل. شاتليه

حرف الفاء

فتوح البلدان البلاذري
 فرائد الأصول الشيخ الأنصاري
 فروع الكافي الكليني

- فنّ التعليم جلبرت هایت
 فهرست ابن نديم ابن النديم
 فهرست الطوسي الشيخ الطوسي
 في التربية والإرشاد محمد محمد عطية

حرف القاف

- القرآن والطب الحديث محمد الخليلي
 قوة الإرادة اويسون سويث ماردن

حرف الكاف

- كراسات فلسفية لينين
 كشف الظنون الحاج خليفة
 الكنى والألقاب الشيخ عباس القمي
 كيف تساعد أبنائك في المدرسة ماري فرانك

حرف اللام

- لسان العرب ابن منظور

حرف الميم

- المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ستالين
 مجالات في علم النفس مصطفى فهمي
 المجتمع الإنساني
 مجلة أقلام مقال لمحمود شيت خطّاب
 مجلة العربي أحمد زكي
 مجلة المجلات مقال لجون سيمون
 مجلة المختار (عدد ١٩٥٦/٤ تحت عنوان أقوال مأثورة)
 مجلة النار مقال للكتابة آني رودر
 مجلة الهلال (عدد ١٩٥٧/٥)

مجمع البيان	الطبرسي
المحاسن	ابن شدّاد
محاضرات الأدباء	الراغب الاصفهاني
مختصر جامع بيان العلم	
مدخل الشرع الشريف	
المدونة	الإمام مالك
المذنبون الصغار	
مستدرک الوسائل	المحدّث النوري
مسند أبي داود	ابن داود
مسند أحمد	أحمد بن حنبل
مشكلات أطفال اليوميّة	دغلاس ثوم
معارف	ابن قتيبة
معاني الأخبار	الشيخ الصدوق
المعبد	العاموي
مفتاح السعادة	طاش كبرى زاده
مقدمات ابن رشد	ابن رشد
مقدمة	ابن خلدون
مقدمة كتاب لودفيج فيورباخ	انجلز
مكارم الأخلاق	الطبرسي
المكاسب	الشيخ الأنصاري
من أمالي الإمام الصادق عليه السلام	محمد الخليلي
من لا يحضره الفقيه	محمد بن علي القمي
منهاج ال صالحين	الإمام الحكيم
موت فيلبه	

حرف النون

- النجوم زاهرة ابن تغري بردي
- نحو تربية إسلامية حرة أبو الحسن الندوي
- نحو تربية إسلامية خيرة
- نظام الحكم والإدارة في الإسلام المؤلف
- النظام السياسي في الإسلام المؤلف
- النظام الشيوعي ماهر نسيم
- نظرية العلاقة الجنسية في القرآن الكريم مهدي الأصفي
- نظم القلادة البكري
- نهج البلاغة محمد عبده
- نهج التعليم البويكاني
- نهج حديث في أصول التربية وطرق التدريس حامد عبدالقادر

حرف الواو

- الوثيقة ابن عبدون
- الوجيز في الإسلام والطب شوكت الشطي
- وسائل الشيعة الحرّ العاملي
- الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية جورج شهلا وجماعة
- وفيات الأعيان ابن خلكان



مُحتَوَايَاتُ الْكِتَابِ

٧	الإهداء
٣٥ - ٩	تقديم
٢١	١ - تغيير المناهج التعليمية
٢٤	٢ - التبشير المسيحي
٢٦	٣ - المدارس المسيحية
٢٨	٤ - استخدام الطب
٥٦ - ٣٧	معاني التربية وأهدافها
٣٩	المدلول اللغوي
٤٠	المصطلح العلمي
٤٢	المدلول التربوي
٤٤	ضرورة التربية
٤٦	الأهداف التربوية
٤٦	١ - الأهداف الروحية
٤٨	٢ - الأهداف المادية
٤٨	٣ - الأهداف الاجتماعية
٤٩	٤ - النمو الفردي
٥٠	أهداف أخرى

٥١	التربية والتعليم
٥٣	الفلسفة والتربية
٥٣	علم النفس والتربية
٥٤	التطور التربوي
٥٥	التربية والسياسة

عوامل التربية ٥٧ - ١٤٢

٥٩	الوراثة
٥٩	١ - تحديد الوراثة
٦٠	٢ - التحليل العلمي
٦١	٣ - قوانين الوراثة
	تقسيم الوراثة حسب المشابهة :
٦٢	١ - الوراثة بالتحيز
٦٢	٢ - الوراثة بالانتلاف
٦٢	٣ - الوراثة بالاقتران
٦٣	الوراثة والبيئة
٦٤	الإسلام وقانون الوراثة
٧٠	الأسرة
٧١	أهمية الأسرة
٧٢	واجبات الأسرة
٧٦	وظائف الأسرة
٧٨	الأسرة في الإسلام
٨٠	أهمية البيت

٨١	 المناهج المشتركة
٨١	١ - الحبّ والمودة
٨٢	٢ - التعاون
٨٢	٣ - الاحترام المتبادل
٨٣	اضطراب الأسرة
٨٣	مسؤوليات الأب
٨٥	١ - العناية بالأبناء
٨٦	٢ - المساواة بينهم
٨٨	٣ - إشاعة الودّ
٨٩	٤ - اجتناب فحش القول
٩٠	٥ - مراقبة سلوك الأبناء
٩١	٦ - تأديب الأطفال
٩٢	٧ - إبعاد الطفل عن العملية الجنسيّة
٩٣	٨ - إبعاد الطفل عن تناول الحرام
٩٥	مسؤوليّة الأم
٩٦	واجباتها
٩٩	واجبات الأبناء
١٠٢	الأسرة في العصور الحديثة
١٠٤	انعزال المرأة عن التربية
١٠٧	تساؤل نسبة الزواج
١٠٩	الشذوذ الجنسي
١١٣	عقوق الأبناء
١١٤	التحلّل والميوعة

- المدرسة ١١٥
- أهمية المدرسة ١١٥
- التعليم ١١٦
- أهداف التعليم ١١٧
- ١ - تنمية الإدراك ١١٧
- ٢ - نشر الوعي الثقافي ١١٨
- ٣ - التعرف على المشاكل الاجتماعية ١١٨
- واجبات المعلمين ١١٩
- مميزات المعلم ١٢١
- مسؤولية المعلم ١٢٣
- الاهتمام بالأسرة التعليمية ١٢٥
- الاهتمام بالطلاب ١٢٥
- فشل التعليم ١٢٦
- ١ - إهمال الأخلاق ١٢٦
- ٢ - إهمال حسن السلوك ١٢٨
- ٣ - التعليم المجرد ١٢٩
- ٤ - التعليم المختلط ١٣١
- ٥ - تناقض التعليم ١٣٤
- البيئة ١٣٥
- ١ - أهمية البيئة ١٣٦
- ٢ - مسؤوليتها ١٣٦
- ٣ - استقرارها ١٣٧
- ٤ - أنواعها ١٣٧

- الأول: البيئة الطبيعية ١٣٨
- الثاني: البيئة الاجتماعية ١٣٨
- ٥ - البيئة في الإسلام ١٣٨
- ٦ - في العصور الحديثة: ١٤١

التخطيط الثقافي في العمليّات التربويّة الحديثة ... ١٤٣ - ١٤٧

- المنهج التعليمي في الغرب ١٤٦
- إقصاء الأخلاق ١٤٧
- المناهج التعليميّة في المستعمرات ١٤٩
- التدمير الشامل ١٥٢
- إقصاء الإسلام ١٥٢
- فرض لغة المستعمرين ١٥٤
- إضعاف اللغة العربية ١٥٧
- المنهج التعليمي الشيوعي ١٥٩
- ١ - دراسة الدستور ١٦٠
- ٢ - النزعة الإلحادية ١٦٠
- ٣ - الرياضيات ١٦٨
- ٤ - التاريخ ١٦٨
- ٥ - الأدب ١٧٢
- ٦ - الكتب الدراسيّة ١٧٢

التخطيط الثقافي في برامج التربية الإسلاميّة ١٧٥ - ٢٢٧

- فضل العلم ١٧٨

أولاً: في القرآن	١٧٨
ثانياً: في السنة	١٧٩
أقوال مأثورة	١٨١
الأهداف العظيمة	١٨٢
وجوب التعليم	١٨٥
التعليم الإجباري	١٨٧
الأجرة على التعليم	١٨٨
سنّ التعليم	١٩٠
أنواع العلوم	١٩٣
العلوم المحرّمة	١٩٥
السحر	١٩٥
علم النجوم	١٩٦
تعليم المرأة	١٩٧
مكانة المعلّم	١٩٩
المعلّم قدوة	١٩٩
حقوقه	٢٠٠
آدابه ومسؤولياته	٢٠١
طريقة التعليم	٢٠٦
١ - ترك الشدّة	٢٠٦
٢ - العقوبات البدنيّة	٢٠٧
الزجر بالتعريض	٢٠٩
آداب المتعلّمين	٢١٠
ازدهار الحياة العلميّة	٢١٣

٢١٦	مراكز الثقافة الإسلامية
٢١٩	الهجرة لطلب العلم
٢٢١	الاختصاص بالعلوم
٢٢٣	حرية الدراسة
٢٢٣	التدوين والتأليف
٢٢٦	أقول نجم التعليم

التربية الفكرية والنفسيّة في الإسلام .. ٢٢٩ - ٣٣٢

٢٣٢	التربية الفكرية
٢٣٣	التأمل في نظام الكون
٢٣٥	التأمل في خلق الإنسان
٢٣٦	التأمل في الكائنات الحية
٢٣٩	التدبر في أحوال الأمم
٢٤٠	عاقبة المتقين
٢٤١	عاقبة الطغاة
٢٤٣	تحرير الفكر من التقليد
٢٤٣	التثبت في الأمور
٢٤٥	الأخذ بالأحسن
٢٤٥	التربية النفسية
٢٤٦	رقابة الضمير
٢٤٩	الفضائل النفسية
٢٤٩	العفة
٢٥١	وسائل تنميتها

٢٥٢	قوة الإرادة
٢٥٥	ضعف الإرادة
٢٥٥	تنمية الإرادة
٢٥٦	حرية الإرادة
٢٥٦	الشجاعة
٢٥٨	مظاهر الشجاعة
٢٥٨	الشجاعة الأدبية
٢٦٤	الصبر
٢٦٦	أنواعه
٢٦٧	الحلم
٢٦٨	التواضع
٢٧١	العفو والصفح
٢٧٤	الإحسان
٢٧٦	السخاء
٢٧٨	الإيثار
٢٨٠	التعاون
٢٨١	الصدق
٢٨١	في ظلال القرآن
٢٨٢	في ظلال السنة
٢٨٣	ضرورته
٢٨٥	أنواعه
٢٨٥	١ - الأمانة
٢٨٧	٢ - الوفاء بالعهد

٢٨٨	الكلم الطيب
٢٩٠	النزعات الشريرة
٢٩٠	الغضب
٢٩٠	تعريفه
٢٩١	أسبابه
٢٩١	آثاره السيئة
٢٩٢	التحذير منه
٢٩٣	الطرق الوقائية
٢٩٤	الخوف
٢٩٥	أسبابه
٢٩٥	١ - الخوف من الموت
٢٩٦	٢ - الخوف على الرزق
٢٩٧	٣ - الخوف من الأحداث
٢٩٧	بواعثه الحقيقية
٢٩٧	١ - الخوف من الله
٢٩٨	٢ - الخوف من المعصية
٢٩٨	٣ - الخوف من يوم الآخرة
٢٩٩	الحسد
٢٩٩	١ - حقيقته
٣٠٠	٢ - التحذير منه
٣٠١	٣ - بواعثه
٣٠٣	بوائقه
٣٠٤	علاجه

الحرص	٣٠٤
البخل	٣٠٦
حقيقته	٣٠٦
التحذير منه	٣٠٦
الوقاية منه	٣٠٧
الحقد	٣٠٨
الوقاية منه	٣٠٨
العُجب	٣٠٩
آفاته	٣١٠
أنواعه	٣١١
الوقاية منه	٣١٢
الرياء	٣١٢
بواعث الرياء	٣١٤
إبطاله للعبادة	٣١٥
علاجه	٣١٥
الغرور	٣١٦
حقيقته	٣١٦
التحذير منه	٣١٦
الوقاية منه	٣١٨
الكذب	٣١٨
ذمه	٣١٨
أسبابه	٣١٩
أنواعه	٣٢٠

٣٢١		مسوّغاته
٣٢٤		الوقاية منه
٣٢٤		الغيبة
٣٢٥		حقيقتها
٣٢٥		حرمتها
٣٢٦		بواعثها
٣٢٧		كفّارتها
٣٢٧		الوقاية منها
٣٢٨		النميمة
٣٢٨		حقيقتها
٣٢٨		ذمّها
٣٢٩		بواعثها
٣٣٠		الوقاية منها
٣٣٠		السخرية والاستهزاء
٣٣١		الشماتة
٣٣١		اللغو

التربية الصحيّة والرياضية في الإسلام ٣٣٣ - ٣٧٠

٣٣٩		النظافة
٣٤١		الغُسل
٣٤١		الوضوء
٣٤٣		السواك
٣٤٤		الاستنجاء

- نظافة الثياب ٣٤٤
- الحلق وتقليم الأظافر ٣٤٤
- منهج التغذية ٣٤٥
- الاعتدال في الطعام ٣٤٥
- مضغ الطعام ٣٤٧
- برودة الطعام ٣٤٧
- الأغذية المحرمة ٣٤٨
- الميتة ٣٤٨
- الدم ٣٤٩
- لحم الخنزير ٣٤٩
- المنخقة ٣٥١
- الموقوذة ٣٥١
- المرتدية ٣٥١
- النطيحة ٣٥٢
- ما أكل السبع ٣٥٢
- الخمير ٣٥٢
- حرمته ٣٥٢
- أضراره الفظيعة ٣٥٣
- ١ - ضرره على النسل ٣٥٣
- ٢ - ضرره على الدم والقلب ٣٥٤
- ٣ - خطره على الكبد والكليتين ٣٥٥
- ٤ - تأثيره على المعدة ٣٥٥
- وسائل لمكافحته ٣٥٦

٣٥٧	 الشذوذ الجنسي
٣٥٧	 الزنا
٣٥٧	 أضراره
٣٥٧	 ١ - الأمراض الزهرية
٣٥٨	 ٢ - السيلان
٣٥٨	 ٣ - السفلس
٣٥٩	 ٤ - القرحة الرخوة
٣٥٩	 العقاب الصارم
٣٦٠	 اللواط
٣٦١	 العادة السرية
٣٦١	 الطرق الوقائية
٣٦٢	 حرمة وطء الحائض
٣٦٣	 الراحة
٣٦٣	 التربية الرياضية
٣٦٤	 السبق
٣٦٤	 الرماية
٣٦٤	 الصيد
٣٦٤	 الفوائد الرياضية في العبادات
٣٦٥	 ١ - الصلاة
٣٦٨	 ٢ - الصيام
٣٧٠	 ٣ - الحجّ

التربية الوطنية والعسكرية والمهنية ٣٧١ - ٤١٤

- التربية الوطنية والاجتماعية ٣٧٣
- الوحدة الاجتماعية ٣٧٣
- وسائل الوحدة الاجتماعية ٣٧٥
- ١ - التراحم والتعاطف ٣٧٥
- ٢ - التزاور ٣٧٦
- ٣ - السعي في حوائج الناس ٣٧٧
- ٤ - الإغاثة والمواساة ٣٧٩
- ٥ - حقوق الاخوة الإسلامية ٣٨٠
- عوامل التفرقة والتخريب ٣٨٤
- ١ - التقاطع ٣٨٤
- ٢ - عدم التعاون ٣٨٥
- ٣ - الإيذاء والتحقير ٣٨٦
- ٤ - الارهاب والتخويف ٣٨٧
- ٥ - السباب ٣٨٧
- ٦ - تتبع العثرات والعيوب ٣٨٨
- ٧ - الانتقاص ٣٨٩
- ٨ - التفاخر ٣٩٠
- بلورة الوعي السياسي ٣٩٠
- الواجبات الوطنية ٣٩٢
- معالم التربية الاجتماعية ٣٩٣
- التربية العسكرية ٣٩٧
- ١ - الصمود في الحرب ٣٩٨

- ٢ - الإيمان ونكران الذات ٣٩٩
- ٣ - عدم الرغبة في الدنيا ٤٠٠
- ٤ - الحذر من الأعداء ٤٠٣
- تربية الشرطة ٤٠٤
- ١ - حسن الأخلاق ٤٠٤
- ٢ - الشجاعة والإقدام ٤٠٥
- ٣ - بذل المساعدة للناس ٤٠٥
- ٤ - حسن التصرف ٤٠٥
- ٥ - التأدب في الإجابة ٤٠٥
- ٦ - التزام العدل والانصاف ٤٠٦
- ٧ - اكتساب ثقة الناس ٤٠٦
- ٨ - النزاهة ٤٠٦
- ٩ - الصدق ٤٠٧
- ١٠ - الإمام بمسؤولياتهم ٤٠٧
- ١١ - التمسك بالدين ٤٠٧
- ١٢ - تنفيذ الواجب ٤٠٧
- ١٣ - مراقبة الله ٤٠٨
- ١٤ - مكافأة العاملين ٤٠٨
- التربية المهنية ٤٠٩
- ١ - النصيح والإخلاص ٤٠٩
- ٢ - الاجتناب عن الغش ٤٠٩
- ٣ - تأدية العمل ٤١٠
- ٤ - المحافظة على أدوات الانتاج ٤١١

٥ - تنمية مصادر الثروة ٤١١

٦ - التخصص المهني ٤١١

٧ - النشاط والحزم ٤١٢

٨ - الابتعاد عن الحرام ٤١٣

مصادر الكتاب ٤١٥ - ٤٢٤

محتويات الكتاب ٤٢٥ - ٤٤٠